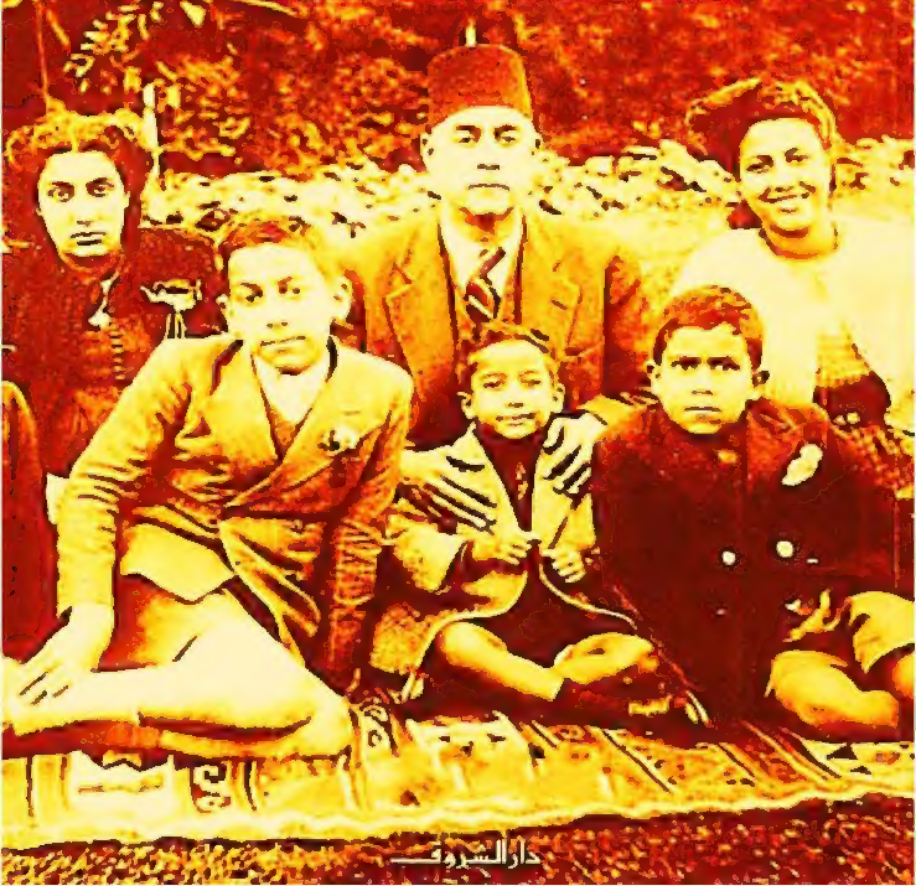


جلال أمين
ماذا علمتني الحياة؟
سيرة ذاتية



ماذا علمتني الحياة؟

الطبعة الأولى مايو ٢٠٠٧
الطبعة الثانية أغسطس ٢٠٠٧

رقم الإيداع ٢١٥٧٢ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولي ٨ ١٥٣٥ ٠٥٠ ٥١٧ ISBN

ميتج مشهور ملتج مشهور

© دار الشروق

٨ شارع منبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون - ٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

جلال أمين

ماذا علمتني الحياة؟

سيرة ذاتية

دار الشروق

المحتويات

٧	الإهداء
٩	تقديم
١٣	مقدمة
٢١	ولادة متسرعة
٢٣	أبي وأمي
٢٣	مذكرات أبي عن أمي
٤١	البيت
٤٩	الإخوة السبعة
٦٥	أصدقاء الصبا
٧٧	مهاج الصبا
١٠٥	الجامعة
١٢٩	البعث
١٤١	البيعة
١٧١	ثورة يوليو
٢١١	عين شعس
٢٣٧	الكويت
٢٦١	لوس أنجلوس
٢٧٥	الجامعة الأمريكية
٢٩٣	«ماذا حدث للمصريين؟»
٣٠٣	«الزرايين الجديد»
٣٢١	المرض والشيخوخة
٣٣٣	الذكريات والنهايات
٣٩٥	كتب أخرى للمؤلف

الوقرة

إلى زوجتي جان،

عرفانا بجميل ثلاثة وأربعين عاما من الحب والصدقة،

والى أولادى: دانية ونامر وأحمد،

وحفيدى: شريف ولارا.

سنة أشخاص ملأوا حياتى بالبهجة.

٢٣ يناير ٢٠٠٧

تهييد

بدأت أكتب هذا الكتاب منذ عشرين عاماً، عندما كنت أقضى سنة فى لوس أنجلوس، أدرس فى إحدى جامعاتها، ووجدت لدى من الوقت ما يزيد على ما أحتاج إليه لتحضير محاضراتى. وكان لدى أيضاً من هدوء اليأس وقلة المشاغل ما يلائم الجلوس لاستعادة ذكريات قديمة. لم أبدأ الكتابة بالترتيب، بل أخذت أكتب عن أى حادث حدث لى وأعتبره مهماً، أو عن أى شخص عرفته يوماً ما وأثر فى نفسى، بحسب ما يلائم مزاجى أو حالتي النفسية وقت الكتابة. وزاد ما كتبت مع مرور الزمن حتى بدا وكأن لدى بالفعل شيئاً يصلح لأن يكون سيرة ذاتية، إذا أحسن ترتيبه واستكمل الناقص فيه، وإذا استعدت الأجزاء التى يظهر لى أنى لم أحسن كتابتها. فعلت كل ذلك دون أن أعطى أى اهتمام لما قد يسببه بعض هذا الذى كتبت من ألم لبعض الأشخاص، الذين ذكرتهم بالاسم، أو الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة، أو ما قد يشير على غضب هذا الصديق القديم أو ذلك، إذا حدث وقرأ الكلام المكتوب عنه.

فلما اكتمل الكتاب أعدت قراءته من هذه الزاوية، فكنت أقارن بين النفع الذى يأتى من ذكر الحقيقة كاملة وبين الألم الذى قد يحدث ذكرها. فوجدت فى معظم الأحيان أن حذف اسم الشخص الذى قد يؤلم ما كتبت، أو إدخال بعض تغييرات طفيفة على الظروف التى تم فيها الحدث الذى أصفه، لا يترتب عليه أى ضرر على الإطلاق. وأن القصة إذا كان لها مغزى، لن يقلل من قيمتها ما إذا كان مرتكب الجرم هذا الشخص أو غيره، أو أن يكون طبيبياً بدلاً من أن يكون مهندساً، أو العكس.

أما الأشخاص الذين أحببتهم، ولم يكن لدى من أذكره عنهم إلا مصائبهم وحسن صيغتهم، فلم أجد أي سبب للاستماع عن ذكر أسمائهم كذلك لم أمتع عن ذكر الأسماء الخفيفة لبعض الأشخاص الذين أوجه إليهم النقد في هذا الكتاب، حتى لو كان نقد فاسيا، إذا كانوا شخصيات عامة، تاريخهم ملك للناس جميعا، كعص السببيين المصريين الذين كان لي معهم قصة أو قصص لا يعرفها عيرى، ورأيت فيها معنى عاما يجعلها حديرة بأن تروى

كنت أتردد أحيانا بين الإبقاء على مقبرة وبين حذفها، إتصورت أن النقد يمكن أن يكون مؤلما، ولكني لم أتردد قط وراء سقد الذي رحتته لشخصية عامة، بل أبقيت على النقد على اعتبار أن المصنف لموقع يبرر ذلك.

ترددت أَيْضاً عند فقرات كثيرة، بين الإبقاء عليها وحذفها، لسبب مختلف تماماً، وهو الخوف من أن أكون قد أطلقت العنان أحيانا للتعبير عن أحداث حدثت لي واعتبرها أنا مهمة، بسب ما أثرت في نفسي وقت حدوثها من مشاعر قوية، وقد لا يهم القارئ في قليل أو كثير ولم يكن لقراره أن أيضاً قرار سهلاً، إذ نوقف على تفديري لدى صر العاري عن قراءة مثل هذه الأجزاء، ولما إذا كان هذا يحدث أو ذلك يحمل أي معنى عام، أم يقتصر أثره على ما أثر في أنا وحدى من مشاعر

كان على أن أجد قرارات كثيرة من هذا النوع أو ذاك، ولكن كان لابد أن أنهى من هذا الكتاب حلاً أو عاخلاً وعندما شعرت بأنه لابد أن يكون لهذا كنه آخر، اعتبرت أني أنعمت الكتاب وقررت إرساله إلى المطبعة، وأنا وثق تماماً من أنه لا يزال هو ما يؤلم وتُغصُّ، وأن هو أيضاً قد زار ثماً من الرجاء أو اهتة ما زالت عن الحد بمضى. لابد لي من أن أرح من القارئ ان يحسني، وهو يقرأ هذا الكلام، بعض الكرم والأريحية ولعلني أستحق بعض الكرم والأريحية لسبب واحد على الأقل وهو أني محت لبقارئ صدوقا ملينا لأسرار لا يصرطس أي شيء إلى فتحه، وإنما دعمني بي إشراف معارفي في الاطلاع على حساده، لا الإعجاب الرائد بالنص

ولا الرعة في امساهاة بعض عظم قمت به ، من مجرد الأمن في أن يخذ بعض لقراء
فيه ما قد يحفف عنهم بعض الأحرار ، أو يريد من فتوتهم على الاستمتاع ببعض
بواعث السرور بل حتى إذا لم يتحقق هذا سمع ولا ذاك ، قد يصد قرءه
الكتاب في شيء واحد على الأقل ، وهو أن يعرف القارئ ، إن لم يكن قد عرف
بعد ، أن الناس أشبه كثيراً ، بعضهم ببعض ، مما قد يطرأ سواء فيما يتعرضون به من
بواعث السرور أو فيما لابد أن يصدفوه ، بين الحين والآخر ، من حية أمل

مقدمة

قرأت مرة قولاً مسوداً إلى بحات مشهور مؤداه أنه كان يفرح هر حاً عطماً صداما بصافد كئلة كسره من الحجر من النوع الذى يستخدمه فى صنع قنابله، إذ كان مجرد أن يراها يتصور التمثال الذى يمكن أن يستخرجه منها . كان يتصور كئلة الحجر وكأنها تحتوى فى أحشائها على هذا التمثال الكامل فى حياله ، وأن كل المطلوب منه هو أن يقتطع بمحوله قطعة صغيرة من الحجر بعد أخرى ، من هذه الكتلة الكبيرة ، ويلقى بها جانباً لكي يفرح هذا لمثال الرائع الكامل فى جوهرها لو كان هذا البصير يعبر عن الحقيقة لكان معناه أن الحيات لا يصعب شيد فى الحقيقة، بل هو فقط يسعد بعض الأشياء لا نصيف شيئاً إلى الأشياء لمجموعة من العمل . بل ينسعى عن غير ضرورى منها ويستبقى فقط ما يستحق البقاء

تذكرت هذا خلاف شرعت فى التفكير فى هذه من هذا الكتاب ، وسألت نفسى عما إذا كنت حادة هذا الحيات كحالاتنا جميعاً . بل حياه كل منا شيه قطعة الحجر فى هذا التصور . لا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى بحث عن تبرير لكتابتها، إذ إن تمثلاً جميلاً يكمن فى حياه كل منا والمطلوب فقط هو الكشف عنه . لا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى أن يكون شخصاً عظيماً أو سياسياً خطيراً ، أو أن يكون قد قابل فى حياته بعض النكراء والمشهورين ، أو أن يكون كاتباً مرموقاً أو من مؤهولاً . إلخ . فكل منا شخص مميز ، بل ومميز جداً ، وبنديه فى مسيرة حياته ما يستحق أن مروى . لمثال الحمل كامل داخل كل قطعة من الحجر ، حتى لو بذت قطعة حجر عادية المطلوب فقط استخراجه لمثال المختبئ من مكانه .

هذا هو ما حاولت أن أفعله فى المصعحات التالية . أن أتمسعى عما يقضى التمثال مما يطمس ملامحه ويحى معزاه . أن أكشف عن هذه الملامح وأستخلص معزاه

ولن يستطيع أن يحكم حكماً صحيحاً على مدى نجاحي أو فشلي إلا القارئ لابد أني تركت بعض التفاصيل أو الأحداث «تافهة» دون أن أصر بها عملياً، ربما لمجرد أنها تتعلق بشخص عزيز عليّ، ليس مثلك ممن لا يعتد به عزيزاً أيضاً أو مهماً لدى قارئ، أو لأن الأحداث تركت أثراً كبيراً في نفسي دون سبب معقول فظننت أن له من الأهمية في ذاته ما ليس له في الحقيقة، فلذا بي أثقل على القارئ بذكر تفاصيله وكان الأجدر بي أن أهمله وأسقطه كما أسقطت غيره. وما أكثر ما حدث خلل حياتي أن شرعت في رواية قصة حدثت بي، أو في الحديث عن شخص كسأله مهماً، ثم تبيّن لي من وجهه من يسمع إليّ أنني أخطأت التقدير، وأن القصة التي كنت أختارها حديرة بأن تروى ليست جديرة بمهد على الإطلاق، وأن لشخص الذي كنت أظنه مهماً ليس مهماً، إلا في نظري.

أرجو ألا تخموي هذه الصفحات عن الكثير من ذلك. ربك في ناحية أخرى لابد أني أخطأت بسبب قلة حظي من المهارة أو الموهبة، فصررت عملياً صرورة أقوى من اللازم بأطحت ما لب أو أدن أو صعب لم يكن هناك أدنى سبب للإطاحة به. معذرة أخرى، لابد أني، بالرغم مني، قد فعلت بعض الأحداث المهمة أو بعض الأشخاص الذين كان يحدر مني أن أذكرهم، مدفوعاً بحظي في التقدير أو تريب حاملية للأهمية بل وربما كان الله معي إلى هذا الإهمال أو هذا الخدش أقطع من هذا وأنشع، وهو حادج لا شعورية لدى في طرده هذه الأحداث أو هؤلاء الأشخاص من ذهني، لإحباط حقيقة محزنة، ليس فقط من الفراء بل وعن نفسي أيضاً.

عسى أي حال، عهده هي حصينة جهدي ومحاولاتي أستطيع أن أوكد أنها لم تحتوي على ما يحالف الحقيقة (أو عسى لأقل لا تحتوي على ما يحالف الحقيقة كما أراها)، ولكن من المؤكد أيضاً أنها لا تحتوي على كل الحقيقة. وليس في هذه العسرة الأخيرة ما يدعوني إلى الاستعجاب ولا إلى الاعتذار فمحصلاً عن أن ذكر الحقيقة كلها مستحيل، فإنه لا ينع بوجي من ورائته، إذ لو قبلت كل الحقيقة لانتهى الأمر بأن أعيد إلى القارئ قطعة كاملة من الحجر لا قيمة لها مالمرة

ولكن لابد مع ذلك من الاعتراف بأن إحدى بعض الحقائق لم تكن دائما دافعة برىء تمامًا. ذلك أن ذكر كل الخسعة لابد أن يطوى على ذكر بعض لقصص، المتعلقة بنفسى أو بعبرى، بما لا أحب ذكره. لقد كتب جوديث آرروس، الكاتبة الإنجليزية الشهيرة والأثير لدى، بصراحة لمعهد «إن كتابا فى السيرة الذاتية لا يمكن أن يصبح محلا للثمة إلا إذا كشف بعض الأشياء التى تشين صاحبها»⁽¹⁾.

وأظن أن لرحلى كان هذا على صواب، كتب كتاب عادة. ولكنى لا أظن أنى نعتت بى هذا المستوى الذى يطلبه. صحيح أنى ذكرت فى هذه الصفحات بعض لاعمال وانشعر التى أحسن الآن منها، ولكنى لم أذكر كل ما أحسنه. ومع هذا فلا أعتقد ان حذف بعض هذه المشاعر و لاعمال قد أصغر كثيرا هذه السيرة الذاتية، كما أن إدراكى لهذا الحذف لا يشكل عبئا ثقيلا لوظيفة على نفسى، وإن كان من الممكن أن يكون ثقل بوظائف على نفسى مد عشرين سنة أو أكثر. ذلك أنى أعرف الآن أنى بوجه عام، لست أسوأ كثيرا من عبرى، كما أنى أعرف كثيرين من الناس من لديهم أكثر بى لدى بكثير بى مستوجب الحفل.

من ناحية أخرى، فقد أشفق على القارئ، وحسب من نفسى، عندما خطر لى أن أنكم عما أعتقد أنه ميرة من، فحذف أكثر هذا الكلام أو يُحيل إلى أنى حذف أكثره. وبما اكتشف القارئ مع ذلك أنه قد بقى من ذلك، فى الصفحات التالية، أكثر بى بيس.



على الرغم من كل ما ذكرته عن قطعة الحجر وامشراح، ثمثال من جوفها إلح، فلا أحسن على لمدارى أنى طوال كتابتى بهذه الصفحات كت أعوذ لأسأل نفسى، امه تلو الأخرى، عما إذا كان لدى فعل أشياء جديدة بأن تروى، وعما إذا كتب قد صدمت فى حينى أحداثا بها من الخبطة بى برر ان أشعل القارئ به.

(1) "Autobiography is only to be trusted when it reveals something disgraceful"

قلت لعيسى أكثر من مرة «ألمست حياتي عادةً جداً مثل آلاف وملايين غير هذا؟»
 قلت إلا الان الأسمر هي أسرة كبيرة الحجم ومتوسطة الحال. أتوه أستاذي من
 الجامعة، أرسله إلى المدرسة ثم إلى الجامعة مثل ملايين آخرين من تلاميذ المدارس
 والجامعات تخرج وسافر إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه في الاقتصاد ثم عاد
 يعمل مدرّسه أستاذاً في الجامعة، وظل أستاذاً حتى سن متقدمه ما العريب أو
 لدهش أو غير المعدي في أي شيء من هذا؟ صحيح أنه يكتب في الصحف وبشر
 بعض الكتب، ولكن ماذا في ذلك؟ ألا يستحسن، والحال كذلك، السكوت، كما
 يسكت آلاف المؤلفين من الناس ولا يشعلون بقية سائر مسيرة حياتهم؟»

خطر لي هذا الخطر أكثر من مرة، ولكني كنت أيضاً أتذكر أحياناً حادثاً قطعياً أو
 مدهشاً حدث لي، مما يجعلني أقول لعيسى «وماذا عن هذا الحادث النقطع أو
 المدهش أو ذلك؟ هل يحدث هذا لكثيرين؟ وحتى لو كان قد حدث مثله لكثيرين،
 ألا ينفذ ما إذا كان يستحق أن يروى أو لا يستحق، على كبره روايته؟»



شيء آخر كذلك يقلقي أثناء كتابة هذا كتاب قرأت مرة حملة حمية للأدوس
 هنكسلي، الروائي الإنجليزي الشهير، يقرر فيها بين القصة الخيالية (fiction) وبين ما
 يحدث بالفعل في الحياة، فيقول: «مشكلة لقصة الخيالية أنها تطوى على معرى
 (أو معنى) أكثر مما ينبغي، يسم ما يحدث بالفعل في الحياة لا يبدو وكأن له معرى
 (أو معنى) على الإطلاق»⁽¹⁾

إذا كان هذا صحيحاً، فكيف لي أن أحفل ما أرويه مما حدث لي حياتي، ومن
 فالت وعرفت من الناس، ومن حري بيهم من علاقات، دا معرى على الإطلاق؟
 كيف يستطيع أي شخص ما أن يستخلص من حياته أي معنى، إذا كانت الحياة
 الواقعة بالفعل حاله من المعنى؟ من الممكن بالطبع أن يستخلص معرى معنا من

(1) "The trouble with fiction is that it makes too much sense. Reality never makes sense"

هذه الحادثة أو تلك، وأن يجد طرافة أو مأساة في واقعة عسها أو عمن عس، وبكن هل يمكن أن نرى قصة حسنة واقعة، كت حسنت بالفعل ودون إضافة مصطفة بقصد التجميل أو إظهارها بمظهر القصة الحياتية، ويكون لها مع هذا نفس الأثر لدى بسنده لما نقرؤه من قصص وروايات وما يشبه هذه على المسرح أو نراه في الأفلام؟ وإذا كن هذا مستحيلا، فما الذي يبرر رواية هذه القصة أصلا إلا مجرد إعجاب بكانت عسها، وتعليقه أهمية على ما حدث له أكبر بكثير مما في الحقيقة؟

أصارع القارئ بأنى لم أفقد الأمل قط وأن أكت فصلا بعد آخر من هذا الكتاب، من أن يكون لقصة التي يحتويها كع حدثت بالفعل، ودون أى تجميل. معرى عام يتجاوز معرى الأحداث الحزنية وكس أشعر دائما، ولا أزال، بأن القصة إذا مثلت في نقل هذا المعرى للقارئ، فلا بد أن يكون السب هو مجرد أن صريت ممولى أكثر من اللازم أو لم أصرب به بالقوة اللازمة



بعد أن كست الجزء الأكبر من هذ الكتاب كت أتذكر من حين لأخر، سيرة دنة بعد أخرى، بما كت قرأته من قبل، فأعود إليها لقراءة فيها، أو أتذكر سيرة دائية مهمه لم تسق بي مرأتها فأقنيتها وأشرع في قراءتها كت مثلها، إذ بدأت أعس شيئ عمله أحرون من قلى، أن أقارن بين أدائى وأدائهم، وأتأمل سب يحاح هذا ونقل ذلك، حتى يكون في هذا وذاك درس لى أتعلم مه

تذكرت بامطع «الأيام» لطفه حسين، و«زهرة العمر» و«سجن العمر» لتوفيق الحكيم، و«أوراق العمر» لمويس عوض، ما هيئت عسها عن كتاب «حياتى» لأبى، (أحمد أمين) الذى مثل محوارى دائم أعيد القراءة فيه، لرة بعد المرة، حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب. وتذكرت أيضا بعض السبر الدية التي همت بها حب المؤلفين أجناب: كالفيلسوفين البريطانيين برتراند رسل (B. Russell) وألفرد إيسر (A. Ayer) فأعبد القراءة فيها من جديد

وعد كان رد على في جميع الأحوال مدعسا كانت الدمشة أحيين من مدى

منه حتى إذ قُدرت بكتاب في المناصى بأكثر كثيراً مما يستحقه، وأحياناً من أئى وإن
كنت أعجبت في المناصى بكتاب جيد - لم أعطه من التقدير قدر ما يستحق

كنت دهشتي كبيرة بوجه حاصر من أئى سم أكتشف من قبل روعة كتاب أئى
«حياتي»، وأئى كنت سعيداً غاية للخافة وأنا في الخامسة عشرة من عمري،
عندما كان أئى على على بعض فصول هذا الكتاب - صبغ بصره واعتماده
على الإملاء بدلاً من بكتابة يده، فقد كتب إجابتي عندما سألتني عن رأى فيما
أعلاه عنى أئى أفضل عليه كتاب «لأبام» لطف حسين إجابة مرافق - محف يريده
فقط أن يتحدث أياه!

وجدت بعض كُتّاب لسيرة الذاتية بمصنوعون للإشارة إلى أنفسهم بصيغة
الغائب، فدلّامر أن يكتبوا وقت وقعت، يقولون: قال صاحبنا أو قال بعتى كذا أو
فعل كذا - ولم أسمع هذه الصيغة فعدت بقرائة، فلم يحط ببالى قط أن
أستعملها في الكتابة - وإذا كان البعض يرى في هذه الصياغة بمرأصف بئى أرى
فيها عكس ذلك، بل بها عكس الكتاب من كمال البناء على نفسه، وسعة العنصر
إليها بأكثر مما يحكمه الإشارة إلى نفسه برب بواء



منذ سبوت كثيرة، رأيت فيما بولنديا صامتاً لا يريد طوله على عشر دقائق،
طلت قصته بعود إلى ذهنى من وقت لأخر، وعلى الأحص كلف رأيت أحدًا من
أئى أو معارفى بصادف في حياته ما لا قبل له بده أو التحكم فيه

تبدأ القصّة بسيطة بمطر بحر واعم، يحرح منه رجلاان يرتديان ملابسهم
الكامنة، وبجملات معاً، كل منهما في طرف، درلاان عتيق صخما، يتكون من
ثلاث صلب، وعلى صلته بوسطى مرّة كبيرة - سير الرحلاان في بقاء نشاطى
وهما بجملان هذا الدولاب بشفقة كبيرة، حتى يصلان إلى لربى في حالة إعياء شديد،
ثم يبدآن في التجول في أنحاء المدينة وهما لا يرايان بجملان الدولاب وبذا أراهما
ركوب الترم حبالاً بصعود السلم بالدولاب وسط رجلاان الركاب وصيحات

الاحتجاج وإذا أصاب بهما الجوع وأرادا دخول مطعم، حاولا دخول المطعم بالدولاب فيطردهما صاحب المكان

لا يحتوى العلم إلا على تصريح محاولتهما المستمته في الاستمرار في الحياة وهما يحملان دولاهما الثقيل، إلى أن ينتهي بهما الأمر بالعودة من حيث أتيا، فيلعن الشيطان الذي رآياه في أول العلم، ثم يعيان مشقاً فثيقاً في البحر، حيث يعمرهم آياه وهما لا يزالان يحملان الدولاب

مد رأيت هذا، بعلم وأن أنصرف حالي وحال كل من أعرف وكأن كلاً ف يحمل دولاه الثقيل، يأتي معه إلى الدنيا ويفضي حياته حاملاً يياه دون أن تكون لديه أية فرصة للمخلص منه، ثم يموت وهو يحمله. على أنه دولاب غير مرتى، وقد يقضى حياته متظاهرين بعدم وجوده، أو محذولين لإحباطه، ولكنه قدر كل ما احتسوم الذي يحكم بصرها ومشاعرها واحتيارها أو ما نظن أنها اختيارنا فأنا لم أحتز أنى وأنى أو نوع المائدة التي شأت بها، أو عدد إحوسى وموقعى بينهم، ولم أحتز طوبى أو قصري، ولا درجة ومعنى أو دمايتى، أو موطن القوة والضعف في جسمى وعقلي كل هذا على أن أحمله أبسدا ذهب، وليس لدى أى أمل في المخلص منه.

(١)

ولادة متعصرة

بدأت قصتي حتى من قبل أن أولد ذلك أن والدتي كانت لا تكف عن رواية قصة حملها بي بأوجع، حتى رُسحت قصة هذا الحمل في ذهني على نحو لا يمكن معه مصيبتها كانت فحيرة بمقاومتها لأبي، وما خأت إليه من حيل والأعيب حتى تحفظ بي من أحشائها وتنج لي فرصة لوجود

كان أبي لا يريد من الأولاد إلا ثين أو ثلاثة، فانتهى به الأمر بي أن أصبح أنا لعشرة، مات منهم اثنا في المهمل وبقي ثمانية على أنه عندما وصل الأمر إلي، احتمال محيئ انثاء، وهو أنا، ثم يطن أبي صرا وقرر أنه إن لأوان لأن يصع حداً للأمر وأن يحس والدتي على الإجهاد ولا أدرى بالصط سر نفسك أمي بهذا الطفل ثاس، فقد كانت لديها ومرة من الأولاد ولسات من المؤكد المصريين كانوا، ولا يزال أكثرهم يسرون كثرة الأولاد ممحرة للآم ولكن الأرجح أن الأمر كان يتعلق بوجه خاص بمعنى التي كانت، على حد قول والدتي، تمسكها أشد بحسد لكثرة ما أعم الله به على والدتي من لأباء الذكور، ومن ثم كان نفسك والدتي بي رجع هي الأبس إلى رعتها في إعاضه عمتي.

لم يكن الإجهاد في هذا الوقت (متصف الثلاثينات) أمر سهلاً، وكان على أبي أن يستعين في ذلك بطبيب أحسن، إذ لم يكن هناك طبيب مقيم في ذلك الوقت يقبل أن يقوم بهذه المهمة، فرتب أبي موعداً مع طبيب إيطالي لم يكن من السهل على أمي أن تعصى أمي، ومع ذلك فقد حاولت عدة مرات انهرب، مرة إلى بيت أجيها في العاصمية، ومرة إلى بيت أحتياها في قريتها (راوية القلي) بالمروية.

حتى اضطرت في النهاية إلى الرضوح لتهديدات أبي، فاصبغت لأمره واربدت ملاسها لذهب معه إلى نطس. وهي الطريق إلى محطة لثرو كان أبي، كعادته، يشق أمي بسبع خطوات، إذ لم يكن من المألوف أن يسير الرحن في الشارع بمحاداة زوجته، حتى وصلا إلى المحطة. فمع حاء القطر استقل أبي العربة لأمامية على أن تصعد أمي إلى عربة لسيدات، وهي عبارة عن ديوان صغير في آخر المطار كُتب عليها (سيدات) ولا تتسع لأكثر من ست أو ثمان من النساء واستحمم أمي كل شجاعنها وتركب أبي يصعد وحده إلى القطار وعادت إذا رحا إلى المنزل، فإذا بأبي، لدى محطة الوصول، يجذب نفسه في ذلك الموقف المصحك. ينتظر نزول أمي من عربة السيدات فلا سر، ويكتشف أن زوجته قد حذته بإمكانى أن تصور الصباح والشجار اللذي لادن عفت بيت لدى عودة أبي، في ذلك، ملا شك، التهديد بانطلاق ومع ذلك لم تعمر عريئة أبي، وعاد إلى محارته، مستخدما العنف مره والمليين والملاطفة مره، حتى رصحت أمي بالاعمال للذهاب إلى الطب

حسب أمي أمام طبيب الإيطالي وسمحت له بأن يبدأ بالكشف. ثم تحرك في قلبها غضب عريري جعدها تدفع، لضيق يقدمها لكل قوتها صانحة في ثورة «روح يا شيخ، هو أنا حلى في الحرام؟» فترجع الطيب حائفا وقال، معلنا استسلامه، ولكنه أحنه طلت دائما معثا للضحك في أسرته عني مر الأمام كلم أعادت أمي رواية القصص يا حبيب أو مالى؟ عاير تسقط تسقط، عاير تحبل بحل ١١ وعادت الزوجة إلى است متصره، ولأب حائفا، ولم يعود أبي الكثرة مشيما لشيخة لله

هكذا حثت إلى الوجود في ٢٣ سبر ١٩٣٥

(٢)

أبى وأمى

لا يجب أن يتوقع أحد أن يكون محورتي صورة لأبى وأمى يوم رواجهما،
بسم فيها بروج لروح كما يعمل لاس في هذه الأيام سدى ناعمل صورة لأبى
يوم رواجه، ولكيها له وحده، فقد ذهب بمفرده إلى لمصور بعد تمام عقد الزواج،
فالتفت له المصور صورة، وبدا لا من بروحة استند أبى بده بى بصعة كتب، وكتب
حلف بصورة، لى لا تزال فى حورتنا، أنه اخار الكب رمزاً أو شعاراً، كما كتب
أبى وراء الصورة «وأرحو من الله أن يوفى إلى عمل عظيم أنعم به أبى» وقد
رفقه الله إلى ذلك فعلاً، وبكى المهم لذى الآن أنه لم يشر فيما كتبه وراء الصورة،
وبإشارة عارضة، إلى أبى الذى كان قد عقد لونه رواجه عنهما

كان أبى رجلاً قليل الكلام، قليل المرح، يأخذ الحياة مأخذ الجد، ولا يجد متعة
حقيقية إلا فى القراءة والكتابة والرواح فى نظره لا يستلزم الحب بل هو لمجرد
تكريم أسرة وإكمال انديس ومن ثم فهو يطلب يد أبى دون أن يراها، وأسرة الصاة
تقبل تزويجهما له دون أن تشترط مرافقة لعتاة، التى لم تكن بدورها قد وقعت
عصبه عليه قط. المهم فقط ان ترصى أسره لعتاة أو ولي أمره عن حلمه واستقامته
وتأكد من عدوته لخاله

كان أبى من أسرة قاهرية جاء أبوه وهو صغير بى القاهرة هرباً من قرية بمديرية
البحرية حيث كان يجتهد بملاحون بسطط دالم يؤدوا ما عليهم من صرائب
وتعلم حتى فى القاهرة حتى صار من علماء الأزهر كانت أسرة متوسطة الدخل
تعيش عيشة عافية فى اسكندرية، ولكن أبى لم يذق ضطرب تعيش فى صفوت أو

صه فلا هو فعلى اللئى حائف ولا تعرض لصدره مرة بن حاله وحال الأسر الأكثر ثراء ويسر. لم يكن لدى الأسرة بالمقطع ومرة من المال، ولكن المال لم يكن بصلاً شغلها أو مصدرًا شقي رائد. سمح هذا لأنى أن يشغل فكره بما هو أعظم شأنًا، وإن لم يكن هذا بالطبع تفسيراً كافياً لهذا الانشغال بما هو «أعظم شأنًا» إلى لا أعرف كيف أسمر لما استمر فى ذهن أى - منذ وقت مبكر من حياته - أن من الواجب، ومن الممكن، أن يكون حياته بعمل عظيم؟ هل كان سبب دكاؤه وتوبيخه المستمر فى دراسته؟ أم مرة متأصلة منه منذ الطفولة نحو الإصلاح، تحتاج بذوره إلى تعبير؟ لقد كان عدب كتب تلك الحملة وراء صورته، عن أمله فى القديم بعمل عظيم، من التاسعة والعشرين من عمره، وكان يعمل قاصياً شرعياً، وهى وطيفه لا تعدداتها بعمل عظيم، وإن كان قد عرف عن قرب رجالاً عظاماً أثروا تأثيراً كبيراً فى نفسه، أكرهم أثراً عاطفياً يركاب، ذو سرعة الإصلاحية القوية، وناظر مدرسة نقضاء الشرعى عندما كان أبى تلميذاً ثم مدرّساً صغيراً به

إن التفسير بدى أمين إليه أكثر من غيره لهذا الطموح القوي عدبى، وما وقت مبكر، إلى نيام «معن عظيم فيه مع أمته» هو حبه الأخلاقى شائع القوة نعم، كان أبى من أسرة شعبية متوسطه الحال، ولكنه كان بلا شك «أرستقراطياً» الأخلاق والخص. كان دائم التساؤل عن الموقف الأخلاقى الصحيح، وكان لمنازل كلها وصور الحياة كلها تحول عده فى نهاية الأمر إلى مشكلات أخلاقية. إليه يستقبل من وظيفة ربيعة بدى أى اعتداء طفيف على كرامته، ويقف ضد السلطة إذ رها طلبة، ويرفض منصباً خطراً إذ اعتقد أنه ليس أهلاً له، ولا يرقى موطناً لأنه محبه ولكن لأنه أحد من غيره بالترقية إلح

من أين تبنى بهذا الحس الأخلاقى اتقى؟ هل ورثه عن أبيه؟ أم كان سيحه لربيه الدينية العميقة؟ إلى لا أعرف كيف يورث الحس الأخلاقى أن عن جد، كما لا أعرف كيف يولد الشعور الدينى القوي حساً أخلاقياً قوياً بعد البعض ومجرد نمسك مشكلات الدين عند البعض الآخر

أذكر مرة أن كنت، أنا وأخى حسين، نتحرق شوقاً لرؤية فيلم يعرض فى سينما

في وسط البلد كما يسكن في مصر الجديدة وكان الأمر يتطلب ركوب المشي الذي علم يكن أبى يسمح لنا بعد تركوبه وحدها، إذ لم تكن قد تجاوزنا العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. (ربما كان «عليه السلام» ليلى «ليلي» مراد وحسين صديق، والمأخوذ عن رواية عادة الكاميلى، وأظن أن السبيما كانت كورموس بشارع عماد الدين أو محمد فريد الآن) كما عني نقن بأننا إذا استأناه فسوف يرفض فهذا تفكيرنا إلى الحلّ الآخر. سأله عما إذا كان يسمح لنا بالذهب إلى سبيما في مصر الجديدة فأذن لنا، ثم استجمعنا شجاعاً وركبنا المشي، وذهب إلى السبيما التي تريدها في وسط البلد، وفي طريق عودنا مررنا من المترو قرب السبيما التي سمح لنا بالذهاب إليها، وهذا إلى فاعلاً دون أن ندركها، ثم مررنا على أقدمها إلى أسفل، مررنا على فاعلاً لأنست دأ من الواقع فعلاً ما ذكرناه به بالوسط، أي أننا لم نقل له شيئاً يخدع حقيقة، وإنما فقد لم نقل به كل الحقيقة. ومع ذلك فلا أدري كيف سبب القصة بأن اعتدنا له في فاعلاً، ودارت مناقشة طويلة بيننا وبينه عما إذا كان قد ارتكب فعلاً غير أخلاقي مجرد أنه لم يقل له كل الحقيقة.

لم يكن لأبى هذا الحزن الأخلاقي القوي الذي كان عند أبى ربما كانت أحسن طلاءً وألطف معشراً، ولكنها كانت بلا شك أكثر مكرراً وأشد دهاءً. لم تكن بحبيبة محلاً مفرراً، ولكنها كانت بلا شك حريصة على المال حرصاً وصحاً. كان يزايد هذا الحرص قوة اعتقاده بأن لا يمكن الاطمئنان إلى وصالهم، وكانت دأمة التردد لتمثل الشعبى «يا مأمأة بلر حال، يا مأمأة للجاء في العربى»، فسيطر عبيها فكرة أن يكون لها من المال ما يكفى لشراء بيت باسمها يدر عليها من الدخا ما يعينها من أبى، إذ حدث وتكرره.

بدأت من مد أمام رواجها لأبى تصيب القرش بعد بمرش إلى دفتر اتوفر يكتب البريد، تقتضه غا يعطيه بها أبى من مصروف البيت، إذ لم يكن لها مصدر للأجل إلا ما يعطيه لها أبى. وهى تحتفظ بحجم مدحراتها مراً من الأمراء لا يعرفه غيرها. كان أبى يعرف ما يحدث بالوسط ويخض بصره وكانت هى تعرف فله مبالاة بالمدح متبع فى تصوير ما يتكلمه الصعوم ولوازم البيت معطيه دائماً ما تطلبه

دون نقاش، وهو يعرف جداً أن ما يعطيه لها أكثر بكثير مما تحتاجه ولكنه إذا كان يعرف هو نفسه عجزه الثام عن الادخار، يتطهر بتدبيرها أصلاً في أن تقوم هي بما يعجز عن القيام به من ادخار - حاجاته مره بإحداه بأنها أصبحت لأن تملك ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه في دفتر التوفير، وأنها تريد أن تشتري منه نصف البيت الذي يسكنه، وكانت قيمة هذا النصف تزيد بالطبع عدة مرات عما تقدمه، فإذا به يوافق، دون مناقشة، على أن يكتب - سمها نصف المنزل - وتصر هي بعد قليل على تسجيل ذلك رسمياً فيسجله - ثم يتم بقص ستان أحراراً أو ثلاث حتى أعلنت أنها تملك الآن نصف مئات أخرى وأنها ترغب في شراء النصف الآخر، ووافق أبي على ذلك أيضاً، رغم تعاضد المصع الذي تعرضه عليه - وإذا ما بيعت الذي يسكنه، وهو فينلا جميلة من دورين بحسب راق من أحياء القاهرة (المدني) قد اشترته أمر ما قبل من أبي من المصحات - ثم تم بضع سنوات أخرى وإذا بأبي تقور لأبي صاحبكة به يسكن هو بيته دون أن يدفع بها شيئاً، ثم تتحول البكتة إلى جد، فيقبل أبي أن يعطيها عشرين جنيهاً في الشهر إيجاراً للبيت الذي يسكنه، ولم تمنع أمي بهذا بل ظلت كل بضع سنوات تسدّر سماهة هذا للإيجار، معددة مراراً المرون ومشيرة إلى حمالة وحمال حقيقته، ي فيها من أشجار الحوافة وشجرة المانجو، فإذا بها تطلب كل بضع سنوات زياده الإيجار ويقبل أبي عن حبيب خاطر ما يعطه

كان حصول أحد من على بضعه مرون من أمي أنه يحاوله اسخراج الماء من الصخر، فقد كان دائماً يتظاهر بأنها لا يملك فرشاً واحداً، حتى يأتي نصريحها المصاحي هذا، كل بضع سنوات، بأنها تعزم شراء هذا البيت أو ذلك - لم يكن من السهل أيضاً أن يعطى أحداً من أبي ما لا يريد على ما قرره لكل من من مصروف شهري - ولكن بصحوة هذا لم يكن مصدرها حرصه على المال، بل مجرد الخوف من إزعاجه، ومن أن تكتشف عجزه عن الالتزام بما قرره - كان من أكثر الأمور دده أن يصرح لمطلب أحد من العصف المال قل أن ينتهي اشهر؛ حوها من أن يولد لديد هذا شعوراً بأنه لا حدود لما يمكن لنا الحصول عليه من المال فيعبد عليه هذا مستقبل حياتنا

كان هذا الموقف من حابه معقولا تماماً، ولكن من كان يضايقنا من أبي حقيقته هو

عجزه عن تعاطف مع أية رعة لديها في أي نوع من أنواع الرفاهية. كان هو نفسه قبل لاحتمال أية صورة من صور التأني، وراهداً تماماً في أي محاولة لمحاربة الآخرين في رفاهية العيش. وكان يفرض أن لديها بعض المدرجة من الامتلاء في من لم تكن تسمح بأبحارائه في بساطته. تهور مرة فأنسى أن أنه قرر شراء سيارة جديدة من طراز الكرايفرلر، لحل محل سيارته القديمة التي كانت تثير ارتداء من فرط قديمها، وتستند الصدك والسحرة من أصدقائها. وقف نحن بإعلان الخبر على أمور للأصدقاء، ونحن شعر بمنتهى السحر. هوذا به نصيابةجية أمل كسرة إذ يحبرنا بعد بضعة أسابيع به قد استرد العريون، وألقى فكرة سيارته الجديدة، إذ هذه تمكيهه. إن الأهر لا يريد على أن يكون حشافة دافئة، وحسب للمصطهر الصارغة، ما دامت السيارة القديمة قادرة على أداء الوظيفة المطلوبة من قبله لعدة سنوات أخرى.

هكذا كان حاله مع كل مطهر المدينة الحديثة. فقللة الماء والإسبرين لمحبرى لواقفان في صبيحة على سور الشرفة ليشرّب من الجميع، يصدق عن الشلاحة الكهربيانية، وحمار الراديو يعنى عن خرافات والأسطوانات. إلح. ومن ثم لم يكن يشا يحتوى إلا على الضروريات، فلا أذكر أن صورة جميله قد علقت على الحائط. أو قطعة أثاث جديدة اختيرت حسب جمالى بحث. ومع ذلك فمن المؤكد أن أبى كان يحمل إلى جانب حبه الأخلاقى القوى، حساً جمالي قوياً كذلك. كان حبه الجمالى يظهر في حوسه أمام السحر ساعات طويلة يتأمل تنابع امواجه، أو في حبه للحرج إلى الصحراء للاستمتاع بالامتداد اللانهائى للرمال والهدوء الشامل، وفي فصله للمحارس والكتابة أو القراءة في الحديقة، وفي متابعته لما نما وما لم يسم من أشجار ودهور، وفي كراهيته الشديدة للصوت والصوت المرتفع، وفي تقديره للغة الحميمة والسكنة والسكنة، بن ورعاً، قبل هذا وذلك، في حبه الأخلاقى القوي. أو ليس صحيح أن الحسن الأخلاقى هو من نفس نصيبه الحسن الجمالى أو هو جزء منه؟



لا أعرف الكثير عن طموحه ووظيفته، اللهم إلا أنها كانت من أسرة

متوسطة خراب يعيش في قرية من قرى الموقية (رواية العقلى)، وأن أباهما كان قاصيا في مدينة إقلصة، مات في صغولته، فهي لا تكاد تعرفه، وإن كانت طلت دائما تصحريه، من باب محاولة تحقيق درجه من البديه معنى، تتكرر أنه كان قاصيا، وأن عبد العزيز باشا فهمي عندما تفصل نليغويا مرة ثانية، وردت هي على السبعون وعرف أنها بنت القاصي عند نواها فهمي وكان من نفس قرية، برحم عليه وأثنى عليه طويلا ثم ماتت أمه وهي في نحو العاشرة من عمرها، فانتقلت أمي ربحرتها التامى إلى ست حائلها

كذب القصة بي لا تغل أمي من روايتها لي، عدا قصه كهاجها أثناء حملها بي، هي قصة حياء الأول، وما صاحبه من شجون وحية أمل طلت معها، فيما يبدو، إلى يوم وفاتها كان لأمي حب آخر، غير الحال الذي تقيم في بيته، وقعت أمي في حبائه ووقع هو في حبه. وتعب هذا لأثاب على الرواح، فذهب أبو الفتى العاشق إلى أخيه، وسأله أمراة المشقة، يضلها لاسه، عرفص الطيبه بشرة، إذ كان لولى الأمر بت في من الرواح ولم يكن يرغب في أن تنروح المست التيمة فهمي، وأحد يحتل الأعداد للرفص سأل عن المهر فقيل له إن الفتى لا يملك شئ ولكنه مستعد لدفع المهر لطلوب بالتقبط فرد لولى الأمر ساحركا بأن امه أخته ليست مأكسة حياطة يمكن ترواها بالأقساط تحطم قلب الفتى ورقد مريضاً من شدة الحزن، وكتب رساله إلى محبوبته حفظته أمي عن ظهر قلب من كثرة قراءتها، ثم حفظته أنا عن ظهر قلب من كثرة ترديد أمي لها عنى مسمى قال لي أبى كانت سكي نكاه مرأا كلف وصلت إلى نهايتها انى يقول «وبالاحصاء أنا مريض، ولم أر مثل هذا المرض من قبل في حياتي لا يوم ولا أكل وجميع جسمي يوحى، وهذا المرض حياءى من يوم مصالفة الحن مع العم قال هذا انعم كلام يصحك ريكى فرد كان لى عمر ثقابسا وإن لم يكن، هعيك مى ألف سلام» والتوقيع «مريض مشتاق»

هربت لفئة من بيت حائله، على أثر هذه الواقعة، دون أن تحر أحدًا عما عرفت عليه. وقصبت قريب من قربانها كان ينسج بالماهرة، واسع الثراء وعظيم خاه اسمه

محمد عفيفي ناش، كان نشغل وظيفته عالية في الدائرة الملكية. وبنت هي مش
 سن أمي اسمها (هدية)، وتزوجت فيما بعد رجلاً من عائلته كبيرة أصبح له شأن
 كبير في السياسة المصرية (بهي الدين تركات). استقبلت العائلة الأرستقراطية
 أمريقية هذه الفتاة بسيمة ودب القلب الكبير بالرحاب، وأحاطوها بالحب
 واعتطف فقصة الفتاة معهم ستين أو ثلاثاً، كانت دائماً تذكرها بالحب والامتنان
 وكانها كانت تسعد سنوات حياتها. كان يسرها غاية سرور أن تذهب لإيقاظ
 الناشئة العجوز فيتسم لها بمحرد أن يفتح عينيها قائلاً إنه يستبشر بوجهها فكانت
 تعيظه أحياناً بأن ترمي إليه من يوقعه عيها فيعصب ويقول إنه لا يريد أن يوقظه
 أحد غير «ريث» فيزداد سرورها، إلى أن تقدم أني لزواجها فبدأت متاعبها، أو
 هكذا كانت تقول

وحدثت أمي رجلاً قليل الكلام لا يعرف المزاح أو المرح وهو يطلب الزواج منها
 دون أن يراها، فليس هناك إذن حب ولا حتى تفصيل لها على غيرها، بسبب هناك
 على قيد الحياة قلب شخص نحها ولا تمنى سواها ثم تصدم الفتاة في أول أيام
 الزواج بعد انتماها إلى بيت الزوجية بأشعائه المستمر مكتنه وأوراقه تدح على
 لشعره بأن العناء حاضر فيشير بوضعه إلى رأسه علامة اشعائه بالتفكير، وكان
 رثها - كما شرح هول فيما بعد - يترجم حملته صعبة من كتاب «مادئ الفلسفة»
 إلى تجبيرية الذي كان قد تعلمها حديثاً. تآل الفتاة منها باستعراة عما إذا كان
 هذا هو معنى الزواج، ثم ترفض الفكرة قائلة لنفسها «لا يمكن أن يكون الأمر
 كذلك، فقد رأيت حامي يكرم راحة حامي أحياناً» ويريد لأمر سراً. توقف
 العدائي الذي نجهده الروح من شقيقت الروح وأنها على استفادها صديوم
 الأول. فإذا أرسبه روح لتفقد بيت الزوجية قبل الانتقال إليه للاطمئنان على أن
 أهل العروس قد فرشوا بيت فرشاً ملائماً، عادت لشقيقات به تقرير غير صر
 وعلية بالانتقادات، من أهمها أنها لم يشر في البيت على ككة لنصع «قهوة»
 وإدائند الوؤس وحسة الأمل تأتي استجعت يوماً شجاعتها وسألت أمي عما إذا
 كان يقن الرواح من أحنها بدلاً منها، فكانت إجابته «لا أنت ولا أحنك» ثم فكر
 جدوا في الطلاق منها عندما وقعت ابنة الثالثة*

كانت أمي وأختها مشغولتين يوماً بالعجين وصنع الفصائر والكعك استعدداً
سعيداً، وكنا نتبادلان الحديث وناصحتك عندما وصل العجين من الفرن فلاحظنا
انتفاخ إحدى العطاير انتفاخ غير عادي، فإدنا أمي تسأل أختها صاحبة عمن ياترى
الشخص المنفوخ مثل هذه العطيرة؟ فاصدة أمي ثم تنفجر الأختان بناصحتك،
وإدنا أمي واقفة عند باب المطبخ تسمع حديثهم وترعد أمي خوفاً ويعصب
الروح عصاً هتلاً وتدور فكرة سخيفة في ذهنه، ولكن العقل والمنطق يتعلنان
في النهاية، كالعادة، وتعود الأناام إلى سابق عهدهن بلا طلاق ولكن أيضاً دون
الكثير من الحب

لأن أن لأمر قد تحسنت مع مرور الزمن، فلأن أن أمي قد راد كلامه مع أمي
عما كان في أسدي به، إذ لا يتصور أن تحسن مه عشر مرات دون ذلك، ولكن خيبة
الأمل ظلت كامنة في قلب الروح التي لم تشعر فمما يبدو بالحب الحقيقي إلا لأن
حالتها كان الروح عذاب دون حدود ندرتته الأولى وما تعرض له من مريرة
صادمة في طفولته. فصح الفصل الأفكار التي كانت تدور برأسه عن الأسرة السعيدة
ومع كل حسن نيته، لم يكن قادراً على التخلص من دور الروح الديكتاتور صاحب
السلطة المطلقة أو أن يجد في عهده العذرة على ملاحظة مرأته ظلت ولدتى طول
حياتها لا تستطيع أن تصدق أن روحها لم يبدعها باسمها مرة واحدة، بل كان إذا أراد
أن يهت بطرحه إلى شيء صحيح فيا ولده فتعهم أنها هي المقصودة وكنت تتبدل
بذلك أحياناً أحسب داحت مع بعض لرفضه، فتسأله عما إذا كان من المحتمل أن يأتي
اليوم الذي تترى فيه يمحاطها على الأقل به بـ ١٠، إذا كان مصراً على رفضه
أن يبدعها باسمها كان أقصر من يستطيع، إذا شعر بحولها يمتنهي لرفضه أن يبدعها
بـ ١٠ أم حمادة، مستخدماً اسم التذليل لأكثر أسائهم، ولكن هذا كان أمراً نادراً
لنعاية لا أذكر أمي سمعته منه أكثر من مرتين أو ثلاث طول حياتي، وإن كانت هي
شعوراً بذكر لقصة تالية على مسامعنا، عندما موديت بالهمل بـ ١٠ أم حمادة في
طروف كان أمي يشعر فيها عنتهى الاضطراب والوجل أمامها، وهو لأمر الأكثر
ندرة بظنهم والأكثر مدعاة لشعوره بالاعتز والفرح

أما القصة فهي أن أبا أي كان يحظر له أحياناً في لحظة من لحظات سأمه من بقائه
والكتابة، أن يقوم بعمل غير مألوف لديه، من باب الترويع عن نفسه، كصنع المربى
مثلاً كانت أمي في ريادة لأخيها عندما تحظر لأبي مثل هذا الحفاط فأتى بصنع
البلح وشرع في صنع المربى، فوضع البلح مع بعض السكر على نار رسي أن
يصيف الماء ثم حطرت به فكرة مقل جديد فتأدر للطبخ واتجه إلى حجرة مكتبته
لشرع في الكتابة وسمى المربى بـ"مربته" وصلت إليه بعد عدة دقائق حريق، فإذا به
يحد الباب كله وقد اسلأ بالندخان بينما كانت أمي تصعد السلم عائدة من ريدتها
استقبلها أبي في أعلى السلم وهو مضطرب، وقد اعلمت وجهه استسامة عريضة
وقال لها مرحاً على غير عادته. «أهلاً يا بنت أم حمادة!» وأصابت أمي دهشة
عظيمة، إذ تستعجب هذا الاستقبال الخاف، وبهذا التعبر الودي عن المألوف،
منظرت إليه نظرة ملؤها «شك فائقة» والتهبت عامل عمله، وسرعان ما
اكتشفت قصة المربى التي لم يكن من الممكن حفاوها فأتصع لها كل شيء



نعم، كانت أمي تودد من حين لآخر قصة حبها لأبن خالها وحبها لها، ولكن
القصة كانت تنسج من عندما كب اسمعها منها وأنا صغير، مجرد قصة مصحكة
ومسلية، لا أكثر ولا أقل، كما كانت تبدو لي وكأنها قد حدثت فيما قبل التاريخ،
عندما كانت أمي فتاة صغيرة جميلة فدره على الشعور بالحب وإثارة الشعور
بالحب فإذا بي أكتشف فيما بعد أن الأمر كان خدأً محصلاً بل وكان يحمل طابعاً
مأساوياً بكل معنى الكلمة لقد نومي أبي في سنة ١٩٥٤، وبعد ذلك بسنين حدث
الاعتداء الإسرائيلي على مصر المشهور بحرب ١٩٥٦، وقد راح صحفية هد
الاعتداء عدد كبير من الشبان المصريين، كان من سهم من هذا اللعشوق القديم، ابن
خالها وتعرهت أمي على اسمه على الفور من مراءتها لصمحة الوفيات في حريدة
الأهرام وقد استرعى شأني أن هذا الخير على أمي بالمقاربة بأخبار أخرى مماثلة،
وعبرت أمي عن صرورها دهانها لأهل الشاب التوفي بتعزية، وأحدث نقبص في
التعبير عن حرقه القلب التي لا بد أن تكون قد أصابت أناه وأمه ودهشت أمي

لشعرته وعادته وقد بدا عليها التأثير والحزن الشديد . ثم مر - شهيو فنية حبه
 بعدها الأب نفسه لشكر أمي على قيامها بالعزاء وجلسا معا في سريفة بيتنا يتبادلان
 الحديث . كنت أراه في ذلك اسوم لأول مرة ، فرأيت رجلا مهيب بطلعة في نحو
 الخامسة وستين من العمر أو أكثر ، فارع الطوب وأيقظ أفاقه وأصحته لم أعل
 أهميه وقتها على هذه البريرة ولكني عندي نذكر بها بعد وفاة أمي بعده سنوات ،
 بدت لي هذه البريرة وكأنها نهاية مؤثرة لقصة حب ظل مكتوماً ومحروماً من التعبير
 عن نفسه لعشرات السنين . كنت أدوس في إنجلترا عذمت توفيت والدي ، ولكن
 أحسني الكبري قلت بي . ان أمي قتل وفيها بأسابيع قسبة خاضها حبر وفيه بن حالها
 فتم تعني عليه ، وإن كان قد بدا عليها حبر . عمن لعدة أيام قبل أن تمر من المرض
 الذي أودى بحياتها

(٣)

مذكرات أبي عن أمي

كان أبي في الخمسين من عمره عندما ولدت، وكانت أمي في نحو الأربعين. وعندما بدأت أفهم معنى العلاقة الروحية كان أبي قد حاور النبي وأمي حاوورت الحسين. لم يكن من المتوقع إذن أن أشهد أي مطر للسودد بين أبي وأمي أو لبإدلهما أي نوع من عاراب الحب وانغرام. بل أصبح يشوب الشجر بينهما مع تقدمهما في السن أكثر تكراراً بكثير من خطبات الصفاء. أثر هذا بلا شك على تصوّري لطبيعته لعلاقة بهما، ورى جعلني هذا أدلّع في تصوّر ما كان يشوب هذه العلاقة من جهاء.

لهذا كان استعراضي شديد عندما وقعت يدي، منذ سنوات قليلة، على مذكره ترجع إلى سنة ١٩١٧، كتب فيها أبي مذكرات يومية تدور أغلبها حول علاقته بأمي. فقد تبين لي من قراءة هذه المذكرات أن سنواتهم الأولى لم تكن قط حالية من الشعور بالوادة والحب، كما أن أبي يبدو من قراءة هذه المذكرات في صورة رجل أكثر رقة بكثير من الصورة التي استغرقت في وعيي من خلال ما كنت تردده أمي عن أسبغني من شكوى.

بدأت أدرس أبي لهذه المذكرات في ٩ يناير ١٩١٧ وعمره ٣١ سنة، وكان قد مضى نحو عام على وواجه، واستغرقت فيها على فترات متقاربة حتى نهاية العام، عشرين بلع عمر أول أولاده ثلاثة أشهر. وقد يكتب بصراحة لا لونه بلطر. وإن كان أحياناً يكتب ببعض الجمل المتعلقة بروحه بالإبحيرية، حوفاً من أن تقع المفكرة في يده فلا يسرها ما تقرأ فيه.

ومررتُ نهاراً للبريءِ هذه معصم ما كنته عن علاقته بأُمِّي ، ثم بقى مصوء ليس فقط على شخصته وخصيئتها ، ولكن أيضاً على بعض جوانب لشائعة من حياة الأسرة المصرية ، المتصلة لشريعة من الشرائع المتوسطة من الطبقة الوسطى ، في مطلع القرن العشرين

٩٥ يناير ١٩١٧ - أشعر كثيراً من الأوقات بأني سعيد لأني ورفقتُ wife مدبرة وظيفتي ، ذات عواطف محببة ، لا تقوى غير ما يصبر ، وكن أحببتُ feel rather painful for she is not very beautiful وأحمد الله على هذه الحال

وقد أحسبت بأن العلاقة بين ترداد منه بمرور الأيام ليست أحذوماً أحببها بمعنى كثيراً ، كما كنتُ أأخذ ، ولا أقرأ كثيراً كما كنتُ أفعل . فقد قرأتُ يوماً كثيراً أنسى صميري لأني لم أعطها حقها من الانتباه ، وإياها أقرأ أسعدتُ بذلك وأنا بين أجلي . أحس بأنه يجب عليّ تمحيه عقلها ببيت بعض المعلومات العامة ، رزجو أن أوفق إلى الشروع في ذلك والسبر فيه .

٩٩ يناير - مع أني معيشتي على العموم بعد الروح خير مما كانت قبله ، فقد اعترضني صعوبات سبها أفر من احتشمة من حجاب . وعدم انتشار معلّمات علمها كاف . إيج

٢٢ يناير - لمعنى اليوم حمر عجت له جيداً العجب . فقد كنتُ حطتُ فتاة من أبيها وهو موصوفه اعد ، ليس من عائلة عريقه في العجد ، ورفض أبوها أن يزوجها لأني معصم ، ثم رويها من شاب في المحاكم الأهلية تماهية قدرها خمسة حبيبات . وهو «طهورات» (أني غير مثبت في الوطعة) وأقل من استقامة

٢٣ يناير - لي نحو ثلاثة أيام أحس فيها شيء من المصيق for my wife is not very beautiful وأبوم يمسى على هذا الأكم ، والواحد حمد الله على ما وصل إليه .

وكان منذ الأكم على أثر حديث حدثني فيه أختي عن فتاة كانت حطتُ لي ، وكانت very pretty ، وكانت قد ذهبت أخيراً بروحى فمسل عليها وروحى لي احترت

٦ فبراير - انتهى اليوم بأسف وحزن وتفصل ذلك أب والذنى، فل اليوم،
شككت لى من عدم محامله روحى لىها وقد جرت بينهما بعض مصادعات صغيرة
على أسور تافهة، مثل أب والذنى تريد أن تادبها (يا والذنى) وتأنى روحى ذلك
محبة أب والذنى متوافقة وذلك يذكرها بوفااتها

ولاحظت اليوم أن روحى لا تعامل والذنى، ولا تقابلها بشاشة، ولا تنكس
معها كلام المحترم، فلا تنكس إلا القليل، وما تنكسه تنكسه بمرود، فعند أن
مرلت والذنى حاطب روحى بكلمات تأيب على عميها وردع بها عن العود إلى
مثل ذلك وما قلت لىها،

إلى أحاسن حاديات الدنيا إرضاء لك فلا يلقى لا تعامل والذنى إذ صاء لى
عصبت من ذلك وعصبت وأما ساعة هذه السطور عصرت أسف أتردد بين
مصادعتها وعدمها أقول لمن تركها وقتاً أطول أردع لىها، وأقول من جهة أخرى
لعل ما عدها من صراحة وعدم خلطة بالناس حميها على ذلك، وبالتعلم تعلم

وكل هذه دروس تعلمى التمسك برأى فى الشئ بحزن وحذى، وعدم سكى
مع أهلى، فبذره إن كان البراع وحسن وحسنا وهم وحدهم، لا يجمعهم إلا الشرور
فما بالك لو كان الاجتماع دنماً والمعيشة واحدة؟

٧ فبراير - استحسب إظهار قوة إرادتى فحسمت على محررها مدة، وصعقت
على بعضى يوماً ونصت إلى أن جاءت رلة، فاضطرب إلى التخاطب أمامها، ورأى
الحصم، وحصل ما كنت أريد من لتأثير

١٦ فبراير - تحقق أنها حامل، وقد كنا - كما ذكرت - نود أن نؤخر حتى نتمتع
بالروحة حد التمتع، ولكن لم يقع ما أمنا واشتدأت تظهر متاع الحمل
وتعباته

وبالأمس سألتها رأيها فى صحب لى يود الرواح بشاة تعرفه، وكانت على مثل
الحزن الذى وصفت، فقالت، بها صاحبة لرواحه ولكن حير من ذلك أن تصحه
بعدم الرواح ولعلها لا تقبل هذا القول فى أوقات سرورها

أخشى أن يرث أو لادى من قصر نظرى ، وأوجو أن يرثوا بطرهم من أمهم وهى
أطول وأجمل عيا

لزم كثير من النساء اللاتى رفض أن يزوجن بناتهن لى بحجة أبى شيخ ، عسى
رفضهن ، بعد أن شاهدن حسن معاملتى للروحة وحسن سيرتى فى بيتى فحدثنى
والدتى أن روضة أعزى التى رفضت الزواج من أنت التى وبكت فى أثناء حدثها
وبدعت على ما كان من الرفض

١٤ مارس - لا يزال أبى وأمى وأخى يبحون فى الرجوع إلى بيت القديم
والاشتراك معهم فى المعيشة (عسى أن) يحلوا لى دورا من دورى البيت أعيش فيه ،
وأنا أرفض . وكنت اضل أن مصى أربعة أشهر عسى معشت هذه بسببهم (هد
الأمر) ولكن لم يكن ذلك ، فاستمر وألحون وتظهر عليهم أعراض الحزن الشديد
لعراقى .

١٩ مارس - قالت لى مدرسى الإنجليزية Miss Power : «استحسن أن تعيش مع
والدك وبصحى شيئا من لداتك لإرضاء ولديك فى آخر أيامهما» . وقالت «هى
فى مصر الآن أتمتع بحسن جوها وهو أوفق لصحتى ، وبو دعنى أمى لسأرت إليها
على أول بحرة ، وصحيت حو مصر الماس لى إرضاء لوالدتى» . فاستحنت
كذلك ما رأت .

٢٠ مارس - نهيت زوجى من الذهاب إلى بيت لسخوف بعض النساء يراها من
المعيشة مع أم الزوج . ولدتك أراها واجمة منك فى ذلك كثيرا ، وأحبول نحيف
ذلك عها فلا أفلح

٢١ إبريل - جاءها دور لقص حكى ، وعصت من غضبها وبسختها بكلام
شديدا وامتنعت عن الأكل طوي يوما ، ثم أهدت تسر صبي ووعدت بعدم
إبعده

لا تزال أمى معتقدة فى زوجى الكبر لأنها لا تقول لها «يا بيتى» ، ولأنها لا
تحملها . وزوجى من طبيعتها عدم المحامدة وهى تقول «صباح الخير» و«كيف أنت؟»

ولا تزبد - وقد نصحت أمي وروحي بأن حظتي شئ رصحتها إلا أسمع كلمه من أمي
في حق روعي ولا من روعي في حق أمي، وفهمت أمي أن هد طبع وليس بكر

١٩ مايو - كنت أحشى هل الاشتغال إلى يشا الخالي أن تصد أخلاق روعي
فإني أعقد أنها صريحة لا تكذب تحمي عني شيئاً، صدقة فقما تكذب، وإذا شاءت
الكذب ظهر ذلك على عيبيها فقرأت الصدق فيهما - وقد نبي لي صدق رأيي في
هذه الحشبة، فكنتنا زوجة أختي وبته مكره كذوبة قانوه على إحصاء ما في نفسي،
تعمل أعمالا كثيرة من ورائي ثم لا يظهر عليها ما عملت. وقد بدأت أشعر تأثير
ذلك في زوجتي - فمن حدث طوبى اليوم عرفت أنها حرجت في هذا الشهر من
غير إنني ثلاث مرات (لزيارة بعض سيدات)، ولكنها لم تسطيع أن تكتم ما في
نفسها يا حبيبة - فألمت حد الألم، وحجت من شر أتوقعه واجتهدت في درء الشر،
وعسى أن أوفق فيه (أضاف أبي ما من القوس فقلتم محتلف على سبيل
الاستئذان!)

١٩ يونيو - من أعرب ما روي أن لي مدرسة إنجليزية اجتمعت في بعام الماضي
مروور ٦٤ سنة عليها فهي عجوز، وهي عبر جميلة المنظر لي معها ثلاث سنوات
تدرس الإنجليزية - رعت في ريارتي في هذا اليوم فذهبت إلى منزلها عياد
الأرهار. وركبت معها عربيه وأنا خجل جدا، لأن الناس لم يأمنوا شيخاً معها
يحبس أوروبية ويحادثها، وبكس لم أعشأ برأي العم في هذه المسألة. حتى
وصلت إلى بيت فأظهرت التألم من مباحة الناس في الرش أمام بيتي، لما رأته
كثيره الماء التي تحوت إني وحلي - وضعت ادخل ففكلتها روعي بشاشة
وبرحاب، ثم والذي ثم أختي وبنت أختي - وشربنا الشاي جميعا وكنت أترجم بين
المدرسه وأهلي، وكان موضوع الحديث يدور حول مسائل عادية، من تصفيبي
السكى مع الأهل وبحوه - ومكتب ساعة وانصرفت، فركبت البرم وركبت معها
إلى الأركية، وأركتها ترمواي الحيزة إلى ميدان الأرهار ثم ودعتها وانصرفت

رجعت إلى المنزل بعد نحو ساعتين، في مرعلة عتاد، فأجسست من روعي
شئ من المنور، فحيسي سرود، وتعمل ما تعمل بتمل، سألتها عن السب فعاتت

لا شيء، وإنما أنا مئة أريد اسوم ألححت عليها همددت عما قلت بامت ولكن لا كالعتاد، فكانت ناعرة تصدر عنها حركاتها شراسة، حتى أصحبت، فقالت إني أوعب في الخروج وأريد المكث في ست اللباس أسوعاً أو يعود ألححت عليها في بيت السب فقالت

«الإبحرية» «مالها» «تركها العبرة» وترك معها، وتسرع بجانبها وهي لاسة ليا حليب، و «و» «صهبت أنه أدركتها لعبرة من هذه المعجور انى لا تشهى بحال معجب من ذلك جد العجب، ويحبها على طها السى، وأهملتها، ثم أتت واعدت وأنتهت لمسألة

٣ يوليو - رأيت أمي لا أصل إلى الخير لا بخصوص في كثير من الشر، صحت. عيسى الصحار أبو امرأة - وربما كل إنسان - لا بد لها من دائرة ترك لها فيها الحرية فتصرف كما تهوى، وتكون هي فيه لرئسة، وإلا لا يستقيم حالها، إلا إذا كانت امرأة مينة الإرادة

كان أعبط شيء لروحي أنها لا تنصرف في است بصرفها فروح أحى أو استه تطيح ونهى، لأنى وروحي تترك متآخده جهرها فشكت لى من ذلك فعرضت على كى واحدة أسوعاً تطيح به، ومهن وروحي متعدى عليها في نوبتها تأملت وقد قالت لى إنها هي تأخذ لأنى من تحت، تعرورق عياها بالدموع تحمها عن الباطن دختائها ومحاولتها عملاً من الأعداء فرأت حمر طرمه أن أنمصل في معيشه وحدي وقد أعصب هذا والدتي وأعقد أن سيرول هذا الغصب وتؤلف الحسة بخديدة وقد اعتقدت أن لروح أخى دخلا في إهمام أمى أشياء على غير حقيقتها للإيقاع. فاهممت أمى عالم بذلك وحدرتها من العودة.

٣١ يوليو - جرى بيني وبين my wife حديث مفيد لى أسس تذاكرنا أمر marriage وكيف ابتدأت الخطبة وكيف أن الخاطبات are deceived قالت «إن روجه محمود أفندى فهمى، وهي السب في الزواج، حدها الشرف من ست عفى بنا وأحترم العائلة لها فإردت أن يكتسب صحة هذا است زوجى، لأبها رأسى على طبعنى حالية من الرمة والخنى، لاسة ثوبى العدى، وبكى أرمهاها لى من

مت الباشا وقرينته، وأم أحنى وروح أحنى وبقي الخاطبات بعد جدعتهم أمور.
 أولها أنهم حجلات، وقد فقد شعورهم أو كذب بمقدد بدحولهم في بيت
 صحن وتقدم لهم أية صحة، عاية في الحمال وتقر عليهم جدمات إمبرغاب
 عاديات رائحت وثابها حدث جميل حلات من روضة لبثا وثالثها قصر
 الوقت لدى جلست مع الروحة أمامهم وقد كن في كل مرة تذهب خاطبات
 محبس في حجرة غير ما قلها ورابعها أنهم أنسها عمدا من البؤلؤت الباشا
 تساوي مثاب من الحبيبات فطر أن هذا لها وأن مصاعها وجهها سيكون ناعما
 مهي الحمال وهذا يعمل العصب والخرن الذي اعمرى أهنى عند رؤية الخهر
 وخامسها مهارة ييب الباشا في تزيينها (سمة) حمية

ذكرت لي روجي هذه الأمور على سبيل المرح، ولكن، لكن it has great effect
 عني، فقلت أيضا مرحا، وقد تم الحدع بدعوى روضة الباشا، كما يلعي، أن لك
 حمية حبيبات شهيرة، فقالت، «نعم» ثم الحديث ترك الحديث في بعضي أثرا
 وموعظة وأمت بالقلدر حبره وشبهه

٢٧ ستمبر - في هذا اليوم، يوم الخميس ٢٧ ستمبر ١٩١٧ الموافق ١٠ ذو
 الحجة ١٣٣٥ هـ، ساعة التاسعة والعشرون دقيقة مساء، وكذا لي موبود سميت
 «محمد أمين» وقد استمرت أمه في ولادته نحو ثلاث ساعات مع ألم شديد و
 برل قالوا كهذه النساء إنها ولدت بنتا فشعرت بشيء من الخرج حفيف جدا،
 ومكنت أني مالا على تربتها وتطبيق الطبريات المصرية في تهديتها إلى غير
 ذلك، وبعد ذلك نحو ساعة قبل لي إنه ولد مشعر بعرح أكثر

وقد كنت من قبل الولادة موهوما وحلا حاسنا حساب ما أنا نادم علمه من أني
 أن وما أكف به من مشق الأوبة، حدثنا أن يرث عني قصر بطري فيمتع في
 الحياة ثم ولد ذلك يمارجى أحيانا أمل فيه وفي تعليمه وتربيته، وأدعو الله أن
 يرفقه جملا في جسمه وعقله وحقه

وهذا تأملت بعض الأنس لا تنقاد أهلى عليه كرامته، وبالعوا تي وضعها بالكر،
 وحمد الله على أنه ذكر، ولو كان بنتا ما كانت حميلة وبصعب دواحبها ما أنا

فصرى عن ذلك ما قامه صديقى إن الأولاد لا يظهر جمهم أو قبحهم فى الأيام الأولى من ولادتهم وحلى أنى أنه كان له من ولد كـ الأنثى جداً وهو الآن صغيرها. حلى أنى اعتد أن حماد علمه وحلعه، إن تم ذلك، سيحوص عن حماد بده واستدأت لا أمتنع بما كنت أمتنع به من قبل من اليوم الهادئ العميق، فالأم تشكو من نوحه وعناً سيبنى الولد لحاجته إلى ابرصاع أو سحر ذلك

٢ اكتوبر - مصى هذا الأسبوع و تولود كثير البكاء وبحس شديداً والتعب، لانه حوكان ولا يعرف كيف يرضع لأن ثدى امه سـ له حلمة مدرة، وتعلـ له التنسـوت فتعبه وقد اشتد صحرى من ذلك وكـ سبب فى انتقال والدته به إلى حجرة اخرى

٢٢ ديسمبر - طعمنا امورد هذا اليوم، وقد اسنظم فى نومه ورضاعه وقبل من كانه وحسنت له لأن أفعه صعرت عما كانت وصار أجمل من يوم ولا

٣١ ديسمبر - لا تزال نعيد بعض خطوات أقول فيها فى مصى ديشى ررفت more beautiful wife وأرجو أب بهذا فكرى فى هذا الموضع ونشر نسى!

(٤)

البيت

لم تراث أمي قرشاً و حداً من أسرتها ولم يرث أبى شيئاً يدكر ، ولكن كان لابي دائماً دخل محسوب من وظيفه ، كمدرس أو قاض أو أسد في الجامعة ، بالإضافة إلى مكافآت عما يشتره من مقالات وكتب أو يشترك فيه من حاد ، سمح له بشراء بيت من دور واحد في مصر الجديدة ، ثم به دور آخر فوقه

كانت الملاحح الاساسية لهذا البيت ، الذي عشت فيه طوب الثلاثينات ومعظم الأربعينات ، تنكرر بحذائبرها في معظم بيوت أهالي وأصدعائي ومعارفي حجرات وفرفرات واسعة ، وأسقف مرتفعة (إذاً ، قوربت صوت الطلقة لوسطى اليوم) في مزب يدر ديريذ ارتفاعه على ثلاثة أدور . سم يكن يذ هك ما يحوب دواب وصول لهواء أو أنشعة الشمس ، كما كان هك دائماً متسع للأطباء بلع وبخري ، سواء داخل البيت أو في حديقة صغيرة حوب البيت ، أو في الشارع ، إذ كان من الممكن أن تمر عليهم الساعات دواب أن يعكر صغورهم مروي سيرة وحدة

كل هد صحيح ، ولكنى لا أكدا أصدق ، عندما أستعيد في محيلتي ما كان عليه مرلنا وأن صغ ، أى منذ بحر ستين عاماً ، ليس فقط حبو لمرب من أى مسحه من الجمال ، ولكن كيف أن أحداً ما ، لا أبى ولا أمى ولا أن ولا أحد من حوتى ، كان يلاحظ وقتها هذا الانقراض إلى الجمال ، أو يمس أهمية على ذلك لو كان قد لاحظته

الأمر يذعو للدهشة لأكثر من سبب فأسرتنا لم تكن أسرة مصرية يعورها مال اللازم بشراء نافه من الورد من حين لآخر ، أو برواز ضرورة حميله وتشبه بالحائط ، أو أنشاء فمائل لسعطيه الكسب أو الكراسى بلوب يتسجم مع لوب المسجدة مثلاً

مع. لا لم يكن عاجزين عن شيء من هذا، كل ما في الأمر أن تشكك من هذا لم يحظر أساساً فقط. وأنتى رجل وسع ثقافته، بل هو كاتب أدب تميز الاحمال وقدره في أشياء أخرى كثيرة، فمدا لا يلاحظه في ليت وطريقه تأثيث؟ رعا كان الأمر يحتاج إلى تقدير سوع معين من خمان هو مدى يتواءم للصور التشكيكية، وإلى التدرج على إدراك الاحمال في انساق الألوان والخطوط، وهو ما لم يتلقه أبى أو مى قط لا من المدرسة ولا من خارجها. ولكن الأرحح أن العامل الخامس كان يعلق بالبيئة الثقافية بوجه عام كد المجتمع كله، باستثناء جملة صنيعة للعبية نعرضت لتأثير قوى من المجتمع العربى، يظهر فى طريقة تأثيث المنزل بطريقة «وظيفية» بحتة، أى أن المهم فقط فى نظرها هو أن يؤدى الآثار وطفته بكفاءة، دون أن يدخل فى هذه الوظيفة أشياء كمناليه من نوع إثارة الإحساس بالحلال الكرسى لجلوس والسرير للوم والمكتب للكتابة والخدم للاستحمام. إنى، فما الذى يربطه أكثر من ذلك؟ يعلق صوره على الحائط؟ لماذا ياصطف؟ لأناس من ديك إذا صمعت عليه، وهى فى هذه الحالة توضع أعلى من مستوى النظر بكثير، لا تكاد تستتبع نظر أحد، وإذا هبّ بعض الهواء فمالت عن وضعها لصحيح وقد تعطل على هذه خيال سنوات، بل ردى عشرات السنين، دون أن يتسعت إلى هذا أحد، أو يبالى أحد بتصحيح وضعها

من المؤكد أنى لو قُدر لى أن أدخل من حديد مطبخ كما كان عليه من سنين عما لأصابى الذهوب من حاله ومظهره مع لم يكن أنى يدخل المطبخ فقد، أو على الأقل لا أتمكن قط أنى رأيت فيه، ولم يكن يدخله إلا أمى والحادمه، ولكن كيف استطاعت أمى أن نحمل مطبخ بهذا الشكل، تقضى فيه كل هذه الساعات كل يوم، وهو الخافى من أى حمى أو نظام، ومن أى تهوية صحية أو أى وسيله من وسائل الراحة، دون أن تدمر أو حتى أن تلاحظ أن فى الأمر أى نقص يجب تداركه؟ بل كيف استطاعت أمى، على أى حال، أن تتح من هذا المطبخ المتعصر الفيح كل هذه الأصابع الرثعه من المأكولات؟



كان المودح الشائع للباء، الذي دحراف كان يشد عنه أى حرب من مذب
 انطبقه الوسطى في مصر، هو صالته واسمه (ك سميها «لصحة» قبل أن يطلق
 عليها، لاسم الأمر بـ «صاله») تخرج منها من كل ناحية أبواب يزدى كل منها إلى
 حجرة أو إلى المطبخ والحمام. هذه الصالة أو الصحة كانت تستخدم في الأساس
 بوضع مسئلة الطعام التي كانت توضع عدة في الوسط بوسط لم يكن يعرف
 شيئ اسمه «حجرة الطعام»، بل حتى حجرة الجلوس أو الاستقبال، كانت في عادة
 حجرة معيقة لا تفتح إلا في المناسبات، فلا عجب أنها كانت تسمى «حجرة
 لسفريين»، إذ إنها لم تكن في لأصل تفتح إلا لاستقبال الآتين من سفر طويل
 وكانت تحتوى عدة على كراسى مرصوفة في شكل دائري بحيث يلتصق كل
 كرسي بالحائط، على نحو يتكرر في كل بيت دون أى تغيير أو استخدام لأى
 حال

إذن محجرات البيت لمستخدمة كلها، هي محجرات سوم، وكلها محجرات
 تستخدم «على الشارع» وتعتبر إلى أى خصوصية، باستثناء حجرة واحدة كانت
 تتمتع بهية مدحرفة وتلقى عناية خاصة عند نظيفها، ولا يحددها أحد إلا لسبب
 وجيه كانت هذه هي حجرة نوم أبى، اكتست في مطربا بهية مل وارهبة التي
 كانت تحيط بأى شىء يتعلق بأبى كان لهذه المحجرة أبى اسم غريب ليس من
 السهل تسميته وهو «حجرة السرير» فالمحجرات الأخرى كانت بها أيضاً أسرته،
 فهل لسبب هو أن حجرة أبى كان بها أنعم سرير، وهو صحيح، أم أهم
 سرير المؤكل أسمى أذكر كيف أبى، وأنا طفل صغير، كنت إذا مندت بلى لأخس
 الملاة المروشة على هذا السرير شعرت بأبى من نوع محبب غمما في أى ملاة
 أخرى منزل - عمة المنص ك خبير، واردة برودة معشة في عز الصيف لا
 أذكر أبى رأيت أبى قط على هذا السرير أو حتى بالقرب منه، وإنما كنت أعتبر أن
 سرير أبى هو نفس السرير الذى أم أم أبى عليه ذلك أبى باعتدري أصغر الأولاد،
 كنت أحظى بامتياز النوم إلى جوار والذى بعد أن طرد الولد الأكبر منى، بمجرد
 وصول أبى إلى الوجود، للنوم «تحت الرحلى»، وهو نصير كان معروفا عند

ومعاه النوم في نفس السرير ، ندى يتام عليه شخص آخر ولكن في نومه معكوس ، ومن ثم كان هناك دائم حصر يتعرض له كلا التائمين وهو أن مصطفى وحده أحدهما يندمى الشخص لائمه في الانحاء الأخر

كان هذا السرير ، ذو الاتجاهات المتعددة ، موجوداً في حجرة لها اسم بسيط هو «حجرتنا» ، والمقصود بذلك أنها كانت لحجرة ندى يتام فيها «الحمام» أو «نعامه» ، فمبنياً بها عن حجرة «الزير» التي يتام فيها والدى . وقد كانت «حجرتنا» هذه ، كالسرير يتنام بها ، هي بدورها متعددة الأغراض فمفضلاً عن السرير ، كانت تحتوي أيضاً على مرتبة مرسوعة على الأرض ، جلس عليها للحديث أو لتناول العشاء ، وأمامها مائدة صغيرة مستديرة وقسلة الأرضاع اسمها «طلعة»

يمكن للفناني إند أن يتصور درجه الموصى الصارمه في هذه الحجرة ، التي كان يمكن أن يجرى فيها أى شيء . لنوم أو الأكل أو استقبال الزوار من الأقارب . أو استذكر للدروس أو اللعب والهدوء . يح . وذلك بعكس حجرة ندى أو «حجرة سرير» ، التي لم تكن مدججه إلا لإد شعربان مراح أبى يسمح تبادل الحديث معه ، وجيد تدخل أى بحجرة وسحر وراءه ، فحتل الصر بحدرو إلى أبى الخاس على الكفة الامتائولى وهو يحتسى القهوة فإذا لم يجد مشغولاً بكتاب أو جريدة جلست أمى على الأرض وحلست بى جو رها كالقطن الصغير . كانت هذه الحلقة هي أقرب ما كان يمكن أن يحدث للجلسة «العائلة» الحفمة ، وهي على أى حال لم تكن تدوم طويلاً ، إذ سرعان ما تدر من أبى كلمة أو حركة يفهم بها أن ابريرة قد انتهت ، فمسحب وراء أمى كما دخل

لقد ذكرت بعض الأسماء العربية التي كانت أمربا تطلقها على هذه الحجرة أو تلك ، ولكن الحقيقة أن الأسماء الثلاثة لهذا الجزء أو ذاك من سوت الطقة المتوسطة كانت بدورها أسماء غير مأثورة لأسباب اليرم ما شرفة أو الباكورة كتب تُسمى بالاسم الإيطالى «ترامبية» ، و«أنواليت» كما يسميه «بيت الأد» أو «بيت ماحة» أو «لكيف» . كما أن بيوت هذه المنطقة كانت تحتوي على أشياء ثائرة لا يكاد يحلو معها بيت ولكها كانت تنقرض انقرضا تاما النوم من دت

اصيبة القتل والإبريق الموصوعة على سور إحدى شرفات، والتي كانت المصدر الوحيد للماء البارد في الصبيف، ثم حلت محلها ثلاثة مدائن لا تزيد على كونها صندوقاً خشبياً لا صلة له بالكهرباء، يوضع في اجزء العلوى منه لوح أو قطع من الثلج على ماسورة متصلة بمسور يحرق منه الماء البارد، ريثما يدوب لوح الثلج فيستبدل به غيره.

والحقيقة أن الكهرباء لم تكن طوال فترة طفولتى وصبي، تلعب دوراً هاماً في حياتنا المنزلية. فلم يكن يعرف من أثارها إلا لثة الكهرباء التي تدبى عادة من وسط السقف. فلا تلاحه كهربائيه ولا عبثه أو مكسبه أو موجه كهربيه، ولا جهر لكيبف الهواء أو تيمبريون بل حتى الرديو كان يحس شيئاً شديداً يتطلب رصمه على رف عال لا تنص إليه أيدي العابثين. لم ندخل التلاحه الكهربائيه بيت إلا في سنة ١٩٤٧، عذبت كنت في الثامنة عشره من عمري، وكانت تلاحه أمر نكته فضخمه، مرت مرة من الرمن فس أن عرف مدى فائدتها، وهل كنت تسحق حقاً الملح الكبير الذي دفعه أبى ثمالها، ولكننا مع مرور الرمن أصبحنا لا ننصو العيش بدونها. فلا دخول التلاحه، وصون العمالة الكهربائيه التي اشترها أبى وجلسها إلى المنزل دون أن تطلب والمضى منه ذلك، مدعوتاً بما سمعته من مدى توفيرها للجهد والتعب. وقد حاول أبى دون جدوى دفع أبى باستخدام هذه العمالة الكهربائيه، فلم تحط هذه العمالة من أبى إلا بالاستحفا والاحتقار، لس فقط من باب المل طبيعى لدى الروجه للثقل من دهره ورحل وعجانهى بصع، بل بسب اعتقادها الصديق بأن العليل لا بد هو الطريقة الوحيدة لتنظيف الملابس نظيفاً حقيقياً. وعندما قمت أبى سحرتهى تحب إلحاح أبى، أعلنت بحسم تام أن هذه العمالة الكهربائيه تعبها أكثر من نعمها، وتركنها في مكانها دون استعمال لعدده ساعات حتى فقدت قيمتها بظهور ما هو أفضل منها بكثير، ولكنى على أى حال لا أذكر أبى رأيت أبى قط تستخدم أى جهاز في عيى الملابس سوى يديها.

إذا كان هذا هو مصير العمالة، فلا يجب أن نتوقع شيئاً محتملاً فيما يتعلق

المكنسة الكهربائية، فهذه تم بدخل بيتنا فقط حتى انعمدت أنا بمسكن خاص بى بعد الم رواج ردى ظلت وسيلة نظيف الأرض هى تلك الأداة العتيده ذات الأهمية البالغة فى أى بيت مصرى، وهى «المقشاة»، أو بعضا الحشية الطويلة التى تنهى حرمة من الفش كان استخدم هذه «المقشاة» فى تنظيف الأرض ثم دعت الأرض بالماء والحيش عند ذلك، هو الوسيلة المدسة تداً ليلاط الذى تم بكر معروف غيره فى أراضات المنازل كد استخدام السجاده والكلم بادراً، ويكاد يقتصر على فرش سجاده فى «حجرة لمساكين»، أى الصالون، وربما سجاده أخرى تفرش فى الشتاء فى بعض الحجرات المهمة كحجرة أبى مثلاً. وأما الحشيش فلم يكن يستخدم على الإطلاق فى أراضات منازل لطقة الوسطى أو اللب، بل كان مقصوراً على منازل قليلة للغاية من منازل الطبقة العليا المتأثرة بنمط المنازل لمصرية. وعنى الرعم من أمة هذه «المقشاة» وحردل الداء ونظفة الحش، وضرورة استخدامها باستمرار مع كثرة البراب فى مصر، لا تعلق بدهى فقط صورة أمى وهى عشت بأى شىء من هذا، بل كانت هذه المهمة التى تحتاج بى درجة لا يستهان بها من الدباة الدية، تلقى على عتق الخدم، وعلى الإناث منهم بوحه خاص، لأمر الذى كد يخلق حرصاً لا يستهان بها أيضاً لندال أمام الذكر من أفراد العائلة، لى لا يمكن أن يتصور حدوثه بالصع من المكنسة الكهربائية

عنى أن نر الكهرياء لم يقتصر على إحلال المكنسة الكهربائية محل انكاسة الأدميه. فكلم امبدعت ذاكر تو كيف كد حياتنا فى البيت فى طفولى وصباى معقارة بما ألت إليه حياتنا اليوم، راعى كيف أدى دحور الكهرياء إلى حره بعد آخر من أعمالنا اليومية، إلى قلب نمط حياتنا رأساً على عقب. فعلى سبيل أمثا، كان «يرم المسيل» يوم ما تشيع فيه الموصى فى البيت نكمله، سواء كان من يقوم بمسيل الملابس أمى أو غسالة أدميه مدفوعة الأحر. فالحمام يصبح معلقاً بسبب حالة الطوارئ التى تستدعى استخدام «طشت» كبير للمسيل، وحتلال تلك المرأة المفرطة لسمه القائمة بالعسل لا تقرب من نصف مساحتها، ناهيك عن الصوصاء الناجمة من صوبها العالى من ساحة ومن مامور بخار الضرورى لتسحين الماء إلح كان من سادر أن بصل إلى سمعك صوت رديو (ناهيك عن التلمزبون) من

بيوت الحيران، ولكن كثيراً ما كنت تسمع أصواتهم ترتفع داخل سحر أو الحب أدت قبة الأحهرة الكهربائية أيضاً، إلى شدة اعتماد الطمعة المتوسعة المصرية على الخدم، فالخدم في كل مكان، رجوع عاديون في كل لحظة، يربطون لشراء كملة تافهة من الخبز أو قطعة صغرة من الخس، ثم سرعان ما يبعث بهم مرة أخرى إذا كانت ربة البيت قد نسيت في المرة الأولى أن تطلب أيضاً شراء ليمونة أو ليمونتين، وليس ناست ثلاجة كهربائية ضخمة لأكل من البعض وهم داهيون عاديون أيضاً في طريقهم إلى المتكوحى أو عائدون منه، إذ لم يكن يعرف أحد بعد المكتواة الكهربائية، أو داهيون بنى معمرى معمومي أو عائدون منه، حاملين صبية منكرونة أو الطعطي، إذ لم يكن بالبيت فرد خاص به يعمل بالكهرباء أو العار أما لعب الأطفال التي تحتاج إلى الكهرباء، فلم يكن يعرفها أو تصورها، كان يعبس ولهب، مثل كل شيء آخر في حياتنا، فكيف الاستخدام للعمل قليل، للاستخدام بر من المال، إذا استخدمت بعة الاقتصاديين فكيف لعت بعة سحائر بنى بعد أن ملئ بها فريضة، وكلم استخرجت أصوات من وقتها لفحصه الهاهرة، موضعها ملاحظته لشعنى وتغيرتها مع النفع منها، هذا كنا قد حرف في طعولنا من تلك السيارات الهاهرة التي تسير بالطاريات، أو من الماذح الرائعة للعطارات وبقصات إلح، فقد كان لنا لحسن الخط متع اللعب في الشوارع

مع مرور الزمن حلت «الأهرة» بمختلف أنواعها محل العمل لأدمى أو الاتصال الإنساني المباشر، فعمل لتسهرسون من الكلام وردى أيضاً من الشجر، وقصت اشلاحة الكهربائية على العلة والإريق، كما كذب بشلاحة والعبانة والمكوة الكهربائية تعنى أسس من الخدم وعن العسله الأدمية والمتكوحى ولكن هذه الأشياء الكهربائية كلها، وإن كنت قد جعلت حياتنا اليومية أكثر بفاعلة وأقل عشوائية، فرضت على الجميع الحاجة إلى كسب المزيد من المال حتى يمكن اقتضاؤها وهكذا بدأ الحديث عن المال وطريقة توافره أو زياده، يزداد في بيت مع مرور الزمن، ثم كان يتدر أن سمعة في طينوتى

الإخوة السبعة

كان لدى دانيال اعتماد واسع بأن الاحتمالات الشاسعة بين شخصيات وميوس
إحتوي السبعة لأنه أن يكون مر جمعها، قبل كل شيء، عامل الوراثة. فهي نحن
شأننا هي نفس البث، وذهبنا إلى نفس النوع من المدارس، وقضى كل ما فيما
عد إحدى شقيقتي وأخي أحمد، عذبة سواب في أوروبا، وإد بكل ما عالم
مختلف تمامًا عن بقية الإخوة. قد يكون من الممكن اكتشاف علاقة القرابة يسا من
مقارنة شكل العينين أو حجم الأنف. أما لشخصية رايول ملا يشبه أحدب الآخر
فيها قيد أغلة

كان أخي الأكبر (محمد) يكبرني بسبعة عشر عامًا، وقد مع هذا لعازق الكبير
بين عمرنا من أن نمو يسا أية صداقة حقيقية، وجعل التهامهم يسا شديد الصعوبة،
كما جعل معرفتي بطولته ومساوات شأنه المكر لا يعتمد على الحيرة المباشرة بل
على ما سمعته من الآخرين. سمعت مثلاً أن أبي كان أشد قسوة في معاملته مع في
معاملة أي من الإخوة الآخرين، ظ من أبي بأنه إذا صلح الابن الأكبر اقتضى به
الآخرين. كما سمعت أنه تعرض للضرب من أبي يسا لم يضرب غيره. ولكن ما
سمعته عن تصرفاته المبكرة يبدو لي الآن في يستوجب انصرب حقاً.

كان طويل، ناعمة دا رسمه واضحة، إد راب تمامًا. بك الخطر الذي كان يفلق أبي
وغير كبير حجم أمه. كما لم يحقق فقد م كان يفلق أبي عليه من وراثة قصر بظه،
فقد تمتع محمد بقوة الإبصار ولم يحتج إلى نظارة طوال حياته. شديد الاعتراض
بكرامته، غنيق في عظمه، قليل التسميح، ودو ميل قوياً للانتقام ممن يسيء إليه.

له حلق لإقطاع المستد، بعاص حدمه ومرءوسه معاملة أقرب إلى معاملة السد
للعبد، ويحبب الجميع بها حه وعصه بل ومجرد احتمال وقوع هذا لعصب

لم يظهر بى مه ما يدل على المليه الثالثة إلا فى لإدارة وعلى الأحص فيما يتعلق
بإدارة أموره المالىة. فقص سواب دراسه طابا عاديا لا يظهر تهورا ملحوظا، رغم
كل ما رجحه أبى من اهتمام لتعليمه وتعمية عقفه، ولم يبد أن كان حياة أبى فى بصره
ما يعبره بتقليده أو اقتفاء أثره، بل كانت تصدر منه أحيانا عبارات توحى بأنه كان
يعتقد أن أبى أصاع من مرض الكسب واعتلاء لمصا لكبيرة ما كان معتبره محمد
أجدر من قضاء بوقت فى قراءة كتابه الكسب لا أذكر أبى سمعه يكلم عن كتاب
قرأه أو مقاب أعجب به. كان حلمه أن يصير مبيريرا، فإذ حصر كمية الهندسة
فلاعتقده بأنه بها أقرب إلى تحقيق هدفه، احلم منه بغيرها، وإذا ذهب إلى أوروبا
لتحصر الدكتور ه شعلته محاروا لأنه الحصول على بوكس لإحدى شركات
الإعلانات، لإلمعية ليرود إلى مصر وسائل الإعلان الأتوماتيكية الحديثة، وكان
بالفصح من أول من أدخل إلى مصر ما نجعل به الفاتريات اليوم من إعلانات
متحركة، كتشمل رجل يسحب لك مرقبا، وأسماء للمحلات لمصية باليون والنس
مصحف النصر تتابع إصاها وإظعاها

لم يكن من عريب إدد أن نشأ فجوه كبيره مه وبين أبى فهم طرفا قصص لم
يكن بقدرة أحدهما أن يستيع طريقه لأخرى التفكير أو بطرته للحياة كس كلام
أبى فى لأدب يرمز أدب أخى محمد بخرج من الأخرى دون أن يثر أى أثر. أما
استهذه أبى بالمال وقعة احتفاله بجمعه فلم يكن يستدر من محمد أى إعجاب
وعنده تجتمع لدى محمد من مال ما يمكنه من شراء أو ص واسعة فى المعادى وماء
فيللا فاحرة عبيها، فقص بءها على حرمه من الأرض على نحو لا يقلل من القيمة
المجارية لبعية لأرهم، ثم ملا القبيلا بقطع الأثاث الذى يمكن أن تزيد قيمتها مع
الوقت، فأصبح بيته محزنا هائلا للتحف الثمينة. لم يكن ريدته فى هذا البيت
مهمه سهلة، فإذ الخلافة أب حيدى شدة الارتفاع معذ بالسلاسل التى تحتاج
لم نأشى من داخل بيت لمكها، وتحرسه أربعة من الكلاب لمحيقة التى تهب

مستعده لالتهامك بمجرد اقترانك من الباب ، حتى يصبح بها أحد الخدم لتهدئتها ويحصب من روعك هذا دخلت بيت راعك ظلامه الشديد ، حتى لو كانت الشمس ساطعة في الخارج ، ووضع سائر ثيجه على اسواقه لحماية الأثاث الثمين من اشعشع وفي طريقك إلى حجرة الخلوص يمكنك أن تلمح النصف النسيبه متراسه يميناً ويساراً ، ولكن الحادمة تقودك إلى حجره مفروشة فرشاً بسيطاً بلعامة لا يحشوى من الأثاث إلا ما قل منه بحيث لا تبي أصحاب البيت يحدث له . هـا يقضى أصحاب البيت يومهم تاركين بقية البيت بأذنه الفاحش قابلاً في الظلام ، لا يراه أحد ولا يلمسه أحد إلا في مناسبه أو مناسبتين خلال العام ، كترتوج ست أو استقبال وزير

من المزد أن حب أمي لاسها الأكبر سم يكن يعادله حبها لأي من أولادها الآخرين ، أو لأي من البنين ، ولم تكن تنوع عر أن تظهر هذا للجميع . بما كانت تدرك فطرتها من الذايه أنه ، بميله واستمداته بطيعه ، ينشئ إلى معسكرها هي لا إلى معسكر أبي . كان يسيطر عليها شعور دفين يحتاجه إلى الحماية من أبي ، إذ كانت تشعر بوع من الخوف المستمر منه ، ولم تطمئن قط إلى دوه ممكنه بها وقد أظهر محمد من سدايه أنه ، إذ حدث ما يدفعه إلى لا حيدر ، فسوف يحذر الوقوف إلى جانبها هي . كان وجهها يتهلل لدحوله الليت كما لا يسهل لأي واحد من ، وكانت تعثر بهذيه مع اعترافها لا يظهر مثله لأي ابن آخر أو بنت أخرى نها على أن هذا الحب العظيم أصابها بصدمتين كبيرتين

كانت الصدمه الأولى عندما دخل عليها أبي يوماً معلناً أنه ستطعن يحصل لمحمد عبي عثه حكوميه لتحصير الدكتوراه في إنجلترا . وقع عليها الخبر وقع الصاعقه وأصابها هم عظيم . فـهـ هو الزوج استند بعرق سها وبن سها المصقل ويرسله إلى بلاد البرد القتال ، وكأنه يتعمد إيداعها وتحريرها من وسيلتها الوحيدة للتصدي خبرته . منذ أن عرفت أبي الخبر تنازع عليه مرض بعد آخر ، وعودنا أن نرى ونسمع بكاءه وحبها الذي وقوع أي حادث مهما كان صغيراً ، أو لذي رؤيتها لعلام تمثل فيه أعيه رزق دور الأم التي فرقت الأيام بينها وبين سها

كاستنقظ ليلا مدعورين إذ محدها قد قامت من به مها نصيح وتشتب أثر
 كابوس يدور حول فراقها القريب لاسها، ويحول أبي تهنته قائلاً إن صغر محمد
 شيء المروص أن نمرح به وتصح به، وأنه لا يحور لها أن تصف عفة في طريق
 تقدمه فيكون ردها أن بإمكانه أن يرسل كل أولاده الآخرين إلى الخارج إذا شاء،
 بشرط أن يترك لها عبد الابن لمفصل

وإذ لم تستطع أمي إقناع أبي بالعدول عن هذه الحالت بي الحيلة كانت تعرف
 مكانه صه حبيب ومودة في وزارة المعارف، وأنه هو الذي ساعد أبي في الحصول
 لآبيه على البيعة، فبدأ بها تتصل بطله حسين تليموي من وراء ظهر أبي. وتصف له
 مؤسسا وعدايبه منذ سمعت الخبر، فيظهر طه حسين أولاً عجبه ثم يبين لها قلبه
 وعيوب له جملة يرتاح لها نفسها ونظن تردده عليه وكأنه الطنم الذي سيضع
 حداً لها ثانياً لعداها. نقد قال لها الرجل نالعه للعربية الفصحى «كوسى واقفه أنه لن
 يسامر حتى يأتي لأذن سته» ووصلت بقصة لأبي عن طريق صه حسين بمه
 فاستطاع غصبا، وحاول أن يبدد محووف طه حسين بما ذكره له عن «جهن أمي
 وحملتها» ومع ذلك طلت أمي مضطه إلى وعد برجل بصردرة حصوله على
 إينها، وتردد عبارة «كوسى واقفه» لتأكيد حصولها على ما أرادت، حتى رأت بها
 يسفر العذر في طريقه إلى محلتها، بعد أن أجبرها أبي على الاتصال بطله حسين
 لتقول له إنها توافق الآن على صغره

وحاءت القصيدة الثانية بعد عودة الابن من البيعة، وقد حصل على الدكتوراه،
 مستين أو ثلاث، حينما أعلن له عزمه على الزواج كان لأرجح أن رواج محمد
 من أي امرأة، ولو كانت هي التي اختارها له، سيب لها من المؤ من مثل ما صبه
 لها بسفر، ومن ثم لم يكن هناك أي امس في أن تخطى الروحة لاحتاره برصها
 كانت العروس مختارة امرأة محنته عويه الشخصية سمعت أمي أنها تروحت من
 قل وظلقت من بين، وأن محمدا هم زوجها الثالث. لم يبد الأمر مفهوم لها على
 الإطلاق. فمحمد بدا لها، وكأنه يستطيع أن يتزوج من أفضل سائت البلد، أسره
 وضاعاً وحمالاً ومالاً وكانت له أثناء قدمته بالخارج، صديقات إنجليزيات

وسويسرييت وسويديات رائعات الجمال، طمعت كلهن في الرواح مه وهد
 حاوب أمي إقناعه بالنفد اية صديقتها «هدية»، الأرسقراطية المنعمه
 والثرية، فرفض محمد لعدر ناله احتلقه اختلاقاً، ثم إدا نه يختار امرأة من سره
 اعتبر نه أمي أسرة عادية، متوسطة الحال، لا يعرف عنها ثراه أو جاء، كما سبق
 له الرواح وبطلاق كاد موقب أي في مثل هذه الأمور موقفا عقلاي عماماً، فهو
 بقى في داخل نفسه يحرقه في حذر من بشاء روجه له، فإذا أصابته حسه الأمل
 رأى من الراح ألاً يظهرها فد يحاول إثاء عزمه برهن ودون إلحاح، فإذا رأى
 نصيباً من لاس لم يعود الكرة مرة أخرى أما أمي فقد أغلب الحرب على
 الرواح، فرفضت ريرة عائلتها، ولم تقبله في بيها إلا مصغرة، ثم اسحب
 اسحباً نه من حياة أبها بعد رواجه، وقعدت تحتراً آخر به وحبية أمها وتكرر
 الأمر عندما طلق محمد روجه وبروح باحري، إذ لم يحظ الرواح «خديدة من أمي
 معاملة أفضل مما حظيت به الأوسى



ولد أخى عد الحمد بعد أخى الأكبر شعلنة أعوام، ررق خلالها والدى بارعة
 أطفال لم يعش منهم إلا ستان، ومات الآخران في المجها كان المتوقع إذن أن يحتل
 هذا الذكر ابدى مد الله في عمره مكانه خاصه لذى أبي وأمي، ولكن لا أذكر شيئاً
 يد على ذلك، بل يسرعنى ساهى بوجه خاص فله احتمال والدني به بالمقاربه
 مشغوره نحو الابن الأكبر - فما أذكره هو مقبولة متكررة تعده أمي بين «بولدين
 تنهى منها دائماً إلى تفصيل الأكبر، ولا تنزع عن أد تسمع عد الحميد رأيها كان
 عيد الحميد في نظرها، على ما يبدو، ينتمى إلى معسكر أبي، له نفس حسه الخلقى
 الصوى، وقية اهتمامه بكل ما يتعلق بالذ وأمر لحياه البومه كان مد طفولته
 «وحن فكر»، بينما كان محمد «وحن عمل» ولان أن والذى قد لاحظ ذلك مد
 البدياه، فقال إليه طلب الأب دون أن يسمح ليه بأن يعلن تفصيله له، بينما مال
 قلب الأم إلى الابن الأكبر وأطلقت نفسها العنان في الإفصاح عما تشعر به

لم يد عد الحميد لأمي الشخص المزهل حمايتها من أبي، فهو هادئ الطمع،

بطيء الاستجابة لمشاعر العصب، هناك لتروى في العواطف، وهو على كل حد يحمل قدر من فائت لقدرة ت أبنى الفكرية و الحلقنة، ويجل مل بي إلى الكتب ويستوريه نفس ما يستهوى أبنى من معضلات إنسانية وأخلاقية، مما لا يفهمه أبنى أو نصر عليه. كان يعكس الأخ الأكر يأخذ دراسته مأخذ، ويصيه القلب الشديد لدى اقتراب موعد الامتحان. وهو صادق بعينه وذو إحساس فى قوى، بحمد الرسم ويتحسن للقصة الجيدة والبكتة الدكية، وله قدرة ملحوظة على رواية ما يقرأ من قصص بطريقة شائعة بأخذ باللبا، وعلى رواية البكتة على نحو يفهم له ضاحك.

دخل عمد الحميد كلية الهندسة مفتعيا خطوات أخيه الأكر، فتوق فيها حيث لم يسمح لأحر إلا بصعوبة. وإذ سافر الأثن إلى إنجلترا بحصول على الدكتوراه، جاز عند الحميد مكانه واحده تقدير أساده الإنجليزى وإعجابه، بينما لم يحصل الأخر على مثل هذا تقدير والإعجاب. وبينما قصى الأخ الأكر وقته فى الخارج بحث عن توكيلات تجلب له اربح بعد عودته، انعم عند الحميد، بي حاسب دراسته، فى نشاط سياسى أدى به مرة إلى إلقاء حبة فى البدى لثغافى المصرى فى بدن نادى فيها سقوص الملك فاروق، وكذب تودى بي اعتقاله بدى وصوبه بي ميناء الإسكندرية، لولا أن قدمت ثورة ٢٣ يوليو وهو على ظهر الناحرة فى عرص البحر. وبعد كان محمد يبدل عشيقاته الأودوبيت دون أن يعرف له قط صديقه ثالثة أو عراب حاسب، وقع عند الحميد فى حب فتاة مساويه طيبة القلب أحلص لها طم أن إمامه برمحتر وأعاد مرو حابها إلى مصر.

عاد الأثن ليبدأ التدريس فى كلية الهندسة بمصر، ولكن سرعان ما تركه محمد الجامعة ليوسى وطيفة أعلى مرنا وأقرى مودا فى مؤسسة حديثة أسأها عبد المصر لفيوض بالصناعة فى لامركر النكمية الإنتاجية، وتعد بالترقى السريع فى المرتب وامركر، بيد ظل عند الحميد أستاذة بالجامعة، بعشقه تلاميذه عشقا وتقصى أمسياته فى مركز للبحوث، وقد أصبح فيه صاحب مدرسة صغيرة يباع فيها البحث فى موضوعات مبكرة ويحصل ببعض لأستاذة العالمين فى موعه، ثم باتون لمصامه فى جهود عبد الناصر لإحداث نهضة علمية وصناعية فى مصر.

عندما أعلن عن إنشاء تلك المؤسسة الجديدة (مركز الكفاءة الإدارية) وعن وظائف جديدة بها، يشعلها بعض حاملي الدكتوراه في الهندسة، يقدم محمد وعبد الحميد بطلب الانضمام، فصار محمد بالطبيعة ورفض عبد الحميد. كان واصحاباً أن محمد هو الأكثر نصيباً والأشد حرصاً على برك الجامعة التي لم تنهوه كثيراً، ولم يحقق فيها نجاحاً يذكر. كما أن المسئولين عن الاختيار لابد أن وجدوا في جرأة محمد واعتزازه برأيه بعد سنوات إدارة عالية يبعثوا في عبد الحميد غاماً وناحلاً لا يصلح للإدارة.

اسم محمد الأصح الأكبر في لترفيه من وطيمه إلى وطيمه أكثر، حتى أصبح في مسوابة قليلة وكيلاً لورادة الصناعة، وفي تنمية ثروته في بيئات أخرى، وشرى شقة بعد أخرى، بينما ظل عبد الحميد جنيهاً المتعددة التي يحصل عليها من الجامعة، لا يكاد يستطيع الحصول على الضروريات، ولا يستطيع أن يصيب إليها إلا بشئ الأتيسر، ترجمة كتاب المؤسسة فرانكس في مقابل خمس جنيهاً، أو تأليف كتاب مبسط في النشرة لسلسلة الألف كتاب ويحصل به على جائزة لا تزيد على مائة جنيه.



كيف لا يكون عامر الوراثة هو المسئول عن ذلك العار الشامع بين شخصين أحنى فطمة وبعيمة؟ إن الأولى لا تكبر الثانية بأكثر من عامين، ومن ثم فقد واجهتا ظروفًا عائلية تكاد تكون متطابقة، ومع ذلك فهما تدورن وكأنيب تنتميان إلى عالمين مختلفين، ولا يمكن لمن لا يعرف أيهما أحن أن يحسن أيهما كدث، إذا شاهد سلوكيهما وميولهما ونظرة كل منهما إلى الحياة.

كانت فاطمة دائماً تنتمي من قبة رأسها إلى أحمص قدميها إلى العالم الحديث أو المتقدم، وبعيمة إلى العالم القديم أو التقديري. فقد أن بعثت فاطمة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها وهي تسدى مظالم التمرد على السلطة الأبوية وتطالب بحريتها وتحارب اكتساب الجهول، وأن تتعلم الحديث وأن ترى العالم وهي مدمرة ومقاومة ولا حد لطموحاتها. تحب الثراء ولكن كوسيلة للحياة الطيبة

بيت حميل، والظمام لحيد، والشباب الأملقة. تجدد الإمبريرية ولها معرفة لا بأس بها بالعربية، ومواظب على قراءة الصحف الأسبوعية الإنجليزية، وتتابع من خلالها تطورات السياسة في العالم. وهي وإن كانت لا تتألمى إلا كد رئيس الوزراء المصري على مصرى أو كزكريا محيى الدين فإنها تعرف أدق تفاصيل السياسة الإنجليزية وخصوصيات أسرتها المالكة. وإذا كانت لا تتألمى إلا كد رئيس محظوظ ونوفيق الحكيم فإنها تعرف أدق تفاصيل العلاقة بين مبارك وميمون دى موبارز، وتقرأ وتولسوى وتعشق دستورى ملكى عشقا، وتستطيع أن تقص عليك تفاصيل «كارين» أو «الإحوة» «كارامدوف» متى تعود إلى هراتها مرة بعد المرة، وأن تقدم لك تحيلا يديما لشخصية كل بطل من أبطالها.

وعم كل ذلك، فإن علاقة أحنى فاطمة بأبى لم تكن طيبة في أى يوم من الأيام لا استطع أن أقرر ذلك إلا بحذو طبعها ومرجى الثورى الذى كان من الصعب على أبى أن يقبله في أحد أمانه المذكور، مما يأتى إذ وحده في سبب سبباته؟ كانت فاطمة بلا شئ، مد طعوسها، جدى مفصصات حياته، بهي دائمة الشريرة على سلطته وعلى تدخله في حياتها، سواء تعلق الأمر بما ترتديه من ثياب أو اختيار من سروج حمار لرجل في أمره حتى انتهى إلى حل يريح به نفسه وقد يؤدى، كما كان يطقى، إلى يهدب طابعها فأرسلها إلى مدرسة ثانوية داخلية بحلوان، وهو تصرف عرس من أب مصرى، مقيم في مصر. ويدور أن غرامة هذا التصرف، وإبعادها في هذه السن عن الأسرة، قد ردت كما كانت تشهر به من عصب على أبى، وهو عصب لأرمي طول حياتها. فهي وإن كانت تذكر أمى دائما بحب، لا تكاد تنسى بحرف عن أبى.

أظهرت است تصرفا ودك في درستها الثانوية، كما أظهرت من الحرة والشجاعة ما جعل أبى يستجيب لرغبها في أن تذهب لإكمال درستها في فرنسا، وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة، في بعثة حكومية لبعض العائلات المصرية تحت إشراف سفير بعملاوى، على أنها سرعان ما عادت بعد بضعة شهور قصصها في مدارس سب قيام الحرب العالمية في ١٩٣٩

عادت فاطمة إلى التمسك على أسي رفصها الزواج من ابن عمى كان أبى يستعجل تزويج بنتيه، ولم يدعه التزوي الواجب من كان له مثل نفاعته وسعة اعمه، في احتيار روجيهما كان تبريره الوحيد للمرافعة على تزويجها من ابن عمها أنه «يعرفه معرفته لشخص عدا أمامه»، فاصدا أن محرد كونه من الأخوة ومعرمه بكل شيء عنه يجعل الزواج مأمون العوقب، أم أمور الحب أو عدمه هم تكنى بأحده مأخذ الحد الأعرب من ذلك أن اعويس المرفوض من يتوزع عن انشقدم لطلب بدالت الصغرى بعد أب رفصه أحتها، وأن أبى من مة دلت، وأن «الأحب الصغرى منه بدورها

كانت مريمة في ذلك الوقت في الساعة عشرة من عمرها، فلعلها تقبول هذا الزواج لم تكن تدرى المصط ما تفعل، كما أنها لم تكن تجيد متعة كسره في الدراسه، فرحت بهذه «فرصة للخروج من المدرسه إلى الأبد» وعل أن تتم ذواسها الثانوية، ولعلها تطلعت إلى ما يصحب ازواج عادة من مديا ومص المجهورت أما فاطمة فقد انتظرت أن يتقدم لها عريس آخر مناسب، محه ويحبها، فلم تظهره حتى بدأ يصعب العلق من أن يعوتها القطار، و فطرت إلى قوب عريس آخر أكثر اتصلا بدعلم الحديث من ابن عمته، ولكن قلبه لم يهتر له أكثر مما اهتر للأخر كان العريس الجديد وسيم سحيا، رفيق انشاعر ومحبا للثقافة ويطمح في أن يكون له مستقبل في الأدب وكتابة الشعر، ولكنه كان بعد كل البعد عن عارص الأعلام الذى كانت تنظره فاطمة، والذى لا يوجد إلا في الكتب أو الأفلام كما أخطأ الرجل خطأ حسيمًا يستحيل صلاحه عندما يدر من عبارة مزداها أنه جاء «ليزوج لا من فاطمة بل من أحمد أمين»، ومسمعت العاة عن نفوهه بهذه اعاره، ولم تكن من النوع الذى يمكن أن يعقره له فقد.

تزوجت فاطمة إذن من رجل كان يشعر بالحب، لا يحرمها في ولكن نحو أبيها، وتزوجت مريمة من ابن عمها الذى لم يكن يهيم كثيرا ما إذا تزوج من مة السب أو أحتها وقد كتب أبى عن مدين الرواجين في كتابه «حياتي» أنه «زوج يشبه «رواجا» بقدر الإمكان سعيد»، وهو وصف أعتره بالغ التهذب لحالة كلا الرواجين، وأن لا

أكد أدرك الشقيقة الصغرى إلا وهي شكوى من روحها، وما أكثر المرات نرى سمعت
 فله روح أحتى بكبرى وهو يشكرها إلى أبى ومع هذا وذاك نعم يشتهى من
 الروح حين بالطلاق، ولعل لسبب الوحيد لذلك هو خوف كس من الروح حين
 الأحتين من أبى، الذى لم يكن يتصور سمع كسبه «الطلاق»، حاصه إذا تعلق
 يوحى ستيه

توفيت أحتى نعيمة فى من مكررة سببا، إذ لم تلغ الثالثة والستين، وتركت
 وراءها ثروة لأمنس بها، وأما فاطمة فعاشت حتى الخامسة والستين وماتت وهي
 لا تملك شئاً غير وديعه فى بيتك كانت تعيش على ما يدره من فوائد ولا تملك حتى
 الشئة نرى نكها، عاشت دائماً عيشة أرسراعية، نكس أحسن شقة، وترتدى
 أخير، لباس، ولا تأكل إلا أفصل الطعام، وتنصى حراً من كل صيف فى أحر
 القادق. كانت نعيمة كثيراً ما تعبر عن صيقتها من قلة مالها أو من ارتفاع الأسعار،
 أما فاطمة فظلت دائماً مبتهجة ور صبة عن الحياه، وظلت حتى أيامها الأخيرة تطلق
 المضحكات المستشرة باحة، وتلمع عيناها بسرور كلما ذكر أحد أمامها، هذه القصة
 أو تدث من قصص دستوبسكى



لاند أن أحمى أحمد فدا حار حيرة بالغه، إذ وجد نفسه فى ذلك المركز المحرج فى
 وسط هذا الجيش الضخم من الأولاد والنساء، لقد وجد نفسه فى مركز لا يسمح به
 بالتماهر على الآخر، ولا يتيح له ما يمكن أن يستلزمه فى ريادة قوته فى المساومة
 مع أنه أو أمه أو أبا، حوته فهو ليس أكبر الإخوة حتى تتمتع مثلما كان تتمتع
 أحمى محمد بالحيار والذى إلى تفضيله به على كل من عداه، أو باهتمام أبى،
 ولو بالشدّة الزائدة، حتى يصلح حاله فمصلح حان الجميع. وهو ليس أصغر
 الأولاد حراً مثلى مما يمكنه، على الأقل بطريق، من أن يطالب برعاية خاصة. كان
 لاند لأحمد أن يجد حلاً لهذه المشكلة، إذ إن الحياة بدون هذا الحل لا يمكن أن
 تطاق. عشر أحمد عنى الحل أدى بحث عنه فى أن بنى لنفسه عالماً خاصاً
 استقلال شبه تام عن العائلة. ويتكون هذا العالم الخاص من بعض الأصدقاء من

لدراسة أو من الحيران ، فأصبح يعصى كل وقتهم معهم ، لا تأتي إلى البيت لألا لاثام لقمة سريعة يخرى بعدها إلى أصدقائه بأى حجة من الخجج هكذا هم يكن يرى أحمد إلا قائما وهم يصبره عصرا عاملا هي أستاذنا ، بل عضوا مسيا فهو لا يسمع أحبار العائلة ، ولا حتى المههم منها ، إلا بعد أيام أو أسابيع ، ولا يشاركه أفرانها أو أترجها ، بل له أفرانها وأترانها الخاصة التي لا يتكلم معها مع ، فإذا ضغط إلى الخلو من مناجس صامت ، وإذا دائم مشغول البال بشيء آخر لا يدري كنهه وم بعد يرى جدوى من سؤاله عنه

لم يكن من الممكن لأحمد ، مع ذلك ، أن يتعنى عن العائلة مستعنا تماما ، فهو لابد أن يحاح من حين لآخر إلى شراء بدله جديدة مثلا ، بل هو أكثر حاحه ما إلى ذلك بسبب مما يراه من ملايس فاحرة لدى أصدقائه الذين يتكون منهم عالمه الأناسي وهو يرغب هو استعمال سيارة أبي ولو مرة في كل شهر ، لكيلا يشعر بالخرج أمام هؤلاء الأصدقاء . كان أبي كد سبق أن أثرت ، لا يتسرع بالمره بدبل للملاس بهذه السرعة ، كما أنه لا يستطيع أن يفهم بالمره ما حاحه صبي أو شاب صغر في بس أحمد إلى سارة وهو الذي لم يرك سبارة خاصة قط قبل من الخمسين؟

لحق أحمد إلى الحيلة وكاتب حيله تمجد أحيانا صورا لطيفة للثنية ، ومع ذلك كتب تطل على أبي فيصدق ويقع في الشرك الذي نصه له أحمد فعلى سبيل المثال عندما رفض أبي أن يعطي أحمد المال اللازم لشراء بدلة جديدة ، وكان أحمد في سنه الأولى أو الثانية الجامعة ، لكي أحمد يكاد مرأهم يقع هذا في متلدار المبلغ المطلوب من حيث أبي ، فإذا بأحمد شفق مع أحد أصدقائه على أن يذهب إلى أبي متطهر ، بالخرج الشديد ليثبت أن أحمد حاول الانتحار برمائه معه من فوق اهرم الأكبر ، ولكهم أفقده في اللحظة الأخيرة وكانت النتيجة أن حصل أحمد على البدله

يمرر الزمن اكتسب أحمد قدرات ومهارات جديدة جعلته محل أنظارنا جميعا واكتسب بها تقدر الجميع واحترامهم ذلك أنه بعد أن حقق مركزا مرموقا في

يحدثى الوزراء، وأصبح يذمه من لئال ما يعوق ما لغيره من الإحوة باستثناء الأخ الأكبر، المشهور أحمد بير أمراء العائلة يذمرته على تخمين أى رغبة لأى فرد ما باستخدام بقوده، واتصالاته لو سمعه، واستعداد الكثيرين لخدمته بسب هذا القصب أو بسب علاقته الاجتماعية الكثيرة والحميمة، مع استعداد مخلص لديه لتقديم أى مساعدة لمن يحتجهم من أمراء العائلة. كان أحمد هو السجاء الذى يلجأ إليه إذا احتاج أى من لشراء تذكرة طائرة أرخص من التذاكر المتاحة للجميع، أو خبز حجرة فى فندق بطى، لجميع أن كل حجراته محجورة، أو للحصول على موعد مع طبيب شهير محدد، بهذه الرعة فى ذلك، بينما يكون أول موعد متاح لمدة الناس بعد شهر أو أكثر، فضلاً عن تعيين صديق فى وظيفته، أو تصريح باستيراد سيارة لا يحصل على مثله إلا عليه القوم. إلح ك حبيباً، باستثناء أحمد، عاجزين عن الإتيان بمثل هذه المعجرات، إذ لم تكن تعرف مثل أحمد هذا، بعدد العشر من شخصيات دت القود



كان موقف أحمى حافظ فى لعائلة قريب من موقع أحمد، لا يجب لصاحبه أى ميرة، فلا هو فى أعلى سلم ولا فى أسفل، وقد احتار حافظ مسك الساتك المصروف والراهد فى مادات الحبة، وظل مخلص لهذا الاختيار طول حياته، فلم يظهر به أنه يفعل شيئاً صديقه، ولا أعرف أنه فعل فى الخفاء شيئاً يهدف ما يفعله فى العلن.

كانت كل اختيارات حافظ مجردة عن اعتبارات الثراء أو سلطة أو نفوذ أو المظهر الاجتماعى، سواء كان الأمر يتعلق بختيار وظيفة أو صديق أو روعة أو يتعلن بطريقة تربته لأولاده، أو بقاء ميرة أو تأنيث بيت. إلح كان المهم دائم فى نظره هو رصده عن نفسه، أو رحتة وزاحة أسرته، أو أثر هذا الاختيار أو ذلك على صحته، أو ما يسمى بوجه عام «راحة الدل» كان يشعر باحتقار حقيقى لكن شخص ينكب على جمع المال، أو يسافر إلى بلد عربى لريدة ثروته، أو لمن يتفق الآلاف المؤلفة من وجهات لشراء سيارة كن يمكن أن يستمنى عنها بسيارة أصغر

وأرخص أو حتى بالمئتي ، أو من يرسل أولاده إلى مدرسة باهظة التكاليف ولا تقدم تعليمًا أفضل مما تقدمه مدرسة حكومية مجانية ، أو من يذهب بالتصنيف في أوروبا حينما يكون التصنيف في جمجمة أو رأس الر يتيح له نفس الدرجة من الراحة و لتقدير عشر التكاليف ، أو من يأخذ سيرة للعداء في مطعم يستولى على بقوده دون أن يشع جوعه ، بينما كان من الممكن أن يستعنى عن ذلك بصعده سدوتشات تعدها زوجه حتى يفروش قليلة ويجلسان لتناولها في يوم مشمس في سبغ الهرم

كان ينطق عليه ، ربما أكثر مما ينطق على أي شخص آخر عرفته عن قرب ، تصنيف الأعمال على الأسماء أي تعجيل ممارسة نشاط أو القيام بعمل ، على قس شيء أو حيلة سلعة . ومن ثم كان يبدو لي دائما أنه أحفنا جميعًا حركة وأكثرنا نشاطًا ، إذ لا ينقل كاهله ما يمكنه من ملع ولا ينقد من حركته رى نائم فيما يفعله . من بين هذه «الأفعال» كان أكثر ما يجلب له السرور والرض عن نفسه تأليف المسرحيات . وربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي كان حريصا على أن يحصن فيه عن رخص الناس عنه وعثراتهم به . وكان يتمتع بالعمل بالمدرة على كتابة حوار مقنع ومؤثر ، وأن يحول القصص البردى لأي حادثة إلى حوار حداث . وما أكثر ما كتب من مسرحيات ، قصيرة وطويلة ، مؤلفة ومترجمة ، وما أكثر ما أرسل منها لهذه الفرقة المسرحية أو تلك ، المشهور منها والمعمر ، العوامي والسملي ، ولحظاظ الإدا ، والسيهريون . وكان إلخاحه ومنايرته في هذا بما يستحق الإعجاب حق ، إذ لم يكن ليصد أي رفض أو نقد عن هدفه وعن عمادة المحاولة من جديد . فإذا طلب منه إجراء تعديل على مسرحية كتبها ، عكس على إحراة مهما كان التعديل جذريا وشاملا ، حتى يظهر بالموافقة على غشها . ومع كل هذا ، أقل ما حظى به من نجاح في هذا الصدد . نعم مثلت له بعض المسرحيات لشرحه ، وقامت بعض الفرق المحلية الصغيرة بتمثيل مسرحية قصيرة له أو مسرحيتين ، وعرفه واستمع له بعض المخرجين الكبار ، ولكنه لم يظهر منهم ماعلة ذات شأن ، وظل إلى أن مات لا يعرفه ككتاب مسرحي إلا عدد صغير جدا من الناس ، عدد أفراد أسرته

مع تكرار عجزه عن تحقيق النجاح الجماهيري الذي كان يعتمد اعتماداً حازماً أنه ستحققه ككاتب مسرحي، أصيب بحيرة أمل شديدة زدت قوتها مع مرور الزمن، وحملت حديثه لا يكاد يدور، في سوانه الأخيرة، إلا حول هذا الموضوع، وما ن يشيه بقدره ككاتب مسرحي إشادة فيها مبالغ غير مقبولة، أو يسبق الكتاب المسرحيين السابقين انتقادات فيها أيضاً قسوة غير مقبولة، فصلاً عن أن انه دفع إلى هذه القسوة كان وصحاً للجميع. وقد راد لين إلى المحر نفسه وإلى توجيه سهام النقد إلى صاحبها في هذا الباب الذي كان يسمي النجاح فيه دون جدوى، إلى درجه كانت تبعث أحياناً على السأم. ولاندأ صدرت مني، مرة أو مرتين، خلال السواب الأخيرة من حياته، عذرة أقرب في نفسه تأثيراً بالغاً، فلته، شكل عموي وبدمت عليها مجرد أن تعوّهت بها، وتعمل معنى شعوري بالملل من كثرة ما يردده من محر بنفسه وقد بلا حزين. سكنت وقتها بصبح لحظات ثم عاد إلى ما كان يقول ولكن بعصمة وصحة ثم تستطع إطفاء أثر عذرتي في نفسه. لا أزال أقهر بوجع الصبر حتى الآن كلما تذكرت هذه الواقعة، ولكنني أقرب نفسي أحياناً إليه لم يكن هناك مفر من أن يحدث شيء كهذا في يوم من الأيام



حين هو الأخ الذي يكبرني مباشرة، يكبرني بعامين ونصف، وهو بلا شك أكبر، حوتى ثرا في. كان ينقسم بصفة لا يشترط معه فيها أى طفل آخر من أصهار العائلة، ذكرًا أو أنثى، وأحار في تفسيره، بما يجعلني ألتصم في النهاية بهذا التفسير الوحيد الباقي (إن كان هذا تفسير على الإطلاق)، وهو أنه قد ولد بها، وبها من بين حصائص حياته لموروثته. أقصد بها ذلك الميل السالغ القوية للاعتماد بأنه شخص فريد من نوعه، لم يأت أحد مثله من قبل، وليس يأتي أحد مثله في المستقبل.

كان بأناش الحس والآخر شأ أنه قرر من هو الشخص الذي سوف يتخذ مثلاً أعنى لنفسه. وكان هذا الإعلان يتكرر بكثرة، ولكن الأهم من ذلك نوع الأشخاص الذين كان يحتارهم كمثال أعلى له. فكلهم من النوع الذي يمكن أن

يرشح للقب «أعظم الناس، أو أقوى دس، أو أشدهم مودة، أو أبعدهم أثرًا»
 فالمثل الأعلى هو تارة ديبوب، هما القائد المعسكى الأعظم، وهو أحياناً كارل
 ماركس، ذلك الثورى العظيم صاحب اللحية الكثيفة، وهو أحياناً تولسوى، ذلك
 الكاتب المعسكى الذى يمكن عساه سهولة أعظم الكتاب دروس، وهو أيضاً
 صاحب اللحية ليضاء الكثيفة والطويلة لاحظ التماوت كبير بين هؤلاء الأعظماء
 الثلاثة هي مجرد العنقريه ومصمود الرسالة، معصهم يكاد يكون الطرف اسفص
 تمناً لبعض الآخر ولكن هذا لا يهم بالطبع، المهم أن كلا منهم يمكن ترشيحه
 للحصول على هذا اللقب العظيم لم يكن عرباً دن ولع أحن حين سمثل
 انصرى العظيم يوسف وهبى، اندى كان يهرى القيام تمثيل شخصيات معيه من
 نوع راسوتين أو لحكم بأسر الله، بل كثير ما كان يحول الشخصيه العاديه إلى
 شخصيه من هذا النوع

كان المطلوب ما جمعا، كلما أعلن حين عن معبره لثله الأعلى، ان يوافق
 على أن لثن الأعلى احدى، هو بالفعل أعظم الناس طراً، وحتى يشعر حر
 وكان أى اعتراض أو تحفظ من جانب أحد القول بأن هذا برعيم لمحتدر ليس
 جانب مما من العيرب، لا يقابل من جانب حين إلا بالاحتقار، دون أن يبالى
 حتى يارد على ما نقول، ومن ثم لم تكن هناك حدودى تذكر من يبداء الآخر من أو
 التحفظ

كانت وسيلة حين للإنثاء أنه أعظم الدس تحصل أكثر قدر من الثفاته وقد
 عجم بالفعل هي تحصل قدر من الثفاته تتجاوز بمسافة شاسعة ما حصنه أى أع و
 أحت، بل ومعظم من عرفت من المثقفين المصريين وهذا عتبرت هذه ثقافته
 الواسعه عزمه حقيقه لميه في الكنه والتعبير عن النفس، وسلاسه وحدنيه
 بادرين، جعلاً أبى يعنى عليه مالا فى أن يخلفه ككاتب وأديب أكثرى على علقه على
 أى ولد آخر من أولاده، وإن لم يكتم أبى ما كان يعنتره من خوف من أن يحنانه
 حين في حبه الكثير من الصعاب من جراء اعتداده بمرط نفسه

ما أذكره من تصرفات حين المدهشه ونحن أطفال، ما حدث عندما أهدا أبى -

نحس لإحوة الثلاثة أن وحسين وأحمد وأعماراً تم روح بين السادسة والعاشرة - إلى حبب الألف والأدب والحدوة في عيادته لاستئصال الملور كان لملطوب عمله أمراً كريهاً حدراً ومحبها بلعاية دلوسة لنا نحن الأطفال الثلاثة، ولكن دخل أكبرنا، أحمد، في البداية دون اعتراض، فاستقبلت لوره، وجاء دور حسين فرفض رفضاً تاماً أن يجرى له العملية، غير مصبور، فيما يظهر، أن يجرى عليه ما يجرى على الآخرين، وأحد يجرى من حجرة لأخرى من حجرات العيادة ووراءه الطبيب والممرض يحاولان الإمساك به وهو يصيح بصوت عالٍ سمعه كل من في العيادة «أنا قلت مش حعمل عملية الملور، والله العظيم ما أنا عاصيها، شوف والله العظيم يعني ده؟» وقد صارت هذه العبارة من العبارات المأثورة بين أفراد الأسرة، بعيد ذكرها صاحبكم كلما دار الحديث حول حسين وشخصيته سمع يصرخ أبى دالطع للأمر وأجريت العملية للجميع، وإن كان قد اصبر أن يعيد ترتيبها، فحدث أن كالحمل الوديع بعد أحى أحمد، وأجريت لى العملية في هدوء تام، ريثما يتم الغص على حسين

(٦)

أصدقاء الصبا

عندما أفكر الآن فأكفه أسى عن حيرة جدى، والجهد المصلى الذى بذله لاختار نوع التعليم المناسب لابنه، وعن العذاب الذى تعرض له أسى من جراء إخراجها من مدرسة بعد أخرى لإدخاله مدرسة يسمع فيها جدى أنها أفضل وأنسب، أشعر بالإشفاق على أبى وحذى على السوء. أشعر أيضاً بالإشفاق كلما سمعت لأن عن حيرة الكثيرين من معارفى وأصدقائى لنسب، وصحيات الكيرة التى يدلونها بكى يتعلم أولادهم فى مدرسة دور أخرى. ذلك أنه لم يعد لدى شئ فى أبى بلع شدة فى أهمية المدرسة فى تنمية القدرة العقلية للطفل أو تنمية حسه الخلقى. نعم، هناك بلا شك مدارس أكثر قدرة على إدخال الصحة فى بورس تلاميذها وأقل تعديلاً. ولكن لم يعد يحامى أبى شئ، بعد ما شاهدته فى إحوالى من ناحية، وفى أولادى من ناحية أخرى، وفى أصدقائى ومعرفى وأولادهم، فى أن أثر الأسرة والمناخ السائد فى بيت فى التربة العقيدة والخلفه أهم من أثر المدرسة. ولكن الأهم بكثير من هذا وذاك هو الاستعداد الفطرى الذى يولد به الطفل فإذا توفرت هذا الاستعداد الفطرى فما أسهل أن يعرض الجهد شخصى عند طلب المدرسة فى تحقيقه.

يصف أبى فى كتابه «حياتى» حيرة جدى فى اختيار نوع التعليم لأفضل له، على النحو التالى:

«وضع لى أبى بردها صرهما لا أدرى كيف احتسسته. كان يوفضى فى المسجر فاصلى معه، ثم أقرأ جزءاً من لقرآن وأحفظ منه من المسول الأهرية كالفية ابن ميث

في النحو، حتى إذا طلعت الشمس أظورت ولست ملاسي وذهب إلى المدرسة
أحضر دروسه في الظهر وهي صفحة يظهر أتعدي في المدرسة على عجل وأذهب
إلى كتاب بمسجد قريب من المدرسة وقد اتفق أبي مع فقيه الكتّاب أن يسمع مني
حرراً من القرآن حتى إذا ما أتمته سمعت حرس المدرسة هدهت إلى الفصل ثم
أحضر حصص المدرسة بعد الظهر، فإذا دق الحرس الهدأت خرجت إلى البيت
وحللت ملابس المدرسة وسبت جنباً وذهبت إلى المسح الذي أبي إمامه،
فمكثت معه من قبيل المغرب حتى يصلي العشاء، أسمع بدرس الذي يليه في
المسجد بين المغرب والعشاء، ثم أعود معه إلى أبي وفي أثناء الطريق يحفظني
بيناً من الشعر أو يتيّن ثم يسألني إعرابه فأعزّه، ويصحح لي بعضي، وكن ذلك
وحتى سائران في الطريق، ثم أتعشى وأمام وإذ كئدت على واجب من المدرسة
أقبلتني عجل قبل أن أذهب إلى أبي في مسجد، وليس لي من الراحة إلا عصر
يوم الخميس ويوم الجمعة، على أبي كثيراً ما أحرّم أيضاً من صبح يوم الجمعة لعمل
واجبي المدرسي أو بقراءة مع أبي وهو برنامج غريب متناقض الأجزاء، منه أن
أبي كان حائر في متعلمي، أوجهي الوجهة الدنية معدني للأزهر، أو يوجهني
الوجهة الدنية فيعلمني في المدرسة الابتدائية والثانوية؟ كنت أدرك حيرة من كثرة
استشارته من يوسم فيه حسن الرأي، وهم لا يتدبرونه من خبرته، فمهم من يشير
بهذا ومهم من يشير بذلك، فأملك البعض من وسطهم، فكان يعدني للأزهر بحفظ
القرآن والمثون، ويعقدني بمدراس أدسية بدراسي في المدرسة وهذا أسوأ حل
ولكن حراء الله خير أعني تمتد المصطفى في التفكير في مستقبلي، وعمر الله له ما
أرهنى به في دراستي!

كيف استطاع أبي أن يضع بأذ هذا الذي فعله أبوه في معلمه كان أسوأ حل؟
ومن ما استطاع أن يقطع برأي حاسم في هذه الأمور؟ ومن درسنا أن الذي حواره
حدى لتعليم أبي لم يكن هو، على العكس، أفضل حل، لو لا ما فيه من إرهاب
مائع فيه؟

لقد أدى أبي اهتماماً مثلاً، اختيار نوع التعليم لأفضل الأولاده، ولا شك

عدي في نه بدوره، عني الأقل في المراحل الأولى من حياته، كاد يطرأ
 لمدرسة تأثير أكثر مما بها في الحقيقة، في التربية العلية والحلقية لا يبدو إذن
 مدهشاً تماماً أنه قرر إرساله الأول إلى مدرسة الفريز (عريسة، إلا لاند أنه سمع
 من بعض أصدقائه عن مستواها الرقي في تعليم، فضلاً عما كان يسيطر على ألب
 من اعتقاد في الأهمية القصوى لعدم لغة أجنبية لاند أن هذا، وذاك كانا وراء دهاب
 أحي محمد إلى مدرسة الفريز، ولكن يبدو أن التجربة لم تكن حادثة تماماً، فلم
 يظهر على أحي محمد أنه أماد فائدة كبيرة مما قدمنه هذه مدرسة من مرما كل ما
 لاحظته من أثر هذه المدرسة عليه أنه عندما كان يقوم بعملية حسابية تتعلق ببيع أو
 الشراء، بصوت مسموع، كان يستخدم القرينة بدلاً من لعرية

لاند أن اهتمام ألبى سرح المدارس التي يتلقى فيها أولاده تعليمهم قد ضعف
 بعض الشيء بعد تجربته مع محمد، ولكنه لم يزل غامضاً فلاند أن قيامه بتحويل أبا
 وأخي حميد من مدرسة مصر الجديدة لابتدائية إلى مدرسة السم دحية في حيائ
 القبة كان لهذا السبب، ولكن لا أظن أنه كان في مهية حياته لا يال عند اعتقاده
 الأول فيها هم خمسة أولاد، إذا استعينا الولد الأول لدى ذهب إلى مدرسة
 عريسة، يكدون أن يكونوا قد تلقوا بعض التعليم بالوسط، ومع ذلك كان دأؤهم
 العلمي معاونا أشد التعاوب وهذا مما ساد أرسلهم ألب إلى نفس المدارس
 فتوقت واحدة وأظهرت طول حياتها شعفا واصحاحاً بما يمكن تسميته «مشكلات
 الفكرية»، أيا كان نوعها، أدبية كانت أو فلسفية الفدبع أو سياسية، ولم يظهر أن
 شيء مماثل في البيت لأخري التي لم يستطع صرا حتى على الدراسة الثانوية
 فتح حب مه قبل تمامه كذلك فإن تجربتي وشهدتي، ليست فقط لمستمنه من
 «سري بل ومن خارجيه أيب»، تكاد تجعلني أقطع بأن احسن الحدفى لصره بولد مع
 الطفل بدرجة معينة من لقوة، متحفا يولد معه ألف بحجم معين وصوت ذو نغمة
 حاصه إا من بين أفراد عائلتي من لا يتصور الكذب ومهم من يكاد يستعده
 مهم ما لا يهمه كثيراف إذا كان عباً أو سم يكن، ولكن مهم من كان، مد بعمرة
 أطفره، على استعداد دلبع بصره من الماعو التي قد يحلها ألب معه بلعاف، وإضافة
 حصيلة البيع إلى مد حرارته مهم من كذا دافع بفتحهم الكنت النهاما، ومهم من

كان محجور ما هو، عد الكت المدرسة، بعض مقالات جمعته في كتاب أنى
«بعض الخطر»، كان يقرؤه أحيان قبل النوم ثم سرعان ما يعينه العباس

وعندما أسس عرض ما إلى أصدقائى فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية، من
عرفت تطور حياتهم بعد تخرجهم، أجد ما يقطع بصحة هذا الاستنتاج كان من
بيهم سابع والمحدود الذكاء، سريع الفهم، لطف، العيني واسطحي، من يلتقط
لفكره بصعوبة بسهولة وسرعة، ولكنه قليل الصبر على الربط سهل ومن فكرة
أخرى، ومهم أنبأى الطيء الذى لا يفهم سرعه، ولكنه يصبر على سحت عن
العلاقات غير الطاهرة حتى يجدها كذلك كان من بيهم اسين والساهى، الشهم
والدين، المستعد دائما لتنصحية ومن لا يفكر إلا فى نفسه فقد دخل معظمهم، بل
ورى كلهم، الجامعة وتخرجوا بشكل أو بآخر فيها، وحصل معظمهم على وظائف
محترمة، وحصل بعضهم على الدكتوراه، من بين الأذكاء والأعباء، ولكن ظل
كل منهم على حاله الذى بدأ به، عقليا وحلفيا



مد ثلاث أو أربع سنوات حضر لأحد زملائى القدامى، الذى كان تلميذا معى
فى نفس الفصل المدرسى مد ما يقرب من ستين عامًا، عديم كما فى نحو ثمانية
عشرة من عمرنا، أن يدعو أكبر عدد ممكن من هؤلاء الزملاء القدامى إلى العشاء
فى مطعم بطن على سبل وقيلت ندوة مسرورا ومتشوقا إلى أن أرى ما فعله
الدهر بأصدقاء الصب، وبعضهم لم أكن رأته قط منذ كنا فى تلك الدس الصغيرة،
فرأيت عجب. نعم، لقد شاب شعر أكثرهم، وتشققت البشرة بالمحاعد، وحاء
أحدهم يسند إلى عكاز، وسيطر الحزن على آخر سبب أزمة قلبية حديثة العهد
ولكنى وجدت أن من كان ذكي لا يزال ذكي ومن كان غبيا لا يزال غبيا، وثقيل الغل
ظل كما هو، وكذلك خفيف الغل كنهم فى يسر نسبي، وكنهم لهم، أو كان لهم
وطائف أو أعمال محترمة، ولكن التفوت العقلى والحلقى سم يظروا عليه أى
تغير، إذ بدو أنه لا المدرسة المودحية، ولا المدارس الأهل بمودحية، استطاع
أن تقضى على هذا التفوت

لم يحصر للأصمب إس حفل العثء صديق قديم كنت د نعا أعتبره ملح الأرض ،
يد كان يجمع بين عدد من الصفات نادراً ما رأيتها مجتمعة (هو المهندس محمود
كشك) لم يكن ، ونحن بلامد صعد ، متعوق في دراسته بمعدار تصوفى ، ولكن
الأرجح أنه لم يكن يذب فيها مثلما كنت أبلد من جهد ، وهو على أى حال لم
تعثر فيها قط كى نلج دائما بلراحات معمولة ، ولكن دون أن يلمت أذؤه
لأنظار إد لم يكن يشعر بالحاجة إلى ذلك . دخل كلية الهندسة فخرج بسهولة
مهندساً من قسم الاتصالات ، وعين فور تخرجه فى منتصف الخمسينات مهندساً
فى الإذاعة . وأذكر زيارتى له فى ١٩٥٦ ، فى داخل كهف من الكهوف فى جوف
جبل المقطم ، عندما اضطرت حكومة الثورة إلى نقل محطة الإرسال الإذاعى إلى
هذا المكان الحصين بعد أن بدأت القاهرة تُصرب بالقبائل رداً على تأميم قناة
السويس . وأحد يطوف بى لمرنى طريقة عملهم وما اتحلوه من احتشطات بصلان
استمرار الإذاعة حتى فى أحلك الظروف . ثم مرب بصب سبواب وقررت الحكومة
إدحاب تليفزيون إلى مصر وأرسلته فى بعثة إلى أوروبا للدرسه والإعداد لهذا
الأمر . ثم عاد وأشرف على بدء البث التليفزيونى فلما قررت الحكومة إدخال
التليفزيون المتن ، أرسلته مرة أخرى فى بعثة إلى أوروبا للدرسه والإعداد له ، ثم
عاد لتفنيده ، حتى أصبح بعد بضع سنوات كبير المهندسين فى التليفزيون المصرى
كنت أراه حالا ، بلذ السنوات على فترات متقطعة فببهرنى أدبه الحلم ، وبعبه فى
عمله وحبه له ، وكان يشرح لى مساحة شديدة ما استعصى عنى فهمه فى متعلق
بعمله ، وكنت أبلح شعوره بوطنى لقوى من خلال ما يقوله عن عمله ، دون أن
تظهر عليه أى رعبه فى السامى أو اسدرا الإعجاب . كان مصر ب مائه بالذنه ،
مخلصاً للده قدم الإخلاص ، دون أن يقرب كسمة واحدة بمحاولة سدليل عسى
ذلك . وكان يدعشنى بقوله إنه قرأ بى هذا المقال أرواك فى مجله لهلال أروى
صحيفة معارضة ، ويستسم من حرأى . وكأنه يتذكر نصر فائى أثناء التلمذة ، ولا يرى
فى هذا إلا استمرار الذاك . احتشاج بى إلى خدمة صغيرة منى فى أمر يشعب
بلراسنه ، هاكتفى صدمى بأن عرقى عسى أنه وترك دون أى بلحن مع أو أى
محاولة للتأثير عى ، يد كان لا يريد أن يحكم تصرفى إلا صمى . ثم قابلته منذ

سوات قليلة هو أمرته مصادفة ، وقد أنى بزوجته وكل أولاده ليحضر حفلة من حفلات الموسيقى العرسية في مسرح الجمهورية ، وجدت في ولديه واسته نفس الهدوء النفسى الرائع الذى أعرفه فى أيهم ، وأحسب فى أثناء الاستراحة أنه عيّن مسئولاً عن محطة التليفزيون القضاية التى قررت الحكومة إنشاءها وأنه سوف يحتاج إلى بعض خبر حتى يخاطمه الأمريكى لعمل فيها ، ويتصل بي قرب علما يبدأ فى اختيار موظفين بعد عودته من رحته لفرنس يحرى فيها الترتيبات النهائية لتدشين هذه المحطة . كان يتكلم عن مهمته الجديدة بحماسة وروح ثم قرأت بعد ذلك بأيام حر به مشوراى جريده الأهرام ، إذ بوى صجاء وحده فى أحد صادق مارس أثناء مقارصه مع الفرسيين حول المحطة القضاية

فى الحفل الكبير الذى أقامته الحكومة بعد ذلك شهر أو شهرين لإعلان بدء تشغيل لمحطة القضاية ، شكر الوزير رئيس الجمهورية على دعيته للمشروع ، وعلى إصداره الأمر بتعيينه ، وشكر رئيس بورراء على تحشمه عناء حضور حفلة الافتتاح ، وشكر عدداً من بورراء بسبب أو حر سم أتبه . ولكنى سم أسمع اسم صديقى الذى حمى الإذاعة المصرية من عدوان ١٩٥٦ ، وأيضاً التليفزيون لأبيض والأسود ، والتليفزيون الملون ، والمحطة القضاية نفسها . لم يكن هناك أى شيء غير عالوف فى هذا السلوك من جانب المشوئين المصريين ، كما أنى لا أظن أن صديقى كان ليأبه كثيراً له برك قد امتد به العمر لشهده نفسه



سأب صديقا الذى نظم هد اللقاء بين الثملاء اندامى ، صب إاكان قد تذكر أن يدعو «تيمور» ، فقال . بالطبع ، ولكنه اعذر بسبب السفر فصحبكما كلما من مسبب عتذار . ذلك أن تيمور هد كان دائماً يجلس فى آخر صف فى الفصل ويبدو دائماً مشغولاً بشيء آخر غير ما يقوله اندرس ، ومن ثم لم يسطع أبداً أن يحقق معروف فى أى مده من المواد ، بل كان يجد صعوبة دالة فى الوصول إلى درجة السحاج . كان انشغاله صب على شيء واحد وهو « لظافة » فاللدرس جميعها ، الواحد بعد الآخر ، علما يصممون على معرفة ما ادى شعله على اندرس .

بصطوبته وهو يحاول إحصاء شىء فى الدرج أو تحت الكرسي، فإذا استقصوا الأمر وجدوا طائره صغيره قام بيمور نضعها فى اوراق، وهو مشغول إما تلويها أو تركب حراج لها أو مروحة. كان المدرس العاسى يطرده من الفصل، والمدرس الطبيب يحذره من أن هذا بأى نمعه لاند أن يؤدى به إلى مستقبل مظلم للعلماء

ومرت السنوات دون أن يرى تيمور، حتى تخرجنا فى الجمعه وتوطنا وإداني مرة، وأما رايك فى طائرة شركه مصر لطيران إلى سدين، وقد ربطت لتوى حرام المقعد، أسمع صوت من الميكروفون يرحب بالضيفين ويقول لهم: «الكانت تيمور يحييكم» قنت نفسي على الفور إلى مستعد لدم هاب بأى شىء على أن هذا كان تيمور هو زميل القديم، إذ كيف يمكن أن يكون شخصاً غيره؟ وهذا هو ما كان الناس، فعدمت طبت عمالة الكائن، أذنبوني كايته لعيادة وحدثه هو معيه وفاللى نفس الانتباهه التائهة لتى لم تكن توحى بأى نأثر من حاسه فباله زميله القديم، وكى اطمأنت على الأقل ألبوءه المدرس الفطن بمستقبل معلوم به لم تتحقق بالمره



كان هناك أيضاً من وملاتنا القدامى من سافر إلى الأند، وترك مصر مع عزم أكيد على عدم بعوده من هؤلاء صديق كان باع الرقعة، وسيمع للعلماء، قليل الكلام ولكنه عميق المشاعر، يؤدى أدبه طب فى الدراسة دون لعب، وحمه كل المدرسين بدون استثناء دخل كلية لط وتخرج فيها، وكى لم أره قط بعد تخرجه إلا حريماً مأثور بما يراه من حال المرضى الفقراء والمعلمه التى تقوى فى منفى قصر امعى وكان يقص علينا قصصاً كثيرة مؤثرة عن رحاب أو ساء أتوا إلى قصر امعى من أقصى بصعيد وهم لا يكادون يملكون ثمن تذكره السعر، واصطروا للمعمدة دون علاج لأنهم لم يجدوا سرير، فى المستشفى، أو لأنهم لا يعرفون أحداً شأن فى القاهرة يمكن أن يتوسط لهم. كان الحبل الذى وقع عليه اختيار صديقى الرقيق، هو أن يترك مصر كلها ويبحث عن عمل مناسب فى الخارج، لا يعرفه لرفقة مثل هذه المواقف للصعبة. ونهى به الأمر طيباً وأتتدا فى جامعة مرموقة فى الولايات

الشحله، واشترى هالك بنا جمللا وتروح من رصلة بركة وأحب منها ولدس واستقر في أمريكا استقرا دائما وهو حل لا بأس به من بعض الوجوه، وإن كان يحظر بالي أحب أ هالك شيئا من العراة في أن يكون حل مشكلة المصى الفقراء في مصر هو الاشتغال بعلاج لمرضى ميرى الخلل في أمريكا



رمين آخر لم تدفعه في الهجرة رقة لمشاعر بل مجرد حب امال كتب هذه حصنة من حصله و صحة له جمعا وصوح لشمس صد او يوم عرفاه فيه كان مصيرا ماكر لا يدفع أبدا ما يجب عليه دفعه، ويحاول دائما، ويسمح عدة، الشهير من أي مسئولية يمكن ان تورطه في دفع اي مبلغ من المال كانت حصلة مصرية في حد ذاتها، ولكن الذي جعلنا نصمه إلى شئت ولا يمنع هي مصاحته أنه كان ذا ذكاء ملحوظ، ومحا للكتابة، فصلا عن أنه لم يكن مافيا كان يجهر بجه الشديدي للمل ولا يحجل من محله، ويخبر بصراحه بين أن يقبله كم هو أو أن يصرف الخائب، فهو لا يبالى برأى أحد فيه، والمهم لديه هو انتمتع باليوم الذي هو فيه، مادام هذا التمتع لا تكلفه شئ من المال

مصر صديقا هذا إلى أمريكا لاستكمال دراسة الطب، ثم اشتغل طبيا في إحدى الشركات الأمريكية الكبرى، ثم سمع عن روجه امرأة هيتابه جاءت إلى أمريكا هربا من صعوبات الحياة في عيتهم بعد أن بلغ من سنين قرر أن يعود إلى مصر، مع زوجته العيتنامية، ليستقر بهائيا فيها، معتمدا على ما تدره مدرجته من دخل ودعائى لريدرته في شقة لتي اشتراها بالقرب من النيل بمعداى كانت شقة قريسة من النيل حد ولكنها - كما كان لابد أن أتوقع - حادثة من أي محنة من الحزن العمارة كلها مسية بأقل قدر عكس من الكاليف، وكأنها سيب حصيب لستكن فيها صاحب و نظرت إلى الأثاث فإذا به أقل أثاث يمكن، لأد أن صاحب قد دفع فيه أقل ثمن عكس لم يكن هالك في الشقة أي شئ يتجاوز الضرورى، وكان الرجل قد جاء ليعيم في مصر يومين أو ثلاثة لا بقعة عمره ليس هالك صورة

واحدة على احتياط أو بعض الأهرار على المائدة ، أرى بعض الكتب العرسة التي
شترها قائلًا به أنتمتع بها ، اى استمتع ، فقلتها وتضعحتها ووجدت أن سرتها
لوحيدة هي وحرصت عليها ، فهو يحذر الكتب ليس بحسب موضوعها أو شهرتها
مؤلفها ، بل بحسب سعرها ، وأظن أن السبب الأساسي لاسماعه بقراءتها أنه كسبا
صادف عبارة نصيفة في الكتاب أو معنى به بعض بكاء ، بقول نفسه بإعجاب
«صورتي لم أذبح أكثر من جبين في الحصول على هذا الكتاب»

لم يكن كل هذا غريب تمامًا علىّ ، وإذ الذي أدهشني حقًا هو أنه مع كل هذا
السعي والدواء وطول حياته ، لم يجمع ادس وتحريره ، لم يكن لديه أى معرفة بحجم
الثروات التي يحققها بعض الناس في مصر ، دور أن يصادفوا مصر إلى أمريكا أو
غيرها ، و يكملوا دراساتهم في الخارج أو الداخل ، ودون أن يدرسوا انطب أو
غيره . إلح بل كانت تبدو عليه دهشة حقيقية عندما أذكر له مثلاً ان شخص ما
حصل على مكافأة مائة أو مائتي دولار مقابل مقال صغير كتبه لجريدة بصدر في
الخليج ، أو أن رئيس تحرير إحدى الصحف المصرية قد تجاوزت ثروته بضعة ملايين
من الجنيهات . لم يكن قادرًا على تصور شيء من هذا ، ذلك أن عمره في المال كان
قريبًا بدرجة أنه المنع التامه كان يبدو في عيبيه كبيراً للعناية ، ومن ثم كان عاجزاً عن
تصور كميات من المال كبيرة حقاً . كان حبه الشديد للمال إذن سبباً في عجزه عن
تحقيق قدر كبير منه ، على الأقل بالمعيار الشائعة في هذه الأيام . أى أن ادبي قد
عاملته ، من الحية لمادة ، نفس المعاملة التي عاملها به «ما كنت تصور أن هذا
المبلغ الباه كبيراً ، فلن يعطيك إذن أكثر منه»

عندما عدت من سفر قصير خارج القاهرة ، أخبرنى زوجته بأن ميدة مصرية
ابنتها ما يليقوب وأخبرتها بوفاته وعلى القديم وجاءه بالسكة القليلة أثناء جلوسه
بعد الإفطار لتدو كواب من الشاي . اتصلت بالروحة لميدانية لأعزيها وأعرض
عليها أى مسعدة قد تحتاج إليها في مثل هذه الظروف . فأكدت لى أن كل شيء
على مايرام . لم أعثر له على نعى في أى صحيفة على الإطلاق . وأخبر صديق
آخر من كان على صلة أوثق به ، بأن شعيعه ، أى شقيقى ، ميدة المتوفى ، أخبره أنه لم

مجد ثمة حاجة لشر أي معنى لأحده في أي حادثة، لا في مصر ولا في أمريكا، إذ إنه على حد قول هذا الشفيق «لم يكن يعرف أحداً في لوف»



كان صديقي «على مختار» من نوع مختلف تماماً من الناس إن كل من عرفته في حياتي يهيئ نفسه على شيء، ولكن سعد الحظ حقاً هو من يتوارى منه بالفعل ما يهيئ نفسه عليه. وكان على مختار من هؤلاء الناس سعداء الحظ. كانت الميزة التي يشعر بالفخر بنفسه سببها وتوافر فيه بالفعل هي «الكفاءة» لا أفصّد الكفاءة في مجال معين أو عمل بعينه، بل الكفاءة بوجه عام، بمعنى تحقيق أقصى عند تمكن من أي حجم معين من الجهد، أو بوصول إلى هدف معين بأقل جهد ممكن. الكفاءة بهذا المعنى تكاد أن تكون مرادفة للعقلانية، وهذا بالمصطلح كان هو المصدر الأساسي لرضا «على مختار» عن نفسه. كما جميعاً، بالمقارنة بمعنى محضار، عديم الكفاءة وعمتين في اللاعقلانية. كان يحقق في بيوم الواحد ما يحتاج لتحقيقه إلى أيام أو أسابيع. وهو دائم الحركة من مكان لآخر، ولا يضيّع وقته في ثروة لا تعيد أو حضور حفل لا يقع فيه، أو في الذهاب لشهقة صديق أو زيارته عربص ما دامت الشهقة أو الزيارة لا تحقق أي فائدة عمدة. نعم من الممكن أن يحلّط للعربص دواء محتاج إليه أو ترتب له موعد مع طبيب، أم مجرد الكلام والتقدير بالشفقة وما جدواهم؟ قلب يعلبها لعن بعد الظهر صمام، وهو يعتبر هذا إصباحه بوقت ثمين كان من الممكن أن يسجّر فيه عدة أشياء، حتى في أشد الأيام حرارة. نعم كان يغلله اليوم أحياناً من حوط الشعب، ولكن كان هذا يحدث أثناء جلوسه معاً، عندما لا يكون ثمة ما يمكن عمله، فإذا به يومي برأسه ويستغرق في النوم أثناء انبهاك أحد من كلام لا ضرورة له ولا دفع يرحى به.

كان لا يدان تمكن هذه الكفاءة أو العقلانية في اتخاذ موقفه مسجدة تماماً من التقاليد والعادات المألوفة إذا لم يكن لها مع وأصح أو مرر معقول. هكذا كان على مختار «كشراً جائرة» في اتخاذ مواقف ككل ما تنمي أن تكون لدينا الحرة على اتحد، ولكنا لم نعد نحب لما يمكن أن يتوله الناس كان حرثاً في حصار ما

يرتد به من ملابس، وما تناوله من طعام، وفي تحدّد الوقت الذي يأكل أو ينام فيه، وفي اختيار امرأة تشرّ وجهها متى وقت كما كلفه بصره لئلا يلهيه الفتاة أو تلهي، ولكن عن بعد ودون أن تتحد أي خطوة إيجابية لتكوي أي علاقه معها، بل وأحياناً ولاحتي لمخاطبتها، جاء على مختار ليعلم لها أنه تقدم بالعمل لخطوبه فتاة، وأنها بيت، وأن الزواج سيتم بعد شهر. والفتاة ليست امرأة عادية بل فتاة حميلة مثقفة ومثمنة، كانت قد تحرّحت لثوبها في كتلة الأداب، ثم التفتحت بمجهود السبب لمدّرس الإخراج. وهي ليست مصرية بل لبنانية، تجلس معها فيكلما كلام، لئلا تلتد، وتضحك بحرية ودون عقد، وهو ما سمّ بتمردة فقط من أي فتاة مصرية. كما حميف محرومين حرماناً تاماً من أي علاقه سواه مع الجنس الآخر، وما هو مختار، بحرأته وثقته بنفسه، يصل إلى ما كما حميفا تسمى في حياتنا تحقيقه لأطرف من هذا أن هذه الفتاة لديه استطاعت، سب سرتها وسط هذا الجمع من الذكور المساكين الممضطئين لأي كلمة أو اسماء تصدّر من أنثى، أن تظهر بحب عدد لا يسهان به ما، ولكننا اضطررنا بالطبع إلى بسكوب والرضا بسفر من بعيد، بعد أن أعين صديقنا عزمه على الارتباط بها

كان هذا الصديق الغدّ، على مختار، هو أول من عرّفني على العمل السياسي، وكما هو وأما - لوحيدين من بين هذه لشنة من الأصدقاء، العديدين يهتمان بالسياسة على الإصلاح. ولكنه كان ساطع، في هذا الأمر أيضاً، أكثر كفاءة مني بكثير، كما كان أكثر شجاعة، ما أدى به إلى دخول السجن لمدة أسبوعين في منتصف ستينات دواب أن يكون قد ارتكب أي جرم من أي نوع، سيما اكتفيت أياً لاسمى لإحارحه منه دون تنقذ. ولكن هذه قصة أخرى تسمى إلى مرحلة محتفة تماماً من العمر

(٧)

مباحث الصبا

-١-

ما أحمل الكتب التي مرأتها بين سني العاشرة والعشرين . كتب هذه هي سموات العشر التالية لمحرب العالمية (٤٥ = ١٩٥٥) وعندما أسترجع في ذهني ما كنت أقرأه في تلك الفترة لا يدهشي كمنته بقدر ما يدهشي خلوده وأثناءه تأمل كم هو صعب في أيامه الحالية أب تصادف صبي في مثل هذه السن ، لا في مصر وحدها بل وفي غيرها أيضاً ، هذه الفرصة ابرئعه التي تبيحت لي منذ خمسين عاماً

كتاب الفصل الأكبر في هد يعود بلا شك إلى طبيعة البيت الذي نشأت فيه . كتاب أبي يلقي سبلاً لا يقطع من الكتب المهداة إليه من مختلف الأنواع . وكان يحصلها من قصص الأطفال التي كتبها بعض أصدقائه أو تلاميذه ، فكانت تبقى إليها بهذه الكتب ليقرا منها ما يشاء دون أي توجيه منه أو متابعة لما يقرأ . هكذا قرأت في سنواتي لأولي كتب كامل كينلاي ذات لطاعة الأسفة والصور الملونة ، وما كان يؤمعه أو يرحمه أحمد عطية الإبراشي وخودة السحار . لا تزال مطبوعة في ذهني حتى الآن صورة حصان المسحور ذي الحماحيز التي كانت مرسومة على غلاف قصة معصلة لي ، والتي لا بد أنني كنت أطبل النظر إليها بشدة التصاقها بذاكرتي ، وقصة العريس الذي ابتلع سمكة واستقرت في حلقه . لعلني قرأت كل قصص كامل كينلاي الذي يدين له حيل مأكمله من المصريين بإحدة عربية ، وبحيال أكثر اتساعاً ، وطفولة أكثر سعادة أو أقل مؤد

من الأمثلة القديمة التي لا أزال أتذكرها مما مرّته في طرولتي وصداي، سعت نظري كم كان المرء مشغولاً في تلك السن لأن بصرت الصبح عن أي أحداث عربة عبر معقوله في مقابل أن يحصل على الحد الأقصى من الإثارة فالسائط البحرية الذي يحصل بطل النص من مكان إلى مكان، أو مصباح علاء الدين الذي يجلب له حة أي شيء يريد، بمجرد أن يحك المصباح منه، أو حة البحر التي تقودك إلى ما في قاع المحيط من اللؤلؤ وكور، أو عبدة «اتبع باسم» لحدثه التي تنبع لك الاعتراف كمن شاء من كهف على باب البحر، كل هذا يقبل دون تساؤل، ويستمتع المرء بقراءته المرة بعد المرة ويريقته صورته، التي قد تكون مرسومة وسما بدائياً للعامة، بل وربما سيئا، دون أن يألئ قط بمدى الواقعية أو بغرامه كم كان يحدث في تلك السن أي قصة تدور حول الملك والوزير، والملك أو الأميرة ذات الحس والجمال، وكم كان يصلي ما تصعله الصبية الخميّة، البيضاء كالثلج، مع الأقنوم لسيعة، وتلك الصبية الجميلة الأخرى التي ذهب بربارة جدتها في وحدت الدنق قد انهمما، وتخفى في صخرة لحدة بمسهي السهولة، أي بمجرد أن وضع عمي رأسه عطاء رأسها وعلى عييه نظارها، فلم نستطع الصبية أن يمر ببر الدنق واحدة كل هذا يقبل بصلور حب في سبل أن يصل إلى نهاية سعيدة للقصة

ثم انتقلت كغنية جيلي إلى قراءة محمود تيمور ونوفين الحكيم وطه حسين وأمازي ومعموصي والروايات أو المسرحيات المرحمة ترجمت بديعة أسى كاس تشهره بجة الأساليب والمزجعة والشعر ودار المعارف وغيرهما خوته وبرازدشو وبومس هاردي وأندريه جيد، وبعض مسرحيات سوفوكلينس إلح، قيل أن بصل في مطلع الشباب إلى عيب محفوظ أثرت في نفس بوجه خاص، في تلك العترة، رواية جوه «الأم هانم» التي ترجمها الزيت، وروايات العربية الشهيرة إلى نفسها المشغول، ورواية «السوى في مهب الريح» لتيمور، وأعجبت بشدة بكتاب «زهره انعم» للحكيم، وهو كتاب يصف فترة إقامته في باريس في بداية شأنه متلف على ثقافت نفسه من ناحية، ومعبراً عن اقتبائه الشديد لمختلف مظهر التقدم الفني والأدبي في أوروبا، وجد هذا الكتاب صدى قوي لدى، وأن في تلك السن المكرة ولكن عندما وقعت يدي من جديد على نسخة من هذا الكتاب وقد

عجائز الستين، وقرأه مره أخرى، لم يترك لدى أى أثر من الإعجاب والتقدير
 القديسين، بل تعجبت كيف ظهر هذا الكتاب بعجائبي وإعجاب كثيرين في أى وقت
 من الأوقات. كان فيما يبدو أكثر من تعبير عن رفوات وطموحات شاب وجد
 صدى لدى صبي مرهق به فصول حافلة كذلك مع لفرة قصيرة في تلك
 الأيام بأسلوب صه حسين، ولكن لم تحس سنوات كثيرة قبل أن أحدهم
 ومصطفا كتب في تلك السن أصغر من أن أقدر كتب العقاد حق قدرها أو
 معاللات وكتب النقد الأدبي ليويس عوض أو ممدوح أو أنور المعدوي، فكأن
 أسلوب العقاد سرعان ما يصيب بالإعياء فيما عدا قصة سارة التي أحسها، ولم
 يمت بطر أحد في ذلك الوقت في سلامه موسى الذي كان يكتب على أى حال
 في موضوعات لم تكن تثير اهتمامه لدى في تلك السن



كان يعطى من أحي حس، الذي يكره بعض وصف، أنه كان دائماً يتكلم
 عن «مثله الأعلى» الذي كان يدينون مرة وتونسوي مرة، ويسألني باستمرار عن
 يكون مثلي الأعلى دون أن أكون حصلت على واحد بعد فبحثت بسرعة عن مثل
 أعني لا يقل قيمة عن مثله العليا، وإذ وقع بيدي كتاب عن هولثير، قرأته بسرعة
 ووجدت الرجل مناسباً تماماً فغلب لأحي حسين أن هولثير هو مثلي الأعلى،
 وكتب عنه مديلاً كان لدى أبي المرأة الكافية بشره في محبة التفاهة التي كان يرأس
 تحريرها، تشجيع لي على القراءة والكتابة. وربما كان هذا أول مقال بشرى عن
 الإلهلاق مع ردياد شهرة بحج محفوظ أحدثت أقرأ له، ولكني لا أظن أبي
 تمسب له مثل حماسي لبعض كتب الحكيم وطه حسين، باستثناء ثلاثه، وعن
 الأحص (بين لقصرين)، إذ كتب دائماً أفقد فيه الفكرة الفلسفية أو الإحصائية، و
 هكذا كنت أظن وهتها، ولا أذكر أسي كنت أصل تفكير لدى انتهت في مره
 رواية له. ولهد لا أظن أبي حررت من كتب بحج محفوظ تعبير المتعة عن
 العكس من ذلك مع بقصص يوسف دريس في الخمسينات، وأشعل حماسي
 وأن أشاهد مسرحيته مثل لقطن وجمهوريه فرحات، وظللت حريصاً على قراءة
 كل ما بشره، في ذلك مدلاته اسبابية في الصحف.

دس أيضاً بعض الشعب بالعلمه، حتى هي تلك الس المكرة، فكنت قدرا على الصبر على كنهها بل والاستماع بعصها، لاهتمام حقيبى لدى بالمشور على إحاطة عن بعض أسئلتها. أذكر أنى فى الخامسة عشرة أعجبت بديكارت، بعض كتب الدكتور عثمان أمين، وكتب عنه مقالا لا بأس به بعنوان «أدلة ديكارت على وجود الله»، وبشره سى أنى فى مجلة الثقافة قبل أن أدخل الجامعة، كما نشرت سى نفس المدونة، فى نفس الفترة، بعض المقالات الحمقاء بعنوان «نظرات فسيحة»



ثم بدأت مرحلة جديدة عندما بدأت أقرأ كتبها فى الأدب بالعلمه الإنجليزية. كان أول كتب أقرأها بالإنجليزية، عندما كان مقررا عينا فى المدرسة، قصة هويله للكاتب الأمريكى دى لأصل لأرمى وليم سارويان، أعدها لى زميل فى المدرسة متدحفا إياها شدة. لاند أن قرائتى بها قد استعرت وقتا طويلا، إذ لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة، وكانت معرفتى بالإنجليزية محدودة. ولكنى أذكر أنى طربت به فرح وكأنى قد تحدثت عالم لم أكن أعرف بوجوده من قبل. وتحسنت لكتابته تحمسا شديدا ورحت أبحث عن كنهه فى مكتبات شازعى عماد الدين وعبد الحالى ثروت فوجدت به أربعة أو خمسة كتب أخرى، تصم روايات أو قصصا قصيرة. وراى عجيبى به وحماسى له، إذ لم أكن قادرا وقتها على مقارنته بغيره، ومن ثم جددتى بسطته وحماسة دفعه وما بدا به من مشاعر إنسانية. كان إيعادى بأن روايته هرائيه به (The Human Comedy) قد وصل إلى حد أنى ترجمت أحد فصولها، وبشرته سى أيضاً مجلة الثقافة، ووصلتلى عنه مكافأة قدرها جنيه واحد.

ثم بسبت سارويان سببا دائما، وصاغت كتبه مع ما صاغ بسبت معنى فى السبعة إلى إلحاحا، والعرب أنى لم أجدل أثناء وجودى فى محضرا أن أبحث عن أى كتاب آخر له، بل لا أظن أنى تذكرته أو سمعت اسمه طوال إقامتى هناك. ومرة السراب حتى تصادف، عندما روت الولايات المتحدة وأن فى الخمسين من عمرى، أن وجدت كتابا صغيرا له فى إحدى المكتبات يضم بعض ذكرياته

مفرحت بعثورى على صديقى القديم بعد فراق ٣٥ عاماً، ولكن حاب أُملى حية عظيمة لم أجد فيه، وأنا أقرأه فى س الخمين، أى سمة من سمة العبرة التى كت أظها فيه عندما كت فى خمسة عشرة، ومع ذلك فقد صدقت بعض مفرات العبدلة التى ذكرتنى تمتعتى القديمة به حتى روايته للذكراته وهو طفل، وصف وصفا شائفاً عممة الاستحمام التى كان يتعرض بها على يد جدته، وراعى الله لشدة بين ما كوت تصعبه به حذته فى أرمسا، وما كات تفعله أُمى أثناء استحمامى ونامها تنظف جسمى كحلوسها بلى كرسى الحمام الخشبى لصغير والمصروع حصيصاً بعد تعرض، وعلى الماء فى صبيحة مرسوعة عنى وامور حار، وعلى كور ساء نالغ السعونة ثم صته على جسمى «صغير دون أن تقل أُمى أن تصدق صبحى وشكوى من شدة السحونة ودحول نصابون فى عيسى، وهري جسمى باللوفة حتى يحمر الخلل من شدة الحكة، ورفض أُمى أن تهتسر أن الاستحمام قد تم حتى تسمع صبحى وترى حمرة جلدى

بحثت عن كتب أخرى به على أمل أن أجد ما يعيد إلى أعصابى لقديم به، فوجدت كتاب به نشر فى ١٩٦١، ويحتوى على سيرته الذاتية، فقرأته فى محاولة لاكتشاف حقيقة الرجل، وربما أيضاً لاكتشاف سبب إعصابى امكر به، بحاب أُملى مرة أخرى إذ كان من الرصع أن الرجل كان قد أصابه لهرم وهو يكتب هذا الكتاب فبعد حتى طُرفه القدم لفت نظرى فى لكتاب أنه وإن كان لا يكتب عن ذكر اسه (ارام) واسته (لوسى) وأهله الأرمس انديين هاجروا إلى أمريكا، وبعض بالبعسر عن الحب لهم جميعاً، لا يذكر أى شىء عن روحه، التى يوحى لكتاب بأن امرها انتهى بطلاق. ثم وجدت فى نفس المكتبة كتابا حار عن سارويان، كتبه ابنه ريم، وشاهى بنده أب أعرف قصة لرحل بالتفصيل، خاصة إذا كان لراوى هو هذا الابن بحروب الذى كتب عنه الأب بكل هذا الحب وسمى أجد كتبه باسمه فدادبى أجد كتاب الاس لا يحتوى إلا على دم مسمم للآب، وكان الرجل ليس به حنة واحدة تستحق الذكر بل به حتى عندما يأتى بى ذكر معه حاضرة بوبنيزر، وهى أعلى حاضرة أدسة فى أمريكا، ورفض سارويان للحاضرة قائلا «ن لا مال لا يحب أب يكون له صلة بالأدب»، حتى هذا عسره الاس سحب سارويان لشهرة

كان من الواضح أن الاس لم يكتب هذا الكتاب إلا في محاولة مستمته لدفاع عن
 مه ، وإلقاء اللاب كله على الذي يعنه بالأسنة المعرطة والفسوة وما يشه
 الخرون ، وأدى بينهم من لكتاب أن لأم كنت عن روحها أنها طفلة عبر شرعية
 وأنها يهودية حتى انقصت عدة سواب عى روحها ، وحدث حوفا من أن يهجها
 إن عرف الحقيقة ، وقد طلقها الرجل لمعل عندما أخبرته بالحقيقة ، إذ لم يتصور أن
 تكون لديها هذه القدرة على كتمان مثل هذا عه ، واستمر أراه فى الكذب طوي
 لك لسنوات

على أن أقوالى على قراءه كتب الأدب بالإنجليزية حدث أساسا بمصل أحي
 حسن ، فمن طريقه عرفت على الأدب روسى ففتح أمامى هجاء عالم جديد
 تمام ، كانت روايات مستويصلى وتولو مستوى وترجف من نوع يختلف عن أى
 شىء قرأته من قبل ، وكانت قصص ومسرحيات تشيكوف على الأخص هى التى
 اسبوت عى قلى ، ولأول لأم من رؤيه مسان الكدر أو نشققات الثلاث أو
 الخاف فانب على المسرح ، المرة بعد الأخرى هوذا حبل سدن وكاب تعرض
 مسرحية من مسرحيات تشيكوف كسب هى ما أحذر روييه ههما كان عدد
 مشاهداتى لها من قبل عرفتى حين أيضاً على سارتر وأندريه جيد وكامى ، وعلى
 إستيخيان زديج وإيس وأرثر ميلر ، حتى إسى عندما ترك مصر إلى إنجلترا فى
 ١٩٥٨ ، كنت قراءتى بالإنجليزية تكاد تقارب قراءتى بالعربية فى السهولة ، وإن لم
 تقاربها حتى الآن فى السرعة



لا أستطيع أن أذكر معرفة واسعة بالشعر والشعر ، فى أى لغة ، بماهى ذلك
 اللغة العربية ، كما أنى لا أحفظ منه إلا أقل لقليل بهرتى أحياناً بعض عبارات
 سكبيرة ولكن يصعب على أن أعثر على مثال شعر أو روسى آخر ثار حماسى ، بل
 ولا أستطيع أن أرفع هذا حى عن شكسبير ، وقليل من حد من لشعراء العرب من
 جئت لى إقراءه هم متعة رائدة ، فبم عندما لمشى الذى أدين بحبى له للصدفة
 المحنة فعى آخر سنوات دراستى الثانوية كانت ورواء المعارف تسمح لستلامد

دحول مسابقة في الأدب العربي يتغير موضوعها سنوياً ، وتطلب من يشترك فيها قراءة مجموعة من الكتب في موضوع واحد . وتمتحن فيها عربياً ثم شفوياً من بعض كبار أساتذة الأدب في مصر . وكان الخاتمة فيما أذكر ثلاثين حينها . وكان موضوع المسابقة في ١٩٥١ المتى والشعر الأندلسي اس ريدون ، فكان علي أن يقرأ شعر المتى ويحفظ بعضه ويذكر من حياته ، بما في ذلك كتابان كتبهما الشاعر عني الحارم . و التحمت بالمسابقة وقرأت فيما قرأت عن المتى كتاب طه حسين عنه ، والكتاب الصغير الرائع الذي كتبه محمود شاكر ، واستطعت أن أعرف قدر هذا الكتاب وبقوة على كتاب طه حسين ، وأنا في ذلك السن الصغيره ، ولم أكن أعرف وقتها أن الأستاذ شاكر كان هداهم طه حسين بأسطر على بعض أفكاره عن المتى . انهم أرى مسبق وقصها لمسى ولا أزال حتى الآن أفضه عني غيره . وألفت عنه مسرحية كتبه بالاشتراك مع زميل لي ، لا أعثر لها الآن عني أثر . وحصلت على الخاتمة بدكت الأول في المسابقة ، رغم أني حصلت على درجة محفص سيما في امتحان اللغة العربية في السنة السرحيه (لشويه العامة) ، وكانت درجتها تصاف بي درجة مسابقة المتى . كما حصلت على جائزة أكبر منها ، في خمسون حينها ، لكوني أول الثانوية العامة في القسم الأدبي في القطر المصري ، وشكر سمي في الخرداد وأدع في آخر شره الأخبار بالإداعه ، رغم أني كتب أحسن الرسوب بسبب خروجي عن موضوع المظروف في سطر الإشاء في امتحان اللغة لعنة

حدث أبهت عندما كتب طلالا في المدرسه انشويه ، في الشاشه عشرة أو اربعه عشرة من عمري ، أن جاء يرب زميل لي إلى المدرسه وهو يحمل كتد صغير ، لا يريد حجمه على حجم انكف ، يتضمن شعر أبالإنجليزية للشاعر الهندي الشهير ظاهو . كان اسم الكتاب «الغني» (The Gardener) ، وقد لى إنه معجب حذا بهمه الأشعار وأعوا انكتب لي . وبالفعل وحب الشعر رائعا ، وبدأ أسم صاعو يصيح محبا إلى نفسي ، ترجمت له وأنا في خامسة عشره أو نحوها بعض أشعاره ، وشرت أنصا في مجلة شعاعه ، ثم اقتصت مجموعه أشعاره في مجلد واحد لا أزال

اعتبره من الكتب المحسنة إلى " وبعد سنوات كثيرة فذهب له في التليم يون
 الإغليزى هلمما مأجودا عن رايته " ليت والعدم " فراعى ، بس فقط جمالها
 وحكمتها ، بل وما تلقىه من سوء وما تشبه من فكر ، وهي المسرحية المكتوبة منذ ما
 يقرب من مائة عام ، عما يحدث الآن من تعصب وتطرف في بلادنا و حار جها ،
 وفي الصراع الخالد بين الوافد والموروث كد لفيلم من إحراج ديك المحرج
 الهندي الشهير أصا ، والذي أصبح بدوره من أحسن إلى ، سأتاحت
 راي (Satyajit Ray) ، فأصبحت أثقل على أي حر يتعمق بها عور أو يستأحيب راي
 شغف وأقرأ باهتمام أي حر أو مقال يتناول بها لا عجب أن ألفت بلغة على
 قراءه مقال وجدته في صحيفة بريطانية كتبه المحرج راي عماسة ذكرى طاعور وفيه
 إشارة إلى الواقعة المؤثرة الآتية التي حدثت له وهو طفل في الثامنة من عمره . قال
 راي : إنه نشأ في نفس اسلده من بلاد سجان بالهند ، التي عاش فيها طاعور ، وكانت
 أم راي نرور طاغور أحد ما فكان يسألها عن هلم انها وبطوره العقلى وفي أحد
 الأيام حاءته الأم مصطحبة انها مستأحيب وطبت من طاعور ، أن يدعو لاشها
 رياركه ، فقام طاعور وأحضر قلما وورقه وكتب عليها مقطوعة شعريه قصيرة من
 تأنيبه ، وطواها وأعطاها للأم قائلا " احتفظي بهذه الفصيذة لقصيرة لاسث حتى
 يكثر إنه لن يمههم الأد ، ولكنه سيمهمها بكل تأكيد عندما يكثر " وكانت القطعة
 التي كتبها طاعور

«تدأعت نروة طائلة في سمر إلى شواطئ بعيدة ، هرأت حسالا
 شهمة ومحيطات لا تحدها حد وبكى لم أجد مناعا من الوقت
 لأن أحضر بصع خطوات قللة خارج منزلي ، لأنظر إلى قطرة واحدة
 من الندى ، على ورقة واحدة من أورق العشب»

"I have spent a fortune travelling to distant shores and
 looked at lofty mountains and boundless oceans and yet I have
 not found time to take a few steps from my house, to look at a
 single dew drop on a single blade of grass"



وقعت يدي على معكزه صغيره سنة ١٩٥١ وحدثني دوت فيها، يوماً يوماً،
من أول السنة إلى آخرها ما فعلت خلال اليوم محاصر شديد، بما في ذلك ذكر
أسماء الكتب التي كنت أقرأ فيها والأفلام والمسرحيات التي شاهدتها كانت هي
سنة امتحانات الثانوية العامة (التي كانت تسمى حينئذ بالثوجيهة)، وحدثت
خلالها أيضاً مسابقة الأدب العربي التي ذكرتها خلافاً والتي عقد امتحانها في فبراير
١٩٥١، وكانت الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة هي أول شهوري في كلية
الحقوق. ومع ذلك وجدت أنني خلال اثني عشر شهراً (هي السنة السابعة عشرة
من عمري) قرأت عدداً لا بأس به بالمره من الكتب الخيلة، بالعربية والإنجليزية.
هذا الإنجازية قرأت عشرة كتب نرومان (ما بين روايات وقصص قصيرة
ومسرحيات) وحرراً كبيراً من كتب يصمم الأعمام الشعرية والمسرحيات الكاملة
لطاعور وقصتي لوبرا الكونت الشهيرتين مساء صغيرات وروحات طسات،
ورواية عصر العقل لجان بوب سارتر، ورواية لتولستوي أصلها رواية البحث،
وأربع روايات لشر جيف، وثلاث روايات لدمستوفسكي من بينها الجريمة
والعقاب، وثلاث روايات لأندريه جيد من بينها نابات الضيق، ومجموعة من
القصص القصيرة لتشيخوف، ومسرحية الضائقة لمارا لبرارد شو وأخرى لايس
(أسطة البرقة)، ومجموعة من القصص القصيرة لمولاناب، وبعض قصص
أوسكار وايلد. قرأت كل هذه الكتب بالإنجليزية، كما قرأت بالعربية كسا عن
الثنى وابن رجب (استعداداً لمادة الأدب) وكتابات الفيلسوف مسورا،
وأربعة كتب سوفيق الحكيم، ورواية إبراهيم الكاكاب للمارس، وترجمة لآلام فيتر
لخوته، وترجمة لرواية تاييس لأمانول فرانس، وترجمة لرواية البيت والعالم
لطاعور، وحرراً من ترجمته بكتب أصل الأنواع للداروين، وترجمة لكتب
لديكارت لا أذكر، لأن كم هممت منه ومع ذلك فأنا وأنت من أنه كان من السهل
على أن أقرأ أكثر بكثير من هذا القدر من الكتب لولا إشغالي المستمر في تلك
السنة بما تقهه ست الخير، دون أن يسع هذا الإشغال للأسف عن أي نتيجة
دوت شال

لأنه أنسى اتحدث هذا القرار في سن مبكرة جداً، وهو أن أحقق مرعاً من التصرف
أو السبب عن طريق البكائه. ولأنه كان لهذا الغرض غلافه وثيقه بإمكانه إعاليه
التي كانت تحمله البكائية والتأليف والشعر في أسرنا

كنت شهيرة أبي ومكانته العالية في المجتمع يعود ذلك إلى هذا رحدة البكائية
والتأليف نعم لم يكن أبي يتمتع شهرة بصاهي شهرة طه حسين أو العقاد أو موفيق
الحكيم، ولكنه كان في نظرنا نحن الصصة الصغرى، بصاهي شهرة هؤلاء ونريد
عنها كعادتي لأبي معالاً بعد آخر في مجلة بعد أخرى، وبري صورته إلى جانب
المقال، وسمع صوته وهو يلقي حديثاً في الإذاعة، وسمع حرس التليفون من فإذا
بالتكلم هذا الكاتب الكسرو أو ذلك، ربي لأعياد برى ساعى الرنة محمل له عددا
كثيراً من كروب المعايذة، كثير منها لأسماء معروفة ومشهورة، وعلى الطرف اسم
أبي مفسراً معارة «الكاتب لكبير» أو حتى في بعض الأحيان «عميد الأدب
العربي»، وكل هذا أتى من البكائية والتأليف، فما أعظمها من مهنة، وما أجدرها
بالاقتناء!

ولكن إلى جانب هذا لابد أن هناك عاملاً آخر، يتعلق بقدرتي أنا الذاتية على
البكائية. إذ لا جدوى من أن أظاهر بغير ما اعتقده، وألا أعترف باعتقادي بأن لدي
قدرة على التعبير الواضح والسلس عن نفسي بدرجة تفوق قدرة كثير من عيري
لأنه أن كان لدي استعداد طبعي تتعامل مع الكلمات ولتعبير الأسلوب الخليل
عن القبيح هذا الاستعداد اتضح مبكراً لمدرسي اللغة العربية في المدرسة الابتدائية
فكانوا يعطون دائماً درجة عالية على ما أكتبه من موضوعات الإنشاء أو في مادة
«السبب»، كما كانت تسمى في مدرستي المتوسطة، وكثيراً ما كان المدرس يكتب
حملة أو مجلس من الشئ على ما أكتبه من نوع «لأنك أنت سبب صبح أدينا بمارك» أو
«أنتى لك بهذا وذلك». وكان هذا يسرى مروراً عظيم، إذ لم أدرك وقتها أن كثيراً
من عبارات الشئ هذه كان المقصود بها أبى في المقام الأول، فقد كنت كثير من

مدرسى للغة العربية حريصين على أن يحصلوا على رضاه، وأن يعرفوه بأنفسهم، عسى أن يستطيعوا في يوم من الأيام تحقيق بعض النفع من وراء ذلك، ولكن يجب ألا أبايع في هذا أيضاً، فلا شك أن بعض هذا «شأن كان في محله»

لأنك أسي نيت أو ظنت في عسى بعض التعبير في القدرة على لكتانة في من منكورة بغاية، تعود إلى سوات روضة الأطفال (وكانت تبدأ حينئذ من من الخاصة وتنتهي في الثامنة)، إذ من أول ذكر ياتي عرعى على ككتانة قصة بكي أعرضها على مدرسة قيمة من المدرسات كان اسمها «أفلة طامة»، وامي كتت هذه القصة «مع»، ذهبت في اليرم الثاني متبهما أشد التلهف على إعطائها لها، ولكنك، لحية أسي لشدينة، تم تحصر إلى المدرسة في ذلك ليوم، بل ولم تظهر في المدرسة بعد ذلك قط، وبالنسبة لم تقرأ قصتي ولا قرأها غيرها

بعد هذا يستأنف ثلاث، وكنت في الثامنة أو التاسعة من عمري، اشتريت مع أخرى حسن وأحمد، في ككتانة مجلد يكون من تسع صفحات، ويحوى على ثلاث قصص قصيرة كانت قصتي، التي تقع في نحو ثلاث صفحات، تحمل هذا العنوان التريدي «دنيا»، وكانت مأثورة بالفعل، إذ كان موضوعها حليماً رعت أسي حبة، وتعرضت فيه لأحداث مأثورة ماية، منها تعرضي للتعديت القاسي من مختلف الأبرع، عني يد سيدة عليفة القلب شعبة المطر، دون أن يبين في الحلم أي سبب روضح لهذا التعديت. وتنتهي القصة بأن أسأل عن اسم هذه السيدة واكتشف أن اسمها «دنيا»، وأتوب في نفسي «عم، كم أنت قاسية بدنيا» وبهذه الحملة تنتهي القصة، وأسقط من درسي، واكتشف أن كل هذا لم يكن أكثر من حلم للقرئ أن يتصور الحلة النفسية التي يمكن أن تدفع طغيا في الثامنة من عمره إلى أن يكتب قصة كهذه، وأن يصنف «الديب» على هذا النحو وأنا أميل في تفسير تلك الحلة النفسية بوقعي كأصغر طفل في العائلة وتعرضي المستمر مصايقات أخرى اللدين بكرة في مباشرة حسن وأحمد

كانت لفصة الوحدة من من بعض الثلاث، التي تتمتع بأي قصة أدبية على الإطلاق، هي قصة حير، أو هكذا على الأقل ظلت أعتمد لسوات كثيرة، كلف

قرأها من جديد كانت محفل عوان «كهولة مريحة»، وكانت، على عكس قصتي،
حفلة الطل ومثوقة بل وذات معنى

كان هذا في سنة ١٩٤٣ أو ١٩٤٤، ولا نراي لدى حتى الآن نسخة من هذا
«المجد»، وهو مصوغ جديدة أليفة من مطبعة حنة الماييف واسر حنة والمشر، التي
أسسها أبي ومجموعة من أصدقائه في سنة ١٩١٤. وطل رتبنا لها حتى نهاية
حياته كما أنه كان «مجد» بمعنى الكلمة، أي كانت له حمة حمراء أكثر سمكا
من بقية صفحات كتاب، كتب عليها أسماء القصص والمؤرخين تحت اسم
كتبت عبارة «تلميذ مائة الثانية في المدرسة الابتدائية» كما اعتبر موافقة أبي على
طاعة مثل هذه القصص بمطعته أمرا طبعيا ولا يطوى على أي نسب أو كرم من
جانبه، بل كما اعتبر ذلك وجاهله والحقيقة أنه كان من أسهل الأمور عنه أن
يهرب ويهرب ما يكف عن هذا الكلام الغريب ولكنه لم يفعل وافق أبي أيضا بعد هذا
سنوات قليلة، وكنت في نحو الحادية عشرة من عمري، على أن تطبع في مطبع
لجنة التأليف مجلة أسستها أنا وعدد من أصدقائي تحمل اسم «عصمو الل»،
صدرت منها ثلاثة وأربعة أعداد ثم احتججت عن الصدور عدم حققت بعض
الأساسي من إصدارها وهو أن يرى أسماء مصورة، وموضوعة بالقد مثل رئيس
التحرير، أو حتى رئيس مجلس الإدارة، وهو منصب لم يكن من الممكن أن يحتله
شخص عوري، ليس فقط لأن المجلة تطبع في مطبع أبي، ولكن لأني أنا الذي
كنت أكتب معظم مقالات المجلة

الأغرب من هذا أن أبي، عندما دعيت أن أحيي حسين من الرابعة عشرة أو
الخامسة عشرة، كان يسمح لنا نشر بعض ما يكتب في مجلة «الثقة»، تلك المجلة
الرفعة التي كان يرأس تحريرها طوال عمرها، باستثناء السنة أو سنتين الأخريين
السابقتين على إعلانيها، والتي لعبت دورا مهما في الحياة الثقافية في مصر في
الثلاثين والأربعين. بالإضافة إلى هذه المقالات القليلة التي نشرت بمصل
نسمح أبي وكرمه، كنت أشياء كثيرة أخرى مما لم يكن يتصور نشره في أي مكان
كنت حتى دحولي جديدة دائم التأليف للكتب المخطوطة بخط أبي لم تكن كنت

صفحة، بل إن بعضها لم يكن يريد حجه على عشرين صفحة، يكون معظمها من صفحة الخلاف، وصفحة الإهداء، ثم صفحة المحتويات والمقدمة، بينها خمس أو عشر صفحات قبل أن تأتي المقدمة. كان المهم هو بالصح مراعاة القواعد الصارمة التي تراعى في أي كتاب. فلا بد للكتاب من إهداء وصفحة محتويات، وقد نأثرت تحت عنوان الكتاب عشرة لائحة بكتاب مشهور، بل وري ذكرت على صفحة الخلاف أن هذا هو الجزء الأول من عدة أجزاء سوف تصدر بآغا. وقد يتضمن الكتب قصص وأشعار، مجموعة من الأقوال المأثورة وبعض الخواطر العلمية، وقد يصمم موضوعاً للإهداء كتبه لأحد المدرسين وعبر عن إعجابه به. كما ذكر أنني في من السادسة عشرة عندما قرأت الترجمة بحرية لكتاب آلام فرير لحونه بأثرت به تأثيراً شديداً، جعلني أقرر أن أكتب قصة مماثلة أصب فيها ما كنت أشعر به من حب لالة الحيران، فصعدت إلى مطبخ المنزل وجلس في الشمس ومعنى الورق والقدم وشرعت أكتب كتاب بأكمسه، دون أن يكون لديّ دليّ فكره عن موضوع القصة أو كيف يبدأ وكيف يمكن أن ينتهي، ومن ثم لم أكتب إلا مطرير ثم سببت المشروع بأكمله.

كان من المحزن أيضاً أن أحرق الشعر كما حرّنه عيسى، قبل أن أكشف شيئاً اكتشف كثير من عيسى، عدم وجود موهبه ناتية في هذا المجال. وأعطى أنني كنت في نحو السابعة من عمرى عندما بدأت أكتب قصيدة أعربها عن فرحي بعودة أمي من سفرها، فقلت في البيت الأول:

أمي العزيرة قد أتت أمي العزيرة قد أتت

ثم توقفت لإبهام تماماً عند هذا الحد. وعندما ذكرت لأبي ما حدث تصادف أن كان حالي ابن فقرر تشجيعي بأن يؤلف بمعي بيتين إصفيين على أمي أن أصيب إبهام فيما بعد فقد:

هيا بنا إلى بها ملقى السلام عليها

فلقول يا أم أهلاً ومرحباً وسهلاً

ولكن هذه لماعة الحجة من حبه لم تثر أي شيء جديد من حسي.

كتب أصغر من أن يلحقنى أى أثر دى شأن من حرب العائنية الثانية فقد قسب
حرب قس أن يبلغ الخامسة من عمرى وأسب وأنا فى العاشرة معم أذكر صمدان
البريد و صفارات لأمدن، وأنها كانت صفارات حقيقية وجدية نعت الأولى
أخوف ومعبد الثانية الطمأنينة، وذلك بعكس صفارات الإنذار والأمدن التى
سمعاها نصح مرات خلال حرب ٥٦ وحرب ١٩٦٧، إذ لم يكن راحة هذه مأخذ
الخذ، وكما على حتى فى الاعتماد بأنها كانت فى أغلب الأحيان، من بين وسائل
الحكومة لإيهام العدو بأن هناك فتلا حقيقيا

أذكر أيضا جريا إلى المحما فى بدروم السون، وصبيحت البام فى الشوارع
مضرورة إطفاء الأنوار، ولكنى لم أسمع صوت قسلة قط أو مدافع، وإن كنت أذكر
رؤية أصواء الكشافات فى السماء التى سبحت عن الطائرات لبعده من ذكر بانى
العنية عن سوات الحرب حرص أسمى على تخمين الحرائك والمجالات التى فرع أسمى
من هزتها كان الورق فى تلك السوات شيئا نفسا بسب صعوبة الاستيراد، حتى
إن نفس ما سبعا أسمى من هذه الحرائك كان يعطى نفس كل ما تشتبه من حصارات
بالإصاحه إلى بعض المناكهه أذكر أيضا تهكم بصعب بما تشبه من رسوم فكاهيه
بين كنت تسيهم «أعياء الحرب»، وهم من جمعوا ثروات طائفة من التجارة
بأشياء أصبحت نادرة بسب الحرب، أو بسب نعمتهم مع قوات الجيش الإبحيرى
المنتشرة فى مصر على أن أهم آثار سوات الحرب على حياتنا العائنية كان أثرا طيب
ولم يشق منه فى دهمى إلا ذكريات وصور سازه للعناية كان هذا هو قصاؤد لبعض
شهور نصف من كل عام، فمابين ١٩٤٠ و ١٩٤٥، فى رأس السون، إذ ظلت
الإبكلديه طوال هذه السوات معرضة لأخطار كانت رأس السون بعيدة عنها ومن
الصعب على أن تنقل إلى انقارئ صورة ما كانت عليه رأس السون من جمال ورونق
فى تلك الأيام، بالمقارنة بما آلت إليه فيما بعد لا بد أنها كانت تستقبل فى كل عام
عائلات من عليا القوم، من رجال السراى إلى الباشوات من الإقطاعيين، إلى كبار

لميس والميسورين من الطبقة الوسطى في مصر. وكان أبى يعتبر تصييف شيا شبه مقدس، يعكس كثيرين غيره من لمتصيفين نفس طقته ووضع الاقتصادى، ومن ثم هذا شأنت وكبرت على فكره أن التصييف «من ضرورات الحياة»، وأعتبر البقاء طوال الصيف في الماهرة أمراً عريضاً حتى الآن، يعكس كثير من أصدقائى وزملائى الذين لا يعزونه شيئاً ضرورياً على الإطلاق.

لا بد أن كان برأس البحر سحر خاص للأطفال، فليوت ليست إلا عشتار مقامة على أرواحات من «حشب» والشوارع وملة غير مرصوفة فلا تسمح بمرور أى نوع من السيارات أو ادراجاجات، ومن ثم للأطفال أن يبحروا ويلعبوا حول بيوتهم دون أن يخشى عليهم من شيء. ويوم نقضى بين غوم في البحر في الصباح، وركوب القوارب لشراعية في اميل في المساء، أو سمشيه على كوريش اميل الساحر، حيث يجتمع البائعون لكل ما يمكن أن يحطرن بال طفل من بين كل هذا شصفت في دمس اروح، أو حسن مسرر لا يمكن أن عسرها برمس، وتعود إلى ذاكرتى بين الحين والآخر قوية واصحة، ليس فقط في شكلها الذى رأيتها به و تاهى السادمه أو السابعة من عمرى، بل وتكدد أبغى تعود إلى رائحتها ومدفها

من بين هذه الصور التى لا أنساها صوري أبى وأخى حسين وحين جالسنا في إحدى المزدق الماهرة التى أقمت على شاطئ نيل في رأس امبر، وقد أحضر إلنا الخادم ما طلبناه بحضرة وهو «شاي كرميه»، ويتكون من إبريق داحر للشاي، وإبريق دحر أصفر قليلا للماء الساخن، وبراء آخر صغير له معدن الفضة للسكر، وشبه اللبن. وبى جانب كل هذا يأبى لكل ما طفق صغير وسكين وشوكة ومنعقة لكن نأكل منها قطع لكث الانعسرى الماحر، المحلى بقطع الفاكهة الحففة، وقطع الوبس، بعد أن نعصيه بالبرند والمربى. كب كل هذا شمله هذا التعبير استعصر «شاي كومليه» (أى الشاي الكامل) ويصعب على أن أفهم الآن بالضبط ما سحر هذا الشاي الكومليه في نظر طفليين صغيرين يشراوح عسرها بين لبدسة والتاسعة، ولكن مما يمكن أن يعنى صوم على هذا السحر الخاص ابواقعة الثالثة كب أبى فد أحسد يو ما إلى هذا المزدق (وأظن أن اسمه كب هلق زوبال) كوع من

الصحفة لتعويضا عن حرمانها منه. تستمر منه وهو مستعرق طوال الوقت في القراءة والكتابة. وسمعناه يطلب لنا «شاي كومبليه»، بينما طلب لنفسه صحفا من القهوة يدون سكر، إذ كلا مجموعا من أكل أى نوع من الحلويات. فلما أتى الخادم بهد لشاي كومبليه لأبداء أدھلنا، نيس الأكل معه، بمقدار ما كان يأنى معه من أشاء سديعة سرق في الصوء، من إبريق الشاي إلى أصغر ملعقة لأبدأن طعم الأكل في هذا الإطار العاجز من الصحافة والأبهة، كان له لذة مصاعفه، مھلك عما لھذه الأشياء في فم طفل صغير من دة، في أى طرف من الطروف، تعرف بكثير ما يمكن أن يكون لھا لدى الأكبر سنا رأینا إلى جوارنا شابين يعبان الطاوله، فاستقر عرما۔ أنا وحسين۔ أن ندھر مصرروما ليصعة أساييع حتى يستطيع أن يھرح وھذا، أن ھو مقط، إلى فندق روبا، فطلب لشاي كومبليه ثم طلب طاولة لسحب به لمة «عادة تعشھ لعم المحوسد»

عندما أنذكر هذا النعيم الذي كانت تھرح ھي الطقة الوسطى والطبقة العلیا في مصر، في أشد أيام الحرب بعالية قسوة على الأوروبيین، أعوذ فأتعجب من درجة «الدليل» التي تھبھ الطبقة المیسورة في مصر، على مر العصور، بالمصارفة بدرجة المعبدة التي تعرصب لھا كافة الصلصبات الإحصائية في أوروبا بین مسرة وأخرى، إما بسبب الحرب أو بسبب الأزمات الاقتصادية الطاحنة

نصف لی روجتی (وھی إنجليزية وكانت تنتمی في مجتمعتها إلى نفس الطبقة الاجتماعية التي كنت أنتمی إليها في مصر، وقد ولدت في نفس السنة التي شئت فيها الحرب للعالم)، محتفب أوجه لھرمان التي عرصت لھا ھی وسرھب في سوات الحرب، وكيف كان الجميع، ميسورین أو عر ميسورین، معتروب من قبل المستعمات اشمرک الجميع في امضحية حکب لي مثلا كيف أن أحويھا اللذين يكرانھ في السن كانوا يعطانھا وھی طفلة، ويعبرانھا بأنھ «طفلة حرب»، فاصدين بذلك أنھ، وقد وددت مع شرب الحرب، لم تھبغ عما كانا يتمتعن به قبل الحرب من الحلويات واشو كولا تھب التي احتفب تقريبا من الوجود طوال سوب الحرب وكيف أن أسريھ قبلت عن طيب خاطر أن یقيم معها، في منزلھا، بواقع في مدينة

صغيرة في وسط إنجلترا ، وبعده شهرين ، ست عشرة امرأة وطفلاً من كادوا يقيمون في لندن ، حيث ذهب الرجال للقتال وحرى تهجير النساء والأطفال إلى خارج العاصمة ووزعوا على المدن سميدة ثقيل عدد ضحايا القنب وحكت لي أيضاً كيف كانت أمها مع عدد كسر من النساء عصوات معا كن يسمى «دانش الأرص» ، إذ كن يقمن برعاية بعض الأرامل في جانب أعمال أخرى ، بدلاً من الرجال من المزارعين الذين ذهبوا إلى جبهة القتال



لاندات فصلاً عظيمة الصنف في راسن البر في أربع أو خمس سنوات متتالية خلال الحرب ، فلما انتهت الحرب عدنا إلى قضاء الصيف بالإسكندرية ثم مررت بسواك كشور دون أن أحظى برؤية رأس البر مرة أخرى ، إلى أن حظرت بحالي بعد مرور ١٢ سنة على انتهاء الحرب ، أي في ١٩٥٧ ، أن أذهب مع بعض لأصدقاء لقضاء بضعة أيام فيها بدعي الرعة في اسعاده أيام هذا الماضي الجميل ولكن كم كانت حبه أملئ كانت العيش قد حل محل معظمها بيوت قبيحة مبنية بالطوب والحديد والأسمنت ، وكان اكتفاء ضائع البحر وضائع الليل بالناس شديداً لدرجة كان لابد أن تحتوى معها أى مساحة من الجمال بحث عن الودع الجميل القديم الذي كان يزين ثمرات المؤدية إلى كثير من «المباني» (أو العيش) الحكومية ، كمس المحطة أو الشرطة أو المطافى ، فلم أحده أثراً ، مايفك عن الشئ الكومليه في فندق رويال ، إذ حل محل هذا الفندق آخر يحمل سمياً أكثر شعبية ولا يعدم شاباً من هذا النوع

كان من الواضح أن الطبقة التي كانت تستمتع وحدها برأس البر منذ اثني عشر عاماً قد طردت شر طردة إلى سكان آخر ، وحل محلها أعداد غفيرة من الناس ينتمون إلى طبقات شعبية أعادت لها ثورة يوليو بعض حقوقها المصاغة . عدد كسر الخطر إلى القاهرة ، أحمل في رأسى نفس الأفكار الاشتراكية التي نادت بها ثورة يوليو ، ولكن قلبي كان يحس بلا شك لأيام «الشئ الكومليه»

كـ وبـحـن صـبـة صـبـر لا يـنـظر إـلى سـبـب إـلا عـلى أـيـها مـصـدـر رـئـع لـلـصـبـة
الـخـالـصـه وـفـد كـات بـالـفـعـل كـذـلـك كـان سـجـور مـرـلـا غـصـر لـحـدـيـدة ، اـنـدى وـلدـت
و تـرـبـت فـيـه حـتى بـغـت اـثـانـيـة عـشـرة مـن عـمـري ، سـيـمـا صـبـيـعة حـمـيـلة تـعـرض أـفـلامـا
عـرـبـيـة و أـجـسـيـة و كـان الحـصـول عـلى إـد أـبـى لـى و لأـخـى حـسـن بـالـذـهاب إـلـيـها
مـصـدـر : لـلـفـرح العـومـر ، نـظـل بـعـثـر عـنـه بـالـخـرى بـاره و بـالـصـر حـ بـاره أـخـرى حـتى يـحـيـن
مـوعـد اـلـقـيـم ، أو بـالـأـخـرى حـتى لا يـقـى عـلى مـو عـد بـغـايـة « قـيـم » إـلا سـاعـة و اـحـدـه أو
سـاعـتـان مـهـدـب إـلى السـنـف و عـلـس مـتـطـرـيـن بـده اـلـقـم عـلى أـخـر مـن اـحـمـر كـانـت
الأفـلام لـعـرـبـة كـلـها مـن بـوع المـلـود دـرا مـا الصـار حـة ، بـشـريـر فـيـها شـريـر جـدا و اـطـب
فـيـها طـبـب لـلـعـبـة ، مـ اـنـمـلـم كـنـه صـراع مـمـصـوح غـما مـن الاثـنـيـن ، و بـتـهـيـب بـالـطـع
بـانـصـار اـطـبـب عـلى اـشـرـر ، و لـكـن بـعد أن يـكـون بـيـن هـذا لـشـريـر و الاـنـصـار حـطـرة
مـصـيـرة و حـدة ، أو طـمـه و اـحـدـة بـالـخـمـر ، ثـم يـنـدـخـل لـشـحـص اـطـبـب فـى أـخـر
لـخـطـة لـم يـكـن شـئ مـن هـذا يـصـايـقـا بـنـانـا ، بـل كـان يـلـاثـم عـقـلـيـسـا و سـبـا حـيـثـتـد عـام
الـلـاء مـة

هـكـذ كـان أفـلام بـدر لـامـا ، الفـد مـن الشـجـاع غـما ، و مـسـراج مـيـر ، اسـطـل لـمـوار
فـى قـيـم عـتـر مـعـنـة ، و رـكـى رـسـمـم ، الـدى كـان و حـه يـلـاثـم أـدـوار بـشـريـر ، و مـحمـود
المـيـحـى الـدى كـان رـاعـا د تـمـا فـى بـديـر المـؤامـرات و المـكـائـد فـى الحـفـة لـلـأشـحـص
الـطـيـس ، و عـد بـعـثـاح الفـصـرى الـدى كـان بـلـاثـمـه دـور رـئـس العـصـاة إـلـح
و هـكـذا كـان أفـلام بـوسـف و هـى بـرائـعة ، مـع لـبـى مـراد الـعـاة الرـقـقـه الـحـمـلـة ، سـواء
مـشـت فـى قـيـم لـيـبـى يـث الأـقـبـيـاه أو لـيـبـى بـت لـمـمـراء ، و كـذـلـك عـدما مـثـلت فـيـلم
« لـبـى » بـدـون أـى و صـف - لـح

و عـدما دـخـل أـحـمـد سـالـم مـيـد ن اسـيـم و مـثـل أـدـوار سـطـل بـوقـار و هـدـوء عـيـر
مـمـهـود بـيـن ، أـثـر فـيـه حـدـا فـيـلمـه مـع بـيـى مـراد أـيـصـا ، اـنـدى عـقـد فـيـه « ذـكـر تـه بـسـب
حـدـث سـيـاره ، و اـنـقـضى اـلـقـيـم كـنـه فـى مـحـاولـة لإـر جـاعـه لـر و جـتـه اـسـكـيـنـة ، و تـغـثـل

كل الجهود التي بذلها لأشهر لإنشاء روحته عن محاولة العثور عليه ، و شروبيح احمد سالم بعمر روجته الحقيقية ، حتى تعود الذاكرة وتعود إلى روحته وستبقى القيمة نهاية سعيدة جداً كانت أفلام نجيب دريخاني محتشفة عن هذا ، وأظن أنا سم غفرها حق قدرها إلا في من أكبر قليلاً ، ولكنها كانت رائعة بدورها في حفة ظلها وبصورتها للشخصيات وللغواق الصارحة بين الطبقات معرباً أيضاً من حلال السينما على موضوعات روايات عالمية كالمسرح لفيكتور هوغو ، وعدة الكوميديا لألكسندر ديب ، وغيرهما بما قدّم متجوا الأفلام عدداً ملاءمه للدورق المصري ، ولكن بعد أن أدّ علماً عليها كل ما حطر سألهم من تعديلات رأوا أنها تريد من إقبال الشعب المصري عليها ، وكان تقديرهم في محلّه

كان مم هذه السينما القريبة من مزنا دسان متعبوه عدم كنت في السادسة أو السابعة من عمري ، ثم تغير اسمها إلى هريال بعد أن ررق الملك هاروق دسته الأولى هريال وأن في الدمة أو التاسعة ، ثم تغير اسمها إلى سيمبا لتحريز بعد ذلك سواب ، عدم قامت ثورة يوليو وكانت تعرض في جاب الأفلام العربية ما كان يماسا من أفلام أمريكية . وقد أعزمت على الأحص بأفلام لوريل وهاردى ، اللذين كب سميتهما (الحين والرفيع) ، إذ كان من الصعب عليهما بطق اسميهما الحقيقيين ، وأفلام شيرلى نيل التي كب حينئذ طفلة صغيرة ، واسمعت حذاً وحاب أملى عندما رأيت صورتها بعد دث سوات كثيرة فودا بها امرأة عديده كفيه النساء ، وأفلام ميكي رومي الذي بدالي وهتها رائف أيف ، ثم حاب أملى حذا عدم شاهدته في أفلام أخرى بعد ذلك سو بإد وحذته رجلا بالغ القصر وحاليا من أنى حديثة كما أعزمت جميعاً بأفلام طرزان حيث سألنا ما يعرض به من أخطار من لحيوانات المفترس أخطاراً مخيفه حق ، كما بدت قدرته على الانتقال من مكان إلى مكان اخر بعيد سألنا منك سجد فروع لاشعور ، أقرب إلى أعمال لسجرة أو الحب

عندنا بلغنا من امراهقة أصبحت تستهوب أفلام من نوع خمر كالكلمحت انباتت لإسبر وليمر ، وذهب مع الريح للكلارك جيبيل ، وجسر وامريو برونر تيدور وسقطنا جميعاً صرعاً واحدة أو أكثر من قدر بهن أن يكن حميلات

السبب وراء نوبت من المرفقة ، كما عرفت برحمن زهيدى لآمار وفي بيان لى
 ح ، ولم يكن لديها فى الأفلام المصرية من يستطيع مفسه فى يقاع فى العرام .
 فليلى مر د مثلاً ، وإن كنت جميلة ، لم تكن طعية الأئونة مثل دشا هيو اوث ، كم
 أنها وإن كنت تحتل أدوار الحب والعرام ، لم ترها قط وهى نقل حبيها وكوكا
 ص حة و حة جميل قطعاً ، ولكم لم تكن تعرف شيئاً عن مدى رشاقها إذ كانت
 اللاس البدوية التى ترندبها د تم جمع ذلك

كل هذا كان ر تبعاً ، واستمر حتى بلغت الخامسة عشرة أو نحوها . وهى سمعنا
 من يقول كلاماً عن سبباً مثلما سمعنا عن الموسيقى الكلاسيكية ، أى اعتبار روية
 بعض الأفلام أمراً حيويلاً لا مجرد الاستماع و سلبية ، ولكن كشره لتحقيق سعة
 المعرفة والثقافة . وهكذا أصبح الذهاب إلى بعض الأفلام «واجباً» ، مثلما أصبح
 الاستماع إلى محووات تنهوى . وكانت قد بدأت تانى إلى مصر فى ذلك الوقت
 أفلام ، بطانية مشهورة تسمى لى ما سعى بالمدرسة الوطنية فى السبب ، وكان أشهر
 مخرجها ، لئسا هو متور يودى سكا ، برا مانه فى سبب أو دوت وهى وسط القاهرة
 عدداً من الأفلام الرائعة «كسارقى الدراجات» و «احب و احب و ذلغ» ، ثم احب
 و احب و غيرة . وكثيراً غير ه ، استمتع به غاية لامتناع كما أمدنا بمصوعات
 لتحديث الحاد و لتفلسف ، فضلاً عن اشتماع برؤية جيباً لولا لا بريجيداً التى لم
 تكشف صحتها فى الممثل إلا بعد ذلك بسنوات كثيرة ، إذ صرف بطون عن ذلك
 جمالها الأحاد ، خاصة عندما كتب مثل أدرا ماة فيرة مهلهل الثياب كما أثرت
 فيها بشدة أفلام مثل «الطريق» لفيلىس ، رغم حبه التام من أى امرأة جميلة ، أو
 «و ك و احوته» بيسكونى إلح ، مع بداهه محو شعورنا بالمشكلة الطقية فى مصر
 وبداهه معطية مع الأفكار ، لا شراكة

- ٥ -

كنت فى نحو العاشرة من عمري عندما لاحظت أبى أبى كثيراً ما أردد بأعنية ما
 وأنا رائج أو غاد فى البيت ، أو أبى أحسن ملتصقا بالمدياع الكبير فى صالة المنزل
 عندما مداع أعنية حبيبه لأم كلثوم أو عبد الوهد . فاجأنى يوماً وهو يدخل المنزل

حاملًا «الكمجة» في صدوقه الكسر فبدأ بها لي، ونصحتني بثوبت دروس للكمجان مع المدرس الإيطالي الذي يعطى دروساً خصوصية في بته الغريب من بيت ذكر لي أنه، وقد لاحظتني شغفا بالموسيقى لم يلاحظه من أي من جوتي من قبل، استدعى شجعت يعمل في لجنة التأليف التي يرأسها، اسمه عباس أهدي، ووظيفته أن يقوم بأي عمل خارج المؤلف يظلمه منه أي عضو من أعضاء اللجنة، بأهلك عن رئيسها، ومبرته أنه صاحب ويحد المداوعة في البيع والشراء، وطبب به أن يعثر لي على كمجة مسعمة فحاء بهد بي لم تكلف أي أكثر من جيه واحد

كان لي يحسني الطبع أن تصيح موهبة فيه كاسية وراء كل هذه التدنئة وبعاء، ومن ثم رأى من الحكمة أن يعدر بهذا الحنن من أجل كتشوف فداكات هناك فعلا موهبه ذهنية وقد رثيت بالفعل لدروس مع المدرس الإيطالي دون حماس كبير، ونحمل أبي الطبع نقمتها عن طيب خاطر ولكن سرعان ما سئمتها وتوقفت عن الذهاب، بعد شهرين أو ثلاثة، ولم أجد المحاولة إلا مرة واحدة أخرى مع مدرس إيطالي آخر بعد أن بلغت العشرين، ولكن هذه المحاولة لم تسمر ودورها أكثر من أسبوع أو أسبوعين ومع ذلك فإن هذه الدروس القليلة لم تضع هباء. فقد تعمقت كيف امتسك بالكمجان بيدي ودقي، وكيف أمسك بالقوس وكيف اصسط الأوتار، وبملاقة بين كل وبر وبقيّة الأوتار، وقد مكس ذلك من التجربة بعادة التجربة شهو، وأسرأت حتى اصحت قادرا على عزف أي قطعة موسيقية أستطيع أن أعينها بصوتي، وكانت السيخة سارة دائمة بالمسة بي وون كاتب نادراً ما تكون سارة لأي شخص آخر

كان عرامي في ذلك الوقت، أي فيما بين من العاشرة والعشرين، مصاباً على أعاني أم كلثوم، بل وكذا أن يكون فاصراً على أعاني رايض الباطي الحادثة في ذلك الوقت، مثل: «علب أصفالح في روجي» و«سوا هيني» و«هبح بردة» و«حدثت حبك له» و«ي طاللي» إلخ كنت أحفظها كلها، كلاماً وحناً، عن طهر قلب، وكانت كلها تحلب لي مشوة فلفقة كت إلا سمعت عن قرب ظهور أعينه جديدة لأم كثرم أنرفب سمعها بدموع الصبر، وأتخذ كل ما يلزم من

استعدادات ملاصقات إليها في حملاتها الشهيرة في الخمس الأول من كل شهر، لدى أصبح بهذا السب يوماً مهماً في حياة المصريين وكانت لأغنية الحديد لأمة كلثوم معناها في ذلك الوقت، أي في أحر الأرميات وطوال الخمسينات، أغنية من تلحين لسلطاني، دكان زكريا أحمد، ذلك الملحن الآخر بعد، في حصار شديد مع أم كلثوم، وكان محمد القصبجي ذلك الملحن العبقري بدوره، قد توقف بسبب أو أحر عن التلحين لها أدى هذا وذلك إلى حرمانها من الاستمتاع بهذه طويلة بأغنية زكريا أحمد والقصبجي كانت أم كلثوم تعني أحيداً، حتى أنه حصارها مع زكريا، أغنية في لمح لها قبل الحصار، ولكن في الرصلة الأخيرة من حملاتها الشهيرة وكانت هذه الرصلة تبدأ عادة بعد ساعة اثنية صباحاً، وكان يستحيل على أن أقاوم لوم حتى ذلك الوقت، مهما حاولت ولكن ربي كانت سى بداب، على أى حال اصغر من أن تسمح لي بتسم زكريا والقصبجي لتسم الصحيح، فكانت تؤثر في نفسي أكثر من اللازم «القفلات» (الهديات) لندمية للسلطاني، بكن مقطع من الأغنية، وكنت أقل قدره على تقدير التفسير السديع في التحن زكريا أحمد، والقدرة المسمرة على الابتكار عند القصبجي فخر بمرتين فهدت يجردي إلى حملة أم كلثوم شهيرة، مرة في مسرح الأركية ومرة في ميسما راديو موسط الللا، «سم تكن فخرتين ناجحتين جداً» لا أذكر من الحقلة الأولى إلا جلاسيا بصيرا واقفاً وحده في مقصورة ملاصقة خشه لمسرح اتى نقف عليها أم كلثوم، لم يحسن قط طوال الحقلة، وظن سح عليها في نهاية كل مقطع بان تعيده مرة أخرى مدياً بإها د نمار فياست» وأذكر من الحقلة الثانية اصططاري المجلوم في أغنية الصالة الواصفة جداً، صالة سيمما رديو، بسبب ارتفاع أصعد التذاكر الأخرى، فإذا بي أحد نفسي بعداً جداً عن أم كلثوم ويحيط بي مجموعته من أولاد البلد من أصحاب المرح، ربما فيما يتعلق بالحشيش أكثر مما يتعلق بأم كلثوم، ومن ثم لم يكن يهمهم كثير مسار بلحن أو الأغنية، وكثيراً ما كانوا يداون بانتهاف طالبين إعادة المقطع قبل انتهائه تماماً، فصلاً عن بانعى اشأى والقهوه الساخن يستمراد بين الصغوف بدون على مصاعتهم ويوزعون الطندات أثناء

لعماء كانت لتنتجة نبي بمجرد انتهائه الوصلة الأولى أسرع بالخروج، ولا أزال
أذكر كيف حترت فأهضى سرعه في ميدان التحرير لكنني أركب الأنوييس ابدى يعود
بي إلى البيت، حتى أصل من بداية اوصلة الثانية فأرأصل الاستماع في هدوء.

كانت هذه هي معطرة التي بدعت فيها أم كلثوم قمة شهرتها وتألقها، وأصحت
امصادر المسجلد دائم لسرورنا بما علق بذمى من هذه الفترة، وربما كان ذلك في
واسر الأربعينات، أن ممعا عى مرض أم كلثوم مرضاً خطيراً يهدد بمتاعب إلى
الأبد عى بعاء. وأصيب لشعب امصرى كله بالقلق البع وهو يباع أحبار حلقها
إلى أوروبا لاستشارة الأطباء، ثم جاء الخبر بمعرج بأن الأطباء يصعبون بأن أفصل
شئ يمكن أن تعله هو أن تستمر في بعاء، كما كانت تفعل بالسط وأقيم بها
عد عودتها احتفاد كبير حظ به الأبناء واشعراء، ولم تحتفظ ذاكرتى من هذا
الاحتفال إلا سرحل امطريف الذى ألقه لرجل الموهوب ببيع حيرى الذى يبدأ
بقوله «بين هوة كلثوم ده يا بختة. اللى أنت اسمك نقي أمه. واللى أنت مملا ولا أمه.
ولا تشد حبه ولا عمه». و تنهى إلى أن كلثوم هذا لابد أن يكون كرواناً محتشداً في
حجرتها. كان هناك بالطبع محمد عبد الوهاب أيضاً، ولكن عبد الوهاب لم
يستول على قلبي قط. كانت أعانيه لئى لحب في هذه الفترة، أى في أعقاب الحرب
العانية الثانية، قد اتحدت معى حديداً يقوم عسى لإمعان في الانقباس من مصنف
الألحان العربية. ورغم أن التنتيجة كانت دائماً جدانة وسقى عابقة بالدهن، إلا أنها
لم يكن تحرك القلب (أو عسى الأذن لم تحرك قلبي أنا)



ثم حدث في أواسر الأربعينات أن حظرت لأبى، في عظة بادرة، أن يسير لحياة
الحديثة فجاء إلى البيت بجهاز صمغ. أقرب في حجمه إلى دولاب املاص، وقال
لنا إنه جهاز راديو حديد يمكن الاستماع من حالته إلى أكثر من محطة بوضوح،
فصلا عى احتوائه على دوبرغراف، أى حمام أسطوانة، يعمل أومامانكا، فلا
يحتاج إلى شحمة بدد بالقوة اللازمه لكن بدور الأسطوانة. قال إن هذا اسطفاه
بعبارة يظف لأنه كبعه متن حسنها امتنع هذا الجهاز برائع في وسط انصاة له

من مطر جدد بحشه ناعم اللامع ، وبكتا نحن المراهقين من أفراد الأسرة سم
نكن من الممكن أن نعطيه ما لا نسمع إلى ما نريد الاستماع إليه مع وجود أبي أو
أمي أو جوتنا الكنا إلى حوارنا كنا أحياناً نحاول نل الجهار إلى الحجره التي
ستقبل فيها أصداءنا ، فكان سوء نحمله من فرط ثقله ، فصلاً عن الخوف من
إعصابت أبي إذ كان يرى في ذلك دللاً أكثر من اللامع ، ولا يتفق مع الحرص
الواجب في استعمال جهاز بهذه الثمن ، ولكن ما هذا المني كنا نريد الاستماع إليه
عسى أن نحل ؟

كانت قد وصلت إلي في أعقاب الحرب العالمية الثانية موسيقى راقصة ، جديدة
ثمأت على أسماعنا ، ولكن بالغة الحاذية لشباب مراهق مثلاً ، وبحسن أسماء مثل
التنجر والسما والروم هذا هو ما كان أصدقوا يرددون الاستماع إليه ، ونحن
أيضاً ، كنا كنا صبياناً بالطبع ، ولكن الخيال كان يعوض عن غياب البسات بدأنا
سمع أيضاً عن شيء آخر قيل إنه مهم ، بل وعصر أساسي في تثقيب الرء لنعمه ،
وهو ما يسمى بالموسيقى الكلاسيكية . كان وصول كلا نوعين من الموسيقى إلينا
جرءاً من حركة التعريب الحديدة التي طلت في حدود صيغة للعناية في العشرينات
والثلاثينات ، ثم تسارعت بشدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية مع وصول
لمنتجات الأمريكية الأفلام ونصحف والملابس والسيارات والأكولات
والمشروبات من بلدانهم أمريكا ، وكذلك أجهزة الراديو والغوسو عرايات
والأسطوانات الحديثة

في تلك العرة قرأنا أيضاً نشء كتاب توفيق الحكيم «رهرة نمر» الذي يصف
التصنيف طريقه حياته في فرنسا قبل الحرب ، وفيه وصفه العالم الحساس لحفلات
الموسيقى التي كان يحرض على الذهاب إليها ، ومشاعره عندما كان يجلس في
أعلى المسرح (قلعة مدمر من نهود) ليستمع إلى سيمفونية ينتهي في لحافه كان
الحكم يصف هذا باعتباره شرطاً ضرورياً لأن تصبح المرء مثقفاً ، وحيث إن كنا
مهمومين بهذا الأمر في تلك السن ، فقد اعتبرنا الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية
مسألة حياة أو موت ، وتسحق حتى المعامرة بمعصابت أبي لقلنا الجهار الحديد من
مكان إلى مكان

هكذا أحرروا مقدما لا بأس به في التعرف على موسيقى شتهور و شايكو فسكى
 وشونان ورحمادوف ورمسكى كورساكوف . إلخ ، وكان بربا أن يعرف أن
 سيمفونية بيتهوفن الثالثة كانت أصلا مهداة لنانليون ثم غير بيتهوفن إهداءه عسفا
 من هجوم نانليون على أدينا و كتفى سمية السيمفونية «الطولة» ، وظن أن من
 المهم أن يعرف تشبيه افتتاحية سيمفونيته الخامسة «سقات القدر على الأبواب» ،
 وكان هذا يشكل جزءا مهما ، أو أى جزء على الإطلاق ، من المعرفة بالحفزة
 إلخ

لقد ذكرت هذه الأسماء نالذت لأنه قيل لنا حتى أن موسيقى هؤلاء الموسيقيين
 مألذات أسهل في فهمها وتذوقها من موسيقى غيرهم كفاخر مثلا أو برمر
 فحرص على الحصول على أسطوانات هؤلاء واستمتع بها . وأذكر أنه في شارع
 قصر النيل بوسط القاهرة ، كان يقوم بجوار مقهى جروبى متحف لمن الحديث قبل
 أن ينقل إلى المحجورة ، وكان يحتوى على قسم للموسيقى يتاح فيه للزائر استعارة
 الأسطوانات بل وأن يستمع إلى بعض المؤلفات الكلاسيكية العرسة قل أن يفرد
 استعارة بعضها كانت مصر ، كما ترى . مكرسه كلها لخدمة شرحة صغيرة جدا
 من السكان هم الذين كانوا يسمعون بكل حيراتها : جامعاتها ومدارسها ووادياها
 ومصايبها ، وكذلك متاحفها التى كانت تستطيع حينئذ ، بالنظر إلى قلة عدد وادها
 من أبناء الطبقتين العليا والوسطى ، من دوى الدخل المربع والسلوك المهدب ، أن
 تقدم لهم هذه الخدمة المستارة الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية واستعارة
 أسطواناتها

أنح لنا إذن قدوم هذه الأجهزة و لأحترحات جديدة فرصة التعرف على
 موسيقى العرب الكلاسيكية والراقصة . ولكن حيث إن الطبقة التى كانت لديها
 القدرة الشرائية اللازمة لنحصول على أجهزة الحراميون والأسطوانات الحديثة ،
 كانت قد فقدت الكثير من ثقافتها بالموسيقى العربية القديمة و لعاء القديم وتقديره
 لها ، ثم شبع إنتاج أسطواناتها فطلت الموسيقى العربية القديمة والعاء العربى القديم
 مغبوبين في حير صديق للعابيه من سرامح لإداعة لنى قد لا ندأهى إداعتها إلا بعد

أن سام الحمص . ومن ثم ظلت الأعالى العرصة القديمة (أو ما يمكن أن يسمى أيضاً بانكلاسيكية) لا تغطي سوى اهتمام بدر من حلى من المصريين بل وطلت معرفتنا بها صيغة اللعانة . كان الراديو يسع أحياناً أغانى لمحمد عثمان أو داود حسنى بصوت مغربين أكثر حدته كصالح عبد الحى أو عزيز عثمان ، ولكننا كنا ومثنا علىلى للاستحابة بهذه الأغانى ، بل كانت نعتق فى بعض المثل (المقترن أحياناً بسحرية) ، إذ طمأن من استحيل مقرتها بأعص بيتوهن وتنايكونهكن . وأما عانى أم كلثوم وعد الوهاب القديمة ، والتي تعود إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن ، فك سر من راسنها وبطنها وقلة عثمادها على الإنفاع ، فما أسرع ما كا معن المدبوح إذا بذات إداعتها . كان الأمر محتاج إلى مرور سوت طويلة قبل أن نكتشف أن من امكنى حداد مقاربه بين موسيقى حميلة لمحمد عثمان أو دكر بأحمد وموسيقى حميلة أيضاً لبيهور من أوبح ، وأن حصل على بعض المقتر من المنعة الخالصة من الأصمغ إلى كلا البوعين من امر ميقى

-٦-

كنت فى الثالثة عشرة من عمري وكانت هى أصغر منى بنة . كانت الت الكرى لأشهر مهدهم معمارى فى مصر ، وكانت أسرنا وثيقة الصبة بأسره صديق لى كنت أقضى معه معظم أدم العطلة الصيفية ، حيث كانت العائلات الثلاث تقضى شهرس أو أكثر من شهور الصيف فى الإسكندرية ، ومن ثم كان لاند أن أراه كل صيف حيث كانت هى وأحواى لا تكادون يفرقون عن صديقى وأخيه . كانت هاء حميلة رفيقه ، ناصحة الحسم دلسة لسنها ، وداب أنوته طاعة ، أوهكد كنت أنصور فى تنك الأيدم ، فى يدايه من المراهقة . حقق بها قسنى بأعب فى هذه لسن لمكررة دون أن ألاحظ أى صدى لهد الشعور بديها ، على الرغم من أنها كانت تعلم به . وبلا حظ آثاره المتكررة على سدوكى . كانت حناله الل تمام ، تلا حظ إصحاب كسا بها ، وربما سره ما كا تراه من دلائل هيامى الشنيد واضطربى المتحج لدى ظهورها ، دون أن يظهر لهد أى أثر فى سدوكه . هى لم

يكن هناك شيء غريب في هذا كله ، لا في هامي بها ولا في خلوتها بها ، وإنما
 للمدح حق كاستمرار شعوري بحرها سنة بعد أخرى حتى هويت انخرج من
 الجامعة ، ان الصداقات اسي دوسها في تلك السنوات فيما كتب اسميه «مذكرتي»
 يمكن أن غلبت كتاب كاملاً ، ولكنني أشك في أن فيها جملة واحدة تستحق النشر ، بما
 في ذلك قصص تدلّ الشعر التي أنعتها في وصف هذا «شعر» ، والخطبات الحسنة التي
 كنت أكتبها به دور أن أرسلها . وامتد هذا الشعور القوي من حاس إلى عائلته
 كلها ، فكنت اضطرب أيضاً عند رؤية أبيها أو أمها ، واعتبرهما سميدتي لحد لحد
 أبيهما بسبهم ، يستغيثان لمسا بل واحتصانيهما من شاء . وكذبت كنت أعتبر أحويها
 الصغريين شخصتين مهمتين للغاية ، وسعدني الخط أيضاً ، إذ كنت ما كنت أرها
 نجيب جسمهما لدى خروجهما من البحر أو تنثر ثيبيهما في الشمس

من بطفة بقوب إن علاقتي به ودرجة اقترابي منها لم تنجور ، مصافحتي باليد ،
 ولكن هذه المصافحة كانت كافية لإثارة مشاعر لا أظن أن من الممكن أن تعثر
 الإنسان في أي من أحواله ، كما لا يمكن أن يتكرر ذلك النوع من الفرح . حدث اب
 صدمت عنها عبارة محاملة صميرة ، ولا ذلك النوع من العذاب إذا صدر منها ما
 يوحى بالجهنم أو الإهمال .

أخذت هذه المشاهد بضعف شديد شيئاً ، بطبيعة الحال ، حتى يجور القول بأنني
 شغيت تمام من الحب في سن التاسعة عشرة أو العشرين ، أي أن هذا الحب الأول قد
 سمر معنى نحو سنة أو سنة أعوام بل بسى حتى بعد شعوري منه بسبب أو ثلاث ،
 صدر مني ما يدل على أن مثل هذا الحب الأول لا يتقصى بسهولة . فبعد فكر أحي
 حافظ في الرواح ، وكان بحث عن منه ماسة لتقدم خطتها بطريقة انقلدية ،
 حتى وإن لم يكن له بها أي معرفه سابقه ، فخرات ودرشت له حبيتي القديمة ،
 وأحدثت أنني عليها هي وأسرتها حتى اتسع حافظ واتصل بوالدها يطلب مواعيد
 لمقابلة . لم يوفى حافظ في مسعاه ، إذ بعد أن قام ابنو له المؤدب بدعوته لتناول
 انشأ معي ومع انتته ، على أنس من أن الرأي هو بالطبع رأيها ، اعتذر له بعد بضعه
 أيام بأن عذر لا يخرج شعوره ، وانتهى الأمر عند هذا الحد

طلبت أحباؤه تأتبي على فترات متباعدة عن طريق صديقي الذي عرفتها عن طريقه، فسمعت، عن رواجها من شات ومسيم شديد الحداثة، ثم طلاقها، ثم عن رواجها من جديد. ولكن كانت تمر أحيا بسنوات طويلة دون أن أسمع عنها شيئاً، ودون أن يمر بحاطري، إلى أن جاء يوم كنت أدرس فيه في الجامعة الأمريكية وجاءني طائفة حملة من تمديدات بعد انتهاء المحاضرة، وانتظرت حتى انصرف بعض الطلبة وقالت لي محجول إن والديك طلبت منها أن تلمي ملائمتها. وسألتهما عما يكون والديك إذا بها محبوس في القدينة كد سروري عظيم، وأحدثت ليحدث في وجه لطيفة الحميمة عن وجه حبيبتتي الحبيب، فوجدت نفس العجيبين أترتعتين كانت هي انتبه من رواجها لأول، فلا شك أنها جمعت إلى جانب جمال أمها وسامة ولها. سألتها عن الأم ماذا بها تحببني، أنها تعمل في نفس الجامعة التي أدرس بها.

دهت بالطلع لرويتها مدفوعاً بحب الاستطلاع أكثر من أي دافع آخر، إذ كنت أريد أن أرى ماذا فعل بر من بها، وعما يمكن أن يكون قد فعل شعوري نحوها. كان قد مضى على آخر مرة رأيت فيها ما يقرب من ثلاثين عاماً، ومع ذلك هي نفس الجمال ونفس الأنوثة، أو هكذا حيل إلى، وها هي نفس سرة بصوت التي كانت يوماً ما بقلب كيان راس على عقب. لم يكن يعيها لأن لا شيء واحد، ولكنه مهم. فهي الآن مرأة من دم ولحم وبست. مر للابنة بأمرها كما كانت في بطون مدحوا أربعين عاماً. فاستنى لطف بالطلع، وعبرت عن سرورها بأن يكون أستاذ لانتها، ولكن أدعشني أن يتخصص كلامها ببعض العبارات تنقيديه والديرة وهي تعبر عن سرورها أو شكرها، وكأنني كنت أتوقع أن تستخدم في حدث لغة مختلفة عن لغة بقية الناس. عبرت بها عن رعي فو أن ادعوا هي ورواجها بريارتها هي مرسى شعري على. وحتى وأتعرّف على رواجها، فحسب بذلك. وتمت بريارة. كما فم يدورهم دعوتني أما وروحي وأولادي لقصاء يوم في مزرعة صغيرة يملكها بالهرم، فذهب سرور لمجرد أن أراه وأسمع صوته من جديد، ولكن سرعان ما اكتشفت أن هناك بعد من الأثبات المشتركة التي يجمعها ويهيئ الحديث فيها.

(٨)

الجامعة

عندما أتذكر السواب الأربع (٥١ - ١٩٥٥) التي قصتها طلبة كتيبة
الحقوق، بجامعة القاهرة، يتولى على العجب من درجة الحرمان الذي تعرض له
وحس الطلبة المصريين من أي حياة جامعية على الإطلاق ولدهش أكثر من هذا أنه
لم يكن بدور محطرم حيث أنه يتعرض لأي حرمان مائة، بدلم يكن بدرى شيئاً
عما كان يجب أن يكون

نعم، كانت كلية الحقوق ملى صحفاً حميلاً، لا يزال طراره المعماري يلقى
نظري بحمالة كلما مررت به حتى اليوم. ولكن كان هذا هو كل شيء فليس
يتكون من مدرجين بالمى الصحابة، يسمع كل مهمل لمحو ألف طالب، وهناك به
متسع بينهم، يحيط به هو الدور الأرضى والعلوى مجموعة من حجرات الأساندة
وبعض الحجرات بالإدريين، وحجرة العميد، وهذا هو كل ما يراه أو يعرفه فى هذا
المس كان كل المطلوب من الطلبة أن يدخلوا المدرج ويستمعوا إلى محاضره بعد
أخرى ينفقها أستاذ بعد آخر من خلال مكرو هود، ثم ينصرفوا إلى منازلهم حتى
بحين موعد الامتحان لا أذكر أبى جلست فى هذه النكة على مقعد وثير، بل على
أبى مقعد على الإطلاق، ضد امقاعد الخشبية فى المدرج، ولا سى صوت مشروب
فيها أو طعاما، فليس هناك مكان لمطعم يمكن أن يحس به لتلاميذ قبل المحاضرة
أو بعدها، وليس هناك حجرة يمكن أن تجتمع فيها أعضاء جمعية ثقافية أو موسيقية
أو سياسية، بدلم تكن هناك أبى جمعية على الإطلاق بل لا أذكر أبى حتى دخلت
حجرة من حجرات الأساندة باستثناء مرة واحدة أو مرتين، وأنا طالب فى
المراسمات العليا، كانت جلدهم لتأدية امتحان شعري، والأخرى لأطلب خطابا

لموصية بتقديمه لجامعة إعلانية قبل سفرى من العثة لهذا كانت رؤيتنا لوحة أحد
الأساتذة عن قرب وهو سائر فى بهو الكلية، أمضى برؤيتنا لوحة شخص مثل رئيس
الجامعة، أو ممثل ميماني أو مسر حتى مشهور، عن لا مراهم عادة إلا فى
الصورة، دلم يكن يرى الأستاذ إلا من مسافة صرية، نحن فى أعلى المدرج، وهو
جالس فى المنصة يحفظ فى الميكروفون فلا نرى ملامح وجهه بوضوح، بل ولا
يسوسا شخصا حقيقى من لحم ودم

ولكن الأقطع من ذلك، كانت علاقتنا بالطالقات، أو بعارة أدق، عديم وجود
أى علاقة بادرة بين وبين طالقات كما يحولنا عتبة تلصيد، فى اسنة الدراسة
الوحدة، بينهم لا يريد على عشر طاسات ثم يكن يدر عيهم أنهم أقل مؤسسا
منا، ولكنهم كن على الأقل يتمتعن بميزة الدراسة، أما نحن فما أكثرنا وسأ أقل
قيمتنا لا عجب أن الطالقات كن يسرن دائما فى مجموعات، فيدر أب نحمد و حدة
نحشى بغيردها، ولا حتى اثنتين كن يسرن فى العدة فى مجموعات من أربع أو
خمس، وقد الصقبت كل مهن بالأحرى خوفا من أن يصيبهم ما مكروه، كان
لهمهم النهاما، وهو لا يدر أن كان وضعنا من نوع نظرنا بهم

ومن يدر حل خائعات إى مدرج قبل دخول الأساتذة محطات، وكأنهم يعتمدون
على حميت، فيجلس فى الصف الأول أو الصفين الأولين، ثم يحتمن عمامة بمحرد
انتهاء المحاضرات لم يكن فيهم، على أى حال، جمال وضع يأسر يقب بمحرد
رؤيته، إذ لأرحم أن من كانت حميلة حفا فى تلك لس، يحجره أنواها فى
البيت ويتمتعها من الخروح، فى الجامعة حتى يأتيتها العريس المناسب كدت هناك
بعض الاستثناءات، ولكن معظم هذه الاستثناءات، بسبب لم يكن واصحا، كن
يتحقق بكلية لأداب من كانت مقررات كلية الآداب تعتبر مثلا أكثر رقة ومن ثم
أسبب لسات؟ من كان الآداب الإعلانية أو الآداب العرنسى مثلا يعتبر مقررا أحصل
من القانون الهندسى أو الحاشى، ومن ثم أكثر ملاءمة للإثبات؟ هذا عن قسم الفلسفة
أو الإثبات؟ كان هذا هو الموضع على أى حال كدت الصاليات أسعد مالا مباحنى
بالمقايير بالأساتذة، وقد انعكس ذلك بالضح فيما كان يحيم على كلية الحقوق من
الوحدون وتمثل الظن

عندما ذهب إلى كلية لندن للاقتصاد بعد تخرجه بسنتين تبنى إلى بوضوح ما كان فيه من يؤمن في جامعة القاهرة. لم يكن مبنى الكلية هو لندن (التي كانت تسمى مدرسة) به أي جمال أو شيء بهجة إذا نظرت إليه من الخارج، فهو مبنى حديث من ستة أدوار في شارع صيق، تحيط به من شاهقة تحجب عنه ضوء الشمس (التي كانت مدمراً ما نطعم على أي حال). ولكنك متى دخلت المبنى وجدته يهبط بالحياة ونرجس والسطح الفهيفهت تصدر عالية من أجواء الأولاد، والانتبسات الرائعة ترتسم على وجوه الطالعات الحميلات والأساتذة رجون عاديون، قد تصادفهم في المطعم أو في الكافيتيريا، ومن الممكن أن تمتح مع أحدهم موضوعاً لمناقشة إذا صادفته تناول القهوة بين المحاضرات، أو حتى وهو يدار على السلم في أعلى المبنى، في الدور السادس، صالة رائعة لا يكثر سبيلها، كانت من الانتعاش بحيث يمكن أن تستوعب مئات المقاعد، ولكنها فرشت على بحر يجعلها لا تستوعب إلا خمسين ثلاثين أو أربعين، فأنتها يتكون من مقاعد مضممة وثيرة أو أرائك مريحة، وقد اضطمت على طول حوائطها لثلاثة مئة رفوف تلو الرفوف من الكتب، كانت الكتب مختارة بعناية ومن لوح الذي يلائم حرمه الحجره الرائعة كتب في الموسيقى أو الأدب أو تاريخ أو التراجم أو الفلسفه مما قد يطلبه الفائق المثقف في غير تخصصه في كل صباح تأتي الفئه المشرفه على الحجره لوضع أظفار حديدية في الزهريات المنتشرة في أركان الحجره، وفي الأيام لاردة تصيف كمية من المعجم إلى المدفأة الصخريه التي تعبره صورة ربيبه كبيرة تظهر فيها سيدى وبياترون ويب، الاشتراكياك شهيوان للذاد كانا من مؤسسى الكلية في أواخر القرن التاسع عشر وكانت الحجره نفسها تحمل اسم شخص كسر آخر من مؤسسيها هو جورج برناردشو

كان في مدرسة لندن للاقتصاد مدرج واحد يتسع لبحر ثلاثمائة تلميذ، ولا بدخله إلا للاستماع إلى أستاذ كبير من جامعة أخرى، أو إلى محاضرة عامة لسياسي شهير، عدا المحاضرات التي تلقى في بعض مقررات الأسبوعية في مساق الاقتصاد وهي كل يوم يوضع في مدخل المدرسة جدول محاضرات به بيان بكل

مستبقى خلال اليوم من محاضرات دون تغيير بين مقررات السنة الأولى ومقررات السنة الثانية. بل قد هم هو موضوع انحصاره وشخصية مفقده، ولت الحق في الاختيار من بينها كما تشاء. وعلى الخزن في كل دور من الأدوار لسته لوحات إختيارية لا نهاية لها تحرك عما تقوم به المجموعات المختلفة من نشاط، جميعه للمحافظين وأخرى للعمال، وثالثة للاشرائيين، واحدة للمجموعه المسيحية وأخرى للسودية، واحدة للمجموعه التي كبرها الطلبة، الأتو من أمريكا اللاتينية تحرك محاصرة عن الخالة الاقتصادية في اسرائيل، وأخرى للمجموعه المشرجه تحرك بأن محررا مسرحيا شهيرا سيأتى إلى المدرسة ليتكلم عن تشيكوف. بل

كانت كلية الحقوق بجامعة القاهرة بيئة من كل هذا، وكالم نكن ندرى شيئاً عما كان يقصداً. لم يكن أحد قد أحربا عما يمكن أن تكون عليه الجامعة، ومن ثم طبا أن الجامعة على دخول أحد هذين المدرجين الكسرين ثم الخروج منه لا عيب أن لسرنا الأربع هدمت دون أن تترك هي "ت" لم يسمعوا الذكر باستثناء ما تركه في عسى عدد حد قليل من الأساتذة كان هناك بلا شك من أساتذة الحقوق ثلاثة أو أربعة ممن تركوا في موسسا أثرا طيب، ولكن العدد الأكبر منهم كانوا من نوع مسجهم تماماً مع هذا المناخ الكثيف الذي وضعته. كان معظمهم يدخل المدرج ليلقى محاضرة باللعة العربية الفصحى، دون حماس وحتى إحساس بما يقول، وبصوت سمع في انفس الملل والرعة هي اليوم، ولا تترك إلا حثة هامدة، ولكن معظمهم كان أسوأ من هذا بكثير.

كان من هؤلاء من لا يكاد يدري حتى ما يريد أن يقوله، ويظهر بين لحظة وأخرى إلى بعض تصفحات التي انتزعها من كتابه المطبوع والمقرر علنا، فقرأ علما حبه بعد أخرى، مع أبا اشترى الكتاب بالفعل، وبسعر باهظ، وتمكك بدت الاستماع عن محاضرات هؤلاء الأساتذة اسماء تاماً. كان يحنو لبعض اطله أن يحضروا إلى المحاضرة ومعهم الكتاب فينامعون لأسناد فقرة بعد فقرة، ويشتم بعضهم البعض مشربين بأصابعهم إلى بداية لفقرة التالية التي سوف يطق بها الأستاذ قبل أن يطق بها البعض.

كان مهم أنصاً أستاذ عريب، ذو سمعة علمية طيبة، ولكنه كان عاجزاً تماماً عن مواجعة هذا الحشد يصحهم من الضلاب كان يدخل إلى المدرج مقطب الروح فيجلس على مقعده وراء المنصة ويفتح سيف المحاصرة، ويظهر لينا باحفر بالعم وكراهية، منتظراً أن يسود الصمت للمدرج قبل أن يبدأ في الكلام وكان من الطعنى مع هذا العدد العسير من الطلبة أن سرى في المدرج صوت حصف من الهممت التي تصدر عن تلاميذ قلُ يصمتوا صت تماماً لمدة ساعة وكان كل ما يتطلبه الأمر أن يبدأ المحاصر بالحق بحملة واحدة فيسود الصمت التام ولكن هذا الأستاذ كان مصراً على أن يسود الصمت تام قبل أن يطق بحملة واحدة ولكن ههنا، فكلف طال الانتظار لحظة واحدة أكثر من اللازم رد الهمس ورفع صوت التلايح، فإذا استمر الانتصار لأطول من ذلك زاد ارتفاع الصوت واحتل بعض الصلحبات المكسومة، ثم تحول الصلحبات المكسومة إلى صلحبات عليه، ثم يسود الهرج والمرج ويشند العصب بالأستاذ، ويطلق ملغمة ويصرف من المدرج دون كلمة واحدة، وسط مرور عامر ومرج فاتق من جانب التلاميذ

حصر لهدا الأساد محصرتين أو ثلاثاً من هذا النوع، ثم اصعب عن الهداب إلى محاصرته امتناعاً تاماً، ولا أدري ماذا جرى به مع الطلبة بعد ذلك. ولم يعنى هذا بالطبع من الحصول على درجة عالية في هذا المقرر، إذ كان يكفى مع هذا الأستاذ، كما يكفى مع كثيرين غيره، قرء الكتاب قراءه جسد

كان هناك نوع آخر من الأساتذة أحب صلا بالطبع كان من هؤلاء أسد ترمس له في أول صبة هو الكلية، وكانت محاصرته لا يحلو من تشويي، ولكن اشترت من الطلبة إنشاء ثم أسى قط مدى صحتها ودور حول عرامه بالخسارات من الضلالت (إذ حدثت ووحدت حياء بهن) إلى حد استعداد لثرويدهن بأسنة الامتحان مقدما، إذا لزم الأمر كان الأمر من الصعب تصديقه، خاصة في ذلك الوقت، وهي كلية الحقوق بالذات، عندما كان الأساتذة لا يزالون يشتمون مهية شديدة تفوق بدرجة عدة ما لهم منها لأن كما أسس إد إلى استعداد مثل هذه الإشاعات على أنها من خلق الخيال ولكن حدث شيء رهيب في يوم الامتحان

لهائى، فى المادة التى كان يدرسها سا هذا الأستاذ، وكان امحاما مهما ترند له
مراىص رتعاة. فقد لاحتفا عد وصول إلى الكنية فى حواى لسابعه صاحبا،
وكان لامعد يبدأ فى الثامنة بظبط، مرحا ومرحا غير معهودين. مو طفر كنية
والحبو عادون بسرعه غير عاديه، وجمهور من الطلبة متحمسون فى اهتمام
ورحوم شديد حول واحد منهم وهب يهيم عك بحريده. وكان من الواضح انه
يقرا لهم بها كلمة بكلمه. وانتهى حميدا نحو هؤلاء الطلبة المتحمسين لمدا
باعتاد يقرأ لهم من حريده «المصرى»، (وهى حريده ودية كاتب من أكثر الحرائد
انتشارا، هل أن تعلقها اشرة فى ١٩٥٤) حبر مؤده أن أستاذ بكنبه لحقوق عام
تسليم صورة من امتحان مادته لإحدى التلميذات هل الامتحان مدة أيام، وأن
مرعد لامتحان هو صاح ليرم، وأن حريده المصرى بشر اليوم من الامتحان،
كلمه بكلمه، وتجدى الأستاذ أن فعل شقا من شأنه أن ينهى هذا الخبر

نظر إلى الامتحان المشور هو حداه فاعمل فى المدة التى يتغير الامتحان فيها
بعد نصف ساعه. ولأسله كنه من لوع المتوقع مثله من هذا الأستاذ، فى هذه
المدة حراا نطع إلى الكاب لحاول الحقن من أنا ستطبع الإحاه على
الامتحان فى حاله ما داحه فعلا مطابق بسر المشور بالخريده

بعد خطوات أنا الأستاذ نفسه يحرى كالمحور من حجرة إلى أخرى من
حجرات كتله، والعاملون بالسكنار به والطابعه على آلة الكاتنه حرو و رعه
أو أمامه. وانتهى الأمر بأن بدأ الامتحان متأخرا عن موعده نحو ثلاثة أرباع ساعة،
وورع عليا امتحان مختلف عما عن الامتحان المشور، ولكن كما قد أيام كل
اليقين أن الإشاعه كانت صحيحه تمام



نعم مر ب خلال تلك السنوات الأربع بعض الأساتذة لعظم وكنهم كابو، حصه
صغيرة وسط عدد كبير من الأساتذه، كب أى لست واثقا تمام من أنا نحن الطلبة
الصغار مد أمدا فائدة كبيرة من علمهم الواسع

من الممكن مثلا أن يقد إن من حسن حظنا أنا درس على أيدي ثلاثة من أعظم

تأبده بشريعة الإسلامة الذين عرفتهم مصر في تاريخها الحديث، والذين من الصعب أن تتصور أن يأتي مشيهم في المستقبل الشبح على الخفيف، والشيخ محمد أبو زهره، ولشبح عبد الوهاب حلال. ولكن من الصعب علي أن أقرر أن هذا مهم بمقدار قدرهم على العطاء. كان هناك أولاً ذلك نظام عربي في التدريس الذي وضعته والذي تكاد تقتصر به علاقة الأستاذ بالطلبة على طقس الأستاذ في ماقده عليه مكر وفون في لمحصره، ثم بصرف دون ماقته به ومن التلاميذ لاقى هذا السرح الواسع ولا في خارج صاعف من حجم هذه الخطوة بين أسنطة الشريعة، ما كان يشعر به هؤلاء الأساتذة من عربة في كلية لا تحتل فيها الشريعة الإسلامة مكانه، متى هي حذيرة بها فالعبد ومعظم الأساتذة من «العلبيين» الذين كانوا يسطرون إلى الشريعة الإسلامية مطرة الشرى إلى أقاربهم الفقراء، أو كأهلها رائدة في الحسم، بها أصل تاريخي معروف ولكنه لم تعد تلعب دوراً مهم في حياة المجتمع، ومصيرها إلى الرول ترميها كنواير تدون الحسد والقطط وسط أساتذة وتلاميذ يرتدون حميماً الزى الأوروبي. ولوطاف إلى يطمح فيها إسلامية تعتمد العالمية منها على تطبيق قوانين مسعدة من القوانين الغربية. بل إن النعمة معها التي ينطق بها هؤلاء الأساتذة العظام كانت تبدو للتلاميذ وكأنها لغة نابية إدهى تعتمد على أساليب الفقهاء القديس التي ساء تعرض، صراحة أو حجة، لشيء من السحرية في وسائل الإعلام. كان الانسجام السبي الذي كان سائد بين نوعي الثقافة في مصر في فترة ما بين الحربين، قد بدأ يتعرض لاهتزاز واضح في مطلع الخمسينات، عندما بدأت حياتي الحميمية لأشك أن قيام الثورة في ١٩٥٢ قد ساعد على ذلك، إذ كان رجال الثورة ذوي ميل واضح إلى انعمانية والتعريب، وقد ظهر هذا ليس فقط في بعض الإجراءات التي اتخذوها في أوائل الثورة كإلغاء المحاكم الشرعية ولوقف الأهل، بل وفي شعاراتهم التي جلت من أي صفة دينية، بل وفي لغة وأسلوب خطهم التي ظهر فيها الإهمال لتنام والملاصاة بقواعد اللغة العربية.

طبعاً كان لدى أسنطة الشريعة الثلاثة، الثقة لكافة أنفسهم وديهم وبشريعته، ولكن هذا الماح انعم لابد أنه أثر في طرة تلاميذهم وملازمهم، وهم، وكان لابد أن

معكس هذا في ميهمهم، في الانطواء على النفس والبعل بعلمهم على من لا يبدو عليهم أنهم يستحقونه

من بين أسانده الشريعة كان يحظى بإحلالنا واحترامنا، بوجه خاص، الشيخ عبد الوهاب خلاف كان يذحل المذبح وقد هذله لحول على وفاة شته ثم انه في مقتل اشباب، فحاصريا بصوت بالغ العذوبة وأصوب رائع في فصاحته وبلاغته كان سحر لذي يحصر فيه - يصدم بوقفه - فذهقد الكثير من أهميته؛ بسبب قديم الثورة بالعداء الوقف لأهلى، وكنت وقفها أصغر من أن أدرك خطأ هذا الإلقاء، وأن هذ النظام كان من الممكن، لو أحسن تطبيقه، أن يههم بدور فعال في التسمية والهوى بمستوى التمييز والصحة ومختلف ام افي الاجتماعية كان سحر الشيخ خلاف إد، في صر بلاعب صعد مشد، مستعدا فقط من شخصيته الهيمية، ورفى لعتة وفصاحته

كانت شخصية الشيخ محمد أبو رهرة محلقة تماما كان عالما مرموق ومزعا شهيرا في الفقه الإسلامي، ولكن ما كان من الممكن أن يحسن أحد منا ذلك من مجرد حضور محاضراته ولاستماع إليه كان صحم الجسم، طويلا عريضا، على الصوت، محب للدعابة، لا ينف من إثارة الضحك قليل وأثناء المحاضرة حتى حول أمور حساسة تتعلق بالعلاقة بين الحسنيين، إذ كان يدور لنا عد أحكام ابو رث - المعواهد الشرعية في الرواح - الطلاق، مما يصعب الكلام فيه في حوار دم مع شهاب مراهق مثليا. كان يصرف قبل أن يبدأ المحاضرة على السحق من أن كل السات قد جلس في الصغين الأولين، فإذا وجد طلبة تجلس في وسط المدرج، وبين بعض الطلبة الذكور، أمرها بأن نخرج من بينهم في الحال وأن نتقدم إلى الصفوف الأولى. كان هذ وحده جذيرا يثاره بعض المخرج من الطلبة والطابات على السواء. أم إذا رأى طاب يحسن من القنات في الصفوف لأوى، فتوسع يصح أعنف والهروح أشد

على العرف الآخر من أساتذة لشرعية كان أساتذة الاقتصاد، فقد كانوا، أو بدوالما على الأقل، أكثر الأسانده عصرية وتقليدا وقد كان علم لاقتصاد مند

وحرار العربات قد بدأ يحظى باهتمام واحترام متزايدين مع زباده الاهتمام بمشكلة المفقور وتوزيع الدخل ، بينما كان «القبول» يسمع بهذه المكانة لعباية عمدت كاتب مشكلة الاستقلال والمفاوضات مع الإقليم وهدف احترام الدستور وإرساء أسس مدعمر طيه هي أكثر ما يشغل الناس ومع ميم ثورة ١٩٥٢ زادت مكانة الاقتصاد ارتفاعاً بينما كانت مرة انقبوس إلى الانحصاص ، إذ إن أولئك لصاصد الأحرار الذين قاموا بالثورة كانوا يستهدفون في الأساس إحداث التنمية الاقتصادية وإعادة توزيع الدخل ، حتى ولو تطلب ذلك حرقي القوانين مستقرة وتديل القوانين بين يوم وأخر ، كما هي ذلك الدستور نفسه

كان ملكية لحقوقي أيام نمدتي بها ، منة من أسانده لافقتصاد أكرهم ب عبد الحكيم الرفعي وأصغرهم رفعت البحبوس وكنت مشاعرهم بحور ثورة ١٩٥٢ متفاوتة أشد التماوت ، بحب اختلاف أمر جتهم والنية الاجتماعية التي تشكل كل منهم فيها ، ومن ثم فقد تحدوا مرعب محتمله منها ، وعامتهم حكومه الثورة بدورها معاملات مختلفة

كان الدكتور الرفاعي رجلاً رفيق الشعر ، أرسنغرافي امراخ ، سم بعجه ما صدر من رجال الثورة من مواقف ينسب بعضها بالمرعائية والقسوة ولتغريب ، فاستند بعنه عهم دون أن يعاديههم علب ، فاستعاروا به لفترة قصيرة ثم استعوا عما من خدماته دون شكيبه

أب اندكتور سعيد الحجار فكان أكثر استعداداً لإدخال الإحراءات الإصلاحية والتعديير ، ولكنه كان يؤمن بربما لا يداحله أي شك بالنظام المبردي وبخيرية الاقتصادية وكان يعتمد اعتماداً حارفاً بصحة رأى دم سيبث هي أن المصلحة الفردية تتفق د نسا مع مصلحة المجتمع ، لا باستثناءات بسبعة للمعالية ، فالأفضل إذن أن يبقى التدخل الحكومي عند الحد الأدنى ولكن عبد الصبر من ناحية أخرى كان يسحر في محاسنه الخاصة من هؤلاء الأساتذة الذين لا يزالون يدرون كلمات آدم سيبث وكأنها هي لخصيفة الخالدة مرعب م تين إذن لسعيد الحجار استخالة تعاونه

مع انشوره، ومن ثم كان يشتهر أى فرصة للسفر للخارج بالمعمل يصعب سوت، ثم يعود للندريس فى مصر ريثما تظهر فرصة أخرى للسفر

كان الدكتور حسن خلاف، وظل حتى وفاته، من أحب أساتذة الحقوق إلى كثر، حلاهم لأدب، مع الكبر والصبر على السوء، عالما بحب، يعلم ويحترمه ويعده على أى عثار حر. وكان سبطا صلبة ساطعة فى قلبه، تأسرك تلقائيه فى حديثه وحركاته، وهو صاحب بكتة فى المدرج وخارجته، ولكن بكتة دائمة ذات معنى، يعبر بها، فى أكثر الأحيان، عن لساقتضات الصارحة فى المجتمع المصرى أو عن حماقات لسياسة الاقتصادية، ويلقيها بطريقة ابن البلد لعمرية فتريد جاديبها يحكى ل مثلا عن مصلحة لسكرت الخديوية اسى سورديب قطارات من دولة أوروية لا تعرف الفرق بين الدرجة الأولى والثانية وإذ تنصر مصلحة لسكرت الخديوية المصرية على تقسيم القطر إلى درجات لا تجد وسيلة لندك أفضل من أن تشوه بعض الدواوين ونزيل منها بعض وسائل الراحة حتى يصعب أكثر ملاءمة لدوى الدخن لخصم!

أمام عيبة مظار عظيم يكاد يستحيل أن تصور مظهر أكثر منه سمكا، ولا أدرى ما إذا كان صعب بصره موزو ثا أم من كثرة القراءة، ولكنه كان يجعله، مع طينه وتواضعه، ذا سار فى زدهات بكلفة ودائها، لا يكلف عن رفع يده بابتحة لكل من يصادفه! حوفا من أن يعاقب من يعرفه بلامات شئ شخصته من قرط صعب بصره

عصيته مرة فى منصب الخمسينات، وكب قد تقدم بطلب التعيين فى وظيفة معبد فى كلية الحقوق، وكان وقتها رئيسا لقسم الاقتصاد بالكلية، وكب أسمع من تأييده لظننى، فسانى عن ثونيبى فى لتخرج فقت به إلى الرابع، فصمت برة ثم قال كل ما أستطيع أن أعدك هو أنى لن أسمع بأن يعين الخامس بدلا منك، ثم أرفف، هل تفهم ما أقول؟ قلت نعم. قال برك الله فيك

كان إذا كب، نادر ما بكت كشا مدرسة، وهى كب كثره العائد المادى وإن كب لا تحوى إلا بريد ما كبته لأحروب، بكت لتسى بمجرد أن يتوقف الأستاذ عن تدريسها، وبما طرق موضوعات جديدة لا تكاد تدور دحلا ولكنها تعش بعد

منعصبا نظام الحرية الفردية كسعيد النجار ، ولا صعيديا عميدا مثل حسين خلاف ، كما أنه لم يكن أقل من الصباط الآخر رتباطا مع الفقهاء ورعه في إصلاح أحوالهم ، هذا على الأقل هو ما كنت يبدو من ملاحظاته العابرة عن السقاصات النفسية وتوزيع الدخل . وإن كان الذي معه من الانصراف من الثورة شيئا محددا بحد ، هو في رأيي مجرد الخوف من الخطأ عندما أسعيد الآن في ذهني موافقه السياسية أو الفكرية ، سواء ما بدا منها في كتبه أو محاضراته أو محادثاته العابرة معي في فترة الدراسة العليا ، أحد أنه كان يبدو ذئب وكأنه يخشى الوقوع في خطأ أو أن يسيء ، التام العلي به . وكان هذا الخوف يحكم كثيرا عرفت من تصرفاته ولهد السب خطي في حياته مرصا للجميع ، فلا أذكر أني سمعت كلمة سوء تصدر عنه . كان يوصف دائما بأنه أستاذ جيد وعميد جيد ، كما يوصف أحيانا بأنه مؤسس كلية الاقتصاد (إذ كان أول عميد لها) ، كما وصفه صدقا بأنه صديق محض وتلاميذه بأنه با رحيم ، كما شهد له الجميع بالزراعة وطهارة اليد ، وحرب على الجميع عند وفاته . ولكن سرعان ما كف الناس عن الكلام عنه بعد وفاته ، وما أقل ما كتبت عنه وما قل في تحليل أفكاره . كان كتبه الذي ظل يدرس ثلاثي عدداً أو أكثر (النفوس والسلوك) كتابا جيدا بدوره ، كُتبت بأناة وبلغة عربية راقية ، ولكنه كان كتابا عذوباً ، ولا أذكر به كتاب آخر أو مقالا تحدث فيه موقفاً حاصبه يختلف عن الآراء المستمرة أو المذهب السائدة

من الطبيعي أن رحلا بهذه الصفات لا يبذل أي جهد للتقرب من السبطة ، كما لا تبذل السبطة أي جهد لإعترائه بالانصراف منها . ومن ثم ظل بعيدا عن أي منصب كبير في الحكومة ، رغم أنه لم يكن أقل كفاءة من غيره عن تولوا هذه المناصب وأظن أن هذا الأمر قد ساء عند طر أكثر من اللازم ، وعندما أصبح شاعلو المناصب الاقتصادية الكبيرة في الحكومة ، كان في ذلك بعض الزوراء ، من الشركات أو من لا يحفظون منه وبأي تقدير . ثم حدث فجأة أن عرض عليه منصب الوزارة في منتصف السبعينات ، فمحت له ولاند أنه قد سره هو أيضاً أن يرد اعتباره أجرا . ولكنه لم يظل زريرا لمدة طويلة ، وهو ما كان متوقفا ، ولم يترك في الوزر ره أثر يريد عم بركة من سبقه

أما قصة الأستاذين الأخيرين، مع الثورة، فهي قصة مثيرة حقا وإن كانت قد انتهت بهانة محزنة في حالة أحدهما، وبهانة مأساوية بمعنى الكلمة في حالة الآخر. عاد بعد بضع سنين ورفعت المحجوب، من فرنسا شهادة الدكتوراه في وقت واحد تقريبا، وكانا لا يتكلمان بفرنسان، رغم لاختلاف الهاتين بهما في أسلوب ودرجة الدكاء و لطرف. ربما كان الشيء الوحيد الذي يجمعهم هو سطوح الشئذ، مع تصرف حجم الفرض المتاحة لهما لتحقيق هذا «سطوح» لم يكن قد مر على رجوعهما من فرنسا إلا شهرين قبله عندما قامت الثورة، وكان من الواضح لجميع أن أي أستاذ جامعي يحمل شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، قد أحس التصرف ولعب اللعبة كما ينبغي، لديه فرصة كبيرة جدا لاعتلاء كرسى الوزارة وكان هذا واضحا بلطخ لهدس الأستاذين لشايرين. فيما بعد هذا لم يكن هناك، فيما بداني على الأخص، أي صفة مشتركة بهما. لب شقير مرح، طريف، ودعوى، وشيعة، ورفعت المحجوب منجهم الوجه دائم، حاصة مع تلايمه، ثليل العقل، بطى، للحركة، يظهر بالعمق وسعة الثقافة، دون أن يكون هناك أي دليل حقيقي على هذا أو تلك.

درس لى سبب شقير مقررًا في اسجاره الدولية في السنة الثانية في كلية الحقوق فكان محاضرا حادًا، واسع ثقافة، يتحدث على القراءة في محارح الاقتصاد، ولكنه أيضا يحصل في علم لاقتصاد الذي يحجوب على يديه إلى علم وثيق الصلة بالحياة. ثم درس لى ورفعت المحجوب أثناء دراستي لنظوم الدراسات العليا في الاقتصاد، فيما يسمى «قاعة بحث»، كان يعرفون فيها أن يكون الاعتماد على البحث ولما نشأ أكثر من المحاضرة والامتحان، ولكنى لا أذكر أنا اجتماعا قط ناقشه أي شيء، ولا أذكر أبى سمعت منه رأيًا بشأن في هذه لمشكلة الاقتصادية أو تلك. نعم كنت له بحث عن «المادية الحديثة والمادية التاريخية»، أقر موضوعه عندما عرفته عليه، ولكن لم يصدر منه أي قول يدل على أنه كلف نفسه عناء قراءته بعد انتهائي منه، والعبارة الوحيدة التي سمعتها منه في التعليق على هذا البحث هو أن طاعة على الآلة الكاتبة لاند أن تكون قد كتبتى مبلغا طويلا بأنه مرة عما إذا كان النقد المرحه إلى ماركس في إحدى جوانب نظريته في العيمة

والاستغلال بقذا صحیح ، فکون کل ما فیه هو أن مارکس أخطأ فی کل شیء
وعندما سألته عما إذا کان یصحی بقراءة کتبات کبر بعضه دون الاکتفاء بالشروح
المکتوبة عنه ، وکانت رتبته هو للدکتوراه عن أحد حوالب النظرية الکبيرة ، فقال
شعاع ونکر مقتبین : «إن کبیر أعلی بکثیر من مستوى عقلياً» کان هد
الأستاذان من بین من غرض علی رجاء ثورة الاستماعة بهم فی تسيير شئون البلد
الاقتصادیة ، فکان من الطمعی أن یجدهم الأول وبقهرهم الثاني و سرعان ما
سمعا خبر احیاء لیب شقیر وزیر للاقتصاد ، فی أوائل السنیات ، ولعله کان
أصغر وزیر یعوبی لشئون لاقتصاد أو المالبیة فی مصر

أثت لیب شقیر عماحا کبیرا کویر و سیاسی قره أكثر فأكثر من دوائر بسطة
الخصیفة فی د حن حکومة لثورة ، حتی عهد إله برثامة مجلس الشعب وطل من
الرجال المقربین د سخی فیه بعد الامراکرة القوة ، یماطل الثاني یکت کما فی
لاشتراکية ریشی لمحصرت فی سر یاما علی أمل أن تنته إلیه السلطة کما
النتعت إلی رمله فلم یجیح ظل یستعان به فی أعمال نافعة ، لا تتطلب أكثر من
لعدرة عی الخیطاة ، وکان یتمتع به بالفعل ، ولكنه لا یحتاج إلی ای مستوى غیر
عادی من الذكاء أو مهارة سیاسیه أو حسن التصرف وعل الأمر کذلک حتی
وقعت کثرة ١٩٦٧ ، وأصب نظام الحکم یصدع حطیر ، کما أصا حمیما

أذكر بوضوح تام دلث الیوم الرهیب الذی أحرورنا فیه بحجم المصیبة التی حث
مصر کان هذا یوم الجمعة ٩ یویو ، وکت وفتها مدرسا فی کلیه الحقوق بجامعة
عین شمس ، ردابی أنسم عن طریق السلیمون دعوة تسلّم منثلها کل مدرسی
وأساندة الجامعات المصریة فی القاهرة . لحضور اجتماع مهم فی قاعة الاحتفالات
بجامعة القاهرة فی السادسة مساء ، حیث نستمع إلی بین سیاسی مهم وذهب فی
وجوم وتوحی بعد أن ک قد سمعا طوال الأدم الأربعة ساعة عن إشعات رهبة
عما حدث للجیش المصری ، وبلغیاب بوخه خاص ، وعر هریمه سة عقة أصیب به
الخیش ، وعن انحاب سریع من مساء إلح کان الهداف الأساسی من هذه
الدعوة ، کما تبین لی فیماعد ، هو إعطاء وحن للقطه فرصة لاقتفاء الأنفاس

حوا من أن عدلت الأمر من أيديهم، وإيهام الناس بأن لمعرفته لا أثر من مسره ولا بد أن هذا الاحتجاج الذي دعى إليه أساتذة الجامعات، قد دعى إلى مثله وحال تقامات مختلفة وسائر التكتلات الشعبية التي يمكن أن تكون بها أثر مهم على الرأي العام لا أدرى ما إذا كانت هذه الاحتجاجات قد آذنت رجاء السلطة شيء، ولكنهم تصوروا على أي حال أن جمعاً بالاستماع لحدث رئيس لوجه إلى الشعب عن طريق التلفزيون، والذي يشرح فيه ما حدث للجيش المصري، قد يربد من قدرة النظام على السيطرة على الموقف والتحكم في محرى الأمور

خلصاً سمع إلى الرئيس عند الناصر ورجى صورته على شاشه التلفزيون، وهو يشرح له كيف أنه كان يوقع أن تأتي الطائرات الإسرائيلية من العرب مجبات من شرق، وأشياء كثيرة أخرى من هذا النوع، مما أثار عظمى الشذوذ وعصبى وحرسى، كما أثار عصب وحرسى بقية المصريين ولم يصح فى القصر من هذا العصب إعلان الرئيس رغبته فى التمتع عن السلطة وعين زكريا محبى الدين، بل لم أصدق قط، لا وقتها ولا فيما بعد، أنه كان يقصد التمتع بالفعل الذى يعبى الآن هو ما حدث رجى حاسون فى تلك القمة الصليحة الرائعة، قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، وهي مملئة بأساتذة الجامعات «مختلفة» جرداً تلبية لدعوة الحكومة، دون أن يدروا أى شيء عن سبب الدعوة وعدم، يمكن أن يقال لهم فى هذا الاجتماع بدأ الاجتماع بظهور هذا الرجل عريب، رجعت المحجوب، على المصصة وهو يرتدى رب أعرب، يتكون من قميص وبنطالون من قماش الكتي الذى يرتديه جود الجيش أو بنطال، وكأنه قدم لتوّه من معركة عسكرية كد منظره جديراً بانه الصالح والاستهراء الشديد لولا لموقف المأوى الذى كان فيه وراد لموقف مأساوية وثارة للسحرة فى نفس الوقت أنه لم يسس أكثر من جملة أو جملة قبل أن يجيش بالسكاه بأثراً ولكن هذا السكاه لم يمه من أن يصح كلامه بصح عبارات فى مدح الرئيس والإشادة بعظمته وتوّه للشعب مصرى إلخ أكدلى هذا لموقف، من هذا الرجل الذى لم أشعر بحوه بعد ماى حب أو احترام، صاله حجمه الحقيقى، ونوع الدور الذى يمكن أن يعهد إليه بأدائه، ولا يمكن أن نحويه

تلا ذلك اسماء لخطاب الرئيس ، وخرج من القاعة إلى سيارتنا ونحن نشعر
باصبغ انتقام ودهول ، قبل ان نسمع عن قيام مظاهرات خلال الليل وفي صباح
اليوم التالي ، تهتف بالنسبة للرئيس وضرورة بقائه رئيسا ، مما فسرت في وقته ،
ولا أزال ، بأنه ، هي الحجة الأكبر منه على الأقل ، إن لم يكن كله . من صنع الحكومة
بمنها ، حتى ولو كان قد انضم إلى بعض المظاهرات بعض الأفراد الذين شعروا
بضرورة بقاء عبد الناصر رئيسا ، أو الذين ادهلنتهم أخبار المهرجة فهاضوا على
وجوههم في شوارع لا يمدون ما يصعدون ، وشعروا بدرجة أكبر من الظمائية بين
جموع الناس التي سارت تهتف في الشوارع ، فاصموا إليهم في السر واهتف

عندما قدم أنور السادات بقلابه في ١٥ مايو ١٩٧٦ بعد وفاة عبد الناصر بعام
وبضعف ، وهو ما سماه بـ «ثورة التصحيح» ، وكان بداية لنحوب جوهري في
السمة المصرية في اتجاه التصالح مع الولايات المتحدة وإسرائيل ، والكوص عن
إحراجات الاشتراكية ، قام السادات باعتدال أهم رجال «العهد القديم» ، من
أسماءهم «عمر كبر العوجة» ، وكان من بين هؤلاء أستاذي انديم لبيب شفيق ، وكان
التحقيقات لم تسفر عن قيامه بأي عمل يمكن أن يودع في أجله السجن ، (لم تشهد
له مرة أخرى بالكهنة والفضة) فلم يطل اعتقاله وسرعان ما وجد نفسه حرا ظاهريا
ولكن بلا عمل ، بعد أن كان في أعلى مراتب السلطة والنفوذ أدرك ذلك كثير من
أن العصر لم يعد عصره ، وأنه لم يعد له دور في هذه المرحلة الجديدة من مراحل
النظام السياسي في مصر ، الأمر الذي يدل مرة أخرى على بطلته ، فانتهر الفرصة ،
بعد أن عمل بصعقة شهود بالمخامة ، للسفر إلى الخارج لشغل وظيفة استشارية
كإصدي في إحدى المؤسسات المالية في أبو عبي ، لا تناسب بالطبع مع حراته
وكما أنه المتعددة ، ولكنها منححة فرصة بعدد عن أهواء السياسة المصرية وأن يعم
بالهدوء الذي حرم منه طوال الخمسة عشر عاما السابقه . وقد استطاع أن يؤلف
خلال إقامته في أبو عبي كتابا جيدا عن الاقتصاد العربي ، يضاف إلى كسبه الخبيرة
الأخرى . وكان يأتي كل عام يقضاء جارة الصيف في مصر فيجلس على شاطئ
البحر المشتهر ليقم بعض بقصص الروايات . ولكن الأمر لم يطل به ، ففي بداية
إحدى إحاربه الصيفية ، وكان يستعد لسفر في اليوم التالي إلى مصر ، أصابته بوبة

قلبية وممت على العه ر . وسم بعض الصحف المصرية في عيه ولا ذكر أن كب عه
أحد مثالا هي حريدة أو صحفه ، د حاءت وفائه في وقت سطره على أحجرة
لإعلام رجاء بسمون إلى مر حنه سببة مخلقة عاما

أما الدكتور رفعت فلم يجمع شيء من الاستمرار فيما كان فيه . هزيمة كان م
انتعرا ، رُسمانية كب أم اشتراكية فعلى الرغم من تحول نظام تحولا جذريا من
سياسة إلى تقنيها ، في مختلف مجالات السياسة الداخلية أو الخارجية ، ظل
الدكتور رفعت يحطب فصاحة في حدود ما سمع به الظروف السائدة . ظل يذكر
العذاه لاحتشاميه في كلامه ، ولكن دون أن يتجاوز الحدود سموح به . وعده
موجت حبيب ، في منتصف الثمانينات ، أن بعد أن تحول النظام الاقتصادي
والسماي تحولا تاما عن سياسات عبد الناصر ، باحتسار رفعت المحجوب رئيسا
مجلس الشعب ، في وقت كان هذا المنصب المبدي المهم حاصف تمت لقرار من
السلطة كان الدكتور رفعت قد أثب خلال خمسة عشر عاما سابقة أنه لا خطر
منه في الحقيقة على النظام ، وأن من الممكن الإفادة من مهاراته الخطابة وحلده
وصره على العمل الياس الذي لا يحلب أي منفعة لا لشقايمه وللحائس على
قمة السلطة . رمع ذلك فقد بل السمع يعترضونه من رجاء النظام القديم ، يصمون
اراءه ومعتقداته على أنها عمل أي الاشتراكية وإعادة بوزيع المدخل والحقيقة ، كما
أعزمها عه مد كان مدرسا متدني في كية الحقوق ، أنه لا آراء تشدله في أي شيء
ولا معتقدات قوية . كدبت برجنس منه بعض رجال الحكم خشية من أن يلحق بهم
بعض الضرر من جراء أنه ألقى عروضا اشتراكية ، وهو يحتل هذا المنصب المبدي
الكبير والذي اكتسب معه بعض النفوذ ، ولكن الحقيقة هي أن الخطر الذي كان
يهددهم من ورته ، سم يكن يتعمق باراته ومعتقداته بل كان مصدره ما يمكن أن
يرتكبه من أخطاء بسبب قلة حظه من الذكاء والعطف . وهذا هو ما حدث بالفعل
فقد صدمت منه مرة ، مدرن أي دافع ، جملة رردب بها عبارة «القطط السماء» ،
مشيرا بذلك ، إلى الأثرياء الذين جمعوا ثرواتهم في فترة قصيرة دون حذارة حقيقية
أو من مصدر غير مشروعة . لأنه أن لعبادة قد حاءت على لسانه دون ترك كاف من

جانبه، إذ ربما أعجبه ما فيها من فصاحة أو جمال التشبيه، دون وعي مما يمكن أن يترتب على قصوده بها من آثار سلبية - لاندأه «تلك أخطاء كثيرة مثبته أوقعته في عداوات شخصيه مع بعض رجال المهجر، ندين كان من الأحرط له ألا يبعدهم. وكتب بهبه كل ذلك أن اسيقظ في صباح أحد الأيام سمع عن رصاصات أطلقت عليه وهو في سيارة محصنة بأشد أنواع الحصانة وحماية من الشرطة، أثناء عودته من مجلس الشعب، وفي شارع من أشد شوارع العاصمة اردن. أودت الرصاصات بحياته رجة الصابط الخالص بجوار لسائق والذى كان مكلما بحماته. وثب الحادث وقتها من بعض الخبايا الإسلامية لخطرفة ولم أتابع ما ذكر في التحقيقات أو ما قيل في الصحف عن شخصيه الخاني و دوافعه، إذ إنني كنت مقتنعا بما، أنيا كان ما يشر في الصحف، بأن السب الحقيقي وراء هذه النهاية للمساوية للدكتور المحبوب، لم يكن «أراؤه ومعتقداته»، وما إذا كانت تنفق أو لا تنفق مع آراء ومعتقدات لحم، عب الإسلاميه، بل كان السب الحقيقي قه حظه من الحكمة لسياسة ومن امهم طبيعة المرحلة التي كان يمدم به خدمتها. لقد مبعته إغراءات سيظه للمعية، كاحصول مثلا على ميللا محبه في الصف لأرب من الميللات المقامة على شاطئ مارينا، من أن يرى الأمور على حقيقتها.

وقد كنت هذه، فف أعنفق، شفعته دائما منذ عرفته، ومن ثم كان رأيي أنه عومل في حياته المعامله التي يستحقها أحد من الخية ما كان يطمح فيه بالصبط، وانتهت حياته نهاية فيها بعض سمات الأمسة وبعض سمات المهرة، مما يذكرني بمظهرو وهو يحطبل فيب في قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، عندما كان ينظره بالسكده وهو يحاول أن يتمنوا رجال السلطة، في نفس الوقت الذي يتألم فيه الجميع من هزيمة عسكرية شبيهة



انقطعت صتي بمجرد تخرجي في كلية الحقوق، بكل آمائزها انعطاف تاما، فيما عدا بقاءات سريعه لا أهميه لها ببعضهم في بدوة أو اجتماع، بدسباء وحيد

هو علاقة ممتدة مع الدكتور سعيد النجار الذي لعب دوراً مهماً في حياتي، وشعر
بفكري لفترة طويلة من الزمن، واتسمت علاقتي به بالتقرب العيف من شعور
بأنه يقيسه بما يستحق أن يروى. كانت بداية معرفتي بالدكتور سعيد النجار عندما
انضمت بكلية الحقوق في سنة ١٩٥١، وكان هو مدرسي لاقْتِصاد في السنة
الأولى. فسببه امتحاناً عظيماً بل وقعا نحن التلاميذ في حبه وظل هو أسادنا
المفضل حتى تخرج من الكلية، بالرغم أنه لم يدرس لنا خلال هذه السنوات إلا
هذا المقرر الوحيد في السنة الأولى. لم يكن هذا المقرر في ذاته مشوقاً، ولله أهية
عميقه على الإطلاع، فقد كان يدور حول أشياء مثل: «مصلحة الخدية، وقوس
ناقص العله، وب كست أذكر أنه أصاب صبع صمحت قليلة في آخر المقرر تتعلق
بمصر واقتصادها، وهو ما كان نادراً ولا يربط بدار في أي مقرر عن هذا الجزء من
النظرية الاقتصادية. لم يكن لمصوب المقرر على أي حال أي علاقة بشعورنا بهجوه،
وإنما كان مصدر هذا الشعور صفاته الشخصية. كان مدرساً ممتازاً و صبح العدارة،
مطلقاً لتفكير بالي أعدد مدى، ويحب علمه وموضوعه، فلا يمكن أن يشبع فيما
البل. وكان يتكلم على منجته ودون اصطلاح، ومن ثم كان يطبق صحة عامة من
حين لا آخر تنصل لنا من خلال الميكروموم وكان لها ديلاً عريماً يشير صححك من
جديد. كان واثقاً تمام الثقة بنفسه وبما يقو، ومن ثم لم يكن ليدور بحله أن من
الممكن أن يحلّ أحدنا بالنظم، أو يأتي أحد يعمل فيه أي شبهة فلة أدب، وبالتالي
لم يكن ليدور بحله أحدنا شيء من هذا. فبدأ أصعب إلى كل ذلك أنه كان وسيم
وأنيقاً، كان من السهل أن تعرف ماذا فصله على أي أساد آخر.

كما نحو ثمانمائة بلعد مجلس في مدرج واحد في السنة الأولى، لس من ب
كما سبق أن ذكرت، إلا ثمانتي أو عشرين فيات كل يحلّس دائماً في الصف الأول أو
الثاني. كانت هذه الفتيات العشر وسط هذا الجمع خاشع من بدكور المحرومين من
أي علاقة حسنة. كأنها كفة المحرمة، تنماها كل انقبوس ولكن لا تحرّج أحد على
حسبها. وينسب ما كما ما يشعر به إزاء هذه الأساد، وراء هذه الفتيات، كان حياله
يصوّر لنا أن كل فتاة مهيّنة لابد أن يكون حلمها الوحيد أن تتزوج منه، وأن بهذا

السب وحده تترين الفئات وتتجملن، وأنهن لا يجلسن في الصف الأول والثاني إلا بهدف لفت نظره. ولكن الرجل بعد شهور فليته من بدء الدراسة تزوج من فتاة، من خارج الجامعة كلها، وتصادف أنها كاتب السب الوحيدة لصديق حميم لأبي (هو الدكتور عبد الرزق السهورى) وقال لها أبى إن هذا صديق سألته عن رأيه فيما إذا كان من الصواب أن يقس هذا الأستاذ زوج لانتته، ووصفه بأنه رجل لا يعبه أى شيء على الإطلاق إلا الفارق بين سته ومن سته. كانت سها أقل من العشرين بسنتين أو ثلاث، وهو قد تجاوز الثلاثين. ولكن تم الزواج في النهاية وأصبحت فتيات الكلية بصدمة عيمة، أو هكذا مصوريا، عندما دخل يوما إلى اندرج وحول أصعبه حاتم الخطوبة

طلبت أشيد بعلمه وكماله في كل مسألة يذكر فيها اسمه. طلب درسي من مقررا آخر في الدراسات العليا ثم يعير رأي فيه قيد أئمة، وظل هو أستاذي المفضل نسب مما بعد ثم زمس بالنعام الرأسمالى إيمان لا شر عرع، وبكرة لا شراكية، وكنت أنا على العكس قد أصبحت مع مرور الوقت اشتراك متحمسا، بل وفي بعض السنوات متحمسا للماركسية. ولكن هذا لم يؤثر قيد أئمة في شعوري نحوه أو رأيي فيه، حتى إني عندما ذهبت للعمل في الكويت، بعد ذلك سنوات كثيرة، وسعيت أنه سترك وطبعته في سويسرا ويعود إلى مصر، أسرعنا اقتراح اسمه على رئيسي الكويتي دون أن يطلب أحد مني ذلك، يحرص عليه العمل معنا في نفس المؤسسة، بل وفي نفس القسم. بلنى أعمل فيه، فعمل هذا وقيل الأستاذ لجمي، وقصى معاً في الكويت سنتين قبل أن يفر منه أخرى للعمل في واشنطن

خلال هاتين السنتين اللتين قضيهما في الخريب حدث ما بدأ يجعلني أعيد النظر في رأيي فيه وتقييمي له. كاتب حجرة مكتبه ملاصقة بحجرتي، وكذا كثير من مشترك في عمل واحد أو تعهد إليهما المسئولية عن مهمة واحدة من هذه المسئوليات كانت مسئولة تنظم مؤتمر كسر ترعاه المؤسسة التي يعمل بها (وهي الصندوق الكويتي للثمة)، عن موضوع كان حدث الخمس في تلك الأيام (١٩٧٦) هو ما كان يسمى «النظام الاقتصادي العالمي الجديد» وأثره في لعالم العربي وحمت

مع أستاذي القديم لدى أصبح الآن زميلاً، صبح قائمة بأسماء من يمكن دعوتهم للاشتراك في هذا المؤتمر بتقديم بحث أو مجرد لمناقشة واقترحت أن بعض الأسماء من أصحابها من كانت به رغبة يسارية معروفة، ولكن كان منها أيضاً أسماء بعض الأساتذة والكتّاب من غير الاشتراكيين، ولكن لا شك في جدبتهم وإخلاصهم ومكانتهم العلمية. وكانت المفاجأة أن وجدت أستاذي القديم يقترح بعض أسماء لا أحمل نحو أصحابها أي تقدير ولم يعرفوا أيّ إلا بالاسم والصفة، وإن كان بعضهم يحتل ماصب مرموقة في الصحافة أو الحكومة وعبرت عن دهشتي وغوري من هذه الأسماء التي اقترحها، ولكن رجعت لرغته كارهة، فهو لا يريد أستاذي المعود القديم. سمح المؤتمر لمحاذاة استثنائية، وأثديت الجميع، ولكن حدث خلل لا أكد لي صحة رأيي، إذ رأينا جميعاً هؤلاء الذين أقرحهم الأساتذة الزميل تقنصر مساهمتهم خلال أيام المؤتمر على الهجوم على موائد الطعام، وخاصة أكثر الأضلاع بكرة في مصر، كالخضري وممثل السالمون الأخضر، ثم لا تراهم في جلسات المؤتمر، ولكنك تراهم عائدتين إلى مدعهم من اسوق وهي يد كل منهم كل ماثقل وزنه رارتفع ثمة في يد أيضاً وجوده في مصر من مأكولات.

في بعض جلسات الختام أصابتنى الدهشة من جديد من بعض مواقف الأستاذ لم يكن تأييده المستمر لمواقف اليسيرة للمحافظة مصدر هذه الدهشة، فقد كنت أعرف هذا عه ولم يكن عربياً على، ولم أحد فيه ما يشبه بالضرورة ولكن الدهشة جاءت عندما رأيت يعطى بأيده ويدلي بصوته، عندما جاء وقت اختيار اللوحة المستوية عن صناعة توصيات النهائية للمؤتمر، لأشخاص لا يحظون في أيضاً بأي تقدير، لمجرد أنه موقع منهم أن يملوا بالتوصيات إلى الناحية التي يميل إليها قلبه.

ثم مرت سنوات، وعادت إلى مصر من الكويت، وعاد هو من واشنطن، وتكرر اشتراكه في الكوات التي كثر عقدها، بحث شعار الإصلاح الاقتصادي في مصر، وكانت تدور في الأساس حول «مع القطاع العام» كان هذا السع في نظري خطأ لا يعتمد. من الممكن أن تكون رأسمالى الترع ولا يكون هناك عيار

على ذلك، ولكنى كنت أعبر بين القطع الدم شيئاً محتماً عن مجرد مصير
 قطاع الخصى، فلتشجع الراسمالين الوطنيين كد تشاء، ولتفصل قسام هؤلاء
 بالاستثمارات على قيام الحكومه به، ولكن أن تبيع مشروعات عامه ناحجه، بل
 ولا تحد عصاصه في بيعها لأحباب يسئل لمدهم على ، يمكن تحقيقه من ورائها من
 أرباح، مع أنه قد يكون من اسهل الأمور إصلاح ما قد يكون في هذه المشروعات
 العامة من خلل في الإدارة أو نظم التوظيف والتشجير، هذا هو ما نأى امره لا
 نطاق ولا يمكن السكوت عليه. حرصت لهذا السبب على أن أحصر بعض البدوات
 اس شريك فيها لأسسدد ودافع فيها بكل فصحة وكفاءة عن بيع القطاع العام،
 ولكنى كنت أترك البدوة دائمة وفي نفس مارة تحلطف بالدهشة والأسف أهدأ
 إذن هو حال أستاذي القديم؟ أهو إذن مستعد إلى الذهاب إلى هذا المدى وبكل هذا
 الخماس للدهع عن عصبة ناطه إلى هذا الحد؟

وقفت أعترض عليه في كل بدوة اشترك فيها وهاجم فيها لقطاع العام، وأصبح
 لي حصرها. ولكنى كنت دائم ألترم الأدب ولا أسمح لنفسى، وأنا أزد عنه، بما
 أسمح به نغى في نقاد غيره من مخربه وقسوة كما كنت مقالاً صعباً للرد
 على بعض محرمه على القطاع العام نُشر في إحدى المجلات اليسارية، وصف
 أيضاً أنى لم أتناور فيه حدود الأدب والتهذيب، ولكن رمية تعرفى وعرفه
 انصلب في لتحرى بمدى عصه وبأثره من هذا المقاد، فلما أبذيت لها استعبر بي من
 هذا، ولطال بي هذه السراحة من الهدوء والأدب، قلت إن ما أعصيه بوجه خاص أنى
 استخدم في المقاد بعد «مداطة» في وصف إحدى حججه بدلاً من ضبط الأكثر
 حيد «غلطة أو خطأ» إذن لمط «مداطة» يوحى بأنه يعرف حقاً ويصبر عليه

ولكن الطامة الكبرى وقعت بعد هذا بقليل، وقصت على أى أم لئى فى أد
 تعود إلى علاقتنا ابودة مدعيه بل وأحلت محل تقديري القديم له، الذى سمّجمل
 مثله لأحد، مراهرة وحرناً ر حبة أمل. فقد خرج علينا أحد الوزراء فجأة ردود
 مقدمات مقال طويل في صحيفة لأهرام، في أوائل التسعينات، يشيد فيها بمرى ما
 أسماه «النظام الشرق الأوسطى الحديث»، وكان له معنى واحد لا شك فيه وهو مرانا

العرب الاقتصادى مع إسرائيل كان شيمون بيريز رئيس الوزراء الاقتصادى حيث
 قد نشر قبل ذلك نوبت قصير كان كبيراً يسمى العنوان وما ب أدب الحكومه أنها
 ترحب بالرويح لهذه الفكرة حتى بدأ الكتاب لمسعود د ثف لوضع خدماتهم
 تحت تصرف الحكومه، وللرويح ما تريد الحكومه الرويح له، يكسبون من تأييد
 النظام الشرق الأوسطى الخديده! مدرجات متفاوتة من الخذر، على حسب درجه
 الحره التى يسمح بها الكتب ومدى تعهده لكسب رضا بسطة . وكان هؤلاء هم
 أنفسهم الذين كانوا يدير السدات الموجهة لقدم فى ١٩٧٧، والذين كانوا
 يشتهرون مرصه بعد أخرى بالإشادة برباب سلام . والأكثر اطمينة التى تترتب على
 مشعر احب براء الآخرين ويقصدون بذلك، الإسرائيليين، ومحاوله تمهم
 «الأخر»، وعيوب الخفد والكراهية . إلح

لم يكن أستاذى القديم من هذا النوع من الناس . كلاً نطع فهو لم يملئ
 اللطعة قط، ولا دافع عن فكره لا يعتقد بصحتها . ولكنه فاحاشا ست مقالات
 طويلة فى جريده الأهرام يدافع فيها عن الشرق أوسطية . فكيف يكر لى أن أفسر
 ذلك؟ لماذا لا أقل . تفسر السط وهو أنه يعتقد فعلاً بما التعاون الاقتصادى مع
 إسرائيل؟ ولكن كيف لرجل مثله ألا يرى ان لا استعداد للقول بهذا اراى . وقول
 المشاركة فى مختلف المؤتمرات التى تاركها إسرائيل دل ونحث على عهده، وتعتقد
 سويًا للترريح لهذا التعاون، معده الشارل عن الورقة الموحدة التى بحث فى يد
 العرب فى محاورتهم المسببة لاستعادة بعض حفرتهم الضائعة؟ كيف لا يرى هذا
 الأستاذ هذا الأمر؟ نعم لابد أنه يعتقد بصحة ما نكبه، ولابد أن الأمر ليس إلا حظاً
 فى التقدير، ولكن إلى أى مدى يمكن أن يصغر الخطأ لحد أن صاحبه يصوره أنه
 صواب؟ كتب مقداً طويلاً فى الرد عليه ونشر فى . حتى الحرائد المعارصة كان
 المقنن لا يجرح قط على حدود لأدب والهديب ولا يكذب بمصمى أى سحرية او
 عباره جارحة . وكان أفسى عبدة فيه، فى نظرى، العبارة التى وردت فى مطلع
 الكلام . والتى أشيرت فيها إلى ذهنتى لشديده من اشتراك الأستاذى فى هذا العدد
 اللانهائى من السموات والمؤتمرات التى تعقد للترريح لفكرة السلام مع إسرائيل، فلا
 تكاد يحبو بدوه او مؤتمراً من اسمه كالأحد المتحدثين، وقتت . «إن الله وحده هو

سدى يعلم سبب ذلك، أى أنى سمعت لنفسى أن أصر عن حيرتى وشكى فى أن يكون هناك أسباب أخرى لتكرار اشتراكه فى الترويج للتعاون مع إسرائيل عبر مجرد عتقده بصحة هذا الموقف

كان هذا كافيا لطبع لقطع حائل يود سبب وسه، وهو ما استمر يعث الحرب فى نفسى كتب بذكره، وظللت أشعر بالأسف والحزن كتب بذكر ما فعلت مع هذا الأستاذ العزير القديم، وبكى دون أن يكون لدى أى شك، مع هذا، فى أنه كان عسى خطأ وأنى على صوت وطلعت من حير لآخر أستميد الجملة لئى بدأت بها معالى صدقائه، وأنه وحده هو الذى يعلم سبب اشتراكه المتكرر فى كل ندوة تعقد لترويج فكرة السلام مع إسرائيل، و قول لفسى هل كان من الضرورى أن أكتب هذه المناقشة بذلك؟ ألم يكن من الممكن أن أكتب المبدأ كنه وأصر عن كل حرجى، باستثناء هذه العبارة؟

ثم سهرت فرصة لأتصل به تليفونيا لأخبره بقدوم عام جديد، وكم كانت فرحى أن وجدته متقبلاً تماماً بهذه الخطوة مى، ورحب بمكاشفى، وتمتم معى تماماً عندما قلت أن ما حدث بينا كان كلاماً فارداً لأهمية له، ولكن فرحتى كانت مضاعفة عندما وجدت، بعد مرور بضع ساعات أخرى، سرجع عن موقعه السابق المؤيد لمشروع الشرق الأوسطية وشرع فى مهاجمة بعض ويلا هوادة، ولم أجد أى سبب للشك فى أن سرجل قد اكتشف خطأه وكان من البراهمة والشجاعة بحث أعلى عسى اللأ ما يعتمد الآن أنه الصواب لم أحاول فقط أن أستدرجه إلى الاعتراف بخطئه القديم، ولكن كى وأصبح بكل ما أنه هو الذى تعبى فى هذا الأمر، وأنه يئى أن الحق كان مى عندما تأكد كل ما من ذلك عادت علامتى إلى مصافها القديم، بل وأصبحت لعدة شهر ر أقوى مما كنت فى أى يوم من الأيام، إذ أصيب إليها الآن شعور كل ما بأن الكمال مستحيل، وآب كلما به من أوجه ضعف ما يحرص عليه أن يكون أكثر صراً مع صاحبه عسى أن هذا سم يستمر طويلاً دمرص الرجل فجأة مرض سيصع تحول بسرعة إلى مرض خطير، وكان عمره قد قارب الخامسة والثمانين، وإذا ما عده فجأة، وكان قبل ذلك بأيام قنبية من السمع والصبر

البحث

يعرفت خلال سنوات الخماسية، لأول مرة، على فكرة «العروبة» والوحدة العربية» حدث هذا عن طريق تعرّف على مجموعة من الطلبة العرب، من الأردنيين والسوريين ولبنانيين، الذين كانوا يدرسون في كتيبة أو أخرى من كتيبة حامية لمعاهرة، وشهدت إحدى المحاضرات للقومية العربية والوحدة العربية، من الخليل إلى المحيط كان معظمهم أعضاء في حزب بشا في سوريا، وكانوا لنا ب اسمهم «حزب العرب» لعنت العربي الاشتراكي» ولكن حتى من لم يكن منهم معنيا، كان يؤمن بالقومية أكثر من أي مصري كنت أعرفه في ذلك الحين وقد أثار هذا الذي بعض الدهشة في نهاية الأمر أن يكون حماس الناصري أو السوري والأردني لتكوين أي نوع من الوحدة مع مصر أقوى بكثير من حماس أي مصري لذلك وقد أدى تعرّف على هؤلاء الطلبة العرب وما دار بيننا من أحاديث إلى بدء فداء في درج انقومية العروبة، ومرايا الوحدة الاقتصادية، وكتابات ساطع الحصري وعمره في الدفاع عنها، وإلى قة اعنى سلامة الفكرة، وخطأ الشكك فيها ولكن هذا الاقتناع اكتسب شكلا جديدا تماما بعد أن سافرت إلى لبنان وسوريا في سنتي ٥٣ و١٩٥٤. وبكونت لدى مشاعر نحو العروبة والقومية العربية تكاد أن يكون جديده عني تماما ثم مدعمت هذه المشاعر برأى انتشالية بلاد عربية أخرى في المغرب والمشرق بحسب أن أعترف بأن إقامتي في الكويت، رغم أنها كانت أطول منها في أي بلد عربي آخر، وكذلك ربما في لأوطان، لم تزد مشاعري العربية قوة، وإن لم تضعها، إذ كان الكويتيون مكثفين بأنفسهم إلى حد كبير ولا ييؤون إلى أي نوع من التآلف مع الوافدين العرب إلى بلادهم، وفي أي طين لم أناس من أهل البلاد من

لمسب فيه حماسا للمعروية ولكن هذين اليلدين كانا هما الاستثناء، وكانت كل زيارة لى لآى بد عربى اخر تدغم شعورى بالانتماء العربى وتقويه هذا الشعور الذى أثارته زياراتى الأولى لبسان وسوريا، لم يفرمى حى لآن، رغم كل ما مر العرب من أحداث مزيرة طواب الخمسى عما لى انقص عى رؤى لأول ولد عربى خارج مصر .

ما الذى رأته فى سان وسوريا فى ذلك الوقت لما عرس فى هذا الشعور بقوى بالانتماء لعربى^٩ لى لم يكن مجرد حماس الباس هنك للمعروية ماكتر مما لسته فى أى وقت فى مصر، ولا نظرتهم اخاصة ولتميرة جدا إلى مصر وامصريى، ولا حهم و حتر مهم العميق لأدياء مصر وكثبها وزعمائها الوطنى، ولا معرفتهم الوثيقة تاريخ مصر ولأاتهم العميق للغة العربة والأدب عربى لقد لست كل هد حقا، ولكنى فوق ذلك لست بوضح تام أن ما يجمع بنا أهم واقوى بكثرى مما يعرفنا لغتا وثقافتنا وهوسيانا وطريقة استحداثنا للأحداث، وقيمنا الأخلاقية ونمط علاقاتنا الاجتماعية إلح . هذا الذى لسته أولا فى لبنان وسوريا عدت ولمسته المرة بعد الأخرى فى البلاد العربية الأخرى كتر فى نفسى تعلل جذور الثقافة العربة فى العراقى، وإحاده اللغة العربة للى الأردنى، بن وحنى للى ملكهم وأمرتهم، وحب المتعلمين المغاربة لمصر وعرفهم بحجم مصر وأدائها، وبمصر الأدهر على من جاء منهم إلى مصر ليدرس فه، وعشق تنوبسى وتذوقهم العميق للموسيقى العربية، وتعظيمهم الشديد للمعنى والمحبى المصرى، وكذلك حب اليمين لمصر وعرفانهم خبيها بما عديتها لهم فى ثورة ١٩٦٢ والحرب التى تلنها، وسبعه لثقافة اليمينى لكن ما يسحه مثقفو مصر وأدياها وصحفيها، وفرب روح الشكاه عند اليمينى بها عند المصرى أوف رحل لى لا أعرفه سياوته إلى حانى وأما لى فى أحد شرب صعد، عذب رأى من ملايح وجهى أنى مصرى، وجاء يخبى، وإذا به يشكرى عى ما فعله مصر من أجل اليمين وكان بعض لأطغال اليمينى اصغار يستوقفوسى أيبص فى الطريق ليعر صوا على ما يحملون من كرايس وهم عائدون من المدرسة مفتحين بما علموه، وهم يتوقعون منى، أما المصرى، أن أفرح بدورى بحقوقه وكان أغلب

المدرسين في اليمن في ذلك الوقت (أوائل الثمانينات) لا يزلون من المصريين الذين جاء بعضهم ليقضى شهوراً في الدراسة في بعض معسكرات بسمكة الدابة في أعلى الجبل، من دون أي وسيلة من وسائل الراحة والترفيه المتاحة في مصر أو في العاصمة الجيدة في الكويت ثم المنى مثل هذه المشاعر نحو مصر والمصريين إلا عند بعض كبار المنى، ولم المنى مثلها فقط عند شباب الكويتيين قال لي أحد المسئولين الكويتيين مرة معزاً عن أستاذه لجهل معظم الشباب الكويتي بمصل مصر على الكويت «إنه يرجع أنه لو فتح الكويتي أذراع المكنات الحكومية في الكويت يوجد في بعض أقاليم وكرايس مكتوناً عليها (هدية من المملكة المصرية)، ترجع إلى أيام الملكية في مصر عندما كانت الكويت فقيرة بدرجة أصغر رها إلى اعتماد على كرم الحكومة المصرية وسحبها في رسائل المدرسين وبعض المواد التعليمية إلى الكويت دون مقدس»

في أول زيارة لي لسيرت في ١٩٥٣ قال لي بعض الأصدقاء السابقين إنهم دمو في كتاب المطبعة وهم تلاميذ صغار بعض انقطع النثرية من تأليف أبي أحمد أمين وبعد ما سمعت إشراك مكررة بي أحمد أمين هناك استقر في ذهني أن أحمد أمين معروف في لبنان أكثر منه في مصر وتكرر ذلك في ملاذ عربية أخرى خاصة لعراق والمنى، حيث مما لي أحد المثقفين اليمنيين إن سحبي من محلة الندفه التي كان أبي يرأس تحريرها، كانت اتصال إلى صعاء في كل أسوع خلال الثلاثينات والأربعينات ثم لا تلت استحقاق أن تدور على اليمن الرئيسية حتى لا ينهي الأسوع ويأتي العبد الحديد حتى تكون السحان قد أصبحت مهبطاً لكثرة الأيدي التي تدولتهما

وهي جلسه من جلسات لقت في صعاء، ضمت بعض من كبار المسئولين اليمنيين، أحد شاعر على كبير بحكي لها، وهو معلم في نفس الوقت كيف امتز بين الرودة المطلة من الفات وغيره، كيف قرأ مؤجراً عن شحات عيف شابين صحنى مصري وقمرى مصري كان وقتها يشعل منصاً خطيراً يدعى «الملاعي الأشتر كي»، واتخذ موقف مخالف للممنون والصغير إرصاداً للحكومة، وكيف أصحك صحنى مصري كتبها على هذا العائلي، فبدأ يديم الحاضرين كلهم

يصوتون بشغف إلى هذه منصة المعارضة في الحياة السياسية المصرية وكأنها تنس شأنا
حظيراً من شئون المص

ما مثقفو الحرين فلا يتحدثون كثيراً عن فصل مصر عن الثقافة المصرية لأنهم،
كأزعم وصعدوهم، يعتبرون هذا من قبيل غصصيل الخاص وقد تأملت وريز
لتعليم الحراس، وكان أيضاً رئيساً لناد عربي في الحرين (نادي العروبة) ووجدته
يعرف من معاصيل حياه الملحنين المصريين انكار، كالفصحن وركزي احمد،
وبرب ظهور أعني أم كنشوم وعد الوهاب القديمة ما لم أكن أعرفه وعلما ررت
لسان في التسعيات وعرفت على أسره سحاب العده، التي أنتجت «سبب» فتد
المرقة القومية للموسيقى العربية بالقاهرة، و «فيكتور» المؤرخ وأستاذ السياسة
ماجامعة اللبانية، ولكنه أيضاً مؤرخ عظيم للموسيقى العربية، و«إلياس» أكر
الإحرة لثلاثة، والكاتب السياسي الشمير بدوره، ذكرت لفكتور كيف بدأت
معرفتي به بقراءتي لمقابلة مذهش نشره في جريدة الحياة بماسة ربه المطرب المصري
«كارم محمود» وهو، أي كارم محمود - وإن كان قد حقق درجة لا بأس به من
الشهرة، لم يكن قطعاً في الصف الأول ولا الثاني من المطربين المصريين، فإذ بي
أجد فيكتور سحاب وقد كتب عنه مقالاً يحصى فيه كافة أعانيه وأعلامه وتواريحها،
ويحلل بدقة سريه صوته، ويحدد بالقسط دوره في تاريخ لأعية المصرية
وحللت أفرح على لإخوة الثلاثة، إلياس وسليم وفيكتور، بتذكرون وينامرون
بتذكير بعضهم البعض بأهمية الأداء الذي همت به أسجهان، المطربة اللبنانية التي
حققت شهرتها في مصر، لإحدى أعيناتها القديمه، وسجنه له أحد المهاوين في
الثلاثينات دون أن يذاع قط على الملأ، وكيف يحلف هذا الأداء عن أدائها لمس
الأعية في سه أخرى إلح

بعد ذلك يصع سوات كب أحضر مؤمراً في تونس فأحد أحد الاقتصاديين
الروس من المشاركين في المؤتمر تحدث عن مدى تغلب الروسين بأن كنشوم حتى
إنه عندما جاء أم كنشوم لتقديم حفلته عاثيه في تونس باع أحد معاربه بعض أثاث
ممرله لينشري شمنه بصع تذاكر بلحفة، كم أزر السودن قد للأسف، وبكى
عرفت كثيرين من السودانيين عن قرب، ولست فيهم من الداء في اشاعر الذي

لمسته لدى بقية العرب ، وسهولة التفاهم الروحي بينهم وبين المصريين ، وقدرتهم على فهم البكته المصريه بنفس المعنى بالسيط ندى يفهمها به المصرى

لم أصدف أى شىء يشبه هذا الولاء والحب ولا اعتراف بالجميل بحور مصر والمصريين فى أى بند من البلاد الإفريقية التى رربها ، لاهى عرب أفريقيا ولا شرقها . ربما عثر بعض الإغريق عن حترامهم لحعل عبد الناصر ولكن هذا شىء مختلف تماما . كذلك لم أشعر بذلك التصارب والاتفاق فى المشاعر والمشارب بلدين شعرت بهما فى كل البلاد العربية التى ررتها ، عندما ررت إستديو ، مى جعلنى أشعر بعلة رابطة اللغة وثقافة عى رابطة الدين بل قنلت أمثلة كثيرة جعلتى ألاحظ كم يعنى نفس الدين أشياء مختلفة حلا عند الشعوب المختلفة ، فالإسلام فى تركيه له طامحه المجر حداً وملامحه الخاصة حلا إذا قور به فى البلاد العربية . نعم إن له ملامحه الخاصة أيضاً التى تحبب بين بلد عربى وآخر ، ولكنى لم أشعر بأننى أسمع شيئاً عربياً على عندما سمعت الأذن لصلاة الفجر فى صعاء ، بل ترك فى نفسى أنرا أقوى مى كان للأذان فى مصر ، مى خعب صوت المؤذن وحسن أدائه



أهود بنى هؤلاء الأصقاء من الطلبة العرب الذين تعرفت عليهم فى سنوات دراستى لحامعة ، وكان معظمهم من الأردنين والسورين والساس ، وأكثرهم أعضاء فى حزب «بعث العربى لاشتراكى» . قالوا لنا : إن مؤسس الحزب أستاذ سورى اسمه ميشيل عفلق ، وأهم أنصاره صلاح البيطار ، الذى أسس مع الأستاذ ميشيل حزب البعث فى سنة ١٩٤٢ ، ثم انضم إلى هذا الحزب أكرم الحورانى ، رعيم الحزب الاشتراكى فى سورى أيضاً ، وتكون من الحزبين «حزب البعث العربى الاشتراكى» كانوا مجموعة من الشبان الناصحين ابودودين ، بهم درجة من الحدية والاهتمام بالسباسة والقضايا العامة تفوق بكثير ما كان شائعاً بين الطلبة المصريين ، فاجتدب إليهم . وكان من لواصع أنهم حريصون على أن ينضم إلى حزبهم ومن ثم يؤسس للحزب لأول مرة فرع فى مصر ، ونقلوا إلنا قوب مشتل عفلق فى الحزب لا مستقل له إن لم يدخله مصريون . كان أول من نتحق باحزب من المصريين على

محار، الذي كان صديقا في مد كيا في الثانية عشرة من عمرنا، وكان طالبا في كلية الطب عندما تعرفنا على بطللة بعثيين، ركب أن في السنة الثالثة في كلية الحقوق كنت العصفو التالي من لمصريين، ومن ثم تكون من على مختار وعنى أول وحلية من حلاي حرب البعث في مصر في ١٩٥٤، رسريا بالطلع أن سمع أن ميشيل عفلق غير عن در حه بهذا الخبر

لم يحضر وقت طويل حتى انضم إلى الحرب مصريون آخرون، ولكني لا أظن أن العدد تجاوز المائتين في أى وقت من لأوقات وعندما انحزحت في كلية الحقوق في ١٩٥٥، حادما عصفو قديم في الحرب أكثر ما بعدة سواب وأكثر تجربة (حسب الموطائى) وأحربنا أن قيادة الحرب في دمشق قررر تميينى أنا مسئولاً عن الحرب في مصر مع أنى لست بضرورة أكثر الأعصا لمصريين حذارة بذلك (ركان يقصد دوس شك أن عنى مختار حذو وأكفا)، ولكن البس في احتاوى هو نى أنهت دراستي وأصبح لدى وقت أكثر ممكن تحصيصه للحرب (إذ لم يكن مختار قد تحرر بعد في كلية الطب) وعلى الرغم من أنى فلت ذلك وأصبحت مسئولاً عن فرع مصر من حزب البعث، فقد ظل على مختار هو الدينامو للمحرك نشاطه والتمناه اللذين لم يعارقه قط

لم يكن من الصعب عليا أن يقتنع بمبادئ حزب البعث، فهو تنحصر في شعارات ثلاثة بدت بديهي، الحرية والوحدة والاشتراكية. يد من الذى يكره الاعتراض عنى خبريه، معنى التحرر من الاحتلال الأحيى ونظير انديقراطيه اسبسية؟ وأم الاشراكية فكان قد بدأ تدعى معي مد سمعت عنها لأول مرة وآف الوحدة العربية هى وإن سم تكن في أى يوم من الأيام تشعل حماس لمصريين عثما تفعل بشعوب المشرق العربي، فقد اقتضت بوجاهتها مد أن زوت بدروت ودمشق في ١٩٥٣، ورأيت عسى كيف شير فكره الوحدة العربية عواطف الشعب اللبناني ولسورى، وأن ما يوحّد بسا هم بكثير مما يفرقنا وقد قوى هذا الشعور ما أحدث أثره عن مراب الوحدة الاقتصادية واسبسية وعن تاريخ الحمة لقومية العربية متأثير أصدقائى المحدد

كانت هذه هى أول تجربة لى، وأخر تجربة أيضا، في الانضمام حزب سياسى،

وهي تجربة تكاد تكون صياغة أكثر منها تجربة حادة في العمل الإنساني، إذ لم تكن قد بلغت لعشرى عدد مصيبت حرب البعث، وتركته وأنا في الثالثة ولعشرين، والرجح أن السبب لأساسي بدخولي في هذه التجربة كد سببا اجتماعيا وبمسيا أكثر من أى شيء آخر. وأقصد بالسبب «الاجتماعي والانساني» لميل «طبيعي» في مثل صبي إلى الاشتراك في عمل جماعي مع شباب في نفس السن بعمر فيها كل ما عن شخصيته انني بدأت في التكوين، وأمل كل ما في أب يحصل من خلاله من الآخرين على قدر من المودة والتقدير يدعم به ثقته بنفسه.

ولكن لابد أن أذكر «الأثر الذي تركته في نفسي شخصية ميشيل عملي كانت آخر مره رأيت فيها ميشيل علق ووجهه لوجه في نوفمبر أو ديسمبر ١٩٥٧ أي عندما عررت من حمسين عام، وربما كان وقتها قد تحوّل الأربعين بقليل وكنت أنا في الثانية والعشرين. وقد ظلت أحياه تاني بين الحين والآخر، خلال هذه الفترة وحتى وفاته في مطلع الثمانينات كان من بين هذه الأحرار ما يؤكد فكرتي الطيبة عنه ولكن كان فيها أفضا، لم كان صحيحا، ما كان جذرا تعبير موقفي منه وإساءة الظن به. ولكني ظلمت دائما، وحتى الآن، لا أميل إلى صوب أى مقدي يوجه إليه مما يطعن في صدقه أو إخلاصه أو برهانه، وأميل إلى الاعتقاد بأن رجلا مثله لا يمكن أن يكون له يد فيما أبركه حرب البعث، وما أبركه باسم البعث، من جرائم وأخطاء، بل أرجح أن سمعه قد استخدم في سرير هذه الجريمة والأخطاء، في سوريا نارة وهي المروءة وأخرى. كما أميل إلى الاعتقاد بأن إدمه ميشال علق في العراق خلال حكم صدام حسين كانت من قبيل الإقامة الجبرية، استخدم خلالها اسمه دون أن يسمح له هو نفسه بأن يفعل أو يقول ما يريد. أما ما أعسبه حزب البعث العراقي بعد موت ميشال علق من أنه اعتنق الإسلام قبل وفاته فلا أصله أيضا، وأرجح أن صدام حسين وجد في شهر هذه الإشاعة ما قد يفيد هو شخصيا لسبب أو آخر.

إنني أتذكر ميشال علق رجلا ومبها، على وجه دائما يتسامه مشرقه وصدده تعكس نمسا صباه وكبريه. كانت روحه أقرب إلى روح الشاعر منها إلى روح

رعيم السيسى بل إلى كنت كثيراً ما أتعجب كيف يصدر رجل كهذه الأعاصير
 الصبغة ومزمراتها وهو هذا الرجل الرقيق الذي يبدو وأنه تجرّحه السمّة العابرة
 لابد أنما نحن الشباب المصريين لمصممين حديث للبعث قد جلسنا مع ميشيل علق
 عشر مرات أو أكثر في الصف الثاني من الجامعات، في مجموعات صغيرة كثيراً
 ما لا يريد عدد أفرادها عن اثنين أو ثلاثة بالإضافة إليه هو كان يسبقنا في شقة
 مفروشة في إحدى لغارات الصحبة بشارع قصر النيل، اعتاد أن يستأجرها كلمة
 جاء إلى القاهرة، ويصحب إلى مكان قريب كمشقة «الأناس» في نفس الشارع أو
 صالته أو شرفة فندق سميراميس القديم المطل على النيل، فجلس إليه ليتكلم
 ويكتب، ثم بعد ما يكتبه للبشر بعد عودنا إلى بيوتنا. كان يقول إنه لا يحب (بل
 ربح) فإن به لا يستطيع) أن يسلك بالقسم لشدة أفكاره على لورق، بل يفضل أن
 يتكلم ونحن نكتب. وكما إذا انصرفنا عنه يستغرق أحداً في الصمت ونحن نغلق
 طرفه في الكلام، إذ كان يقول: وكان ساعات طويلة تقضى بين كل كلمة يصدر
 من فمه والكلمة التالية، ويستغرب أنه لا يزال تذكر لشدة الذي لا تأتي حرة إلا
 بعد انقضاء هذا الوقت الطويل. ونحن الكلام كان يبدو في النهاية جميلاً جداً
 ومقنع، وطرأ أنه كان كذلك بالعمل. أحياناً لم تكن الجلسة تسمح بالكتابة فكتب
 أصغى إليه بكل حواسي ثم أعود إلى الشئ فأعز عن المعاني لئن فهمتها مع وحداً
 بعد الآخر، ثم تدرس هذه الأحاديث في اجتماعات الحزبية

رعا أسدكر وجهه أحياناً وهو مقطب أو مستغرق في التفكير، ولكني لا أسكره
 قط عاصماً بل كان دائم، كلما ذكر أمامه اسم واحد من محذّبيه في الرأي أو نقل
 إليه بعد، مهما كان قسياً، ترسم على وجهه نفس لا يسمّة لصافية ويقول
 معاً أنه يفهم قسماً الدوايح التي دعت متقلّنه إلى قول مثل هذا الكلام. وقد كان
 يبدو دائماً فرحاً ما نحن البعثيين المصريين المحدث، وكبير الأمل في يمكن أن يصحبه
 ولم يصل إلى بعد ما يدل على غضبه مما لا عندما نشرنا بعض أهديته في ألقاها
 في القاهرة في كتيب صغير دون أن يصح على كل حديث منها تريح الذي قيل
 فيه، إذ عشر تاريخ هذه الأحاديث مهما لعناية ولكني أذكر عصب أكرم لخوري

الشديد ما عندما ورعنا مشوراً حلال أرمه نأصم فاة السوس ، معدوموع التأميم
وقبل الهجوم العسكري على مصر ، وذلك لأننا ذكرنا في المشور اسم الولايات
متحدة الأمريكية كوحدة من الدول لمعدية لأهدافنا القومية (وكت أنا مستول عن
ذلك) ، وقال لنا « بل إما نعوك على أن تندخل الولايات المتحدة لمصلحتنا ونقف
إلى جانبها»



استمر لقائى المتكرر ميشيل عملى مدة سبعين أو ثلثا (١٩٥٧.٥٥) ، سم
يصعب حلاله ولاؤا وحسا و حراما له ، مع تحفظ بسيط يعطى بعفورا بفكرى
كما قد بدأ بقراء ، في أواخر هذه الفترة ، بعض الكتابات الماركسية التى تتعارض
مطلقاتها وروحها العامة مع مطلقات ميشيل عملى وطريقة تفكيره وكان من
سهن ، عيب أخص ، أن نسب الماركسية لنا ، ونحن في هذه السن الصغيرة ، وأن
مرى فيها صلالة وقوه وحسنا لم تكن عمده في أفكارنا البعث كتاب ميسايريمية
وروحية ميشيل عملى أبعد كثيرا ، بالمقدرة بالماركسية ، عن متناول شباب في
العشرين من عمرهم ، يريدون أفكارا كصحة الصنع وحده للتطبيق ، وصارمة في
تفسيرها من الأسس والأسود ، التقدمي و الرجعي ، ابوطى والخائن ، وكان التفسير
المدى ، الاقتصادي للأمور أقرب إلى جذب شباب في هذه السن من أهوال مشل
عملى التى من نوع «قول إن القومية حب» مثلا ، والتي كانت كثيرا ما تُذكر من
جانب أعداء البعث على سسل السخينة من عراق ميشيل عملى في المثلية

أذكر مرة أمى قررت ، أنا وعلى مختار ، أن نواجه ميشل عملى بشكوكنا
بصراحة ، وأن نحاول أن نستخرج منه تعبير واضح وكامل عن موقفه من بعض
الأفكار الأساسية في الماركسية ذهبنا إليه ، وكان اللقاء في صالة فندق سميراميس
الحديثة وبار سعة ، وذكر أننا قد توجهنا به هذه الأمثلة الحسنة أثناء قيام عازف
البيانو في الصالة يعزف بعض لمقطوعات الموسيقى الكلاسيكية سأساه أولا عن
موقف البعث من المادة اللدلتكتيكية ، ولا أدري ما الذى كان يردده من البصط . هل
كانت تصور أن أى حزب سياسى لابد به ، لكن يستحق هذا الاسم ، أن يكون له

موقف فلسفى من علاقة المادة بالعكر، ومن مبدأ اشتقاقى، وبما إذا كان تشعر
لكمى ينقلب فجأة إلى غير كمى؟ يبدو أن هذا هو ما كان يطمح، ولهذا لم يسترح
وقتها بالمرء لإحادة ميشيل عملاق على هذا السؤال لقد انضم الرجل لاسماة
عريضة عذبة سمع مزال، ولأنه كان يشعر بعض الإشفاق عليها، أو لعلها كان
تذكره بصداقته وشبابه. قال إن هذه الموضوعات كانت تشغله في وقت مبكر من حياته
أثناء دراسته في باريس، وأنه حسم رأيه فيها حينئذ (وأذكر أنه قال إن فلسفة هيرى
برجسون كانت أشد جاذبية له بكثير من الماركسية) وأنه لم يقرأ أو يفكر في هذه
لأمور منذ وقت طويل، وأن علي، إذ أردنا إحياه شافية على مثل هذه الأسئلة،
أن نحل مع ميف الررار (أحد لأعضاء البارريين في حرب البعث) فهو كفيل
بإدراكها.

لم يشجع هذا الرد غليلنا بل ربما شعرا بأنه رد ضعيف، أو حتى طما أنه يهرب
من الإجابة. وكذلك لم يحجبى رده على نقديا لتعريف القومية أسلوب إليه في
قوله إن القومية حب^٥ ولا أدري أيضا سب سخطا الشديد على هذا القول
ري كان لسب أنا سمع بعض الماركسيين يتخرون منه^٦ لأنه لا يفسر القومية
تفسيرا اقتصاديا كما يفعلون هم، فيعبرونها مجرد مرحلة تاريخية لاند أن
يحرى تحاوره بعمير الظروف. قال الأستاذ ميشيل به قال هذا في حديث مع
تلاميذ صدر في إحدى الندرس عندما سأله أحدهم عن القومية، وراود أن يعطيه
إجابة يستطيع التلميذ الصغير فهمها واستيعابها. إني الآن أعتبرها إجابة جيدة
ومرعبة جدا من الحقيقه، سواء كان المثائل طمعا أو بالعارشيد، ولكننا لم نقنع
بها في ذلك الوقت، واعتبرنا أن مستندى الحرب على حق إذ يهيمونه بأعبيبة
والعاطفيه المفرطة.

ذكرت أن آخر مرة قابلت فيها الأستاذ ميشيل كانت في أواخر سنة ١٩٥٧، قبل
سفرى في سعته إلى إنجلترا. جاءنا الأستاذ ميشيل وقتها متعبا ومتعبلا، فكان قد
عاد لثوره من معاناة جمال عبدالناصر، وقال إنه سعيد تماما لأن الرئيس عبدالناصر
وافق أخيرا على دخول مصر في وحدة مع سوريا، إذ استطاعوا في النهاية إقناعه،
وأنهم قبلوا بشرط أبدي وضعه عبدالناصر بحل حرب البعث، وعترو أن تحقيق

هذه الخطوة الرائعة نحو إبحار الوحدة العربية الشاملة يستحق أن يدفع من أحله هذا الشعب، وهو من الحزب.

وقع عليّ خبر حلّ الحرب وقع الصاعقة، واعتبرناه خطأ سياسياً كبيراً ولكني الآن أعتبر أن ميشيل عفلق ورفقته انحدوا الموقف الصائب في هذا الأمر أيضاً، وإن كانت الظروف قد أظهرت بعد ذلك عكس ما كان يبدو بهم وقتها

لهم أن كن شيء في ذلك الوقت كان مدعياً بعدد من حرب البعث بدء مرحلة جديدة تماماً من حياتي سعى إلى محترقة لعدة سنوات، وشعوري بضرورة بوجه كل شيء للدراسة، واستهاري المتزايد لأفكار الماركسية وما هو الحرب على أي جانب يحل نفسه فلما وصلت إلى لندن وقابلت بعض الطلبة اسعشين العراقيين، الذين كانوا يقصون معظم وقتهم في مقاهي لندن في مناقشة عقيدة أو في إصدار الأحكام على هذا الحاكم العربي أو ذاك، ويحتفلون ويتشاجرون في عصبية شديدة حول ما إذا كان وصف الحياة بنطبق على هذا أكثر من سيطر على ذلك، عندما رأيت ذلك لم أتردد في إعطاء أحدهم حطاً لتسليمه بعض المسئولين عن الحزب في العراق أو دمشق، ويتضمن استغاثتي من الحرب كان هذا بعد شهرين قليلة من وصولي إلى لندن في فبراير ١٩٥٨، وانعطفت بذلك كل علاقة لي بحزب البعث في الأردن، وإن كانت تلك الفترة القصيرة التي قصتها عصوا في الحزب (١٩٥٨-٥٤) قد سببت لي متاعب كبيرة لعدة سنوات كثيرة بعد ذلك، مع حكومة بعد أخرى من حكومات الثورة في مصر ولكن هذا يسمى في مرحلة مختلفة من حياتي

البعثة

-١-

بعد عرجي بعامين حصلت على بعثة حكومية لدراسة في إنجلترا بالحدود
على المذكوراه في الاقتصاد، وأسفر الأمر عن قصائي ست سنوات (١٩١٤ - ٥٨)
في إنجلترا كن لها، كما توقعت، دفع الأثر على من كن الواحي

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أشاهد بها بعثتي، بعد قصت في شهر أيلول
ذلك سبع سنوات (١٩٥١) في رواية لأخي عبد الحليم - الذي كان يحضر
للكور في جامعة لندن، ولا حتى في طمه. إذ كن روجه يعمل وقتئذ وكيل
لكتب العنات هاك كن الفصل في هذه الزيارة المفكرة وأنا لا أزال في السادسة
عشرة من عمري، يرجع إلى أني، بل بعلة كن هو صاحب مفكرة أصلاً كن
يسطر على أبي الاعتقاد بأهميه تعلم لغة أجنبية في سن مبكره، إذ لم يستطع أن
يسى معاناته في تعلم الإنجليزية عنى كسر، واضطاره إلى أن يعلم معه الإنجليزية
وهو يقترب من الثلاثين، فكان يكشف عن معنى أسطر الكلمات في القاموس،
وعنى دائماً لو كن قد سع مسوى أعلى مما بلغه في إحادته. كان يقول إنه قبل تعلم
الإنجليزية كن كمن له عين واحدة فأصبح له بعد تعلمها عيون. ثم يترك أبي إذن
فرصة تناح لأبي من أسانه أو سبه لإحادة لغة أجنبية. لا وانتهرها في سنة ١٩٥٠،
أرسل أبي أخى حسين لقضاء عطلة الصيف في لندن، ثم أرسلنى فى بعام الذى
فى رحلة مديلة، وكنت قد أتممت لتوى امتحانات ثانوية العامة، فوجت بالمفكرة
وركت الب حرة من يوم سعيد لمدة ثمانية أيام حتى وصلنا إلى ميناء ساوث هامتون
بإنجلترا

كسب في ذلك الوقت صيب مراهقاً يحاول إتي درجة المرض، مهموماً باستمرار بالأفكار التي تنمو حول قصوري في هذا الأمر أو ذلك، مع خوف مستظير من أن يكون الناس انطباعاً سيئاً عني. لم تكن مثل هذه الحالة مما يجعل رحلتى إلى إنجلترا رحلة متعة على أي وجه. وكنت أحجل من يمس حتى الآن عندما أذكر الجهد والمتعب الذين سببهم لأصدقاء أحيى عند الحمد الذين صعدوا وقهقروا في إحدى من مكان لأحاولكني أعرف على معالم لندن. هناك أصبح وقتهم في اصطحابي برؤية برح لندن حيث أعدم هذه الملكة أو ثلث، وكيسمة وستمستر حيث دهم عظماء الإنجليز، رمسى اسرمان والمسح الوطنى في ميدان الطرف الأغر، لدى يحتوى على أحمل رسوم الفنانين الأوروبيين عبر العصور، ومتحف نشع الشهير باسم مثنىته (مدام تومسو) إلح

لأنهم اعتروا هذا الوقت صائغاً، لأننى لم استعده كثيرًا، ولكن لأن استعدتى لما رأيت. ولما كانوا يقربونه عه كات صعبه جدًا ومجه للأمان. خفقت الرحلة بامتنع أهم ما كان يهدف إليه أبى. تمس لعتى الإنجليزية وتعرفنى على حور ما على العسم المتقدم. ولا شك أن بعض الأشياء المهمة قد دخلت عقلى لأول مرة واستقرت هناك إلى الأبد، ولكنى أيضاً سبيت، مع مرور السنين، أن هذه الرحلة كانت مجرد مش واحد من أمثلة كثيرة صادتها في حياتى لقيام لمرء بسب حديثه بإعداد فرصة هذه للبهجة والامتناع بلسانه، إذ شغل بأفكار ممتعة في السحابة تدور حول نفسه، وبه فقط.

لم يمتحنى أبى بعد عودتى فيما رأيت وما الذى استفدته منه. فهكذا كان أبى دائماً، تحظر به أفكار جديدة فيما يتعلق بتربيتنا ويصحى بالان للارم لتفديده دون تردد، ولكن وقته كان دائماً ثمن من أن ينفقه في بادل الحديث بعد أو في محاولة اكتشاف ما يدور برؤوسه من أفكار.

هأنذا أعود الآن إلى إنجلترا بعد سبع سنوات، لا يزال بي بعض الحجل القديم ولكنى كنت أشقى تمام منه. كنت مع هذا لأأزال فتى جهاً لا يكل شئ إلا بما قرأت عنه في بعض الكتب، التى لم تكن على أى حال أهم الكتب أو أفضلها،

قليل الخبرة بالسام وعديم الخبرة بالساء سم يكن لدى ميره ماقدارة بم في مش
مسي من المصريين إلا اني كنت متعوق في دراستي ، وأفهم الإنجليزية إذا قرأتها
لدرجة لا تأمن بها، وإن كنت لا أجد التعسر عي نفسي بها في الحديث ، فإني
الآن أسمع وحدي لأعطي عدة سنوات بعيداً عن العناية لتي كانت تُسرتني تفرعاً
في دائم، وكان احداً يدرسي بي في بحر متلاطم لأمواع على أن أصارعها بقوة
المجردة إذا أردت الفاء على يد الحياة

لم أكن الآن داهب في ساحة قصيره، بل طائر متصراً في مئة حكومية إلى كلية
بجليزية بها شهرة طفت لأفاق، وهي مدرسة لد للاقتصاد والعلوم السياسية،
قد لي أستاذي الدكتور سعيد الجار عندما علم بأن داهب للدراسة بها «إني
سائر معدي إلى عربي لأسد»، وحديثي الدكتور ركي شافعي من أن أعود منها
دكتوراً في الاقتصاد ولكن تأمب «في كل شيء» حر لا أطل أني حيث أمل هذا
الأستاذ من أساتذة لاقتصاد أو ذلك، ولكن لأشك أن حب أمس أن في علم
الاقتصاد برته

٢-٢

كان الأستاذ المشرف على دراستي مدجنت إلى إنجلترا وحتى انتهيت من
المحاضرة هو لوبيل روبنر (L onel Robbins)، وروبر أستاذ مشهور من
الاقتصاديين، وكان من أهم أساتذة كسة لد للاقتصاد ومن أكثرهم نفوذاً كان
موضوع تخصصه الأساسي هو تاريخ الفكر الاقتصادي، وإن كان سبب الأساسي
شهرته كتاباً نشره في أوائل الثلاثين عن تعريف عدم لاقتصاد، ظل، ولا يزال،
من المراجع الأساسية في تعريف هذا العلم وتحديد طبيعته ورسم الحدود بماحالة
بينه وبين غيره من العلوم وكان الرجل شيطاً له دور مرموق في الهيئة الثقافية
والسامية في بريطانيا، فهو عضو في مجالس إدارة بعض المؤسسات والتحف
القيمة الكبيرة، وعُيِّن عضو في مجلس اللوردات من بين من يعملون معه
إعباراتهم التحصية وليس عن طريق بورصة، كما عهدهت إليه رسة حة بطور

نظام الجامعة أصدرت تقريراً مشهوراً عن حالة التعليم في بريطانيا واستعمله،
عُرف باسمه (The Robbins Report)

كنت أعتبر إذن محطوطاً إذ يكون روبر هو المشرف على دراستي، وقد كنت
بالفعل محطوط، إذ أحسن الرجل معاملتي، وأظهر بي عطف، وأعطاني من وقته
أكثر مما كان يعطيه لتلاميذهم أساتذة آخرون أقل إشغالا به. وكان دائم التشجيع
بي، فكثيراً ما يودعي، وأنا خارج من عرفت، عبارة رقيقة كنت أثير بها فرحاً
عده أيام، ليس فقط لما تطوى عليه من رصاص عملي ولكن بصورها من
شخص له أهمية روبر كان مشهوراً بأدبه وعدوه وحسن معاملته بطلية، وقد
وجدته كذلك بالعص، فكان أقصى ما صدر منه مثلاً، في توبيخه بعض قمت به، إذ
لم يعصه كثير ورقة كنته عن لاقصادي لريطاني «مالش»، قوله «بي لم
أحول الطين إلى كرمثال» (you have not turned the mud into crystal) يهصد
نبي فشت في «فك طلاسم مالش التي هي مفعلة على أي حال»، عندما انتهت
من الماجستير، واحتجت أن أحصل منه على تقرير يكتبه لإدارة العنات المصرية
يميم فيه عملي، كتب تقريراً فيه الكثير من الإطراء طست أن إدارة البعث أو كليه
البحرق سوف تستقبلني بسمة استقبلاً رائعا عندما عدت في إجرة إلى مصر،
فقرش لي اسجاحيد اخمراء ويعرف من أحلى الموسقى ولكني لم أجد شخصاً
احداً في مصر، لا في إدارة العنات ولا في غيرها، قد فر هذا الخطاب، وبما
وُصع في ملف دور أب يطبع عليه أحد

كنت جامعة لرب التي التحقت بها قد قررت، فيما يتعلق بالطلبة المصريين
لنيس لم يشكل علم الاقتصاد موضوع دراستهم لأساسيه في مصر (كم هي الحال
معي حيث كانت درستي الأساسية في القبول) أب تعقد لنا امتحان تأهيل أو معادلة
(Qualifying Examination) بعد عشرة أشهر من التحق بالجامعة، للتحقق من أب
بلعاً مستوي في دراسته الاقتصادية يقارب مستوى حريجي الاقتصاد من طسهم، أو
على الأقل يسمح سائده الدراسة لشهاده عليه، كالمجستير ثم لدكتوراه كنت
عشرة أشهر مهمة لعانة، إذ كما هي القيمة ندأ مما نعرف من الصغر، وكان مستوي

معرفنا بعلم لاقتصاد أكثر ندنياً بكثير مما كان يدور بحذو المستويين بجامعة لندن كان كل ما دوسته في علم الاقتصاد في مصر لا يريد على حصة أو ستة كتب مسطرة لعامة، مكتوبة باللغة العربية في مبادئ النظرية الاقتصادية، وهي النعرد واسوكة، وفي التجارة الخارجية، وفي المالية العامة والضرائب، فصلا عن مقرر مصير بالمعربيه في تاريخ الفكر الاقتصادي درساه في رسوم الاقتصاد، وكان العرض منه التقوية في اللغة امرسية أكثر مه فهم ما حدث بعلم الاقتصاد، وراح أكثر جهدا فيه في البحث عن معاني الكلمات

يكني لثقل على صعب مشران في الاقتصاد عدما وصلنا إلى لندن أن نظرية رحل شهير ومهم مثل جون مينارد كير، لم يكن عموديا أن يكتب عنها أكثر من فقرة قصيرة، إذ إنا، وإن كنا سمعنا اسمه أكثر من مرة أثناء هذا المقرر أو ذلك، لم يطلب منا درسته نأى عمق في إخراء الخاص بنظرته الذي ورد في كتاب القود والسوك، والذي جاء في آخر عشرين صفحة من الكتاب، واضطر الأستاذ بحث إحداح الطلبة إلى حذفها من المقرر لتخفيف عبء الامتحان عليهم

هكذا كان حاسي عدما فالت الأستاذ روبرت دي عتة كله ليد للاقتصاد مشرف على، لأول مرة بعد وصولي من القاهرة كان جهلي حينئذ بمقدار جهلي، أمرا مهيدا لمعاية، إذ لو كتب أعرف قدر هذا الخجل وأعرف في نفس الوقت أهمية هذه الرجل الذي عين مشرف على، لو عرفت ذلك، استطعت أن أفتح فمي بكنمة واحدة في ذلك القليلة

مأني عفا أمراً الآن فلت قلت له اسم الكتاب، ارتسم على وجهه مريح من الدهشة وحيه الأمل كان الكتاب ك بوليدج التحليل الاقتصادي (K Boulding Economic Analysis) وهو كتاب جند فعلا، ويكنى لأن أن أصبح بقدرته أي طالت في مقبل دراسه للاقتصاد، ولكنه كان كدنا مدرسيه يدرس طلبة جامعة لندن أمثاله في سنة الأولى أو الثانية من در سنتهم ولاند أن الأستاذ دروز كان يتوقع من قد تجاوزت هذه المرحلة مد مد طوملة أصف إني ذلك أنه كتب أمريكن لا أطي أن الأستاذة الإنجليز كانوا يرشحون مثله لطلعتهم لم ييأس الأستاذ

روبر لحسن لخط وقال لي إن هناك حزمة كتب على أن أبدأ بقراءتها وبدو أن حبه اقتلعه من ما كان يصيح بمرأته "ي طالب يند" في دراسته الاقتصاد، لا اعتقاده أنها تساعد على تكوين قاعدة سليمة وصلية لفهم طريقة التفكير الاقتصادي كتب هذه الكتب هو ألفرد مارشال «مبادئ الاقتصاد»، وفيكيل «محصرات في النظرية للاقتصاد»، وهنريك سانت «المخاطرة وعدم اليقين والرجح» وبتكنين «النظرية النقدية»، بالإضافة إلى محله بشرته الجمعية الاقتصادية الأمريكية يصم أهم لمقالات المتبعة بنظرية الثمن وبتى قدمت مساهمات مستمرة في هذه النظرية خلال العشرين أو الثلاثين عاماً الأخيرة أعطاني روبر أيضاً نسخاً من بعض الاجتماعات بدمعة، وطلب مني أن أحبب عبي وأعرض عليه الإحادة. وكانت الإحاة عن هذه لأسئلة تطلب قراءات أخرى غير تلك الكتب الخمسة

كانت هذه بفترة على قصرها. من أحصت وشرأت بكوني العقلى لقد أدخلني في عالم جديد تمام على، وهو عالم ساحر وحذاب ترمص فيه على عذاب جديدة في التفكير والكتابة، اقتبعت به. ثم اعذب على بمارسها مد ذلك الحين أقصد ببيت عدت التفكير علمي، ولتعبير عن الأفكار ناقصر وأوصح طريق، دون الاعتماد على المبالغة، أو اللعب باللفاظ، أو إثارة العواطف من أجل الإقناع، ومحدوده منع التحيز المبني من التأثير في سر الحدول وتهديم الحجاج، وإذا بالثأثير البهني بلكتاب أو المقاد العلمى لا يقن عن تأثير العمل ببنى، وإذا بالموطف بآثار سلامة لمطلى ودفقه وكأ. المرء قد قرأ قصة متممة، أو استمع من قطعة من لموسمى الجملة. لم يكن كل ما قرأه في تلك الفترة، بالطبع، من هذا النوع الزاوى ولكنى مرأب جلالة ما يكمنى لأن يجعلنى ودرا على التمييز بين النوع الراقى وغيره برقي من الكثرة في علم جنماع كعبد الاقتصاد

يجب أن اعترف مع ذلك بأن ما يكاد يبدل عما كاملا من الأعوام الستة التى قصصها في إعلايه في فترة البعثة ذهب في القراءة عن ادركسة ذلك أنى بعد محاذي في امتحان المعدله. عهدت الكثرة للاستعداد ووبر بأن يكون لمشرف على في فترة دراسي للماحشير أيضاً فلما قابلته للمرة الأولى بعد انتهائي من امتحان

المعادلة حاول أن يتسبوع تفكيرى والحماهه، هوجدى أفتح معه على الفور موضوع لاستعمار البريطانى مصر ودوره فى تعطيل قيام نهضة صاعية فى مصر، كما اكتشف فى ميولا اشتراكية وماركسية، وكنت قد حلت هذه المرحلة من التفكير فى لسة السانفة على سمرى من مصر - قرّر الرجل بيه وبين نفسه، فيما يظهر - أن أفضل سياسة تتبعها هي أن تتركى عدة مشهور أقرأ فى أى اتجاه أحب، على أن بقرح على من حين لآخر قراءة كتاب يعتقد أنه قد يصبح من مسار تفكيرى

وهذا هو الذى حدث بالفعل أحدث أقرأ كما يحلو لى وكأنى لست مطالباً بعمل أى شىء معين أو الحصول على أى شهادة، وإذا بكتاب عن لماركسة يعودى إلى كتاب آخر عنها أيضاً، ويد نقد مشهور لماركسية يقودنى إلى رد أحد الماركسيين مدافعاً عنها أثناء ذلك كان روسر يوصى بقراءة كتاب بعد آخر، بكتاب «المجتمع المفتوح وأعداءه» لكارل بوبر، أو كتاب شوومر عن «الرممالة والاشتراكية والديمقراطية»، رأتينهما وكنت عندما ألقته فى إحدى الصحح التى قرأتها ضد الماركسية وأحاول ارد عليها، يرد على بلطف قائلاً «لا تظن أن باستطاعتك إنسانى عر رأى، فقد استثمرت الكثير من وقتى وجهدى خلال حياتى الصويلة لصالح الرأى المعارض لرأيت»، ولم يدعه قط أى صق أو عصب من حرأتى الرائدة أحباب، وظهرى مظهر من بطن أنه يعرف تحقيقه كمند وبكن رأى كتاب بعبير متدرج ودون شعور واع مى ليس بالصبط بسبب قراءتى لكتاب يعادون الماركسة، بل لتعودى خلال هذه الفترة على قراءه الرأى ومقصفه، ومن ثم اكتشفتى أن المسألة لا يمكن أن تكون بالسلطة التى كنت أظنها فى ببدانة، وأن الأمر يحتاج لى تأمل وروية أكبر على أننى، رغم همر حمسى للماركسية شيئاً فشيئاً سبب هذه القراءات، لم أعتر قط أن الوقت لى أنقته فى إعتره على القراءه فى الماركسة كان وقتاً صائفاً لقد كانت فترة نشاط ذهنى وحماسة فى القراءه، ولم يكن وراء مرأتى خلال هذه بفترة أى هدف غير بوصول إلى الرأى الصحيح فى هذه القضية أو تلك



ثم جاءت أربع سنوات أخرى من القراءة هي الاقتصاد بهدف الحصول على شهادة الماجستير ثم الدكتوراه. وعدم استعبد في ذهني ما قرأته في هذه السنوات الخمس لا يدهشي كثرة ما قرأته من كتب ومقالات في الاقتصاد، فمحس سنوات من الانقطاع للدراسة، وفي مكان مثل جامعة لندن، ليست بالفترة القصيرة وإنما الذي يدهشي فيه ما أحرزته فيها من تقدم «عقلي» حقيقى نتيجته هذه القراءات في الاقتصاد. نعم لابد أن نضع الذى حققته في السنة الأولى قد تم تدعيمه وترسيخه في سنوات الخمس التالية، ولكن «الاكتشاف» الحقيقى كان قد تم بالفعل في تلك السنة الأولى. لاشك أيضاً أنى قد أحررت بعض سبقات بعضى في سنوات ماجستير والدكتوراه، ولكنه لم يكن نسب قراءتى في الاقتصاد بل نسب قراءات ومشاهدات أخرى. بل لى لا أعتقد أنى أتعد كثيراً عن احققه ذلك إذ أعجب قراءتى في تلك السنوات الخمس كانت قراءات «عقيمة»، انهم إلا من حيث بها أدت إلى الحصول على هاتين الشهادتين.

نعم قرأت بعض الكتب والمبالات البدعة في الاقتصاد، خلال هذه الفترة، ولكن أكثر من قرأته كان قليل الفائدة إلا من حيث عكس من الحصول على الشهادة المطلوبة. وبو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت، وكانت لى الحرية المطلقة فى تحديد ما أقرأ وما لا أقرأ، دون دافع الحصول على شهادة فى هذا العلم أو ذلك، بوصفت لى برنامجاً مختلف تماماً، ربما تتضمن بعض الكتب المفيدة فى الاقتصاد، ولكن الأوضح أنه كان سيكون أساماً من قراءة بعض الكتب الكلامية الأساسية فى الأدب والصنعة والتاريخ، مما لم يتح لى قراءة أكثره حتى الآن. كانت الفائدة لى يمكن أن أحصل عليها أكبر بكثير لو كنت قد مرت من ذلك الوقت كتاب الأمير «ماكيا فيلى» مثلاً، أو كتاب جون ستيوارت ميل عن الحرية، وهما من قرأته بعد ذلك، ولكن من المؤكد أيضاً، فيما يبدو لى الآن، أن كان من المفيد لى أن أقرأ حيد كتاب جيون عن سقوط الإمبراطورية الرومانية مثلاً، أو بعض كتب دافيد هيوم فى الفلسفة مما لم أقرأ حتى الآن، ولا أظن أنه قد نسى من الوقت ما سمح لى بذلك، بالمرة عشرات الكتب والمبالات السجبة

فى علم الاقتصاد، مما قرأه بالفعل فى ملك ممتوه، ولم تترك فى نفسى أو عقلى
أثرا يذكر



أعست كلية لندن للاقتصاد أنها نظمت سلسلة من عشر محاضرات، يمكن لأى
طالب بالكلفة حضورها، ويلقبها أستاذ متحضر، لتدريب الطلبة على زيادة
سرعتهم فى القراءة الهاممب بالأمر إذ كان يصايقنى ما لاحظت من بطئ فى
القراءة بالمقارنة بكتيرين غيرى، ولم يقمى قط الرأى انقائل بأن سرعة القراءة
تتعارض مع عمق التعمق، إذ لاحظت أن بطئ فى القراءة كثيرا ما يعود إلى قلة
التركيز مع شروء الذهن إلى أشياء قد لا تكون لها أى صلة بالموضوع الذى أقرأه
وهو ما أكدته فى ما قرأته فى سيرة برتراند رسل الدنية وهو يتكلم عن الاقتصادى
الشهير كبير، إذ قال إنه كان يظن فى البداية أن كبير، وإن كان أسرع بديهية منه فإنه
أقل منه عمقا، ثم سبب له أنه كان محطنا، وأن كبير ليس فقط أسرع بهما بل وكذلك
أعمق فكرا، ذهبت لحضور الدروس فأكده الأستاذ لمحاضراته نفس المعنى، أى أننا
يحب ألا نطغى أنه مسح شيئا بزيادة سرعتنا فى القراءة، وأن البطء كثيرا ما لا
يكون له أى مبرر أو مفع عن الإحلاق ثم بدأ يعرض لتجربيات، منها أن يعرض
على المناقشة أماما باستخدام المايوس السحرى، صفحة بعد أخرى من كتاب ما،
وهى كل صفحة يقع الضوء على السطر لأول سمع سقى بقية الصفحة مظلمة، ثم
يسحرك الضوء فيتبع على السطر ثامى وحده ويصبح من المستحيل أن نقرأ غير
وهكذا يحرك الضوء إلى أسفل، من سطر إلى سطر ويطلب منا الرجل أن نحاول
أن نستوعب من الصفحة التى نضاء سطورها ساعا على هذا النحو، أكرم فمر من
المعلومات يمكنها استيعابه وبعد هذا بريد سرعة تحرك الضوء، فلا يقى مسلطا على
سطور معين إلا مدة قصيرة ثم تزد دهورا، ثم يوزع علينا بعض الأسئلة ليحتر كمية
المعلومات التى حصلناهم من التمرينات الأخرى أن يعرض علينا على الشاشه
أيضا صفحة تحتوي على نقد لكتاب أو فيلم، ولا تقى الصفحة على الشاشة إلا مدة
قصيرة للعدة، ثم يطلب منا أن نقول ما إذا كان هذا النقد فى صالح لكتاب أو

المعلم أو في غير صالحه كانت انقاذة بوجيلة التي حصلت من هذه البروس
قتاعى برأى المحاصر وريادة اقتاعى بعائلة الإصراع في انقاعة، ولكنى لم أستعد
مها كثيراً في زيادة سرعتى في القراءة بالإنجليزية، الأمر الذى أحررت تقدمه فيه،
بمسب هذه السلسلة من المحاصر ب بيل بسبب شدة حاجتى، أثناء دراسى
ببمبتر، لتحقيق هذا التقدم، هو القدرة على تكوين رأى بسرعة فيما إذا كان
كتاب ما، أو فصل منه، أو مقال، يستحق أن أستمر في قراءته أم لا وهو أمر قد لا
يقبل أهمية عن سرعة القراءة نفسها. أذكر أنى في إحدى مقالاتى مع أساى
دوسر ذكرى أن على قراءة كتاب شوميسير في تاريخ المحلل لاقصاى وهو
كتاب مشهور، ويتمتع بتقدير الجميع، ولكنه يحتوى على نحو ١٢٠٠ صفحة من
الحجم الكبير وأسطر الصغير. فلما سألت بدهشة «كل الكتاب؟» أجابى بحدنة
طلت غائلة في دهى رهى: «يجب أن تتعلم كيف تقرأ»! «You have to learn how to skip» وأظن أنه كان على صواب تماماً، فقد اكتشفت، بعد أن
علمت هذا القصر، حجم الفائدة التى يحيتها القارئ من ورائه، وكيف أبى أصعب
وقت كثير في كتب سبعة كان من الواجب على تركها في وقت مبكر

يذهنى الآن أيضاً حول الوقت الذى أحيى إليه نكنى أنعم كيف أبى على أن
أصعب نقتى لا فى الكتاب، مهما بدا جديداً سمه أو موضوعه، بل في مؤلفه. وأن
أدرك أن هناك بعض الكتب الذين يمكن أن يشعر معهم القارئ بالأمان، يستطيع
أن يطمئن إلى أن أى شىء يصدر عنهم سوف يكون على الأرجح حذيراً بالقراءة،
وأن عدد هذا النوع من الكتب فى أى فرع من فروع المعرفة، أقل بكثير مما يظن،
وأن يستهم إلى مجموع قبل إلى التصاؤل مع اردباد عدد من يكتبون الكتب دون
أن يكون لديهم فى الحفصة المؤهولة اللازمة، بل ولا حتى الأفكار التى تسرد قديمهم
تألف الكتب أصلاً، ومع اردباد عدد الحاصلين على الشهادات أو من يقومون
بالتدريس، وكذلك مع اردباد قوة دافع الربح فى نشر الكتب وتقديم أساليب الدعاية
والترويج لها



عندما شرعت في حتمار موضوع رسالة المحسنين، كنت قد بدأت أهدم جدران الاقتصاد الماركسي، وللمحاركة نوجه عدم، الذي كان قد استمر معي منذ بدأت أقرأ عن المادية الجدلية و التاريخية قبل شعري من مصر. أصبحت الآن أرى الماركسية كحلقة في سلسلة طويلة من تطور الفكر الاقتصادي، قد تكون أفضل من الخلفيات الأخرى في أشياء ولكنها أسوأ من أشياء أخرى. ورائ لي أن يكون موضوع الرسالة المقارنة بين نظريات المختلفة في موضوع الربح. وذكر هذا الموضوع بلاستاد روسر على أنه الموضوع الذي أريد كتابة الرسالة فيه، فإذا به ينظر إليّ من فوق مظانه وقد روع حاجيه عالياً. كان يريد أن يتحقق من إسي بالفعل لا أفصل أن يكون الرسالة كلها عن حساب من جوانب الماركسية، إذ كان يبلى لسماركة قد انصح له في جلسات كثيرة صانقه. قال لي ما معناه إسي يجب ألا استعد موضوع من الكتابة فيه مجرد أنه لا يشاركني رأيي فيه، وإسي إذا أحست أن اكتب في الماركسية فيه لن يرفض. وبكى أكدت له أن هذا الموضوع هو ما أفصل بالفعل لكتبه فيه، فقبل وتم الأمر على هذا النحو.

عند بدأت أهدم أسسها لا منحلقات المحسنين في توزيع الدخل ولكن به الرسالة عن نظرية الربح، أصبحت شئ من حيله الأصل. كتب أطل أي سراسة نظريات توزيع الدخل سوف أفهم العوامل التي تفسر انقسام المجتمع إلى طبقات، ونجعل توزيع الدخل أقرب إلى المساواة في بعض الظروف منه في غيرها. ولكن وجد الحقيقة تكاد أن تكون عكس هذا المفسر. فبدأ الاقتصاديون مناقشة موضوع توزيع الدخل بشكل عملي لأول مرة، وكان هذا على يد الاقتصاديين التقنيين في بريطانيا، طرحو الموضوع على أنه في الأساس سؤال عن العوامل التي تحدد أجر العمل في الساعة أو اليوم، ودخل مالك الأرض من المعدل الواحد، ودخل رب العمل كنسبة من رأس المال. ولم يهتموا كثيراً بشرح العوامل التي تحدد توزيع الدخل بين طغيات المجتمع ككل، ومن ثم لم ينظروا إلى مناقشة عوامل التي تحدد توزيع الملكية اثناء، سواء ملكية الأرض أو رأس المال، دنا على اعتبار أن مناقشة مثل هذا هي مناقشة ل«أسس» اجتماعية أو «الطعام المؤسسي» وهو ما اعتبره خارج نطاق تخصصهم. وعندما جاءت نظرية التعليل الحديثة اثناء

من ١٨٧٠. استقر هذا الاتجاه ولم يعد توزيع الدخل يعنى إلا هذه القضايا الخيرية
لأقرب إلى نظرية الشغل منها إلى قضايا الاقتصاد السياسى

هكذا وجدت نفسى مرة أخرى، من أجل صواب اختيار الامتحان، أمراً إيجابياً
عن أسئلة لم تكن تهمنى أصلاً، ولا كاتب قط الدافع لى لدراسة علم الاقتصاد
وقد بدأت أسس منذ ذلك الحين أن علم الاقتصاد وحده، بحدته التى وصل إليها،
بل وربما منذ تشبهه كعلم مستقل، لم يعد يكفى لتقديم «خبر» الصحيحه لمشاكل
مهمة، ولا حتى مهم القضايا المهمة التى يشوقنا فهمها. ولكن ضرورات الامتحان
والسنة والوظيفة. إلخ، لا تسمح «تنصيع الوقت» فى فهم لمشاكل الحقيقية،
والذى يسمح الوقت متاح فقط للإجابة بحالات صحيحة عن أسئلة تافهة

بدأت أنبين بالتدريج أن هذا مدى ادراسه فى لندن ليس هو فى الواقع ما كنت
أزود دراسته، ولكنى، لحسن الحظ، لم أكن حينئذ قد بلغت السن أو حققت من
المصحح ما يجعلنى أنتس كثير لهذا الاكتشاف. كان المهم فى نظرى حينئذ هو
«إنجاح» طفا للمدير الحارية، وقد «بحثت» بالفعل طفا لهذه المعايير

- ٣ -

عندما حصلت على الماجستير كان المطلوب منى، طفا لنظم العثات «نصرى أن
أنتقل مباشرة إلى التحضير لندكتوراه، إذا كان لعرص من العثة أن يسم إعدادى
للتدريس فى الجامعة، ولا يتصور مدرس من الجامعة إلا إذا كان حاصل على
الدكتوراه. لم يكن لأستاذ زور يعرف ذلك، ومن ثم قال لى بعد حصولى على
الماجستير «إنهم فى إنجلترا يوصلون ألا ينقل الطفا من الماجستير إلى الدكتوراه
مباشرة بل أن تقضى فترة بعد الماجستير يقوم فيها بعمل ما غير الدراسة، ولو كان
هذا العمل هو التدريس، إذ إن هذا يتيح له فرصة أن يكتشف ما الذى يريد أن
يعرفه بالضبط، فلا يختار أى موضوع للدكتوراه لمجرد «التحصيل على الشهادة» بل
يختار موضوعاً يشوقه للعمل ويهمه أن يدرسه» عندما قلت لى إن نظم

لغات المصري لا سمح بذلك لم سمعه إلا أن يقول لي أسعد ، لكن إد ها تريد ،
وم عليك الآن إلا اختيار الموضوع»

عندما عدت إلى روبر بعد بضعة يوم بعدة موضوعات كلها تتعلق بالمسبة
الاقتصادية في مصر ، قال إن عليّ أن يحمل تحت إشراف أستاذ حر إد إد هذه
لموضوعات لا تدخل في اختصاصه ، ثم أجد تمتد أستاذة أمريكية اسمها «إديث
سرور» (Edith Penrose) ، انضمت حديثاً لهيئة التدريس بالكلية ، وأحد يعدد
مراجعاتها فهي فصلا عن معرفتها الو سعة باقتصاديات الشرق الأوسط وكتاباتها
الحيدة عن اقتصادات الشرق ، تحذ اللغة العربية لم أكن قد سمعت شيئاً بعد عن
هذه الأسادة الأمريكية ، ومن ثم لم يكن لدى سبب للاعترص ، وهكذا بدأت
العمل معها

حدثت سرور (Penrose) أن يكون موضوع رسالتي حساباً من جوانب الضرائب
الزراعية في مصر على أساس أهميتها في نظري في عويل اسمها الاقتصادية ،
وبدأت بالعمل أكثر في الموضوع وكتبت فصلاً أو فصلين عنه فيما بين سائر ديولوجيو
١٩٦١ ثم صدرت في مصر فوابين أساميات الشهيرة مخرج لدى ان الضرائب
نصفه عامة سوف تفقد أهميتها في مصر كمصدر من مصادر تعته رأس المال ، وأن
الملكية العامة سوف تمل محلها ، فصلا عن أنني لم أجد في موضوع الضرائب
الزراعية ما يثير اهتمامي ، ومن ثم أحيوت سرور أنني سأغير الموضوع وأبحث عن
موضوع آخر وطلبت أبحث وأفكر حتى هتذت إلى موضوع مشكلة العداء في
مصر وعلاقته بالبنية ، فوافقت هي عليه دون حساب

والحقيقة أنني أن بدوري لم أكن محمب لهذا الموضوع الحديذ . و سى أرححه
الآن هو أنى سم أكن لأتمس لأى موضوع على الإطلاق يصلح كموضوع رسالة
دكتوراء في الاقتصاد فالنروط نى كان يجب توافرها نل هذه الرسالة كانت
كافية نوأ أى حماس لدى أول هذه الشروط بالطبع أن تكون في الاقتصاد ،
وكانت قد ذات تصح لى حالة هذ لعلم رى كان على أن أقرأ أتعلم أكثر ما حته
الاقتصاديون لتقليديون عن أهمية توافر العداء ترخيص لاستمرر النمو ؛ لإصفاء

مطامير النظرى على حدة على الأقل من الرسالة، حتى ولو كان قليل المساعدة من ناحية عملية. وربما كان على أنصت شرح المعادلة الرياضية التى تشتمل على عوامل المؤثرة فى الطلب على البضائع، (وهى السكان والدخل ومرونة الطلب الدخلى على البضائع) ، بدعم أن دور هذه العوامل فى تحديد الطلب على البضائع بدو مدبها ولا يكاد يحتاج إلى ذكر، فإن رسالة للدكتوراه بدون بعض المعادلات الرياضية قد لا تكتب أى خيرا. ربما كان على أنصت أيضا أن أقارن بين رزاعة القطر ورزاعة بعض المحاصيل الغذائية كالقمح، وأحدد أيهما أجدى لمصر من الناحية الاقتصادية، وأن أستخدم فى ذلك الأسلوب الحديث نسب والمعرف باسم تحليل «المفاد والمفاد» (cost/benefit analysis). إذن هذا سوف يصمى أيضا بعض الهمة على رسالة، وإن كنت جهلا جهلا تماما بما هو سبب الهمة فى الرزاعة المصرو، ولا أكاد أستطيع أن أميز بين حقل مزرع والمقطر وآخر مزرع القمح، ولا أعرف شيئا عن المبرمى المتعلقة بالنسبة والمزى التى يعرفها أى مهندس زراعى، وقد تكون أهم بكثير من أى عامل اقتصادى، فى تحديد قرار المزرع فيما إذا كان سيرزع هذا المحصول أو ذلك. ولكن كل هذه المسائل المهمة من الناحية العملية لا تهم إذا كان المبرمى الحصول على الدكتوراه. ومن المؤكد أن الأسادة الأمريكية المشرفة لا تعرف بدورها الكثير عن هذه الأمور. سوف يكون بإمكانها اكتشاف خطأ منطقي هب أو هالك، أو خطأ فى صياغة المعادلة المتعلقة بالطلب على البضائع (وإن كانت، حتى فى هذه المسألة الأخيرة بصحتى، بدولوجى إلى أحد الأسادة المحترفين بالاقتصاد لقماسى للتحقق من أى لم أكتب خطأ فى شرح أو تطبيق هذه المعادلة) أن يثب لمعلمه للبرهنة، وبإدراكها أى قيمة حقيقيه فى رسم السياسة الاقتصادية فى مصر، ررية أو غير ررية، فلم نحدد من ولا من لأسادة المشرفة بدقة واحدة من التفكير.

خطر لى أيضا أن أكتب فصلا فى رسالة عن أثر تكوين السوق الأوروبية المشتركة على صادرات مصر من البضائع. كانت هذه السوق قد تكونت منذ سنوات قليلة (١٩٥٨) والكلام عنها لا يتوقف، والكتب الجديدة تصدر عنها فى كل يوم.

ومن ثم كنت كتابة فصل عن هذا الموضوع دليلاً على متعة آخر موجبات الكتابة الاقتصادية، شأنها في ذلك شأن كتابة فصل عن محسّنات «لحقات و لماع» ولكن كانت العمة العملية لهذا الفصل، بدوره، قليلة للغاية، فصادرت مصر من المحاصيل المعدية في ذلك الوقت كانت تامة جداً، بالمقارنة بصادراتها من القطن ولكن الموضوع كان «موضة شائعة»، كما كانت هناك بعض الحادية من الحجة التحليلية لبيان أثر اتساع السوق الأوروبي على بعض صادرات دولة من دول العالم الثالث، بالإضافة إلى أن مجرد إيراد أرقام حديثة عن اسواق الأوروبية كن من شأنه أن يصحح جدلية إضافية على الرسالة لم أحد كل الأرقام التي أحتجها في مكتبة الكلية فذهبت إلى مكتبة حديثة أشابه السوق الأوروبية في لندن، وجلست فيها بضعة أيام عمل معها بعض الأرقام فلما رأت أحد موظفيها مألوفاً عما إذا كنت أحب أن أورد مضمّن السوق في بروكسل وأقابل بعض المسئولين هناك، فترجّعت بذلك رغم أنني كنت قد حصلت على كل ما أحتاج إليه من أرقام من مكتبة لسوق في لندن، إذ بدت لي راحة إلى بروكسل، نصف إليها بضعة أيام في مارس، مع خطيبي الإنجليزية، على عقبه اسواق الأوروبية المشتركة، شيئ لا يمكن رفضه، فضلاً عن أن الأمر يبدو محمّ في عين كن من لا يعرف حقيقة «الدهاب إلى بروكسل في عهدة علمة على بضعة لسوق الأوروبية المشتركة»

ذهب إذن إلى بروكسل ودرس في رحلة مبهجة، وجمعت بعض الأرقام الحديثة، وسألت بعض المسئولين هناك بعض الأسئلة التي لم يكن لها أي ضرورة وكنت لفصل الخاص بصادرات مصر إلى السوق الأوروبية، وكان هذا الفصل رغم انعدام قيمته العملية ومخالفة قيمته الفكرية، يحوى بالطبع على شيء «متكرر»، مما يتطلّبه رسالة لدكتوراه. وهذا هو المهم أن يكون صاك شيء متكرر، أي شيء لم يفعله أحد من قس، مهم كان هذا شيء لمتكر ناه القصة قرأت بعد ذلك بضع سنوات مقالاً لحرهام والاس، أساد العلوم السياسية الشهير في بريطانيا، كتبه في العقد الثاني أو الثالث من انقرد العشرين عن حالة التعميم في الجامعات البريطانية، شكاه من تعهدة الموضوعات التي تكتب فيها الطلبة

رسائلهم الجامعة، وكان مما قبله إن أرسطو، بكل عظيمته، لو نعلم الآن نكتبه في عزم السياسة إلى جامعة بريطانية عبري اعتبروها أقل ابتكاراً مما يشترطونه الآن في رسائل الدكتوراه، ومن ثم عبري رخصاً منه هذه الدرجة، ومع هذا فإن نفس الجامعة ربما منحت الدكتوراه لشخص ما صوغ بحثه هو ما إذا كان أرسطو يقطن في المنزل رقم ٨، مثلاً، م رقم ٩١٠ إذ ربما كان هذا لم يحظر لأحد من قبل أن يبحث عن إحاطة!



لم يكن تمام رسالة الدكتوراه أمر صعباً إذن، ما دام مثل هذا هو المطلوب، وأما على أي حال لا أحد لتعبير نكتته عما يحظر بدعي، منه صيغة مثلما كان يحده بعض رملائي في البعثة. ولكن لأشك عدي في أن هذه الدكتوراه قد استعرت ربما أطول مما تستحق نعم، كان لهذه السنوات الثلاث التي قضيتها للحصول على هذه الدرجة بعض العائدة في العيام بلريد من التمارين العملية، وإن كانت فترة الاحتشور أكثر فائدة من هذه الدرجة كما كان لمجرد الوجود في لندن هذه المدة الطويلة فائدة أكثر لما أتجه إلى من قراءات في عبر لأقتصاد، ومن مشاهدة مجموعة من المسرحيات والأفلام وحضر بعض المحاضرات العامة وقراءة صحف ومجلات جيدة إلخ، مما ساهم بلا شك في تقدمي البعثة ولكن كل هذا شيء وكتابه كتاب عمل عن «مشاكل الغذاء وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية في مصر» شيء آخر تمام

ومع هذا فقد أعجبت الأستاذة سرور بالرسالة، وكذلك الممتحنة الخارجية شى أتت من أكسفورد بسى هذا محسب بل لقد طلبت مني سرور أن أعود بعد انتهاء الامتحان الشفوي، إندي هاؤني في نهايته دكتوراه، ساعة أو ساعتين، لأقابل أحد الباحثين الإنجليز (فرانك كاس Frank Cass) لكي أتمم معه على المطلوب لنشر الرسالة في كتاب كان هذا في حد ذاته يعشر مائة لثبات مثلي، عجا كسراً، دكن من التدو قبل ذلك أن لنشر رسالة دكتوراه لعالق مصري في صورة كتاب، في بريطانيا أو غيرها من الدول الأوروبية وسررت سروراً عظيماً بالصبح،

وقابلت الرجل واتفقت معه على إنهاء إعداد الرسالة للبشر خلال بضعة أسابيع ،
 وكان من طلباته القليلة تقليل عدد الجداول لارتفاع تكيف طبعها . وقد أتممت
 هذا بسرعة ، ربما في أقل من أسبوعين . واستغرت الأستاذة سرور بضعة عديم
 أخطائها انتهائي من إعداد الرسالة للبشر في هذه المدة القصيرة ، وأذكر أنها قالت
 لي « ماذا هذا الاستحجال في إعداد أول كتاب يصدر لك عن الإطلاق ؟ » ولكن
 الحقيقة أنني كنت قد سئمت النظر في هذه الرسالة التي شغلتني كل هذا الوقت ،
 كما أنها لم تكن تمر عما هي نفسي ، بأي شكل من الأشكال . لأن أفكار أعترها
 أفكارى ، ولا عن مشاعر تلك على نفسي فحسب أعتر عنها . نعم ، لقد ظهر
 الكتاب ، وعليه معنى محظ واضح ، ومجلداً تجليداً جيداً ، وفيه كل المطلوب من
 كتاب كهذا ، من الجداول ، الرسوم البيانية ، إلى الإهداء ، أسماء الأشخاص الذين
 لولاهم صاغت كتابه هذا الكتاب ، بما فيها اسم خطيبى من باب المودة إليها . وقد
 أرسلت نسخة من الكتاب كهدية إلى كل من كان يهمنى أن يعرف أد رسالتى
 لندكتوراه قد نشرت في كتاب في لندن . ولكنى لا أذكر أنني شعرت قط في أى
 وقت خلال السواب الكثيرة التي مضت مد صدره ، بأى رغبة في العبر إليه أو
 إعادة قراءه أى جزء من أجزائه . وسيظل هذا بكتاب في عبرى رمز دقيقاً لثلاث
 سوابت من عمرى كد من الأجلدى بلا شك أن يعنى على شيء آخر

كان فترة الاستعداد لاصحاب المعادله وللمحاسب أكثر فائدة بلا شك من فترة
 الدكتوراه من مختلف النواحي ، كما كانت حلاليها أسعد حظاً فيما يتعلق بالأستاذ
 المشرف على . فقد كان الأستاذ روتش نتمنى إلى حيل عظيم من الأستاذة البريطانية
 الدين . وضعهم هو نفسه في إحدى محاضراته بأنهم ربما كانوا آخر حيل من
 أسامة الاقتصاد الذين لديهم بعض المعرفة ببعض الأشياء لأخرى في خارج
 مجال تخصصهم ، بعكس . لأستدة يحدث سرور التي أشرفت على خلال فترة
 الدكتوراه ، فقد كانت سواضعة القدر ، سواء فيما يتعلق بمدى اتساع اعلمهم ، أو
 الحاذية الشخصية . وعلى أى حد خلال السواب الست التي استغرقتها اسئلة
 كانت تفتى بالاقتصاد كعلم تصعب شيئاً شيئاً ، على الرغم من أنى لم أعبر رأينى

قط الذي أنشئ به معنى من مصر، في أن الذو مع الاقتصاديه تكاد تكون هي أهم عامل من العوامل المحركة لسلوك الإنساني

قل أن أترك كلية لندن للاقتصاد وعموم لسياسة بهائي، بأسابيع قليلة، أعلى عن محاضرة عامة يقيها أستاذ مرموق من أساتذة الكلية، وكان حديث العهد بالترقية إلى درجة الأستاذية، وهي سن صغيره سنًا، وانتهى لثوره من تأليف كتاب في مبادئ الاقتصاد، فُهر له بعد ذلك درجة كبيرة من النجاح، وانشر اسمحاده ككتاب مدرسي في مختلف أنحاء العالم. وكان موضوع المحاضرة هو بحرته في تأليف هذا الكتاب. ذهبت للاستماع للأستاذ ريتشارد ليسلي (Richard Lipsey)، وخلال المناقشة اسي أعقب للمحاضرة، سأله أحد لطلبة سؤالًا طلب إحالة الأستاذ عليه عاقله بدهي وطلبت أنظفها من حين لأخر لتلاميذي كان لسؤال «إذ قدر لك أن تعود إلى سن السبعة عشرة أو الثامنة عشرة عندما كنت على وشك دخول الجامعة، فهل ستحار علم لاقتصاد موضوعا لتتخصصك كما فعلت من قبل؟» وكانت الإجابة بسفي، مل وبأنهى القاطع، وقال إنه كان يختار دراسة تاريخ بدلًا من الاقتصاد. وعندما سئل عن اسباب هذا «سأروي لكم قصه حدثت لي وتوضح سبب خيبة أمني في علم الاقتصاد» قال إنه كان مدوق قصير يعد محاضرة طليتها به الجمعية الملكية لتقديم العلوم، وكان لموضوع يتطلب إعداد جدول إحصائي: ين تطور الأسعار عبر فترة زمنية ما، ولكن ١٩٣٠ - ١٩٦٠ مثلاً وأعد الرجل المحاضرة وأعطاه لسكرتيرته لتكتبها على الآلة الكاتبة، فأحطت السكرتيرة وكتبت الأرقام الدالة على الأسعار معلومة، فجاء الرقم الخاص سنة ١٩٦٠ مثلاً وكانه الرقم الخاص بسنة ١٩٣٠ وهكذا. وعندما مرأ لأستاذ المحمول مكتوبًا على هذا السحر سم بعض لأور وهلة للخطأ الذي حدث، ووجد أن من الممكن أن يفسر الأرقام، وهي مقلوبة على هذا النحو، نفس النظرية التي استخدمها لتفسير الأرقام وهي مرتبه الترتيب الصحيح، ربما مع تعديلات طفيفه أو تحفظات بسيطة في لتفسير لا يؤثر كثيرًا على النتيجة التي وصل إليها في نهاية المحاضرة. علم اكتشف الأستاذ خطأ الذي حدث هذه أن تكون هذه هي حادثة

عم الاقتصاد، أو حاشته الراحة على الأقل. وتعجب من هذا العلم الذي يمكن
لنظراته أن تفسر أشياء، ويقيسه بنسب الذرقة من المئين. هذا على حد قوته هو
ما يجعله يعتقد أنه لو عد إلى صباه لاحتار عما احرر تخصصه به عبر الاقتصاد

- ٤ -

في الوقت الذي كنت أتعهد فيه لأول متحان بي في لندن (امتحان البعالة) كان
أخي أحمد يقضي صيفه شهور للتدريب في شركة سمودس في مدينته نورسرح
الشهيرة بحاكمه محرم في الحرب. كتب ألمانيا له قسم إلى قسمين، شيوعي
يخص سمود السوفييتي في الشرق، ورأسمالي يخص سمود الأمريكي في
الغرب، وكانت برلين وإن كانت تقع بأكملها في داخل ألمانيا لشرقية، قد قسمت
بذورها إلى قسمين شيوعي ورأسمالي، ولكن كان لا يزال من المسموح به في ذلك
السنة (١٩٥٨) التنقل بين برلين الغربية والشرقية

ذهبت لرؤية أخي أحمد في نورسرح ووجدتها فرصة ذهبية لقضاء صيفه أمام في
برلين للمقارنة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي عن طريق المقارنة بين برلين
الغربية والشرقية. كتب في ذلك الوقت أكثر تعاطفا بكثير مع اندركسية، مما
أصبح عليه فيما بعد، وبمساعدة للدفاع عن أشياء فيها تنبئ لي فيما بعد أنه لا
يمكن الدفاع عنها. ومع ذلك لم يسعى، حتى في ذلك الوقت، إلا أن أعترف
بعض أوجه العصف فيه وأيته في برلين لشرقية. وفي خطاب طويل أرسلته من
برلين إلى العائلة في القاهرة أقدر فيه بين قسمي المدينة، كنت ما لي

برلين في ١٩ / ١٢ / ١٩٥٨

وإدنتي بعبرة، عزيزي حافظ وحسين

أكتب لكم من برلين وقد قصت فيها حتى لأن حملة أمام، ولا أظن أن هناك
مكافأة في برلين الشرقية أو العرس لم أشاهده. وعلى هذا فأنا مؤمن الآن لأن
أحدثكم عن ألمانيا وعلى الأخص عن الفرق بين شرق برلين وغربها.

عند وصلت بي بورسرخ لم يكن يحظر سائلي أن بإمكانى رؤية برلين، وعلى
الأخص، أن أتمكن من دخول برلين الشرقية ولكن تبي لي أن الأمر سهل، وأن
دخول ألمانيا الشرقية - فيما عد برلين - هو المستحيل قط، و حد يعاد بورسرخ إلى
برلين بقطع رحلتي من سبع ساعات، والرحنة كلها تقع خلال الليل، ورى كذا هذا
مقصودا لعدم تاحة الفرصة لمشاهدة أى شىء من ألمانيا الشرقية، صبرين، كما لا
يحمى عليكم، تقع فى المنطقة السوفيتية

فى ثناء مرور القطار بالمنطقة الشرقية سعد بعض رجال البوليس الشرقي
وفحصو، جواز سفرى ومحتوى تأشيرته بصعوبة أدم فى برلين وكان هذا أول شىء
رأه من العالَم الشيوعى وحوه مرهقة للعمل ولكن معدتهم طيبة فى انظار
تبدلت الحديث مع امرأة أديب - هى الوحيدة التى كنت تعرف الإخجليزية فى العرصة
التي كنت بها - وهى تعمل فى بورسرخ ولكن أمهم تقيم فى المنطقة الروسية وقد
سألتها كيف سمحو لها وهى من العرب بالذهاب إلى أمهم فى شرق ألبا فى
بلدة عبر برلين، فعدت إليها تحاول الحصول على إدر منذ أكثر من عشرة أشهر،
وبها كنت ترى زيارة أمهم فى الصيف فلم تمكن، وأخيرا سمحوا بها بمرارتها فى
الكرسىماس حينما سألها عما إذا كانت تعمل الشرق أم العرب ابسم وقالت
«هذا أقسم إدى فى العرب» هذا هو أقصى ما تمكنى الدبلوماسية من أن أقوله
لكن، كنت على كل حال مهيت بمسألة لتقل دورق صحمة بين الشرق والغرب،
ولكن جاء الواقع لا يعنى فى تأثيره عما تخيلته فالمعارفة فعلا شقة

برلين تنمى فى نظرى رحلا يلس مطلقون بدلة رديجوت وحائكة قديعة مهلهلة
والحائكة المهلهلة تنسب بلا شك إلى شرق برلين وأنا متمسك بتشبيه شرق برلين
بالحائكة القديعة المهلهلة أكثر من تمسكى بالخبراء الأخرى من تشبيه فى شرق برلين
دور عرمة - تمهيدية بين السادسة عشرة وعشرين يبدو عليهم إرهاق لعمل،
يرتدون ملابس رحيصة، لا يمشون بهذا مهم، ويشربون السجائر والبيرة بكثرة، كما
لا يتفق وعمرهم، ولكنهم مؤدبون ومحمضون ونحس أنهم باصجون قبل الألوان
(مثل لأذهم أنهم أسرعوا بالحصار كرسى بي فى مهنى محدد إدراكهم أنى أحس،

وأوسعوا إلى مكتب في مبلاتهم) هذا الوصف يطق على سيات كما يطق على الأولاد

كذلك للمحلات في برلين شرقية قرية اشبه جدا بالمحلات لصغيرة بنى عليها في مكان «الطاهر» بالناصرة اللوق في التسيق محيط حد، تتراب علو المعروضات، انما تريباب كثيرا ما يترك جزء كبير منها خويا، كما أن أصناف الصناعة من نوع رديء أو متوسط عال كدك، جزء كبير من الملابس التي يردونها هي من نوع ملابس رخيصة المعروضة عندما في العدة أو شارع عند التعير

إن جزءا كبيرا من برلين الشرقية يملك محس كان لحرب سم يتة إلا منذ أيام قليلة لا مد ثلاثة عشر عاما، فلبس المهدمة والأرضى الخاوية لا نهاية لها

شارع واحد جميل جدا ويبدلت فيه كل عبة، هو طريق ستالين، وهو شارع يبلغ طوله حوالي طوب شارع هود، صفت المباني الصحية على حافته، وكلها بابها الروس على طراز واحد جميل، والمحلات التجارية في هذا الشارع رائعة التسيق وفي منتصف الشارع عمال لستالين، وجوار مكتبة ضخمة سمها مكتبة كارل ماركس، تحوي المطبع كل كتب ماركس ونجلر وبيير بالألمانية وبكها لا تحوي من الأدب الروسي غير كتب جوركي جميع المحلات بهذا الشارع تحمل على أبوابها وهاريابها الحرف HO وهما احتصار بكلمتي ألماني بمعنى مؤسسة تجارية وكلها ملك الدولة، يذوب استثناء من مطاعم إلى مرقص إلى مكتبات إلى كشاك لبيع الحرامد هناك بعض المحلات انصغره في برلين الشرقية متروكة للأهر د مع حرص صرابط مرتفعة جدا، ولكن حتى هذا هيل

في برلين الشرقية أيضا حديقة رائعة أحصل أقدمها الروس تحليله، لذكرى الجنود اسودت الدبب مانوا في الحرب في هذه الحديقة وأيت أشد ما رأيت من التماثيل تأثير في النفس وهو تأثير مستمد من صغانتها ومن الأفكار التي نعرعها من هذه التماثيل تماثيل للوطن لأم مكي أساءها الدين مانوا في الحرب، وتماثيل لخددين روسيين راعين غنية لذكرى الجنود، وتماثيل صحم في الوسط خدي روسي

يحمل طفلا في يده اليسرى وسيف بيده اليمنى في أرض الحديقة دون سعة آلاف جندى سوفيتي على أن الأثر انطبأ الذي تركته الحديقة في نفسي صعب جدا عندما قال لي شاب ألماني عند خروجه من هذه الحديقة سحر الألمان في سائها اللال وبهار الحلال عامين كان الألمان يقاسون صيها الخروع

من الأشياء العظيمة في برلين الشرقية حلوها من الإعلانات من سوع اندي تعرفه في الدور الرأسمالية في محطات مترو الأنفاق مثلا مساحات من الجدران مخصصة للإعلان ولكن لا إعلان فيها كل ما بعده من إعلانات هو من النوع الإحاري محصور سبرك روسي مثلا، أو مباراة كرة قدم، أو معرض، أو بيان درريات النمو حوده بالساحر المحتفة، أو بعض الدعاية للشبيوعية بمناسبة مرور أربعين عام على الثورة، ويطرأ إلى أن ترك الجدران بلا إعلانات أو أوراق ملونة يجعلها كثيها المطر، فقد عمدوا أحياء إلى لصق عدة نسخ من الإعلان الواحد جملة في مكان واحد وبلا مبرر.

راعى في البداية أن أحد لبنات في المحلات لهم وحوه تخمو من أي جمال، وأكثرهم متقدمت في السن، وذكرى مطهرين بوحوه اساء اللاتي رأيتهم مرة في حديقة الأورمان بالقاهرة يوم شم سسيم واللاتي جئن إلى الحديقة بالأرواب وبوابير الحار وطبعا لا مجال لمقاربة هؤلاء بالوجوه الصحة البصرة التي تصادفك في أي محل رأسماني ولكن أليس هذا مما يحمد للنظام لاشتركي؟ أليس من هؤلاء ساء من تشغل ببدعارة في النظام برأسماني لعدم وحرد عمل؟ وهل الفة الجميلة هي وحدها التي بحق بها أن تحصل على عمل شريف؟ لهذا تعودت بعد المصدحة الأولى أن أمر لرؤيه هذه لوحوه في المحلات الشريفة

حيما تدخل محل لا يفتلك بطبيعة الحال اسمك الكريم المهود في المحلات الرأسمالية ولا محاولة لخداعك، فلا يمكن إذن أن تنتهي الصفقة بأن تنسرى خدام واسعا أو قمعا شتين لك فيما بعد أنه بو كانت لديك فرصة التروى ما شترتته، فالنعة تطع لا مصلحة بها في برويح الصاعقة وهي تكتفى بوصفها لك ومع هذا لم أخط من التعتن أي بكاسل شترتت من هالك معكرو وشحة للحائط وما

واعنى إلا أن الصنعة سلمت إلى معروفة في ورق من النوع الذي سسمه في مصر «ورق لحمة» طبعاً، فما هو الداعي إلى أن يلقوها ذلك في ورق مرر كثن أو مرطوها شرط من حرير؟ الحكومة على ما مذو ليست حريصة على أن تعود إلى الشراء منها أف المعكرة، فهي مملوءة بعارات مكتوبة بالخط لاجرم في أسفل كل صفحة عن تواضع ميلاد كرب وماركس وبخجل ولين (ولكن ليس تالين) وبهذه المناسبة فإن كارل ماركس وبخجل خطيا في ألمانيا شرقيه، باعتبارهما «لادين» أيضاً، شمجيد لا تظهما كما يحل من هات مثلاً مقاصدة كاملة باسم ماركس، وميدون باسم ماركس وبخجل، وكنهما مثلاً فتريمات المكتنسات ارادت الماذب العربية ان يظهر سامحها فأطقت هي الأخرى اسم كارل ماركس على أحد شوارعها، ووطن أن هدم ما كان ليحدث بولا المافدة مع الشرق وعلى أي حال شرع كرب ماركس في العرب لا فافز من حث الطور والأهمة بالشرع المسمى باسم الفسوف «الكاب»، وهذا كاف للذليل على سوء اليه!

لا داعى مانع لأن أتكلم عن استهيلات الاحتماعيه في ألمانيا الشرقية هي معروفة اعليم مجدي، اعطب مجدي، المسكن رحيص جداً، المطاب معسى به من كافة البواحي كذلك المسارح وقاعات الموسيقى كثيرة واسواق اليكم بعض أمثلة للأسعار بفلتها من الفتريت وتند، على العموم على أن مستوى المعيشة معقون جدا

فون بوتاجر بوفدين ٧ جيهيات، فائلة صوف ٦٠ قرشا، كرافة ٣٠ قرشا، بيجمة صوف ٣ جيهيات، شراب بايلون بمسيدات ٧٠ قرشا، قمائن بدنة صوف (المر) ٣ جيهيات، حداء وحيه جيهيات، قميص شيك ٣ جيهيات، بلوزة دسلا حميلة حيه واحد، بالطو ساتي حصل ١٥ جيهيات، آلة تسجيل ٦٠ جيهيات إبح كذلك، سأولت عدائي هباب مره، وكان يتكون من قطعة كبيرة من لكفتة مع بطاطس بالمايوير، بما يعادل ثمانية قروش

سؤال آخر هام هل الشعب سعد هاك؟ لم أوفق حتى الآن في الدحول في حدث محترم مع ألماني، والسب هو جهلى بالألمانية وجهلهم بأي لغة أجنبية

على أن الذى أسمعه دائماً من له مدة طويلة من أن الشعب غير سعيد ناحية في الشرق ، ومن ملاحظتي البسيطة أن المصيبة العمال الذين أشرت إليهم من قبل نهموا على السحابة من غربت بهم عليهم ، لأنهم من السحابة المصنوعة في غرب ، وأنى حيث امتدحت الكلمات الأدبية المكررة: لنرى أعرفها وبلا متعانة سدى للقول بأن برن الشرق أحسن من العربة ، لمجرد حسن نصهم ، أندوا متعابهم من قوسى ، بكن بمجرد التعبير بالوجه دون أن تتكلموا ، ولا أدري هل هذه سبب الخوف أو لعدم معرفتهم لعمى

ببب هناك أى حاجز يمنع المرور بين برلين الشرقية والغربية ، فالتزام ومترو الأنفاق يجرى بثوب توقف من القسم على أن هناك عتد اقتصاداً ، فنظراً إلى أن الحكومة في ألمانيا الشرقية تدعم الكثير من السلع فقد عمدت هذه الحكومة إلى مع بيع أى شئ في برلين الشرقية ما لم يقدم لشترى ما يشتت حصوله على يد للإقامة فيها ، وهذا الإذن هو غير الإذن بل حول برلين بصفة عامة فهو لم يعط لى مثلاً دعم أى شئ يستطيع دخول برلين الشرقية والغربية وعلى هذا فأن مثلاً لا يستطيع فأنوما شراء أى شئ من برلين الشرقية ، ولا حتى تداول الشئ في مطعم ولا دخول سبب ، على أن الذى يحدث أنهم يتساهلون مع الأحاس أمثالى ، دإن الإجراء موجه أساساً إلى الألمان لمقيمين في الغرب ، والذى يعملهم الطلبة العرب هنا أنهم مستبدون بالمراكز العربى أربعة مركات شرقاً وينهبون إلى برلين الشرقية فشترون حاجيات الأسرع ويعودون ، وهذا يكونون في الواقع قد دفعوا ريع المكاليف العادية

أما برلين الغربية فهي مدينة من ذهب ، الأصواء تتلألاً طول الليل ، الناس عائلة وحررة ، والمحلات رائحة التسيق الخ وواقع أن الأمريكان بصفة خاصة لم يدخروا وسعاً في محاولة تجميلها فبرلين ليست إلا مكاناً لسفوف الشرق والغرب ، كل ما هالك أن الغرب متهور وطاش ينفق ملاحبات ، والشرق عاقل أو قليل المردود في أثناء مروي بحولة سبرلى لعربة كان المرشد يعبر لنا كل حين وأخر «هذا المبى الخمين هو عربة من الحكومة الأمريكية ، هذه المكتبة هدية من أمريكا ،

هذه الخدمة بها مورد إلح والمساعدات الأمريكية هي العنصر الذي يمدده الروس بتبرير بأحر مستوى المعيشة في شرق برلين عن عونها

خدمة بالوكالة قالت لى ابيوم، به هربت من شرق برلين منذ عدم إدركة عائتها، وإنها لا تستطيع العودة الآن وإلا حسوها، ولا تستطيع ترك برلين إلا بالظاهرة لأنها لا تستطيع المرور بأرضي ألمانيا الشرقية وإلا حسوها. وإنها إذا استوى الروس على كن برلين ترحل إلى إنجلترا أو كندا اليوم هي قهوة حلت بحوار عمل أدنى بعيد الإنجليز به لحس حطى هو عامل محم وملائه مدرة للعانة سألته أينما بمصل الشرق أم العرب؟ فقال العرب، ولكنه لم يبد أسما مفهومة وفي النهاية قال، هو يصحك إيهام في الشرق ليس لديهم روح (have no souls) ولكنى لم أجد حمله شكل حدى لأنى أشك في أنه يعرف معنى ما يقو

لا أستطيع بسهولة أن أستخلص حكما نهائى، ولكنى أظن أنى مددتك بمصير تساعد على تكوين هذا الحكم، وعلى كل ح، فالإصاف يستمرم إتقاناً للغة الأدبية وابقاء مدة أطول بكثير والتعلل في الحياة الاجتماعية. أما على أننا قد سمعنا بالرحلة، واستمعت منها أكثر، حصرت فرقة برلين لسيمفونية ثلاث مرات، وعرفه أوبرا برلين مرتين، وسادعت إليها عدة مرة أخرى لقضاء رأس السنة رأيت ههـ «حكومات هوفمان» و«عطيل» وسأرى عدداً «حلاق أشيلى» ورأيت متحف برلين الضخم، ورأيت فيه «رأس مورتنى» وحجرتين مملوءتين بالأدور المصرية والسوية

كنت في رحلة لفرقة برلين اسيمفونية اليوم، ولأول مرة استطعت أن أقتر دور المايسترو كاد المايسترو ليوم حلا غير عادى اسمه «هربرت فون كيرين» كان التفرح عليه متعة في حد ذاته، فحركات يديه كانت كترقص بآلية، وكأنه بمصه يعرف جميع الآلات في الأوركسرا وقد ظل الجمهور يصفق به أكثر من خمس دقائق وعد سهاء العرف فمرت ساعة خالصة أسمى لأنها لم تستطع تمالك نفسها من السرور وقد عرف أفراد الأوركسرا أن التقدير موجه لهمايسرو، فاستحو بعد متصف لتصفيق وتركوه يستنى السامى وحده وقد تضمن تبرير حرام هائلة بالأسطوانة التى سجلتها شركة «كولومبيا» بقيادة هدا المايسترو

محبوبة - 'خبرني أحمد أب والدني دخلت المنشئ مرة أخرى بعد مغري ، قد
قلبي هذا كثيرا خصوصا وأني عرفت من هذا السكم لا يكتيون إلى بكل أحباركم .
على العموم ، أنا راجع في الصيف لأعرف الحق من الباطل !

- 5 -

كانت فترة السعة هي فترة وموعى في الحب الحقيقي لأول مرة وروحي من
أحب - في يوم من أيام ١٩٦٢ ، تعرفت على فاة إجميرية جميلة كانت صديقة
لطانة عراقية تدرس الاقتصاد في نفس كليتي ، بينما كانت هي (جن) تدرس علم
الاجتماع في كلية بدورد (Bedford) ، بلدن أيضا ، وتأتى من حين لآخر إلى كليتنا
لثغرا في مكتنا الأكثر عى ، أو لخصور إحدى المحاضرات العامة المتاحة للجميع
عرفت عليها صديقتنا العراقية محبوب انساهى جمالها ووداعتها وإحلاصها في
العير عما تصفه أو تشعر به - دعونها إلى مصاحتي لعشاء ثم للبيت فقت
ولكنها اعتذرت عن الخروج معى بعد ذلك لغرب الامتحانات وحاحتها إلى توجيه
كل وقتها للاسعد ذلك - كان هذا الاعدد سببا كافيا تماما لأن انصور أنى لم
أعجبها ، فامتعت فوراً عن ملاحظتها - وقد قالت لى فيما بعد إنها استعرت هذا
التصرف منى وامتامت به ، أما أنا فكم كان استعراي وروحي عندما تنقب مصادرة
في حفلة فقامتها نفس الصديقة العراقية بعد ثلاثة أو أربعة أشهر ، ووجدت (جان)
تغابني بفرح حقيقي وكأنها عثرت عى حسب مقفد - وسد ذلك اليوم لم يمترق
يوماً واحداً لعدة شهور أو ربما عدة سنوات - وعندما قردت في أحد أيام سنة
١٩٦٣ ، أن أعرض الزواج عيها ، ولم يكن قد مر أكثر من ستة شهور عى أول لقاء
لنا ، احدها العرض بواج صورة طبيعية بلعية ، وكأنه يتعلم بأمر من أمور
الحياة اليومية - كان لسبب وصحالى تمام الرضوح ولا بدع محالاً للتردد - كان قد
مرّ على انتقالات الجسم اندى لم يفرق بعده ، ثلاثة أو أربعة أشهر لم أشعر قط بيلها
يمثل ما شعرت به خلالهما من سعادته ، وعندما سألت نفسى عما إذا كان من ممكى
أن انصور نفسى وأنا أشعر بعدة أكثر بما أشعر به لأن ، كانت الإحاة فاطعة

دعني، فلم أرسأً لئلا تردني أن أعرض عليها الروحاح حياء عرضي هذا بالروحاح بدوره بشكل بسيط وتلقائي وكأنه لا يبطري عني أي حذر أو أهميه، دسألها «هل تأتيني معي إلى مصر عندما أنتهي من الدكتوراه؟» سألتني بدعشة وسرور عما أعنيه، فلما أوضحت لها ما أعنيه كان عرضاً بالروحاح، وقته هي بلا تردد. نلت هذا فترة قصيرة من التفكير من حدي، ولكنه لم يكن تردداً ولا تكوصاً. فعند ذات أفكر فيما إذا كان لما فعله بعض لأثر السلبية التي يحذر بي أن أتروى بشأنها هل من الحكمة أن أتروح من إنجلترا؟ هل أصحى بسبب ذلك بعض المزايا فيبت يتعلق بمسئلي المهني وسعدتي؟ هل منفع هي اخياة في مصر؟ هل مسؤثر العلاقات السبسية بين مصر وإنجلترا على علاقتنا؟ ما أثر مثل هذا الروحاح المحتلط على الأولاد؟ المدهش أب كل هذه الأسئلة وأمثالها لم تحظر بيالي قط بعد أن تم رواحي بالبع، بل ولم تستغرق في وقت طويلاً حتى قبل الروحاح ولا أظن أنها شععت بالهي، قبل الروحاح أو بعده

كانت هناك مناطق المشككة التي تواجه أي روحين وهي ما يترتب على الروحاح من مصييق شديد لدائره الحرية المتحة لكللا الطرفين. كذا الروحاح من أجسية يحمل في طائفته مراباً لا يستهان به في هذا الأمر، ولكنه كان نصاً محبباً أصاء إصافية فالروحة لا روية، حاضه إذا كانت متعلمه، هي في أغلب الأحوال أكثر استقلالاً واكتفاءً بنفسها من الروحة المصرية، وأكثر قدرة على لاسعراق في أشياء تجيب لها السرور معزل عن الرجن، ولكنهم من ناحية أخرى، بحكم وجودها في بلد غير بلدها، وبعبدة عن أهلها، أكثر اعتماداً على رحلها الذي تركب كل شيء من أحده فهذا أصماً إلى هدام قد يفصى من سوات قس أن تعجيد الروحة الأحية الكلام باللغة العربية وفهمها، وبدرجة تسمح لها بتصريف بالكفاءة اللازمة، أصبح العبء المتقى على الروحاح، خاصة في السوات الأولى، عبئاً مضاعفاً

لا أنسى مثلاً يوم دعنا إلى محل شركة إيدل في وسط القاهرة، في الأيام الأولى التالية لوصولنا إلى مصر بعد الروحاح، لشراء الدواليب اللازمة لتأثيث المطبخ، فاحد المرفف المستول يعرض علي كل للاحتمالات الممكنة بالأحجام

والأشكال والألوان المختلفة لاختيار من بينها ما يناسب دوتها ومقامات أحوالهم
 مع لم يكن لدى أي اهتمام حقيقي بالأمر ولم أكن لأدلى على الإطلاق بما إذا
 كان بلون أبيض أو أسود، والذوايب مرتفعة أم منخفضة، ولكن المهمة يجب أن
 تتم، ولا يجب أن تؤدي مشاعري الحقيقية بأن الأمر كله لا يهم، كما أن ربحي
 لم تكن تستطيع، حتى لو تركت الأمر كله لها، أن تتفاهم مع زميلين بالمحل، إذ
 لم يكن معرفتها بالذعة العرصة بالدوحة التي تمكها لا من شعير عما نرده ولا من
 فهم ما يقال لها. سرعان ما وجدت نفسي في موقف لا أحسد عليه على الإطلاق،
 ونحو ذلك خلال دقائق إني مجرد مرجم يقفز للمعنى المطلوب بقلها، من الروجة
 إلى الموطف، ومن الموطف إلى الزوجة، وسيت خلال قيامي بهذه المهمة الصعبة،
 وما أصابي مسهب من عاء، أب من الممكن جداً أن أدلى بأرائي في موضوع
 ربي سأكون أحد المتصدين من مطبخ في نهاية الأمر.

كان لا بد أن أعطي في هذه المواقف درجة عالية من الضيق، كما كان يجب عليها
 هي أن تتحلى بدرجة أكثر من الضيق، ليس في مثل هذه المواقف وحدها، بل وفي
 الشكوى على الحجة المصرية التي تجعلها، في كل خطوة تخطوها، تواجة أرواح من
 السموات مختلفة عما عهدت في بلادها. في كل هذه الأمور أعبر نفسي روحاً
 صعيداً، إذ ظهر أن لزوجتي درجة من الضيق والحكمة تفوق ما يمكن لأي امرئ
 أن يتوقعه، وبعوق بكثير ما رأيته من معظم الزوجات الأحسانات اللاتي جئن مع
 أزواجهن المصريين للعيش في مصر. فقد أحت زوجتي مصر والمصريين حملاً
 حقيقياً، وفهم ما بهم وصبرت على عيوبهم، وتعاطت تعاطفاً حقيقياً وعميقاً
 مع فقره المصريين، وبعد عن تعاطي معهم، وأظهرت كرمها بادر المثال في الإمداد
 عليهم ومحاولة حل مشاكلهم. ظهر منها هذا الكرم أيضاً وطبة نقب في معدتها
 لأفراد أسرتي وكنت حبهام حشماً، وفي معدتها لأزواجها ولأولادها وأحفادها،
 فكانت هي الالهة المفصلة لأبيها وأميها، ومصدراً مستمراً للسرور وسهجة لهم
 وللأولاد والأحفاد كما كانت لي.

إني أكتب هذا بعد مرور أكثر من أربعين سنة على رواحت. وهو أمر لا يمكن

الاستهانة به أن يعيش رجل مع نفس المرأة مدة أربعين عام، كما أنه أمر يسحق عليه كل من الرجل والمرأة التهنئة أب يصير كل منهما على الآخر طوائف هذا الرمن لا يعمل عن هذا أهمية، فيما أظن، به لم يحظر سالى قط، خلال هذه المدة كلها، أن كان من لأفصل ألا يسم هذا الزوج. ولا خطر لى قط أن كان من الأفصل لى أن أزوج نفسها أو ألا أزوج على الإطلاق أب. وحتى فلا أستطيع بقطع أن أقطع مما إذا كان قد طاب مدتها مثل هذا الحاضر إنها كثيرا ما كسب لى بجمع كلمات على مسألة الاحتفال بهذه الذكرى أو تلك، من ذكريات رواج، فمما لبثت إنها تعبر معها سعيلا الخطر جدا بهذا رواج. ولكنى أكثر نفعه بحس حطى بهذا الزوج من بحس حطى، هى

ثورة يونسو

لم يكن من بطله محب النساء وحديثها، وكان يميل إلى الاعتماد بأن من يشتمل بالسياسة لا بد أن يكون لديه، بصمة عنه، ميل طبيعي للجداع والكذب لا أتذكره قط وهو يتكلم عن سعد زعوتب أو مصطفى الشاذلي، اللذين ملك قلوب كثيرين من المصريين، وشغل الحدث عنهما الكثير من الأسر المصرية لعدة أجيال ولا أتذكره قط وهو مشغول بحمين مر سينكل الوزارة الجديدة، فالجميع في عصره سواء، أو الفروق بينهم، فقه من أن شحوق يشغل به كان الاستياء لو حيد من ذلك هو محمود فهمي استقراشي الذي تولى رئاسة حزب السعديين وجاء رئيساً للوراء في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقُتل على يد أحد الإخوان المسلمين كان أبي يحب النعراشي ويشي عليه حقه لا لامتته ولا أزال أذكر كم كان حربه شديداً عدم سماع بمقتله

أتذكر، ببعاً أنه عرّ عن رحاه التهم بقيام ثورة ١٩٥٢، مثل العاليية العطشى من المصريين الذين لم بأسف منهم عدد يذكر على ذهاب الملك فاروق ولكن صحة أبي كانت قد تدهورت، ونظرة قد صعبت بدرجة أصعبت من حماسه لثورة، وجعلته يصرف الباقي من همته إلى محاولة إتمام الجزء الآخر من سلسلة كتبه عن الإسلام قبل أن يصح عاخرًا تمامًا عن ذلك

عنى عن البيان أن أبي لم يكن مهتماً بأمور السياسة في قليل أو كثير، فلا هي تتابع أخبارها في الراديو أو الصحف، ولا هي تسمع من روجها في شير اهتمامها بهذه الأمور. لأسر الذي قد يكون أكثر مدعاة للدهشة أنه، من بين ثمانية من

لأولاد والبنات، لم يظهر ولد واحد أو بنت واحدة اهتمام كبيراً بالسياسة مثله
أصغرهم جميعاً وهو أب.

بدأ هذا الاهتمام بالسياسة من جدي في سن مبكرة للمعابة، كما يبدو من
مذكرتي التي بدأت أكتبها وأنا في الثالثة عشرة من عمري، وكنت أقسم ما أكتبه
فيها في كل يوم إلى قسمين. قسم شخصي وعائلي وآخر يحمل عنوان «أحداث
سياسية» وسمم هذا الاهتمام بالسياسة بشكل أو بآخر حتى الآن، كما يظهر بما
أكتبه من مقالات بين الحين والآخر في بعض صحف المعارضة وقد حاربت أن
أفسر هذه الحالة الاستثنائية في عائلتنا (أفصل حائلي)، فحظرت لي أنه قد يكون
التفسير هو نفس تفسير طموحي مدس صغيرة أبي أن أصبح كاتب كبيراً، وهو
أبى كتب أصغر لأولاد في أسرة كبيرة العدد وأقصد بهذا لتفسير أبي قد أكون،
ببساطة مركزي في الأسرة، قد كرهت الأمر المرفوع الذي يجعلني دائماً في آخر
الصف، ويعطي للآخرين إمكانيات لا أفتح بها لأبى أصغرهم جميعاً، فربلنا لي
بحسب دفين الظلم ومن ثم استعداد للشهد والاحتجاج، وحده عدة مبادئ كان
منها مبدأ معارضة السياسة ومع هذا ربما كان في هذا بعض الظلم بقسبي، وأن
المساءلة قد لا تكون بهذه الساطة، والدافع قد يكون أبلى من ذلك، فأنا أذكر كيف
كنت في سن مبكرة أكثر اهتماماً بحار المصفاة من بقية إخوتي، وأكثر استعداداً
للإتيان عليهم من مالي من بقية أفراد أسرتي باستثناء أبي وأبى كنت أدافع عن
خدام أو حادمة عوملاً بقسوة، أو طبت أهما عوملاً بقسوة، أكثر مما كان يفعل أي
أخ أو أخت لي ومن ثم قد يكون مصدر اهتمامي بالسياسة هو هذا الاستعداد
للقه طف مع المظلوم أكثر من مجرد كراهتي لتعرضي أنا شخصياً للظلم من بقية
إخوتي ولكن من الممكن جداً أن يكون هذا تعاطف مع المظلومين بسبب
شعوري المستمر بأبى وحدهم

عني أي حال، فعلى أن أعلم من أبي بدأت كثرة مذكراتي عن الأحداث استجابة
وأنا في الثانية عشرة من عمري بسبب الحقيقة هو عمر ثورة يوليو ١٩٥٢ فقد
حدثت حتى سن ١٩٥٢ من الأحداث السياسية ما ترك بعض الأثر في بقسبي،

ولكنها كانت آثاراً عابرة قصيرة العمر بحكم صغر سنى الناشئ إلى أمور أكثر ملاءمة من السياسة لخصى من يدبس امرأته. لقد تعلمت كراهية إسرائيل منذ قيام حرب فلسطين في ١٩٤٨، وكنت في الثالثة عشرة من عمري. رهنمت مع زملائي في المدرسة في نفس سن، مطالبين بحل لإعيلير ووحدة ردى الليل. ومرت مرحاً حقيقياً وأنا في الخامسة عشرة عندما فاز مصطفى الحامس وحزب البوند في ١٩٥٠ في أول انتخابات بريئة عرفها مصر عرة طويلة من الزمن، واشتركت في مظاهرة (وكنت وقتها في المدرسة سبعية لتي لم يكن حديثها يكفون عن الخروج في مظاهرات) احتجاجاً بهذا اليوم، رهنمت بحيا الشعب وصوت الشعب، لرد على من حولي، فسهي أحد المتظاهرين، لأكرس إلى أن هذا الهاتف خطر، لأنه سوف يصمى على الفور بالشيوعية كما مقر في ذلك الوقت مقالات فتحي رصون. أحمد حسين لثرية في صحف اشتركية نهاجم الملك بصراحة، وتدعو إلى تحس للملكية الزراعية بحمصين ددان. وقد عثقت في ذلك لوقت أن هذه الدعوة معقولة تماماً وأن عدل أن تكون الأرض لاس برزها. عثرت عن هذا الرأي مرة أمام مسأجر رص وراعيه كاد أبى يملكها في محافظته المرفية، فانسج المسأجر ساحراً، ولاند أنه عسى في داخل نفسه أن أظل على هذا الرأي حتى بعد أن مرت الأرض عن والدى. لا عجب إذن أن كاد مسرور عامراً بقم الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكنت حينئذ في لسةة عشرة من عمري، وان تادلت التهاني مع اصدمائى مصرح حقيقى، عندما شاهدنا سيارات الجيش تسير سبط شديدا على كوريش الإسكسرية، وقد وقف عليها بعض ابحود المحوريز. بأفسهم، وهم يلوحون بأيديهم لساس المصطفيين على حدى الطريق وهم يصفقون ويهتفون لهم



أصيب بأول حبة أمل في الثورة عندما سمعت في مارس ١٩٥٤ بشوب خلاف بين رجال الثورة وعزلهم محمد نجيب من رئاسة الجمهورية. كما عثق محمد نجيب عثما، فمضنا على ارتساض اسمه بالثورة منذ أول ساعة، كاد للرجل صفات شحصية شديدة اخاديه، إندنا عليه الإخلاص اننام وبراها والتواضع الحقيقى،

مع ميل واضح للفكره دون أن يفقد احترام الناس له . ثم نكن بحرف لأى عضو اخر فى فئاده الثوره أى دور مهم فيها ، وكان اسم حماد عبد الناصر لا يزال اسما معصور لا أهميه له . كتب فيها فى اسفله الثالثه فى كتيه الحقوق ، وهاجج الجامعة هياجا شديدا عصفا على عزل محمد نجيب ، وكان قاده هذا الهياج من الإخوان المسلمين الذين كانوا يقصرون إلى جانب نجيب . ولا يزال أذكر حظه ألقاه حين دوح ، وكان من فئاده الإخوان فى الجامعة ، وحطبت موهوبنا ، دعا فيها إلى رفض الرأسمليه والأشتركيه والتمسك بالاسلام . ومنع حماد الطلعه منتهاه عندما اقتطف انه قرأه وهو نصف دعوته قائلا بها «لا شرقيه ولا عريه» ، الرتوبه مباركه . وقد ظل هذا الاسطوف من القرآن الكريم عائلنا يدهى أنذكره كلما لاحطت مدى قوة تأثير الدين فى المصريين ، وكيف أن نفس لفكره التى يمكن أن نقابلها بالنسب يبرود ، يمكن أن تثير حماسهم بشده إذا عبر عنها تعبيرا ادبيا

وقد انصمحت إلى انصم قام به الطلعه فى داخل قاعة لاحتلال بجامعة القاهره مصممى على عدم ترك مكثهم حتى يعود محمد نجيب إلى مصره . وقد أرسل فئاده الثوره إلين من يحاول أن شيئا عن غربنا فلم يقبل ، وفرضت حراسه قوية حول أبواب الجامعة تمنع أى شخص من الانضمام إلى المعتصمين ، ولكن مروح بحروج أى طالب إلى غير رجعة . وكنت أبوى قضاء الليله معهم لولا أن جاءنى من يقول إن سله تسأل عك على سلم قاعة لاحتفالات ، فخرجت الهيا فإذا بها والدتى ، رأيتها واقعه على سلم قاعة الاحتفالات تشبهها وصرختها السوداء ، وقد راعها أن سمع باسمى للطلعه الغائرين فقررت أن تأتى على الفور لإحراجى . كانت أمى ترعج دائما بشده من أى إصرار فى الجامعة ، وتخاف حوم حقيقيا من أن تصيب أحدا مناصبه أو ضربه بالعصا على رأسه . وكان لها حينه دأبت على استجد معها منذ سنين طويله ، كلما سمعت بحديث إصرار ، وهى أن نأخذ من حذاء كل من من أسننها فوده واحده وتضعها كلها فى دولاب وتعلقه بالمفتاح . كانت هذه طريقه سهله ولكيها فعالة جدا لمع اشتر كنا من الإصرار ، بد كعب بحرج أحدا بفرده حذاء واحده ؟ ولكن هذا لاعتصام فاجأها دون استعداد

فخرجت على عجل دون أن يعي حتى دامتدان شمسها بحده، واستقلت رل
تاكسى تراه إلى جامعة القاهرة

عندما فهمنا الضبط الزحف على باب الجامعة رسألها عما تريد قالت: «إنيكم
تضربون أولادى فى الداخل»، فقال لها بأدب: إنيهم لا يضربون أحد، وإنيهم
يرحبون بأى محاولة من جانبها لإخراجنا إن استطاع فاستمع فى سبيلها حتى
قاعة الاحتمالات، وكان دمولى لوفيتها بهذه الحاة، وحجلى من رملانى
المتعصر كافى لأن أترك الاعتصام وأن أعود معها صاعدا إلى لبت

لم يستمر الاعتصام طويلا، بل ربما لم يستمر أكثر من نصف ساعة أخرى، إذ
أعلى ثمة الثورة، عودة محمد نجيب، جاء على قراو مأكرا، كما تب لنا هما بعد،
والأجاء للعصم حتى بهذا الأس، على أن يعرلوه فيه بعد عدم أخذوا للامر
عدته ويحسنوا الاستعداداته كان من بين ما رتب لحلص من محمد نجيب
بهايا، إخراج مظاهرات بهتف ضد الدكتور السهورى الفقيه الكبير، والذى كان
وقته رئيس لمجلس الدولة ومن المناصرين لمحمد نجيب. وخرج لعسان المدفوعون
دلتع من رجال الثورة لمنشقين على نجيب، يهتفون «يسقط السهورى، جهاهل»،
وافتحوا عليه منى مجلس الدولة فى أخيره واعتدوا عليه وشجروا رأسه بلوح
الزجاج الذى كان يعطى مكتبه كباثرى، «ناورملانى فى كلية حقوق، شديدا
ما حدث للسهورى، فصلا على أنه كان أقرب أصدقاء أبى إبنى قلبه، كان يتمتع
بمكانة عالية لدى طلبة الحقوق، فقررنا أن نذهب لزيارته فى المستشفى ومعنا ناقة
ورد تحمل بهنا من طلبة كلية الحقوق، وهما بدلت بالفعل بما يدل على أن الدولة
الويليسية لم تكن قد أشد عودها بعد فى مصر، بل لم يكن مثل هذا العمل بمر
سهوة لو كان قد حدث بعد مسوا قبيلة

كانت صحة أبى وقتها قد تدهورت شدة، فهبت عليها أمى بالأاجيره بما حدث
للسهورى حشة المزيد من التدهور ومع ذلك فكان السر أكبر من قدرها على
كلماته فسرعان ما أحرته نفسها بما حدث وقد مات أبى بعد هذا الحادث شهرين
(٣٠ مايو) وبكى السهورى كان قد حرج من المستشفى، ولا أعرف بالضبط لماذا لم

سبل دموعي على أني ، إلا عندما رأيت مدى حرب السهوري عليه وهو يسر في
حارته

شأأ لئلي هي ذلك الوقت شعور قوي بكرامية جمال عبد الباصر ولم يكن هذا
وكتند عرييا بالمرّة لقد قُتِرَ دم يردد اسمه بأقلاق ثورة على نفسه ، ونوجيه
انتقادات غير مقبّعة وغير معهومة لرجل كانه كل هذا أحب ، وهو محمد عب
وقد سمعنا أن عبد الباصر كان له الدور الأكبر في ترتيب الاعتداء على السهوري ،
وأه ذهب مع ذلك زيارته في المستشفى فرفض السهوري مقابته

كان ذلك أسيا غير المقبّع وغير المعهوم ندي أذيع عليا لثرب حروح محمد
بح من مصه مجرد ندابة لسلسلة لم تنته من استمجدم جميع وشعارات ملتوية ،
وتسيه الأشياء بحر أسبئها الحقيقية ، من تسميه النهرية العسكرية ، «الكسة» إلى
تسمية انقلاب صاحب سلطة على صاحب سلطة آخر «ثورة تصحيح» إلخ ،
لما لم يكن معهودا في عصر ما قبل ١٩٥٢ سم سم يقص وقت طويل على الانقلاب
على محمد بح حتى جرى توقيع اتفاقية الحلاء هي ١٩٥٤ ، التي كرهها أيضا
كرهاً عميقاً ، إذ كانت نص على حق الإنخيم في المردة إلى احتلال ناة السويس
لدى حدوث أي اعتداء أو تهديد بالاعتداء على أي دولة من الدول العربية أو على
مركيا ، وكان مثل هذا النص هو الذي أثار المصريين ضد مشروع صدقي - ببعير
(١٩٤٦) وأدى إلى سقوط سماعيل صدقي من الحكم ندت ساد اتفاقية الحلاء
نكوصا مشيداً عن الآمال ،قومية ، وثار شكوك قوية في وحشية عبد الباصر ،
ولهذا سم أشعر بأى تعاطف معه عندما حدثت محاولة الاعتداء عليه في ميدان
المشاة بالإسكندرية في ١٩٥٤ ، وكنت أكثر ميلا بي ببعير الحادث بأنه مدبر من
الحكومة ببعير لثرب لبعض على بعض خصومها وشعرت بلامتعاض الشديد
عندما سمعت م فالة عبد الباصر لسم بعد إطلاق النار عليه مباشرة ، إذ كان تعبيره
عن تحجه من أن يطلق أحد النار عليه هو «أأ الذي علمتكم العرة والكرمة» ، وقد
وحدث في هذه العبارة م لا ينطق من العرور من دحة ، وإهنة للمصريين من
ناحية أخرى كما أني استمعدت أن تنواهر لاي شخص البديهيّة الحاضرة لهذه

لدرجه معدٍ إطلاق النار عليه مباشرة، إلا إذا كان يعرف بإطلاق النار مقبداً في أعقاب هذا الحادث مباشرة حرحت أم كلثوم بأعباء جديدة مطلقها أيا جمالاً ي مثا لوطية، أجمل أعيادنا القومية، دى بجانبك يوم المشية، هم أصغر على معاهي، وكنت أعلق الراديو بمجرد أن تبدأ، مع أنى كنت أباهم معرماً بأعاهي وانتظر أى أمة جديده لها عارح العصر

لم أكن وحيدى أشعر بهذا لشعور لمعدى لعبد الماصر فى ١٩٥٤، من كان يشاركى فى ذلك الكثيرون، خاصة بعد أن سمع بعصل كثير من أئندة، الجامعة من اليساريين والإخوان المسلمين، والقصر عليهم لمجرد إبدائهم لأراء، أو الشك فى ان لديهم آراء معادية للظام ولكن حدث فى العام التلى مباشرة وبدأ يشيع مسح حديداً، وبدأت الأحظ فى بعض المحلات لتعاطفة مع السار بعة حديده فيها تعاطف مع عبد الماصر كان السب فى ذلك مؤتمر بانديج، حيث بدأ ظهور شعراء الحيات الإيجاس وعدم الاحيد، وبدأ من حكومة الثورة أنها سوف تسمير فى نفس الاتجاه الذى رفع شعاراته بهرو وسركارنو وتيتو ولكن التعبير يكمل فى موقفا ومشاعربا عيه عند اصاصر جاء فى ١٩٥٦، بإعلانه المفاجع بأميم قاة الروس لم يصدق أنسا ونحن نسمع الخبر، وكنت فرحتاً واعتزيراً بانها مصرنا أكرى يمكن وضعه



كانت اسسواب السب (١٩٦٤-٥٨) التى قصيها فى المعتنة فى إبحرا، سواب حادثة لأحداث حاسمة فى تاريخ مصر السياسى والاقتصادى، وتشكل فى الحقيقة «الحقيقة الماصرية» بمعنى الدقيق، إذ كانت السلطة التى يتمتع بها عبد الماصر والسمات الأساسية لسياسته، أضعف بكثير قبل هذه الفترة وبعدها كانت وحده مصر وسورب قد أعلنت وأنا فى الساحة فى طرمعى إلى المعتنة (مارس ١٩٥٨)، ثم سمعا بعد ذلك بشهور فليبه قيام الثورة العربيه (يوليو ١٩٥٨)، ثم تطورت مثيرة فى الأردن وسبب كانت تؤذن كلها بهبة قريه ليعرب، أو هكذا كان يظن، وبذت الوحدة العربيه الشاملة قات قوميين أو أدنى هذا أعلن عبد الماصر قوايين

الأمم في ١٩٦١ بلغ حماسي ذروته وصفت، مثل كثيرين عري، أد أماسا لكبرى
على وشك أن تتحقق

كان لجميع يكدمون عن العرب، والصحف البريطانية لا تكف عن الكلام عما
يفعله العرب، والكتب الجديدة تصدر كل يوم عن معرى الثورة المصرية أو العربية،
أو عن القومية العربية ومستقبلها، وعن دريح العرب وطريقة تفكيرهم، بأهك عن
حمال عبد ناصر ودوافعه الظاهرة والخفية، ومختلف العوامل التي أثرت في
تكوين شخصيته وآرائه. إبح لم تكن المشاعر التي تحيط به في مجمر مشاعر
ودية في لعالم، إذ كان لإيجليز لا يزالون يذكرون أن السب فيما تعرضوا له من
إهانة وعدلة خلال الأومة التي حلقها تأميم عداء صرقاء السويس، والتي بدت
وكانها نهاية الاحدار استمر للإمبراطورية اسريطية. ولكن هذا الشعور العدائي
لم يكن يظهر بصراحة إلا من حزب الطلبة اليهود، الذين كانوا يستهزون أي فرصة
للاتصاف لإسرائيل والإساءة بسبعة العرب. عندما حدث ركزي إنشاء دولة
إسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٦١، حطر لمجموعة من لطلبة العرب في كلية لندن
للاقتصاد، كتبت أن من ينهم، أن يكتب مشورا من صفحة واحدة تلخص اصحح
العربية في قضية فلسطين، ويردعه على الطلبة، وقد كتب أن هذا لمشور في عشر
نقط، لا يريد كل منها على منظر أو منظرين، ووقعا أمام باب الكنيسة مند الصاح
يعطى مساحة لكل طالب أو أستاذ يختار الباب. وجن جنون لطلبة اليهود، ولم
تخص ساعة أو ساعتين حتى أياهم يرعون مشورا مضاد يردون فيه على كل نقطة
من نقاطنا عشر، ويرعون من الخواطر ما كما قد ألقاه بها من مسح مشورا

لم يستمر حماسا وعذوب طويلا، فمع تمص عدة شهور على صدور القوايس
الاشتراكية في مصر حتى حدث انصاف مصر وسوريا (سبتمبر ١٩٦١)، ولم يفلح
عبار ثورة في اليمن بعد شهور قليلة من التحصيف من شعورنا بالإحباط لفشل
الوحدة. ثم تتابعت الأحداث والانقلابات في العراق وسوريا مما جعل حلم إقامة
الوحدة بعرة أبعد فأبعد عن التحقيق. ثم حدث (في ١٩٦٣) أن سلمت الحكم
في سوريا والعراق في نفس الوقت، حكومتان بعثيات، تناهما من أتباع ميشيل

عقلن، وحاء وفدان من بدولتين إلى مصر للمباحث في إقامة وحدة جديدة تحو
 كثار لامتصال بين مصر وسوريا وتصيف إليهما العراق . ساوريا بعض الأمن وفتها
 ولكنه سرعان ما تبدد عند سمع تشدد عبد الناصر في رفض الخصوع لإرادة
 حرب البعث، وتشدد الحكومتين بعثيتين في رفض أى وضع يمكن أن تنكر فيه
 أحطاء الر وحدة السابقة . وقد سمعت أثناء هذه المباحثات خطة جمال عبد الناصر
 وردت فيها سحرية جارية من ميشيل عفلق، ومن تلغتمه وتردده في كلام، وقد
 لمتى هذه الخطة تشدة، إذ فصلا عن حبي القديم لميشيل عقلن وتقديرى به، لم أجد
 أى مبرر لاستخدام سلاح الإهابة الشخصية لكسب معركة سياسية . لقد حسب على
 هذا لعصب الذى شعرت به بسب هذه الخطة، أثارا وخيمة مستمرت تلاحقنى
 عدة سنوات، وبعنها لم تنته إلا بعد وفاة عبد الناصر وقيام أنور السادات بإحراق
 المبعثات التى كانت تخوى على تقارير المحاورات والمباحث عن كل من بعوة بكلمة
 ضد النظام المصرى . وكنت أنا من بين الآلاف التى كتبت عنهم مثل هذه التقارير،
 وربما كنت معنى قد بدأ فتحه بمناسبة ما قفته تعلقا عما دار فى هذه المباحثات بين
 على ناصر ورعده البعث

ذلك أنه فى تلك السنة (١٩٦٣) التى دارت فيها المباحثات بين عبد الناصر وقدة
 حرب البعث تصادف أن كنت فى مصعد كلية لندن للاقتصاد ورأيت معى فى
 نفس المصعد شانا طويلا عربضا له ملامح مصرىة واضحة، كنت أراه حينئذ لأول
 مرة . سألته عما إذا كان مصرىا فأجاب بلا يحد، وقال . إنه وصل حديثا من مصر
 والحق بمصر كليات كطالب ماجستير فى العلوم السياسية . تبين أيضا من الحديث
 أنه يجد صعوبة فى العثور على سكن ملائم، فاتفقنا على الدفء بعد انصرافنا من
 الكلية لمساعدته فى حل هذه المشكلة . وهو ما حدث بالفعل . لم يكن ليخطر ببس
 قط أن نظام المباحث والمحاورات المصرى قد وصل إلى هذه الدرجة من النشاط
 والاضمار، أو أن مصر قد أصبحت دولة بوسمية . فى هذه الدرجة . كنت قد تركت
 مصر منذ أكثر من خمس سنوات، وقد رقت خلال هذه الفترة أحداث التأميم،
 وانفصال سوريا عن مصر، واشتداد الخلاف بين النظام المصرى ونظم عربية أخرى،
 وهى أحداث جعلت النظام المصرى يشعش أكثر فأكثر بحميدة بعده وتبع الأعداء

و لخصوم المصريين و المحتشمين بدرجة لاد أنها ردت عن «لارم» و حلفت أجهزة و هيئات يستعبد أصحابها استمادة شخصيه من بحر هذه لطيفه البوليسيه للدولة، بصرف النظر عما إذا كتب الدرة في حاجة حقيقية إليها أو لم تكن بعد عرفه فيما بعد أن هذا الرجل الطويل «عريض» الذي قابلته في مصنع كليه سد للاقتصاد لم يكن إلا معونا من أحد أجهزه المباحث المصريه للتجسس على نطله المصري في لندن، و كتابة لتمايزه و إرسالها أولا بأول إلى القاهرة. وقد وجد الرجل معيته وكتب على تقريره شيئا للعاية حفظه في ملفه، أو فتح به ملفا بالحدارات المصريه عما انتهى دفعه إلى هذا بالصعيد؟

كانت جمعة انطلاقة العرب فيمجتز قد قررت تنظيم مؤتمر لمناقشة الأوضاع العربيه، وطلبت مني أن أتي محاصره فيه ففعلت. وكننت قد سمعت دبل إنقائي المحاصره بصعده أيام عما دار بين عبد الحاصر و«سعثين». و«حومه» بعيف على شخصيه ميشيل عقلى. وقد أدى ذلك إلى تصيين محاصرته بقنا دار في محادث الوحده، وثناء على بعض أفكار اسعث، بل وبعض السخرية من بعض عداوب «الميثاق» الذي كان قد أصدره عبد الحاصر في أعقاب الانصاف. ولم أكن أعرف مدى السجيل والاحرام الذي فرضه النظام على الناس بهذا الميثاق. لا أكاد أذكر شيئا أكثر من هذا عن محتوى كلمتي، ولكني أذكر، وربما كان هو السبب الأساس لمحتي، أنه أثناء نقاش الذي أعقب المحاصره، قام ذلك الشاب المبعوث من المباحث المصريه فقل شيئا في الرد على، فصدت من عبارة هاسية تسخر منه هو شخصيا. وربما كان هذا هو ما اعتبره الرجل غير معسر ولا يمكن السكوت عليه، وليس ما وجهته من نقد للنظام المصري أو ثناء على اسعث.

لم أعلق أهمية كسرة وقتها على ما حدث، وانصرفت لإتمام رسالة الدكتوراه إلى كاتب دأ وشكيب على الانتهاء، ولكني فرحت بعد نحو شهر بتدبير البعثات المصري (محمد فتحي) يستدعيني لمقابلة في مكتبه في هذه المقابلة تفحنت لي حظورة ما صنعت، إذا كان رجلا مشغولا مشغولا عن معهوده قته وما لم أقبه في المحاصره، واستخدم كل الوسائل الممكنة لكي يجعلني أسلم له النص المكتوب

لمحاصرة مرفعت ، وقت نه إبنى أعتر من حتى أن أقول ها أشبه وأن أرض مصر ، إذا أردت ، أن أذكر نه بالوسط ما قنته عدت إلى مسكنى دون أى شعور بالخوف من ربح كت هجور بنفسى كان من بن ها قاله بنى مدير المبعثات إن بديهم طرفا لإجبارى على تسليم المحاصرة ، فسأله عن كنه هذه المنطق فهم بحت وقد استعدت جدا أن يصدر قرار بإيه بعضى وإعدتى إلى مصر قبل إيهاء اندكتوراه وبمصل ، ثب أن نظام المصرى لم يكن يمثل هذه المسورة أو الممقة . بعد كت مديبر المبعثات تقرير للفاهرة (كف أحربى هو نفسه بعد مرور هذه الواهمة بواب عديدة) يقول فيه نه ليس هناك مصلحة فى اتحاد بنى إجره صدى ون بنى محلترا ، وأنه يتوقع «أن يحرقى التباد» عندما أعود إلى القاهرة فأكف عن العباد واستمد دعم ، لم يكن النظام البوليسى فى مصر من القسوة بحيث يفسد على شهو الباقية لى فى إنجلترا أو محرمى من إدم حر سى ، ولكنه كان من الشدة بحيث سب لى فيما بعد من الماعب وسخوف والألام ما لم تكن هناك أدنى حاجة إليه

من ذلك ما حدث عندما وطنت قدمى لأول مرة أرض مصر بعد انتهاء بعضى ، بل وحتى قبل أن نطأ قدمى أرض مصر . كنت فى طريق عودتى النهائية إلى مصر بعد انتهاء بعضى ، ومعى روحى الإنجليزية التى تروحتها بمجرد حصولى على الدكتوراه فى إبريل ١٩٦٤ . وكنت تأتى إلى مصر لأول مرة ، وكل سامى عاية المساعدة والامستشار بده حياة جديدة فى مصر اسى كب أفقدها شده كان سفرنا إلى بحرة ، وكانت باخرة مصرية اسمها «الجزائر» تسير بين ميناى البندقية والإسكندرية . قصا على الساحره ثلاثة أو أربعة أيام كب حلالها أكاد أظير فرحا وحماسا كما سمعت أحدى مصرية ، وكان مطبخ أغصه (قل حاسى ودى إحاسب السد تعالى) من أوليات بكلمات العربية التى تعلمتها روحى . صفت ونقحت الساحره فى ميناى الإسكندرية وظنا أن ما عينا لأن إلا لبرول إلى أرض مصر ، فوجئنا بأن المسألة ليست بهذه الباطة ، فعد رأيا طورا من المصايط يصعدون إلى بحرة الساحره وعلى وجوههم سمات عنة فى انصرامة والتحميم ، فتعلمهم بذلك طوبه فى إحدى صالات الساحره ، ومصطف المسافرون أمهم لكى يقدموا للمصايط أوراقهم وحوار نه لم يحظر سالى قط أن أكون أنا واحدا من سرقون

وصوله كنت قد حذرت روجتى بأنها قد تصادف مشكلة بسيطة عند وصولها إلى مصر - أزمة جديدة بين مصر وبريطانيا كانت قد نشأت مؤخرًا عن الدعم الذى كان يرسله عبد الناصر لثلاثين صديريطيدى فى عدن، ولكن طمأنيتها بأنه حتى لو سألوها بعض الأسئلة فإنهم لن يكونوا مشكلة كبيرة - كان الذى حدث هو العكس بالضبط، إذ ما إن جاء دور روجتى وسين الصليط بها بربطانة حتى هشوا لها، وأخذوا يحبرون معرفتهم بالإنجليز فى عبارات الريحيت بها فى مصر، ولكن ما إن اطلعوا على اسمى ونظروا فى بعض القوائم التى يحسبونها حتى أطلعت وحوهم، وظهر عليها ما يدل على أنى رجل أحظرت كثير مما كنت أظن، ولوح أحدهم لى سراده، وأمرنى بملصة بأن أفد حب حتى يصرع من سائر المسافرين ثم سوف يكون له شأن معى - عندما فرغ بالضم من سائر المسافرين بصرف نكل انتباهه لى، وأمرنى بالأسئلة التى لم يوجهها لأحد غيرى، وهو يكن إخوانتى باهتمام، وعندما عرف كل شىء على أطلاق يده فى احتفال، بمعنى أنه يمكن الآن أن أنصرف

لم يكن حد هو بالضبط الاستقبال المطلوب لى لوطى بعد بضعة سب سنوات حصلت فيها على مذكتوراه - ولكن هذا الاستقبال المهيى لم يكن بأية حال أسوأ من معرفتى له سبب تلك المحاصرة الملعونة التى ألقته فى لندن، وعاره البحرية التى خرجت من دون تفكير وأعصت معوث للمحدث المصرى - بعد وصولى إلى مصر بأسابيع قليلة ذهبت أنا وروجتى إلى الإسكندرية لاستلام ما سبق لنا شحه من متع، واتاء سرى على الكوريش إذا بى أرى شخصاً مصر من أحد الأنوبيسات ويحرق رذائى ما بين اسمى - فلم تفحصه وحدته الطبيب المصرى العيب الذى كان يرفق فى رحلة الناحرة من السديفة إلى الإسكندرية، وهو طبيب اساحرة التى سافر معها جثة ودهان - وكان قد رأى وهو كان فى الأنوبيس فمر منه لأن يديه شيئاً سهب يريد أن يقوله لى - عندما بدعى سائى وهو فى غاية الاندهاش - «ما الذى فعلته بالضبط؟» فلما استوصحته ما يقصد قال إنه فهم من الضبط إلا أن صعدوا إلى لآخره عند وصولنا إلى الإسكندرية أتنى جعلت شيئاً

خطيرا استوجب رصعي تحت المراقبة ، وحذرتني من أن أقوم بأي عمل يثير الشكوك
لأي بالفعل مراقب

حدث بعد هذا أن استأذ بكلمة حقوق عين شمس لثي التحقت بها مدرسا
بلاقتصاد مجرد عودتي من بعثة (وهو ما كان مفعرا ممد الإعلان عن هذه البعثة)
أحسرتني بأن هناك شخص مهم يريدني أن أعانده كان هذا الشخص المهم (هو
الدكتور حسبي كمل بهاء الدين الذي صار وزيرا للتعليم بعد هذا بسنين كثيرة وهي
مباح سياسي مختلف تماما) مستولا في ذلك الوقت عن منظمة الشباب التي كان
الظام قد أنشأها حديثا لتكرين كواد ثورية ومؤمنة بأهداف ثورة يوليو وكان هذا
المستول قد طلب من ومبلي بكلمة الخقوق تعريعه على من يتوسم فيه الخير من
أسانفة الكدية الشباب ، ويمتقد أن أفكارهم متفقة مع أهداف الظام وقد لي هذا
الرميل به ذكر اسمي للمستول احظرت فحدث لي موعدا للمقابلة

ذهب لمعات ودار يسا حدث عن الاشراكيه والراسماليه ، اعتقد أنه لابد أن
يكون قد ترك أثرا طيبا لديه ، بدليل أنه أصر على توصيلي بسيارته من مكتبه بحارون
سيي إلى مكسي بالمعادى صحيح أنه طوال هذه لوجهة لم يسس بسب شمة لسبب
لم أنهم حتى الآن ، إلا أنه لم يبد لي أن هناك أى سبب لأن برفض أن يعهد إلى
بمسؤولية ما في منظمة ثم فاحاني رسيى بكلمة بحارنى بأن المستول اكبير قد به
إلى لا أصلح للعمل معهم «الآن لي تاريخ» ، وبهم يريدون «أشخاصا لا تاريخ»!
وقد أكد لي أن هذا هو الذى يريدونه بالفعل إن كثيرين من استعانوا بهم في تلك
الأيام والأيام الثلاثة كانوا من نوع الذى لا يؤمن بشيء على الإطلاق ، ألفوا
محاصرات على الشباب في الاشتراكية في ذلك الوقت ، أى في منتصف
الستينات ، ثم ألفوا محاصرات وكتبوا مقالات في التنديد بالاشتراكية في
الستينات ، وأصبحوا ورءاء في الثمانينات أو لتسعينات .



على أن الذى أصابى بالام بسمية مرحلة ، لم يكن هذا الحادث أو ذلك ، بل ما
حدث في ١٩٦٦ ، أى بعد مرور سنتين على عودتي من إنجلترا ، عندما تلقت دعوة

من جامعة لندن لخصور مؤتمر بعنوان (مصر منذ ١٩٥٢)، إذ طلب مني أن أكتب بحث عن تطور الاقتصاد لمصرى منذ الثورة. كان هو حتى بهذه الدعوة عظيم لأكثر من سبب. فمن ناحية كانت هذه أول مرة أدعى فيها للاشتراك في ندوة أو مؤتمر علمي باعتباري «أستاذ» لا «تلميذ» والدعوة مجتنبى من جامعة لندن التى درست فيها، فهاهى إذ أعامل من هذه جامعة كأستاذ لا كتلميذ. والمؤتمر قد دعيت إليه أيضاً لشخصيات مهمة علمياً وسياسياً، فهناك الأستاذ السويدي هانس، وأساتذته آخرون فى الاقتصاد من ألكسور دولد، واندى دعى إلى الكلام عن تطور لثقافة فى مصر هو ألكسور لويس عوض، وعن التطور السياسى مالكوم كير من جامعة كينغز كوليدج، وخالد محيى الدين من مصر. أصعب إلى هذا أن المؤتمر يعقد فى لندن التى عشت فيها ست سنوات ولم أرها منذ سببى، حتى سأب أشك فى أن تلك السنوات انست لم تكن حقيقية بل كانت حلماً. لقد مررت خلال هذه السنوات ست محادثات عميقة الأثر فى نفسى، عقلية وحسية وفكرية، وعدد بعدد شخصيات كتب شعر أحببها بأه شخص مختلف تماماً عن ذلك الذى ذهب إلى لندن فى ١٩٥٨. سمع أروع أن أرى تلك الشوارع من جديد وأراك مطر لأضيق من جديد، وأشم رائحته مرة أخرى، وأطوف بحجرات كيه لندن بلافتصادالى شعرت وأنا جالس فيها بشدائد الشاعر فوف، من منتهى مفرح إلى منتهى الحزن.

كان هذا هو معنى أن أذهب إلى لندن لخصور ذلك المؤتمر فى ١٩٦٦، وكان من الطبعى أن تذهب معى زوجته إلى بحيرة تروور أمويها، ولكن يصحبة زوجها الأستاذ المدعو من جمعه بحيرة، وليس زوجها التلميذ الذى لا يدرى أحداً من الذى يمكن أن يكون عليه مستقبله.

كان السفر من مصر فى ذلك الوقت أمر صعباً وبستارم إجراءات لا نهائهما لها، بل أن جوار السفر نفسه لم يكن من السهل أن لظفره وإذ حدث وظفر المراءنه فإن الدول التى كان يسمح لصاحب الجوار السفر بها قليلة جداً وما كورة على سبيل الخصر، فتصاف بدولة المطلوبة عندما يثبت عدم وجود مدع سياسى من الذهب إليها، وتكد أن تكون كل لدول مدع يوجد معها «مذيع سببى» لسبب أو آخر لا بد أنص إذا كنت أستاذ بالحكمة أو ذا وظيفة لها أى شأن على الإطلاق، أن

تحصل على موافقة مكتب الأمن واعكبت الأمن « كتاب بالنسبة له سمح محققا للكتاب عامص ، ممنوع بالملفات والتسجيلات التي تسجل فيها أي دعة أو همة أو فكرة قد تكون قد حظرت بانك ، ونشتم بها بعض الخطورة على النظام

كسب أعرف كل هذا ، وكان من الروايات المتسرة في مصر في ذلك الوقت أن عثمان أبو الهول عندما غير له جمال عبد الناصر عن إعجابه الشديد به وسمح به أن يطلب أي شيء قد يرغب فيه ، طلب أبو الهول «ناشره حروج» وشاع أيضا وقتها تخوير بمدة مصطفى كامل الشهيرة فأصبح «لو لم أكن مصري لوددت أن أكون مصرياً» لمخارج! كنت أعرف كل هذا ومع ذلك ، وعلى الرغم من كسب قد صادفته حتى الآن من متابعي «مفريو لندن» ، لم أكن «تصور أن يصمم جهات الأمن إلى هذه الدرجة على معنى من اسمي» ظننت نحو ثلاثة أشهر أخرى وبع استمارة الأمن ، يقال لي «العال بعد أسبوع» ثم بعد أسبوع آخر ، ثم يقال لي «المحدث هي المعتصرة» ثم يقال لي «المحذرات العامة» ربح حتى اضطرت وأنا في حزن شديد أن أرسل برقية اعتذر عن حضور المؤتمر ، وسافرت روجتي بدوي وكل مما يشعير بالأسى لشدة إذتشرق ، لأول مرة منذ وادحا ، سب اعتراض المحذرات العامة على سفرى عندما سمع خالد محيي الدين في حديث لي ، وكان رغم حروجه منذ عشر سنوات من مجلس قيادة الثورة ، لا يزال عني علاقة قوية بالكثيرين من رجال الثورة والمساكن بسلطة ، وكنت أنا صديقا لشقيقه عمرو محيي الدين ، طُف حاطري وطمأنسي بأنه سيحل لي المشكلة

ومرت أيام أخرى طويلة دون أن يظهر أن خالد محيي الدين قد صادف أي نجاح ، وقال لي مستعزبا «إن موضوعك كنبولادة المتعسرة» ثم أضاف إنه لا حل إلا أن يأخذني من يدي ويذهب لمقابلة شعري جمعة شخصيا ، وكان وقتها وزير لند حبيه ومن أهم المسئولين عن الأمن في مصر ذهبا لمقابلته في مسي محم في مصر الجديدة كان يسعى وقتها «تقفر الحكومة المركزية» ، ورأيت شعراوى جمعة بمجرد أن دخل عليه خالد محيي الدين بخصصه في مودة نالعه ، فامتشرت حيرا ، وطئت أن مشكلتي عني وشئت لاسها ، ولكن مرعنا بحات طمى إدام إن فتح

تجدد محبى ادين موضوع حتى بدأ شعر وى جمعة يقدم له ممرات الإحراجات
 المتحصدة صدى كان أول ما عانه هو أى بعنى، فادر حد دهنى الشديدة واضدى
 وقلب لشعراوى جمعة م معه «هل نما يوت سمعة شخص فى نظركم أنه عندما
 كان فى سناسعة عشرة من عمره تمسّ للاشتراكية والوحدة العربية وخيرية؟ وهى
 اشياء لم يكتشف النظام لمصرى محسبها إلا بعد ذلك بحسن سموات أو أكثره
 واتخذت مع سوريا على أساسها، وكان بعضون حلفاءكم وأصدركم؟» لم يرد
 شعر وى جمعة عى هدا، ولكنه أضاف «إن هلاك أيضاً ما يدل على أنك فى حدى
 محاصراتك فى كلية الاقتصاد (فى سنة ١٩٦٥، عندما كنت أدرس مقررا فى تاريخ
 الفكر الاقتصادى) قلت شيت يسى» إبنى النظام لم رد على هدا الايهام لأنى لم
 أستعد أن يكون قد صدر عى فى ذلك الوقت بعد الجانب أو احر من سياسة الظلم،
 ولكن أذهلى أن أسمع ما معناه أن هناك من يقدم تقرير للمباحث العامة حتى عما
 يقوله أستاذ فى الجامعة لافى محاصرة عامة أو مؤقر سياسى فى مقرر عن
 «تاريخ الفكر الاقتصادى»

اتصبت انصاصة دوى أى وعذ شىء ورجعت بى يبنى حرسا، وأبرقت بى
 روجى بأنه ليس هناك أمل فى حضورى إلى إعملر لهذا كان اسعراى شديد
 وهما جاء سارة بلعية عندما تلقيت مكالمة تليفونية من حدى محبى ادين بعد هذه
 المقاتلة سحو أسوع بحورى فيها أن مشكلتى قد حلت، وأن بإمكانى الذهاب بى
 مكتب الأس لامتثال لموافقته على طلبى للسفر وكان هدا هو ما حدث بالعمل،
 وحصلت فعلا عى تأشيرة الخروج وأصبح تسعر ممكنا فجأة، وأرتق من جديد
 إلى منظمى المؤتمر فى لندن بى روجى بأنى سأحضر.

لم يكن من السهر أن تعود إلى الطماسة الكاملة بعد كل ما هورت به من عذب
 وإثارة للأمل ثم إحباطها وأذكر أنى عندما حكيت القصة لصحفى كبير وساصل
 قديم (محمد عودة) حذرنى نظره لعهود من المياغة فى التنازل قال إنه حتى
 يعرض أبى ركت الطائرة المتجهة إلى لندن، وصعدت الطائرة فى الهواء، فلههم
 قادرون عى إعادتها إلى مطار القاهرة وإحرجى من الطائرة قال بى لا يمكن أن

أطش تماماً، بي حروحي من مصر إلا عدم تحوير الطائرة الأميال البحرية الأربعة عشرة التي تدخل في دائرة السيادة المصرية بعد هذه الأميال لا تستطيع سمطاب المصرية رجاع الطائرة الأحية إلى أراضيها وقد حكى له كتياف لطيرت ما حدث بصلاح جاهين، الشاعر الشهير، بعد ركنه الطائرة، ولم تكن الطائرة قد عبرت بعد هذه الأميال، فأعادت السلطات المصرية الطائرة إلى مطار القاهرة وإذا بصلاح جاهين يسمع اسمه ينادي في مكروهون الطائرة ويطلب منه التروول، وما إن نزل منها حتى طارت الطائرة من حديد ولما ذهب بي سلطات الأمن اتنى أمرت بعودته، اكتشف أنه حدث خطأ في الاسم، إذ كان الشخص المطلوب القمض عليه شخصاً آخر باسم صلاح محمود حمين، تاجر خشيش، وهو غير الشاعر صلاح جاهين ولكنى سافرت وعبرت الأميال البحرية ولم يحدث شيء



كانت هذه مجرد حادثه و حدة من سلسلة الأحداث التي قضت شيئاً فشيئاً على شعوري بالتعاطف مع نظام عبد الناصر هذا التعاطف الذي بدأ مع تأميم القناة في ١٩٥٦، وبلغ أوجه مع تأسيسات ١٩٦١، ثم أصابه أول شرح في ١٩٦٣، كما سمعته عن موقف عبد الناصر من ميشيل عفلق

كتب عبد عودتي من السعنة في ١٩٦٤ لمحمد لاشراكية عبد الناصر ومن ثم فإني عندما طلب إليّ أن أدرُس مقروا بعنوان «الاشتراكية العربية» في كلية حقوق عن شعب، كأحد واحسي في التدريس، رحبت بشدة ووجدتها فرصة نكتة كتب صغير في الاشتراكية أغتر منه عن موقعي فيها ومن المازكية سم أكن محمداً لسميه ما يطلق في مصر «الاشتراكية العربية»، إذ لم يكن مقصد بأن هناك مثل هذا السوع بين الاشتراكيات يسمي بسمية جديدة بالعربية وأخرى بالإفريقية وثالثة بالهندية إلخ، خاصة أن درجة الابتكار الطري في التجربة المصرية، فيما يتعلق بالاشتراكية، بدالي، وقتها على الأقل، شبه متعذر بهد صمحت عندما عرض عليّ ومن في حقوق القاهرة أن يكتب كتاباً مشتركاً في الاشتراكية، على تسمية الكتاب بالاشتراكية وليس الاشتراكية العربية وحدثاني هذا الرميل سه

وحدة، ثم بصحة المعص عدم الاشتراك معنى في سنة الثالثة، ومنه إلى أن الجزء الذي كتبه أن في لكتاب مشترك، وإن كان قد احتوى على مدللناركية، فإنه بدو تعاطف معها أكثر من اللازم، وأن من دواعي الحيفه على أنه حال أن مصر لتحرره المصرية متميرة عن غيرها، وقد يكون استثنوي في الحكومة أكثر تعاطفا مع اعصار شراكسهم عربية من اعتبارها ساحة من الماركسية انفصل على إذن هذا الرمي وكتب كتابا وحده في الاشتراكية العربية وكتب أنا كتابا مستقلا بعنوان «مقدمة إلى الاشتراكية» درسته لعامس بالنس حتى وقعت حرب ١٩٦٧

قبل وقوع هذه الحرب، استدعاني مدير الجامعة مرة محاولا إقناعي بحدوث آخره الذي اتعده فيه اعصار اشتراكيًا منيرة عن اشتراكية غيره، هو مصد ذلك وبكى كبدي لم يعجب أيضًا للماركسيين، بسبب بقدي بشديد للمادية الخدية ونظرية القيمة الماركسية ورأوا، أن من واجهم أن يرسلوا إلى ماركس من الضبيعين في الاقتصاد ليقنعني بأن نظرية العمل في القيمة أفضل من نظرية العرص والطب في تفسير الثمن، وكنت قد قلت في كتابي إن نظرية العمل في القيمة، تتي نساها ماركس، قد تكون أفضل من غيرها من حيث إثبات الاستغلال ولاعبارات أخلاقيه وسياسيه، ولكنها ليست أفضل من نظرية العرص والطلب في شرح محددات ثمن فلم يجمع هذا الماركسي في إقناعي وظل هذا الجزء كم هو في الكتاب

على أي حال أدى قيام حرب ١٩٦٧ إلى إزاحة الجميع من مثل هذه المشاكل فقد أرسى عبد كليتي (إسماعيل عامر) اعتذارا عن تدرس معر الاشتراكية، وكان قد أصبح من الواضح لي الآن أن مشكلنا الآن ليست هي الاحياز بين الاشتراكية والرأسمالية، بل هي مشكله الديكتاتورية والديقراطية، وأنا لسا هي حاجة إلى المزيد من الاشتراكية بل إلى المزيد من الحرية

كنت وثق أصلة بهذا الاعتماد وشديد الإعجاب به، ومن ثم ساعى ب لاحظت عبه من استياء لاعتذارى عن تدرس الاشتراكية، وإن كنت اعتقد في تعاطفه مع موقفي أبدى سم يئنه من التعبير عبه إلا ما يشعر به من حرج أمام المسئولين ابتكار في

لجامعة والحكومة أحدى بعض رسائلها في الكلية استعراهم الشديد من هذا
 لاعتدار ، يد كان تدرس الاشتراكية وعمرها من اسفرواات المسماة «العقوبة» ،
 ك تعاون والمجتمع العربي ، مرصه ذهبيه تتكون ثروة لا بأس بها ، وذلك إذا
 استطاع الأستاذ أن يدرسها في أكثر من كلية ، وعلى الأخص في الكليات ذات
 الأعداد الغفيرة من الطلاب . وكب أعرف فعلا أسادا كتب محلدا صحفا سمته
 «الاشتراكية العربية» بأعه ضمن مرتفع في الكليات لثلاث أو الأربع التي كان يدرسه
 فيها مما سمح به شراء سيارة مرسل من حمراء كان تشغل بها من كلية إلى أخرى
 وقد راه أحد التلاميذ يركب السيارة بعد أن أنهى محاضرة في الاشتراكية العربية ،
 قاله سحرًا : «طيب . هذه هي العربية يا دكتور ، هاين الاشتراكية» ؟



عندما قامت الثورة في يوليو ١٩٥٢ كنت أصغر من أن يتور في دهمي أي تساؤل
 عن وجود أي علاقة محتملة بين هذه الثورة والسياسة الأمريكية في المنطقة ، كما
 كان مرجحا بدم الثورة شديدا لدرجة كان من شأنها وحدها أن تمنع من أن يصرف
 أذهانت إلى تعمسها بأي عمل آخر غير الشعور بالواجب الوطني لدى الصبب
 الذين قدموا بها

كان من الممكن جدًا ، لولا هذين العاملين ، أن يتور في أذهاننا بعض لشكوك
 في سنة ١٩٥٢ حول علاقة الثورة بالولايات المتحدة . كانت كل الدلائل تشير إلى
 أنه لولا تأييد الولايات المتحدة حركة الجيش في ٢٣ يوليو ما كتلت هذه الحركة
 بالنجاح ، خاصة مع وجود القوات البريطانية على طول قناة السويس . كان من
 المعروف لنا أيضًا ، حتى في ذلك الوقت ، أن أول عمل قام به الملك فاروق عندما
 طلب منه الصباط المصريون توقيع وثيقة المساواة عن عرشه في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ،
 كان اتصاله التليموني بالمعير الأمريكي ليعرف موقفه ، فإذا بالمعير يصمحه
 بالشر . ثم كان من أوائل أعمال الثورة إعدام عدس (الخمس) لقرى) تهمة
 الشيوعية وفي ٩٥٤ كان من المعقول أن يتور في أذهاب بعض الشئ في أن
 تكون الاتفاقيات التي وقعها الإنجليز مع قادة الثورة بإخلاء عن مصر قد تمت بدعم

من الولايات المتحدة مصر وصعدت أمريكى على الإنجليس. وأذكر أنى بعد هذه
 لاتفاقية بعض عثر فى معاش مع أحد اعشش الأردنيين (حسن الطاطقى) عن
 رأيى فى أن ثورة ١٩٥٢ هى حركة مدعومة دعماً تاماً من الأمريكيين، فرفض
 الرجل هذه النظرة رفضاً تاماً واستصحفها. ولكن أعقد الآن أنى كتب على
 صواب بل إلى لا أسبغ أيضاً أن فكرة تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ كانت
 دورها تأييد أمريكى بل وري أيضاً بإيعاز أمريكى. أذكر أنى قرأت فى كتاب
 «دورة كاسله» (Fu, Cisse)، وهو السيرة الذاتية لأنسوئى إيدن، رئيس وزراء
 بريطانيا خلال أزمة السويس، ما أوحى لى بهد المعنى. من المعيد أيضاً أن سذكر أن
 المعونات العدائية التى بدأت تتدفق على مصر ابتداء من ١٩٥٨، كانت عاملاً مهماً
 فى تسهيل برنامج تنمية الطموح فى مصر حتى منتصف الستينات، إلى جانب
 المساعدات لبريئة، ران هذه المعونات الأمريكية لم تتوقف إلا فى ١٩٦٥

فى مذكرات أحد قادة الثورة المصرية (عبد لطيف بى دى) قرأت أيضاً أنه
 فى اجتماع معاده الثورة فى أواخر ١٩٥٧، عندما عرضت للمناقشة فكرة الاتحاد مع
 سوريا، دافع عبد الناصر عن الفكرة، فلما اعترض أحد الحاضرين عليها، وكان
 معروفاً بعلاقته الطيبة مع الأمريكيين، قال له عبد الناصر ساحراً «طيب، روح
 اسأل أصحابك الأمريكان»^١

ولكن العلاقة مع الأمريكيين لم تكن على م برام فى ١٩٦٤. فعلى تلك السنة
 بدأ عبد الناصر يشير إلى تهديدات الولايات المتحدة له بقطع لمعونه إن سم يكف عن
 استخدام مواقف معينة فى سياسته الخارجية لا ترضى عنها الولايات المتحدة. وبدأ
 يستخدم عبارات عنيفة فى مهاجمة الولايات المتحدة مثل قوله المشهور فى إحدى
 الخطب «إذا لم يعجب الولايات المتحدة ما فعله فلتمذهب تشرب من النهر، وإذا
 لم يكفها البحر الأبيض فلتشرب من البحر الأحمر» لاندن سقوط بيكرام
 وسوكريو رين بدلاً وغيرهم من القادة الذين كانوا يسعون سياسة مثبته لسياسة
 عبد الناصر، قد أصاب عبد الناصر بالقلق، وخاصة عندما أحرته الولايات المتحدة
 بالفعل فى ١٩٦٥ بأنها ستوقف معوناتها العدائية له بسبب عدم رضاها عن مواقفه

في بكوننو، وكان عبد الباصر محقاً في هذا القلق بالطبع، كما نرى من الهجوم الإسرائيلي على مصر سنة ١٩٦٧.

في هذه الفترة الحرجة (٦٤ ١٩٦٧) كان من بين ما خطر بعد الباصر من أفكار شح البصير الذي تعد له أمريكا تكوين قاعدة جديدة له من الخصم، نظمون فيم يشبه الحرب السري خارج نطاق الحرب للحاكم، أي خارج نطاق الاتحاد الاشتراكي، بحيث يسهل الانصاف بهم وتكليفهم بأعمال الحماية النظام ودعمه، بدلاً من الاعتماد على أشخاص قد يكونون أسهل قياداً، وكنهم لا يؤمنون حتى بمبادئ النظام، وإنما يخدمونه مدفوعين بمصالح شحبه بحتة، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليهم إذا وجه النظام أزمة حقيقية مع قوة خارجية.

اعتقد الآن أن مثل هذا الدافع كان وراء ذلك التنظيم الذي دعاني خالد محيي الدين، ذات يوم في ١٩٦٥، للانضمام إليه، والذي لا أدري حتى الآن ما إذا كان جزءاً من يسمى «التيظيم الوطني» أو كان شيئاً آخر موازياً له. كان المطلوب هو حضور اجتماعات دورية برئاسة خالد محيي الدين، بحضورها نحو ثمانية أو عشرة أشخاص، لتبادل الرأي في الأحوال السياسية، وقرءه بعض البيانات التي ترسل إليه من حين لآخر من «قيادة التنظيم»، ولكن لم يحدث قط أن كلفنا بأي عمل آخر غير هذا. فرحت في البداية بأن أدعى للاشتراك في هذا «التظيم» الصغير، والقريب إلى هذا الحد من السلطة كما كان من الشائع الاستماع لخالد محيي الدين في نهاية كل اجتماع وهو يحكي لنا بعض الأسرار لسياسة التي يسمونها إما من عبد الباصر مباشرة أو من أشخاص قريبين جداً منه. ولكن سرعان ما مديت الأمر برمته، فمن ناحية لم يقل لي أحد قط، على أي نحو مضى، مما العرض الحقيقي من هذه الاجتماعات الدورية؟ ومن ناحية أخرى، لم يكن أحد من الحاضرين، باستثناء خالد محيي الدين، ممن يشوقني للقاء بهم على هذا النحو لتنظيم وعلى فترات جد قصيرة. كان معظمهم من الماركسيين القدامى الذين اعتقلوا لفترة أو أخرى أيام عصب عبد الباصر على الشيوعيين، وكان حماسهم وثورتهم أقوى بكثير من قدرتهم على التحليل والإقناع. ومع مرور شهر بعد آخر بدأ البعض، وكنيت

أحد هم، يعبرون عن بعض الانتقادات لنظام سبب قلة ف ينسجه من حرية التعبير الرأى مما إن تكرر هذا التمد مرتين أو ثلاثاً حتى أخطرنا بأن هذه الاجتماعات سوف تنوف لفترة ف وسعد بعدها الانتص بعض ، ولكن عب حينما أن يقدم بعض الأسماء والمواو لأشخاص يرى فيهم إصلاحية والكفاءة بالانضمام لمثل هذا الطم ، فحصد الله على إسهاء الأمر ، ولم أحد أى مير لأن ذكر بهم أسماء أشخاص أعقد فعلا في صلاحيتهم وكفاءتهم ، إذ خطر لى أن هذا مطلب قد يكون مجرد طريقة لجمع أسماء كل من يمكن أن يكون لديه اعتراضات أو انتقادات للنظام من يريد النظام تنهم أو مراقبتهم . ذكرت بهم فقط اسمين أو ثلاثة كمن أعرف أن أصحابهم من كانوا يحضرون لمثل اجتماعات مشابهة ، ومن ثم لا يمكن أن يصيبهم من سوء أكثر مما أصابهم بعد انتقص نحو أربع عاف على هذه التجربة ، تصادف أن قابلت في إحدى الدورات ، شاباً اتجه إلى وعرفى نفسه فذلاً ، إنه يحضر لندكوره في العلوم السياسية في إحدى الجامعات الإفليمية في مصر ، وسألنى عما إذا كان يستطيع أن يوجه في بعض الأسئلة تتعلق برسائله كائن موضوع الرسالة هو « لتظيم الطمى » ، ولكن أكثر ما أدهشنى هو قوته إنه يعرف أى كت « مرشحاً » للمعضوية في هذا التنظيم ، ولكنه لا يعرف ما إذا كت قد حصلت على المعصية تمة بالفعل . سألته كيف عرف هذا ، إذ بى لا أعرف أنا شخصاً إذا كان هذا التنظيم بى كت أحصر اجتماعاته مع حاند معجى الدين هو ف يعرف باسم « التنظيم الطمى » وقت له : رى أسمع منه الآن ، ولأول مرة ، رى كت فقط « مرشحاً » للمعضوية . قال إنه عرف ذلك من بعض لواتق الى كاتب في جورة شعراوى حمدة وأتمه وأخرج معها في عصر الساعات ، وإيه فام بتصوير بعض هذه الوثائق ، وإيه وجد سمى في بعض الأوراق وقد كت بحواره عبارة (مرشح خالد معجى الدين) ويتبادل الحديث مع هذا الشاب توصلت إلى استنتاج أن حاند معجى الدين كان قد رشحن ، ولكنى لم أفر بالمعضوية ، سبب ما كان شئن عى من حدث سنطوى عى انتقادات للنظام ، مما جعل المسئولين ينسحبون أى سبب من أفضل «عاصر التى يمكن الاعتماد عليها لخدمة النظام» في حانه تعرضه للتهديد ، من الخارج أو الداخل . كما خطر لى أن من يمكن حذاً

ان يكون ما كتب على من تقارير ساء على هذه الاجتماعات كانت من بين أسباب
مضى من السفر إلى الخارج في ١٩٦٦ لخصور مؤتمر جامعة لندن



في نفس هذه الفترة الكئيبة (٦٤ - ١٩٦٧) حدثت بعض الأحداث شديدة
المخافة لبعض الأشخاص اقبريين جدائي فقد اعتقل فجأة صديقي على مختار
روصع في سجن انقلعة لمدة أسبوعين دون أي سب و صبح كان مختار يعاون
شخصاً مهماً في الاتحاد الاشتراكي من المسؤولين عن الشؤون العربية (فتحى الديب)
والأرجح أن سب اعتقله لم يكن إلا خلافاً شخصياً بين هذا الشخص المهم وبين
شخص آخر أهم منه، فأراد الثاني أن يتكلم مع شخص من الأول وقد حاولت أن
أسعين بحالده محبباً بدين لإطلاق سراحه وحسبى بأنه لا يملك في مثل هذه
الأمر شيئ

وبعد هذا يشهور قليلة، كان أخى الأكبر محمد، الذى كان وقتها رئيساً للمجلس
إدارة شركة صناعية كبرى في إيدبال، يحتسى لقهوة في لصباح قبل أن يذهب إلى
مكتبه، فإذا به يقرأ في جريدة الأهرام حبر إحتاله على النعاش (وكان في الساعة
والأربعين من عمره) وعرف فيما بعد أن السب هو شكوى تصدم بها أحد العمال
المهمين في اللجنة القومية بالاتحاد الاشتراكي، ويمثل الشركة التى يرأسها أخى،
وقال فيها إن أخى لا يؤمن بالاشتراكية إنما كافي ويعامل العمال بعظمة

حدث أيضاً في نفس هذه الفترة (١٩٦٤)، أن ذهب أخى عبد الحميد مرة إلى
المركز القومي للبحوث، حيث كان يقوم بتجارب علمية مهمة فنقد فيها مجموعه
من الطلبة لاهس، إلى جانب عمه كأستاذ في كلية الهندسة بجامعة عين شمس،
عنه يجد أى أثر لكل الأجهزة التى كان يستخدمها في بحثه، وقيل له بها نُقلت في
اليوم السابق، دون إذن منه، إلى مركز انطامه الذرية في أنشاص لأ مسئول كبير
سوف يفتتح هذا المركز بعد يوم أو يومين فامتنع أخى عبد الحميد منذ ذلك اليوم
عن الذهاب إلى مركز البحوث وإلى كلية الهندسة، وهو في الثامنة والثلاثين من
عمره، وظل في بيته بلا عمل حتى اليوم



كان العدم يصيِّق لحاق على لاس أكثر فأكثر كل يوم، وأظن لأن أن السب
 الأسببى لذلك ربما كان اودداد شعور عبد الباصر بأن الولايات المتحدة تعمل على
 الإيقاع به وتدبر له جد لتوقع منه، فاشند شعوره بالشك في لاس واورددت
 إجراءات لأمن فسوة كان لمرء من يحف أن يتكلم في السياسة في حضور أى
 شخص غريب، في سيارة تكسى أو أمام زميل حديد في الجامعة لم يتحقق بعد من
 ميوله السياسية، أو حتى أمام هراش الكنية لتي يحصر له القهوة والشاي، خشية أن
 يكون من متوططتهم للحزبات أو المباحث البعده أما التلغرف فكانا واقع من أنه
 مراقب، ومن ثم كان من دراعى الخبطه عدم الشعوره في التبعوف بالتعليق على أى
 شخصيه سياسيه مهمه أو إجراء مهم اتحدته لحكومته وأخطايات فكان بعضها
 يثنى وقد تم فتحه وقرائه وأعيد بصغه بورقة كتب عليها «فتح بعره الرقيب»

حدث مثلاً لأحدى عبد الحميد، وكان قد بدأ يفكر في الهجرة من مصر بعد
 حادث نقل أحسرتة دون إده بي أنف من، وأحد ير اسل بعض الجامعات
 الأمريكية بحثا عن ودعة فيها، أن تلقى مكلمة تليفونية تسدعه لمقابله وير
 انتعيم (كمال الدين حمين) فلما ذهب اسقبله لوزير مطف وتر حيب، ثم سأله
 بعتاب عن السب الذى يحمله يريد أن يترك جامعته في مصر ويهاجر إلى أمريكا،
 ومن من الحديث أنه طمع على كل مراسلانه مع الجامعات الأمريكية، ثم قال
 لأحدى عبد الحميد ملاحظاً «هو إحتاج عدد كم واحد ريث يادكوه عن الخيل»^٩

وحدث أيضاً (في ١٩٦٨ أو ١٩٦٩) أن كتب في حجرتى في كلية الحقوق عديم
 دخل على أحد الرملاء الحديثى المهدي بالعودة من غرب، هذنا وعاصما إذ به كان
 قد سمع لثوه بحبر اعتقال أحد أساده كلية الأدب لأنه قال شتا في محاصره به لم
 معجب لحكومته وسألى وهو في عده الاضطراب «ما لى يمكن لب عنده من
 أحل الإمراع عنه؟» وثناء حديثا دخل هراش من هراشى الكنية يحمل لنا القهوة،
 وسمع طرقاً من الحديث وحرج كان هذا في نحو الواحدة أو اثنتايه بعد الظهر،
 وكنت قد دعوت إلى العشاء مدير الجامعة (د إسماعيل عام) وروخته، إذ كنت
 علاقنى قد قوت به أثناء عمدته لكلية الحقوق ووصل المدير وروخته بي بنى في

محرر الناصرة مساءً فإذا به بمجرد وصوله يقول «ما ابدى حري بيث ليوم ربيع
لداكتور ؟»، يقصد المحدثه نى حرت من يصح ساعات فى مكتبى مع هذا
الرميل الجديد . وأصاف قائلاً إن جهات الأمن اتصلت به لئلى تعرف المزيد عن
هذا الرميل الجديد، أم أن فوبى يعرف كن شىء عنى . وكان معنى هذا أنه حلال
ساعات قليلة وصل إلى جهات الأمن مصموم محدثة لى مع (رميل لى) ، حرت فى
عرفة معلقه إلا لدقيقة واحدة أو دقيقتين فتح حلالهما سبب لا ستلام لقهوة،
وقامت هذه الجهات بتحيين الموضوع واتحد قرو . بشأنه، ثم تم إبلاغ مدير الجامعة
به وطبوا منه اتحد اللازم .



كان أثر هزيمة ١٩٦٧ علياً أنه نعر صا لصدمه قوية ومفاجئة من سيارة مرعة
أنه عبورة الطريق . وأصت يهرول نام مستمر أيدما وأسابع غير أن يستطيع التفكير
فى الحادث يتألم ويستحس من أى معرى أو عبرة . كان أحد ردود فعل لصدمة
للصدمة ، الاسمع واليهاميرى فى ترديد الكتب الجديدة التى انصرفت فحاجة
للتعليق على ما حدث . ذلك أن مواجهة هذه الكثرة الكبيرة بانتقاد الحكومة سرا أو
علنا لم يكن كاهيا للمرة للتعبير عما فى صدورنا، ونحن على أى حال لم يكن
قدوين عنى تخديد مدى مسئولية الحكومة عما حدث بالمقربة بمسئولة القوى
الخارجية والمعلومات التعصبيلة عما حدث لم تكن متوافرة، وما كنا سمعه منها
كان متصربا ويؤدى إلى تفسيرات مضاعفة

كان الحزن عميقا وبكى الدمول كان أكبر ، وحية الأمن أعظم وأحطر . هل كان
إدراك كل هذا الكلام لدى طلبة سمعه خلال السنوات العشر السابقة عن بناء جيش
قوى . وعن كل هذه الصواريخ ننى منى بعصها بالقاهر والطاور ، وعن قدرنا
على استعادة حقوق المسطبيين . إلخ ، هل كان هذا الكلام كله كذا ونموها؟
ولماذا إدراك كل هذا التقييد بحريات وانتحل فى حياة الناس اليوميه؟ هل كان
هذا فقط لصالح النظام . وبسبب لصالح القضايا الوطنية؟ لم نتجح بالصنع أى محاولة
من جانب النظام فى كسب تعاطف الناس من حديد . كان الكسر أعظم من أن

يحتمل أي رُب أو إصلاح حاولت الحكومة التطهر بأنهم ستعطي الناس حريات أكبر، وصدر بيان ٣٠ مارس في ١٩٦٨ راعياً الناس ببعض الإصلاحات، ولكن الناس فهمت المقصود من ذلك سمحت بحكومة بالفعل بهامش أوسع قليلاً من حرية نقد وتمثيل مسرحيات (مثل «أب التي قتلت الوحش» يعني سالم) تضمن نقداً مباشراً للحكومة، على أساس أن السماح ببعض التفتيش عما ينصق به، صدر أيضاً قد سمح اصحاحاً أكثر تهديداً للنظام. ولكن هذا التساهل ظل في دائره صفة لنعاية، وما أسرع ما كانت الحكومة تعود في تحذير الناس من تجاوز حدود الأدب، ذكر أن يوسف إدريس كتب مقالاً قصير في هذه العترة في جريده الأهرام، في أعقاب خطة أنفا، جمال عبد الناصر على العمال، وعرف بها الحرية بأنها حرية الحصول على ريع الخبز، فاعترض يوسف إدريس على هذا التعريف بقاصر للحرية وعال إن الحرية أكثر من ذلك. مُنح يوسف إدريس من الكتان في الأهرام بسبب هذا المقال بعتره طوية

حاول جمال عبد الناصر، في سبيل تهدئة مشاعر الناس، أن يعين بعض الزوراء بمن يسمحون بسمعه طيبة بين الناس في استقلال الرأي و لرايه والحرية في الحق، مثل الدكتور جمعي مراد ولكن عبد الناصر لم يحتمه مدة طويلة إذ وحده أكثر جرأه في الحق من اللارم وأخرجه من بوراره أثناء ذلك كانت مقالات محمد حسين هكل، الأسرع في لأهرام، والتي كانت تحمل عنوان «انصر حة» نشر أعصاه، إذ بدلا من التعبير عن تعظيم به صدور الناس وتقديم إجابات صريحة على ما لديهم من أسئلة، كانت تثير قضايا معتملة أو تقدم إجابات ملتوية بتعطية على ما حدث من فشل، أو تبرير إجراءات لا تتمتع بأي شعسة. كما مع ذلك بواظ على قراءة هذه المقالات، لا أملا في أن يحصل منها على تفسير ما حدث، بل لجرد أن نعرف، ولر عن طريق التحسين وفك الألغاز، ما يدور في دهر الحكومة أو ما سوى أن تصفه

بعكس ذلك بالنظر كانت شععار أحمد فؤاد نجم اتى عها شخ إمام وسمنها لأول مرة في تلك بعتره، تعبر بضغط عما كت شعير به من سحرية مريرة

من لطيف وشعراته - ومن حرب عتيق وحافظ إرهابه ما حدث للوطن كان شعاعا
شديد إند ورصدا كملا عنى سحرمة محم ودم المرأة بمحدث في ٥ مويو

والحمد لله حطاً تحمّ نطاط

يا ما حلى عودة صطفا من حط النار

يا أهل مصر المحمية ما خرومة

العزل كثير والطعم راسر عمار

كما كذا سكي حرنا بدي سماع أعنية محم وإمام

نوح بواج والواحة عنى بقرة حاح انطحة

والقرة حلوب تحب قطار

لكن مسلوب من أهل الذار

• • •

والقرة سادى ونول يا ولادى

وولاد لشوم رايحي في يوم إلح

لا يحب إند أن تغيب حير ودة جمال عبد الماصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠

مهدوء شديد، وبشاعر فيها من دقة المفاجأة أكثر مما فيها من حزن كت في
بيروت في راحة عمل قصيرة عندما سمعت خبر، ولم يكن سماعى به عن طريق
الراديو أو الليفيون أو الصحف، بل عن طريق أصوات البدق التي أطلقها
السبب ودخان الحرائق التي أشعلوها في الشوارع لتعبر عن حزنهم كذا جمال
عبد الماصر لا يزال يثل في اعينهم ذمرا لأهداف الوحدة العربية، ومقاومة
الاستعمار، والدفع عن مصالح القوماء، أما بالنسبة لي فقد كت هذه نظري لعبد
الماصر في بسوت الخصر أو بسوت الأولى انانية تأميم قناة السويس في ١٩٥٦،
ولكن خلال الخمس أو الست سنوات السابقة على وفاته لم أشهد أى تقدم نحو
تحقيق هذه الأهداف، بل رأيت انكسار مهم في الجبهة الثلاث، فصلا عن
الشراخ سحرى في قصبة الديفراطيه وخريات الشخصية كانت مشعرى سحر
عبد الماصر عذوفه في ١٩٧٠ أقرب إلى مشعرى سحره في ١٩٥٤، عندما

عصا على طريقه مع مله لمحمد عيب، منها إلى مشاعري نحوه في ١٩٥٦ عندما تم قتل السويص، أو في ١٩٦١ عندما أصدر القوانين الاشتراكية ولم تعير مشاعري نحوه عند الناصر مرة أخرى إلا في منتصف السبعينات، عندما رأيت حجم التنازلات التي بذلها عندما أنور السادات لإسرائيل والولايات المتحدة، وبدأت إشارات عند الناصر في مجالات الاقتصاد والساسة الخارجية والعربية تدو في صوره مختلفه تمامًا، وإيجابي بلعابة، بمقارنتها بحطبي السادات في كل هذه المجالات. كما بدأ همتن الحرية الذي سمح به السادات بالمقارنة بالقرود التي كان يعرضها عند الناصر، مكسما صثيلا، من وفي كثير من الأحيان شكليا وقليل الحدوي



كان أنور السادات دائما الرئيس الجمهورية عندما مات جمال عبد الناصر فجاءه ومع هذا فقد أصابته الدهشة. رأينا أنور السادات أصبح رئيس للجمهورية كان الرجل مد سمعنا اسمه لأول مرة بعد قدم الثورة في ١٩٥٢ بنير السحرية والرائه أكثر مما بنير الاحترام أو الحب. وكان كل ما يصل إلينا عما يتعلق بسيرته أو أقواله أو مواقفه يؤكد صحة هذا الموقف المبني به ويقويه. كانت صورته في أذهان الناس صوره رجل غير حاد، معمر ولكن لمصلحة نفسه لا من أجل مصلحة أكثر وأهم، كثير المراج، وقيل النصر على القراءة أو التفكير أو العمل الحدي، مع إمرط في المرحض على لمصلحةه ولظهور الكاديه. وكان هناك انطباع عام بأن هذه الصوره تبني في أذهان السادات هي نفسها التي توجد في أذهان بقية أعضاء قيادة الثورة عنه، بمن فيهم جمال عبد الناصر، الذي كانت تصلنا قصص عن نوع للعلاقة القائمة بينه وبين السادات تطوى كلها على قبيل من الاحترام وكثير من معاد النصر من جانب عبد الناصر، وعلى كثير من الرياء والاستعداد لإراقة ماء الوجه من جانب أنور السادات. بعد اسلام السادات للسلطة في البداية وكأنه شيء مؤثت من بدوم طربلا في مراحته رجال أشداء من نوع على صري وشعراوي جمعة، ولكن صلاب ١٥ مايو ١٩٧١ قصي على هذا النظم وأدى إلى امتلاك السادات للسلطة مدة عشر سنوات حتى مقتله في ١٩٨١

لم أكن أعلق أى آمال على استلام السدات المستطعة، ولكنى أنصأ لم أكن أحسن
 مشاعره وديه على الإطلاق من هموموا فى انقلاب مايو وأودعوا بسجن بعد
 انهماسهم، إذ كاتب أسماؤهم مرتبطة رناتطا وثيف رنطابع البويس لسطام، من
 ناحية، كما أسمى، من ناحية أخرى، لم تكن بدى أى ثقة بأن بديهم، حلاصاً حقيقياً
 للانتشركة كان شعورى دن راء انقلاب ١٥ مايو هو فى الأساس شعور
 باللامبالاة، وإن كنت أخذ تسمته «ثوره التصحيح» تسمية طريقة للعانة، إذ لم
 يكن من لوصح لى ما هو الأكثر وما هو الأقل صحة، ما قبل ١٩٧١ أو ما بعد،
 كما لم يكن واصعاً لى كيف يكون أنور السادات قادراً على تصحيح أى شىء على
 الإطلاق

لم يصر عم على هذا الانقلاب حتى بدا وكأن صبر الناس قد بدأ ينفد، إذ كانت
 مهباء لا تزال محتنة، بعد مرور خمس سنوات على هزيمة ١٩٦٧، ولم تسفر حرب
 الاستراف ولا محجى، أو دماء المبعوثين البوسيين من الأمم المتحدة أو الولايات
 المتحدة أو عرهم عن أى تقدم فى إحلاء الإسرائيليين وعتر بعض الكُنُتات
 والصحيحين الكبار عما شعر به من تدمير، وقام اطللة عظاهرب عيفة للاحتجاج
 فقبائها السادات بشدة أفضحت لأول مرة عن كذب ادعاءاته عن قبوله ديمقراطية،
 فمز الصصحيين لمحتجين أو قتلهم إلى رطائف مهبية، واستخدم الطاعير لانتفة
 فى وصف بعض كبار نكُتات البدين أيلوا هؤلاء الصصحيين، كما عتقل أو فصل
 من استطع أن يصح يده عليهم من الطلعة.

ثم حدثت معاشاة أكتوبر ١٩٧٣، إذ وصل إلى سمعنا فى ٦ أكتوبر، ودون أية
 مقدمات، حبر عور الجيش المصرى لقاءه السويس وبجاجة ساهر فى عظم خط
 بارليف كان شعورى بدى سماع الخبر، كك كان شعور الكثرين، فربما من
 البصر وعدم التصديق، وكذلك شيئاً من الخوف من أن يكون وراء هذا الحادث
 المبهج حدثاً، أشياء أخرى حفية وأثل مدعاة للهجة ولكن كانت يهتفا بى أى تميز
 مصرح، فى تلك الحادثة السائسة التى كاهش فيها، تدفعنا إلى طرد أى شك من
 انهم ليس الامعاس مع لآخرين فى الفرح وانتاؤل

على أن هذا الصرح لم يستمر ، على الأقل فيما يتعلق بي ، لأكثر من أسبوعين .
 دشعرت نابأشد محبوه في قلدلأت في لتحقيق ، عندما سمعت أمور البندات
 لأون مرة بعد عور الجيش المصري لى مساء فى ٦ أكتوبر ، يتكلم عن السلام*
 ومرايا شعرت وكان قلبى يسقط فى صدى عندما سمعته يحط فى مجلس
 الشعب ويؤكد أن هدفه هو السلام ، ركن قد أصدر أمرا للجيش بالسوق وعدم
 الاستمرار فى التقدم نحو المرات فى مساء أذكر أبى بعد عطية ساعات قليلة
 كنت فى سيارة ناكسى فى ميدان لتحرير ، وإذ سائق تكسى يصجر عاصا وهو
 يقول :سلام يه وهاب إيه؟ إحنا سة أحدا بتار أولادنا لى ماتم .ولأ حتى أحدا
 سباء؟* وكان بهذا القول يمر عما يدور فى دهمى بالصسط ، وقد تحيلت وقتها
 هرى كيسجو وزير الخارجية الأمريكية فى دنك الوقت ، وهو حارس إلى مكته فى
 واشنطن ويرسل إلى السادات أولأ مأول ما يرى أن على السادات أن يطلق به
 بالصسط ، حملة حملة أذكر مدى حرمى واكتسابى وأن جالس إلى مكتبى فى
 الجامعة الأمريكية وعارف عن سادل كلام مع أى شخص ، وأفكر فى طبيعة
 الزامرة لى لم يكن لدى أى شك فى أنها تحك سا

كتب قد قرأت فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الرواية الشهيرة (١٩٨٤) للكاتب
 الإغنىوى جراح أورديل ، الذى يصف فيها عالما مخيفا يعامس فيه ساس كقطيع من
 الأعمام ، ويساقون إلى مصير مجهول ، تحقيقا لما رب مجهوله لحكم مجهولين ،
 ويتعرضون أثناء دث وفى كل يوم لأحذر هزيمة عن حروب لم تشب ، ويسمعون
 فيها عن انتصارات لم تخور ، تدعهم وراة تسمى ورة لحقيقة مع ن موطعها لا
 عمل لهم إلا تزيين التديج والخاصر والخش كمن ما حدث مصر من الهجوم
 الإسرائيلى فى ١٩٦٧ ، وحتى بدأ كلام لسادات عن السلام مع إسرائيل ، يبدو من
 عبر مفهوم المارة ، ولكنه نكاد يقطع بوجود مؤامرة ضد مصر وانعرت مرسومه بكل
 دقة من قبل أن بدأ تنمدها ، ولكنها لا تنكشف لنا إلا بالتدريج ويجرعت صغيرة
 للعدنة دعنى ذلك إلى أب أقرأ رواية أوردويل من حذد فوجدتها ملائحة حدة
 لحالتى النفسية ولزع ما كان يدور بدمى من حواطر

كانت حبه الأمل التي 'حدثتها في عيسى تطورات اسماها المصرية بعد عبور الجيش لقناة السويس في أكتوبر ١٩٧٣ ، أحد الأسباب التي ساعدت على دهمي بالعمل في الكويت في فبراير ١٩٧٤ . وقد طردت الأحبار تأنيها ، حول الأربع السرايا التي قصبتها هناك ، بياض بعد آخر ، أو هكذا يدب هذه الأجر في عيني الأمل . فقد بدا لي أن السادات ، على نحو لا يقل لشك ، وكأنه لا يعمل أكثر من تعيد محطط أمريكي / إسرائيلي . كان من عناصر هذا المحطط تصالح تدريجي مع إسرائيل ، وهو ما انتهى بعد معاهدة للصح للمقد و نهاية لعامة في ١٩٧٩ ، سميت بـ «معاهدة السلام» . وحدث في أعقاب معاجاته للمدعة التي أصابني نعم شديد ، بزيارته لإسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧ ، التي سميت بـ «المبادرة» . كان من عناصر هذا المحطط أيضا فتحه لأبواب الاقتصاد المصري أمام الورداء وروس الأموال الأجنبية بلا صبط وعلى حساب الصاعقة للمصرية ، وهو ما سمي بـ «سياسة الانفتاح الاقتصادي» التي دشنت في ١٩٧٤ ، فضلا عن استعده لملائم لقنوات ما يملكه عليه صندوق النقد الدولي والملك الأردني وما يطلعه عنه الإدارة الأمريكية بل وإسرائيل ، مما في ذلك استعده ده ساع أراضي هصة الأهرام مما تخونه من «نار شركة أحيية» ، واستعداداه لتوصيل مياه النيل لإسرائيل ، وعمله على تمليك أوامر الوحدة العربية . والتأكد على المصالح الخاصة لمصر وكأنها تتعارض مع مصالح بقية العرب . افتقر كل هذا بسوك يومي من حزب «سادات سم أحد فيه إلا باعتا عني الاحتقار بل والاشعثار . فيما كان يأتي في كل يوم حير حديد يسيء به صوحه الدليل للزعات الأمريكية ، وتعيد ما يطله من مصالح إسرائيل ، كانت قد صورده وهو يعير ملائمه بحسب المكان الذي يوحده فيه أو المداسة التي يحتق بها ، فهو مرة يرتدي رد عسكريا مدويه محجور مما يربيه من بياشين وأوسمه ، دون أن يعرف له تاريخا لأداء عسكري يستحق عليه مثل هذه البشير و لأوسمه ، ومرة يرتدي العمامة ويحمل السبحة إذا كان في قرته مع أبو الكوم خلال شهر رمضان ، منتظما بالانورج والتفوي ، ومرة أخرى في مدلته لأوروية الأبيمة التي تحمعه يستحق ، في نظر بعض المحلات الأمريكية ، لقب «أليك» وحل في اعانم وهو سجرى حدثا مع مدعة تبغريوية شكله فيه عي نفسه كلاما شير سبور الشدد لكثرة

ما يحتويه من فقر لا يمر به نفسه وتاريخه. فإذا مثل مرة عن أهم ما قرأه من كتب ذكر كتاب أنى «عص خاطر»، الذى يضم مقالات أنى فى مختلف الموضوعات ولتى سبق نشرها فى مجلات غير أكاديمية. وذكر اسم الكتاب خطأ وفيه «حوطر»، ويقول أيضاً: لكن يدل على سعة اطلاعه، إنه مر أراجع التى ذكرها أنى فى نهاية كتاب «حواطر»، والكتاب بحكم طبيعته لا يذكر اسم أى مرجع على الإطلاق.



لا عجب أن بدأت صورة جمال عبد الناصر فى ذهنى بكتيب ملامح مختلفة تماماً. عبد الناصر رجلاً محترماً للغاية بالمقارنة بحييئته، وبدلاً من الممكن جداً أن يعمر به معظم أخطائه بعد أن رأيت أعمال السادات. تفيد الحريات؟ وما هو نوع تلك الحريات التى منحها لـ أنور السادات؟ نعم، أصبح من الممكن الكلام فى التليغراف أو التاكسى وفى المحاصرات وكتابة الخطابات دون خوف من عملاء المباحث العامة أو الرقيب، كما أصبح من الممكن السفر إلى أى مكان فى العالم دون تأشيرة خروج، وهذا كله مما لا يستهان به، ولكن السادات لا يزال هو الحاكم مأسره. لدى لا يلتزم باستشارة أحد، وهو يقصف ديمقراطيته بأن لها «أبنا» ويهدد معارضييه بـ «الفرم» إلح. وليس فى تاريخ السادات السياسى رلاً فى طبيعته الشخصية ما يدل على أنه أقرب فى مراحه إلى التسامح مع الرأى المخالف، من إن عروبه الذى لا أساس به ومستوى دكانه الذى يبدو محدوداً، إذا قورن بعد اساصره، يوهلانه أكثر من غيره لممارسة حكم ديكتاتورى ولينطش معارضييه لهذا كمت أميل إلى الاعتقاد بأن ما مسمى بـ «ديمقراطية السادات» كان أقرب إلى أن يكون حراً من النصور الأمريكى بهذه المرحلة من مرح حل تطور مصر، منه إلى ميوب السادات الشخصية وطبيعته مراحه. كان من المطلوب بالطبع، فى تلك الفترة، تشويه سمعه عبد الناصر، تمهيداً لنقص سياساته المختلفة فى الاقتصاد والعلاقات الخارجيه والعربيه وعلاقته مصر بإسرائيل. وكان هذا التشويه لسمعة عبد الناصر وعهده يتعلب تاحة درحة من حرية النقد التى يسهل الرجوع عنها فى تلك المهمة التى حده السادات من حلها.

«اختصار» كنت كل توجهات نور السادات، هما عذرا إتاحتها مرئياً من الحريات الشخصية، صد توجهتي ومعتقداتي من أساسها فقد كنت صد الاعتناح لانتصادي، أو عني لأقل ضد هذا النوع من الاعتناح الذي أدخله السادات وسماه أحمد بهاء الدين الاعتناح مدح مدح، وكنت صد نصفه مع إسمائيل دوي، أي تاراً من جسدي لصالح فلسطينيين، وكنت صد نكرو للوحدة العربية، وصد خصومعه الدليل لأمريك وإموسات اديبة العربية. وفي كل هذه الأمور يردب مواقف عند لناصر مشرفة لعناية

مدمستصف السبعين إذن أصبحت على استعداد لسياك كل ما ارتكبه عبد ناصر من أخطاء، فإذا ذكرت أمانتي عترفت بهي على مصص لشعوري بأن القصبه لأن اصمحت أخطر بكثير، وأن النصحية يبعص اخريات السياسية والشخصية أعمور من كل هذه النصحيات التي يطعننا السادات ولهذا است شعرت باستياء شديد عدا ما قرأت كتاب توفيق الحكيم «عودة ابرعي» الذي كان الممرس من كبسه على الأرحح، التقرب من السادات عن طريق تشويه سمعه عبد ناصر فلم رد عليه محمد عودة يكتب «الوعي المفقود» تعاطفت عاماً مع سحرية عودة من توفيق الحكيم، شأني دائماً مع كل ما قرأته لمحمد عودة سواء قبل ذلك أو بعده

حدثت باره السادات للقدم أثناء إقامتي في الكويت، وقد فوجئت بهي وسقطت عينيها مشبه فوجي وسخط الكثيرون وقد أراد أحد السياسيين الكويتيين أن يبعد بدوة في التثقيرون الكويتي يستضيف فيها ثلاثة أشخاص أحدهم فلسطيني، وإشائي مصري معارض للريارة، والثالث مصري مؤيد لها، أو على الأقل لا معارضها معارضة تامة وعرض عني أن أكون المصري المعارض فقبل، وكان انبسطي أسدا للعلوم سياسية في جامعة الكويت، والمصري الآخر ورياً مصري سابقاً في إحدى حكومات السادات وذهب بعد خروجه من ابورارة للتدريس في جامعة الكويت عدا مادت المناقشة والتحليل، بدا على نورب السابق أنه فوجي شدة محومي ومحموم برممل انبسطي على دراسة السادات لإسرائيل، كم فوجي على الأرحح، يشبهه في تقديم حجج مقنعة لتأييد الريارة، أو عني لأقل في العثور

على بعض مبررات لها. وهو حثثُنا إذ وحذنه يدافع عن هذه البربرية طائلا كذب
الميكروفون معتوجا واستعجل جازيا، سحبا يقول لنا، به يؤيد موقفا المعروض لزيارة
تدم امتايد، عذب يكون في مرة امتراحة وتكون الميكروفون معلما. وقد أدهشني
هذا شغب دهشة كبيرة إذ رعا كان هذا أول مثل أصدوه لثش هذا السلوك، وبس
كتب قد رأيت شيبه له، عدة مرات، بعد ذلك ثم رُدت دهشني عندما سمعت أن
هو لوزير لسبب، بمجرد انتهاء التسجيل، جرى إلى وزير الإعلام «كوشني»،
وشرح له ما حدث، وألح عليه في أن يأمر مع إداعه هذه البدوة في «المصريون»
لأنها لا بد أن تسمى، في العلاقة بين مصر والكوييت. والأوضح أنه تبين بعد انتهاء
البدوة كم كان دفعه عن ابريارة ضعيفا، ومر لم يذاعه بدوة لا بد أن تسمى، إلى
مركزه في عين النظام المصري، إذ مسطهره عجزا عن التصدي لبعض الصبية
امتزددين من أمثالي وأمثال وعلى المسطبي. كف سمعت أن هذا الوزير سابق
جرى أيضا إلى السفير المصري بالكوييت ليطلب منه نفس لطلب، وكانت نتيجةه أن
معب إداعه البدوة ولم يرها أحد من غير المشتركين فيها

أما الطامة الكبرى، وهي توقيع السادات لاتفاقية الصلح مع إسرائيل في كامب
دايفيد في ١٩٧٩، فقد حدثت أنه وجردى دولايت المتحدة عذب كتب أقوم
بالتدريس والبحث كأستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا يومس أعلمون. وقدر دمن
حربي وعصى اللذين أنزلهما قراءتي نصوص هذه الاتفاقية البائعة السوء، ما
رأيت يعنى على شائشه اسليفيون سديما صديرت عبارة من ييجين، لذي كان يوقع
على الاتفاقية باسم إسرائيل، وبصفته المعهودة، عدة معاهدات «يهود هم الدين
سوا الأهرام في مصر»، إذ لم يندر من السادات أى احتجاج أو داء عليه انعصب،
بل دنا عليه فقط احرص على أن يعنى اخو ديا، ولا يصدر منه ما يعصب بعض
المواقف سبحانه، أو يركب الأهرامكي كارت الذي كان يرعى لاحتمال



لبن عجبا إذن أن كان انتهاجي شديدا عندما سمعت في ٦ أكتوبر ١٩٨١ بمقتن
أنوار السادات. ففصلا عن لادتيح الذي بعثه في نفس اجتماع هذه المحاضرة التي

ثم تكن تثير لدى إلا مشاعر العصب والعمور، بدأ من هذا الذي حدث لمسادات
وكأنه عقاب لأنني لما ارتكبه في حق مصر والعرب من أخطاء

ولكن حدث في العام الثاني (١٩٨٢) فإراد من سروري وتفاؤلي بدأ انبريس
لجديد حتى مبارك حكمه بإطلاق سراح سياسيين ولشخصين الذين كان قد
اعتقهم اسادات بسبب وبلا سب في سببهم استبق عنى وفاته، واستبقهم
حتى مبارك في قصره في إيشاوه واصحة إلى أن عهدا جديدا من الحريات سوف
بدأ وبالمعنى، عادت الصحف التي كان قد صدرها السادات إلى الظهور،
وأحدث نشر مختلف الآراء بحرية لم يعهد مثلها مد قامت ثورة ١٩٥٢ و ختمت
من لصحف والمجلات مطهر الملحق انكريه انى شاعب في عصر اسادات بما في
ذلك تمجيد سيدة مصر الأولى التي كانت صورها وأخبارها تملأ رسائل الإعلام
على نحو لم تعهده مصر في عهد الملكية وسبب أن أواخر صرامة صدرت من
رئيسة الجمهورية منع نشر صور سيدة مصر الأولى الجديدة إلا ب إذن حصص من
الترجمة؛ نمسا لإنشاعة محيط مماثل لما شاعب في عهد اسادات وبمعنى أصبح من
البادر نشر هذه الصور وقُلت بشدة عبارات لمديح والعناني الموجهة لرئيس
الجمهورية

دعنى حماسي وسروري بهذا اندي يحدث إلى الكتانه بكثرة لصحف لعصره
في مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية، وكنت قد عدت بهاتيا من إقامة
طوبله بالبحر، أربع سنوات في الكويت ثم مرة في الولايات المتحدة، وامشرت
حيرا امتستقن مصر وبدا إلى من الملائم أن أتأول في بعض مقالاتي فترة الثلاثين
عدما استبقه كلها، وهي ثلاثون عاما انى، بقصت على قيام ثورة يوليو، وأقارن
بين حكم عبد الناصر وفترة حكم السادات، كما أشير إلى معاصر اشتركة بينهما،
والتي تأمل في عهد الخلافة، أن يرى نهاية لها انتقدت نظام لدولة «الخليفة» في
عهد عبد ناصر، والدولة «الحرورية» في عهد السادات، ويبين أن لا هذه ولا تلك
تحقق أهداف الأمة كما انتقدت لإهمال السبب للبراعة في عهد عبد الناصر
والإهمال لملطق بها في عهد السادات انتقدت أيضا مسطره من أسمنتهم «ذوى

«دم الأروق» (في مقال بهذا العنوان) الذين تربعو على أريكة الحكم في عهد عبد الناصر ، ثم استمر واعتبرعين عليها في عهد السادات ، دون مبرر، خاصة بؤسهم لذلك ، ووجدتهم يشبهون أعضاء الأمر ، المالكة في الدول التي نطق النظام للكنى . إذ يتوارث أفراد أسرهم معينة حكم البلاد وكان «دما أروق» يسرى في عروقهم، مختلفا عن «دم الذي يسرى في عروقنا» شرت هذه المقالات وأسألها في مجلة «الأهرام الاقتصادي» التي كان يرأس تحريرها في ذلك الوقت اقتصادي وطني شجاع هو لطفي عبد العظيم ، استعمل حوزة الحرية المتح وفتها فأصبح صفحات مجلته لجميع آثار هذه المقالات بنطع عصب بعض المسئولين من انتحس لسادات ، واستعدين منه ، ولكنها أعصت أصلاً بعض المتحمسين بعد الناصر ، حتى عتسى مرة الناصري المعتد محمد عودة ، على ما عشرة قسوة رائدة في مقالاتي على «الثورة يوليو» على كل حال لم تدم هذه الحن طويلا ، فقد نحو عام من نفايه حكم مبارك تبين لنا أن آمالنا في حريته حقيقته لنصعاده ، كان مبدعا فيها جدا ، وسرعان ما عادت القيود شيئا فشيئا ، بما في ذلك عز لطفي عبد العظيم من رئاسته تحرير الأهرام الاقتصادي وتعيين شاب آخر مكانه ، أكثر تمهما للمطلوب ، ولم أشر في هذه المحلة أي شيء مد ذلك لبريح . ثم ظهر لي أيضا شيئا فشيئا بدسا كما محظنين في السواول ، بسى فقط فيما يتعلق بالحرية ، بل وباشياء أخرى كثيرة

بعد عشرين عاما من استسلام مبارك للسلطة تبين لنا أن نفس أسباب السخط على سياسات السادات استمرت في عهد مبارك ، وأن الفرق لو حيد بين العهدين هو في أسلوب تطبيق هذه السياسات كذا لسادات يطبقها بحراة قد يحسده العصى عيها ، ويعبر عنها بطلاقة لسان وكثيرا ما يطبقها بصفاة ، أما في عهد مبارك فكانت نفس لسياسات يطبق دون صحة ودون نهيج للناس من التعمير الطريفة التي كانت تقا في وصف طريقة لسادات في التعامل مع تركة عد الناصر ، وسعحر من تكرار السادات للقول بأنه «ماشي على خط عبد الناصر» أن لادات يمشى فعلا على خط عبد الناصر ، لكن ومع «أسكفة» أو «مجدة» ، أما عن طريقة مبارك في التعامل مع تركة السادات ، فأظن أن من الممكن القول بأنه كان

يمشي على خط السادات بالوسط ولكن دون أن يعبر نبط ذلك، ودون أن يعترف بذلك صراحة، ولكن أيضا دون أن ينفيه كان هذا صحيح في السياسة الاقتصادية، والسياسة إزاء إسرائيل والعرب، وفي الموقف من الولايات المتحدة، على السواء.

كثبت مرة بعد سنوات قليلة من بداية حكم مبارك مقل لا في جريدة الأهل المعارضة، بعنوان «ما سر كراهية حسني مبارك لسماسة الصدمات الكهربائية»^{٥٤} وكان هذا تعليق على عبارة صدرت من الرئيس مبارك «استخدم فيها تعبير «الصدمات الكهربائية» لوصف أسلوب السادات في الحكم (و) بما أسلوب عبد الناصر (ب)»^{٥٥} وقد إن أسبويه هو مخيف عي ذلك وقد فسرت هذا الاختلاف بان موظفيه البارحية لعصر السادس، وهي في الأساس «تصعية تركية عبد الناصر»^{٥٦} كانت تطلب مثبت شيها بالصدمات الكهربائية، ولكن عندما قتل السادات في ١٩٨١ كبت هذه الوظيفة قد تم تحقيقها، هم بعد ثمة حاجة في لعهد الجديد لثل هذه الصدمات



في سنة ٢٠٠٢، كان لابد أن تكسر الدروب وانفجرات والاحتفالات بمرور ٥٠ عاما على قيام ثورة يوليو. وقد دعيت للكلام في بعض هذه الندوات، وكانت فرصة جيدة للنظر إلى نصف القرن بأكمله لاستخلاص لعظات ولعبر. وهذا هو ما حاولت أن أفعله عندما دعيت للكلام بهذه المناسبة مرة في محاضرة في مركز راعن (متحف طه حسين). ومرة في اتحاد الكتاب. لم يدر بحظري تحوير هذه المناسبة إلى فرصة لتجديد عبد الناصر وتقديم اللياقات الى تجديد الحكرمة الخاية. بر رأب أن القول الوحيد الملائم هو محاولة تشخيص وتقييم الحنين عاما بأكدها. مما اضرت إلى هذه الفترة كلها لم أجد تشخيصا لها أفضل من أنها كانت حمس عام مما يمكن أن يسمى «العصر الأمريكي»^{٥٧} عصر بدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية ولا بر بعش في طله حتى الآن. نعم كبت هناك بانطع مروو مهمة بين عهد عبد الناصر وعهدى السادات ومبارك، ولكن من الخطأ في

رأى تجاهل أوجه شبه، ومن المهم أن نرى كيف انعكست هذه السيادة الأمريكية على لفتة بأسرها معهودها المختلفة. بيت هي المحاصرتين أن هذه السيادة الأمريكية انعكست على طريقه الحكم ونوع الحكم، وعلى كثير من اتجده الثورة لمصرية من إجراءات ومراعاة سياسة اقتصادية، وعلى مخط الحية والعلاقات الاجتماعية في مصر، وعلى علاقات مصر العربية والخارجية، وعلى فلسفة التنمية الخ

كنت أعتبر من المسلم به، أثناء إحدى المحاضرتين، أن ما سأقوله من معجب لاعتناجين وصادقين، ولكنني كنت قد تعرضت على هذا منذ فترة طويلة، وعلى عدم دالة به. ولكني خطر لي أيضاً أثناء إعدادهما أنني سأقول كلاماً من يصر الناصريين كثيراً. وكان هذا مصغراً لبعض المسائل من جاني عما إذا كان من الحكمة أن أفعل هذا في ظروف ترحح فيها شدة كفة أعداء ناصرية، وتراجع فيها سمات ناصرية كثيرة. لا أحب أن أراه يتراجع. فضلاً عن أن الناصريين يعتبرون من رجالهم وأنصارهم، وهو شخص صحيح في معطيه، وإن لم يكن صحيح صحة كاملة للأسباب التي حاولت أن أبينها في الصفحات السابقة. فهل من مصححي أن أفقد صداه هؤلاء وتقديرهم لي؟

تشجعت وقت ما يدور معي كما هو. ولكن حدث أن الأسبب والذهشة اللذين أصابا بعض أصدقائي ناصريين عما قننه في المحاضرتين فاقا ما كنت أتوقع، بل وأصديبي أنا بالذهشة، إذ لم أكن أظن أن حماسهم بعهد عد الناصر وعاصمهم عن صبري ذلك العهد وأخطئه قد وصل إلى هذا الحد.

دهشت أنا أيضاً وأسفب، خاصة عندما هوجب بدهشة وأسف بعض الشباب الناصري من الصحفيين الذين أكن تقديرًا فائقاً بهم، وإعجاباً شديداً بموهبتهم ووطنيتهم، وبتعدادهم للتصحية. ولكن دهشتي سرعان ما رتت، عندما تذكرت أعمارهم، وأن لم يزل أسمع هؤلاء لم يتجاوز عمرهم الأربعين، ومن ثم كانوا أطفالاً صغاراً عندما كنت أنا في الثلاثين. وكنت قد عدت لتوي من بعضي في إنجلترا. وعندما رعت إجراءات الأمن، عطائي تأشيرة الخروج لأنني كنت في

صباى منحعب لمدى الحرية والوحدة والاشتراكية، وعدمه بدأت أنا وكثيرون من
جبلى نسمع ونعاطف مع قصة أحمد مؤدعهم والشعب إمام الحملة
«ناح السواح والوآحة على بقرة حاحا الطاحا
والبقرة مادي ونقور يا ولادى
وولاد النوم رايحين فى النوم إلح»

كث قد جاورت الثلاثين من عمرى عندما تعاطفت أنا وعيرى مع هذه لأعبه
بسبب سخطها الشديد على ما حدث فى ١٩٦٧ أم هؤلاء الصغار نسيان، من
الناصريين المتحمسين، فكانوا حينئذ فى نحو خمسة من عمرهم

طوف بحاطرى، عندما تيت أثر حديثى على الشباب الناصري المتحمس، هذا
الناظر اأخرين «هل هناك أى أمل حقيقى فى أن ينقل أى جيل عبرته للجيل الذى
يله؟ أم أن من المتحتم على كل جيل أن يمر بالتجربة نفسه، وأن يستخلص كل جيل
نفسه ما يستطيع استخلاصه من تجربته هو، دون أى أمل فى أن يحصل على أى
معاملة من لأحياء النفة؟»

(١٢)

عين شمس

فى شهر مايو ١٩٦٤، ركت باخرة مصرية من ميناء الذهبية فى إبطا،
وبصحتى روحى الإنجليزية، فى طريق عودتى البهائية إلى مصر. كانت فى حتى
بالعودة، ومعى شهادة الدكتوراه ودرجة أحياء، بصعب وضعها. كان راديو
البحر يدبغ قلب اعانى مصرية باستمرار، فتصبى رغبته من الانفعال والحماس
للأعالي العاطفية والوطنية على السواء، وكانت روحى ترى انعكاسى ومصر حتى
فتصيحها علوى الحماس بدورها

قصيت العشر السنوات التالية، فيما بين عودتى إلى مصر وذهابى للعمل فى
الكويت فى أوتل ١٩٧٤، مدرسا ثم أستاذا مساعدا فى كلية الحقوق بجامعة عين
شمس. وكانت كلية الحقوق فى محور حياتى العامة طوال هذه الفترة

كسب فى هذه الفترة فى عمروا شبنى (إندأبأب التدریس فیها وأنا فى السبعة
والعشرين من عمرى وتركتهأ قل أن أبلغ الأربعين) مليا بالأمان لفسى وأمرى
وسدى، ونسبى على بعض المادئ الأخلاقية، الاجتماعيه قوة أكبر منها فى نى
وقت قبل ذلك أو بعده. وكانت هذه أول وظيفة لى، باستثناء الستين اللتين
قصتهما بعد تحرجى مباشرة فى مجلس الدولة، وكنت حشد لأزال صغیر
ساذج لا يريد عمرى كثيرا على العشرين. ومن ثم فقد كان دحونى حامده عين
شمس مدرس دحولا للحياة العامة لأول مرة، بعد فترة طويلة من الخفية، وهى فترة
الدراسة فى إنجلترا التى لم تكن أحمل فیها أى مسؤولية إلا القليلة وبكتلة للحصول
على الدكتوراه

مؤسست في حقوق عين شمس بعالم عربي قديم، فيه القليل مما يبهج وكثير مما يحلب لإحباط وحبيبه الأمل. كان المميد رحلاً لا عصاصه به على الإطلاق، فويا صارف لطيف المعشر مع من لم يرتك خطاً، ود مبادئ لا يجيد عهد، استمدتها من تربة صاعدة ملتزمة، في أسرة مسورة لم تعد تطف العيش وتمتع باحترام مجتمع القرية التي نشأ فيها، وتربى أبوه عموديتها. وقد أصبحت عمرد عودتي عصراً في فم الاقتصاد. وكان انقسم تكون من أئدس بكراسي أكثر من عشر سرات ومدرسين في مثل سى عاد مؤخرًا من يعيشهما في الحارح، أحدهما من فرنسا والآخر من الولايات المتحدة.

كان رئيس القسم (دكتور حلمي مراد) رحلاً هذا نكل معاني الكلمه، بدر أن مصدق البرء مثيلاً له. شعرت بحوه مأنودة والاحترام منذ أول يوم عرفته فيه، وطلت هذه المودة وهذا الاحترام سموان مع الوقت، إذ لم أشهد منه أى موقف يصعب من هذه المشاعر، حتى وفاته في منتصف التسعينيات وهو يشرف على الثمانين. لم أشعر بمثل هذه العواطف نحو الأستاذ الآخر في القسم لدى كان رحلاً عزيز نعمه بصفاء، ولكنه كان مكتسها نفسه أكثر من اللازم، لارعة لديه في أن يشي أى علاقات قوية مع أى شخص حارح أسرته الصعسر، فظل قليل الأصدىء والمعارف، يؤدي عمله ويؤلف بعض الكتب برضاء نفسه، حتى مات وحيداً في باريس، ولم أر زناه له في أى جريدة أو مجلة مصرية أو عربية رغم كثرة تلاميذه وكثمة

أف رمبى عائد من فرنسا والذي التحق بنفس الكلية وفي نفس السنة نتي التحقت بها فيها، فكان أبعاً رحلاً مكتسها نفسه وبكته كن ودوداً، لطيف المعشر، ذا شهامة، وعلى استعداد كامل لمساعدته طالماً أن هذا لا يتطلب منه جهداً زائداً أو عاء. كان يؤمن إيماناً قوياً بمساعدة «عش وائرل لأحررين يعيشون» لديه من امورد الدانة العسة والعقبة م يكس له حاه هائلة، ولا يحتاج إلى شىء يتوقف الحصول عليه على راءه. لأحررين، فهو شعر أنه قادر دائماً على الاستعناء عنهم ولكنه لا يحمل أى حقد أو غره من لأحررين، إذ به لا تسمى لنفسه شيئاً يتوافر لهم، ولا يستطيع أن يفره لنفسه دون مساعدتهم.

كان من الواضح أنه وصح لنفسه هدىً محدداً وواضحاً في عينيه عدم الوضوح ،
والمضطرب هو فقط السعى إليه دون انحراف والوصول إليه سهل بصفة ممكنة إنه إذن
«الاقتصادي» مستر ، لا نصيح وقته هي كلام لا هائلة فيه ، أو ماله فيما لا محل له
بمعاً مؤكداً لا يهيمه رأى الناس هي قليل أو كثير ، إذ ما أهميه رأيهم وهو وثيق غمما
في يريد ومن صحه لطريق الذي يسلكه؟ وهم على أى حال لا يملكون الإصرار به
إذ إن نديه من سدكاه ما يمكنه من كشف الضرر قبل وقوعه ، وبذيه من اهمته
والشط ما يمكنه من خيلولة دون وقوعه

كان يعرف قدر المال جيداً ولكنه كان قادراً أيضاً على الاستمتاع بحياة - لاأكل
الطيب ، والمشروب الجيد ، والبيت الجميل ، والخو المعنول ، بالإضافة إلى الوجه
الحسن ترويح من فناء ألاميه لطيفه وودعه ، هيأت له ييب مريحاً ، وتركه سعى
لحقيق أهدافه دون معصصات وأعجب له وعين ذكيين وقد ساعدها كبرها أدنيه ،
فيما أظن ، على أن تقدر كصوة روحه حتى قدره ، إذ كانت هي نفسها بقدر الكفاءة
في كل شيء مثل تقديره

أف وصل إلى مدرس لأحر الفائد حديثاً من اسولات المتحدثة فكان من نوع
مختلف عندما رحل صغير الحجم ليس لحسه معالم محددة ، وكان مثل كثيرين ممن
عرب يصعد في حديثه على انكشيهات من أسائل «حمداً لله على السلامة» أو
«كل سنة وأنت طيب» أو «وب يحصل العوائف سليمة» وهكذا ، وإذا حدث وقُتِح
هو صرح يبدو أنه يهيمه للكلام منه حقاً ، وعبر فيه عن مشاعره بتلقائية ، وهو أمر نادر
الحديث ، فالأغلب أن تتعق الموضوع بكسب مادي بأهل في تخفيعه أو تشكو من
صباغه منه بدون وجه حق

ثم مرب السوراء وحصل زميني هذا على إعرارة إلى إحدى بدول العربية وعدد
مها سيارة من سيدس فاخرة ، كان منظره وهو يقودها إلى داخل جامعة عين شمس
بلغت النظر سبب المفاصلة من صالاة حجمه - حتى تكاد لا يستطيع النظر من
الرجح الامامى - وحجم السوراء - فحافتها - ولكنى كنت لاحظت أيضاً أنه ، إذا
تصادف أن وصل إلى باب الجامعة هي سيارته المرسيدس وقد وراه في سيارتي

اصميرة والقديسة، هب ثوب الجامعة واقف لحيه وفتح له الباب على مصراعيه، ثم يجلس مباشرة غير عابئ بي وأن أمر من نفس البوابة، ولا يكلف نفسه عاء ومع يده لتحتي ركب استر هذا بفارق الواضح في المعاملة بالمعاريق الواضح جداً بين

ساردين

لم يكن هذا الإهمام الرائد مكسب لادام طاهرة استثنائية، دسغان ما اكتشف أن الظاهرة عامة، وأن الاستثناءات وإن كانت موجودة فهي قليلة. وهذا لا بد أن أعترف بأن وحداً من تحيراني لغوية والثبات في ذهني مدروس طويل وبأنى أن تعارفتي، هو هذه الفكرة أن الحرمان لدى في الصغر أمر خطير للعامة، يرتب عليه في لعاب مادية مفرطة في الكبر هكذا كتب أميل دائماً، كتب رأيت شخص يسهر عليه حب لاد، إلى السحت عن مسب ذلك في ظروف نشأته، وكلما وجدت شخصاً كروي سنخ ومشتتاً بتصحية ذلك المادي من أجل فكرة أو مدافعاً عن علي، الأمور أنه سمعنا دافع حرماناً في مساهم، ولحققة أي لم أصادف في حياتي أمثلة كثيرة ندهص نظريتي هذه، وصادف الكثير جداً مما يؤيدها، ولكني على استعداد بالطبع للاعتراف بأن هناك حالات غير عادية تمنح هذه الفكرة الدفعة الشيط عن تصورها

كانت العائلة لعظمى من أستاذة ومدرسي كلمتي في عين شمس دوى أصول ريفيه واضحة، لا تزال تظهر، حتى لدى كبار السن منهم، هي طريقته حديثهم وصحبتهم وإشاراتهم لأيدي واختيارهم للأسماء (إبح كما أرى كنت أعرف عن بعضهم أنهم صعدوا إلى مراكزهم الاجتماعية الحالية من بدايات اجتماعية متواضعة. كنت عدية من كان منهم في سبي أو أصغر، ممن استمادوا من محبة المعلمين التي أدخلها طه حين في ١٩٥٠، ثم عممها حمدل عبد الباصر بعد ذلك سنوات قليلة، وما كان يفصّر أن يتموا تعليمهم، خامعي بولا هذه المعجانية إذل فقد كانت بطرنتي بطقن على هؤلاء، ولكن استرعى تشهي أن كثيرين من كبارهم أكثر ساء مني بكثير كانت لديهم نفس الخصلة، وهي اعتزاز كتب المريد من المثال مساهمها للتصحية بكثير من الأشياء الأخرى

كان الأمر كله صورة مصغرة لحالة المجتمع المصري تكرر مجتمع مكتظ
بلسكان، لا ينتج ما يكفي لتوفير حياة لائقة للجميع، فينافس الجميع على الكسب
المادى ويحاولون دون جدوى إحصاء هذه المنافسة والتظاهر بعكسها، رغبة هذه
المنافسة بصعاب شديدة من حتمال وجود أى بطف حقيقى، إذ إن الجهد المطلوب
لتحقيق الهدف لا يترك بقية للتعاطف لتحقيق مع الآخرين هذه الأعداد لعصره
من سكان هي المسئلة في النهاية عن هذا التنافس الحاد، ولكن هي نفسها التي
تخلق فرصا لريادة الكسب المادى إذا استطاع المرء أن تتح سعة تحتاج إليها هذه
الأعداد العظيمة، كالكتب الجامعية مثلا

كان التكال على تدريس المقررات الدراسية في امصر دت الأعداد الكبيرة
من الطلاب يصل أحيانا إلى درجه صعب على العقل تصديقها كما كانت المناه
بين الأساتذة على التدريس في هذه المصوب تكون المحور الأساسى الذى تدور
حوله أحاديثهم حصرت مرة جلطة من جلسات مجلس الكلية، بعد ترقية إلى
درجة أستاذ مساعد، حيث طرحت مسألة الخلاف بين قسمين من أقسام بكلية
حول من الذى يقوم بتدريس مقرر باللغة الفرنسية أدخل حديثا فى الكلية كان
القسمان يسانان على الاستقلال بتدريس هذا المقرر ويقدم كل منهما الحجج لتأييد
أحقيه به لم يذكر من بين هذه الحجج ما يدره المقرر من كسب مالى، مع أن جميع
الحاضرين والمناقشين كانوا يعرفون جيدا أن هذا هو السب الوحيد بهذه المنافسة
الحادة وبعد أن استمررت المناقشة فترة طويلة دون أن يسأل أحد القسمين عن
موقعه، عمراً أستاذ محوور عن لا ينسب إلى هذا القسم أو ذاك، وعن رؤوا عهده
ماصيا من جهود الجامعة في مصر لم يكن للكسب المادى فيه هذه الأولوية العالية،
بل كان الأمانة فيه يتعود في الأساس على أشياء أخرى غير المال، عمراً هذا
الأستاذ المحوور وسأل سراءه عما إذا كان الأستاذان متنافسان لتحديد اللغة الفرنسية
التي سوف يدرس بها هذا المقرر فإذا ما اكتشف أن مستوى كل منهما في هذه
اللغة لا يسمح مطلق بقيا متهما بتدريس هذا المقرر سألت نفسى عن ذلك وكيف
سكوب حال هذه الكلية عندما تنهى هذا الأستاذ المحوور وأمثاله من لا يزالون
تذكرون ماصيا أقل تعاسة؟

حدث لى حادث قطع يدور أيضاً حول الكتب امدادى إذ جاءنى طلب من طلاب الدراسات العليا ليقول لى إن مدرسا فى قسم آخر غير قسم الاقتصاد ورع على طلبية بعض المذكرات فى الموضوع الذى يدرسه، واقتضى من الطلاب مقابل ذلك ثمنا ليس هبسا، وأن جرة ه من هذه المذكرات، الذى يصل إلى نحو عشرين صفحة، و المكتوب عليه اسمه باعتباره مؤلفها، فأخود بالنص من كتابى الذى كتب أدرسه فى بطريقة اسعدت معوا (لاقتصاد اليومى) بطة ألفة ثانية من سوات سباسب، وهو كتاب معد لطلبة مبتدئين فى دراسة الاقتصاد، ولم أكن أتصور أن يدر من لطلبة الدراسات العليا، ماهيك أن يصح شخص آخر اسمه بدلا من اسمى باعتباره مؤلفه، ولا يشير إلى انكتاب المأخوذ منه ولو فى هامش صغير

دهمت أنشكر لرئيس القسم، فهتم بما أقول وراعه ما حدث مثل ما راضى، وأحصر كبرى ومذكرات ريمى وقارر بينهما، واستقر رأيه على أن خطا جسيم قد ارتكب، وقال لى ب شكواى فى محلها وأن عى أن أطلب منه ما أريد وسقوم تنقيده مهما كانت درجة شدته عندها وصل الأمر إلى مضع رئيس متركب الحزم جرى إلى مسقطنا ومعتبرا ايراحيا منى المعصونه، وكان أهم ما كان يذكره لى ويكرره أملا فى أن يحظى بهذا المعصوه أنه على استعداد لأن يقسم معى الربح الذى حققته من توزيع هذه المذكرات بآى نسبة أقوم ب بتحديثها وقد صرفت النظر عن الأمر بزمته، ولم أطلب ثمنا لانه ولا من رئيس القسم، ومرغاب ما يست القصه كلها

كانت هذه القصة مصفة تمام مع أشياء أخرى حدثت فى لكتبة كتاب لمجلس الأعلى لجامعات يعلن بين حين وآخر عن الشروط التى يجب بوافرها فى الكتب الجامعية، أى الكتب التى يؤلفه أساتذة الجامعة لطلعت وبصطر الطبعه لشرائه سواء أعجبهم لكتاب أو لم يعجبهم، بما فى ذلك سعر الكتاب باسمه إلى حجمه، وذلك معا لاستعلاء الأساتذة لطلابهم ومع ذلك كان بعض الأساتذة يتحيلون على هذه المعواهد فريدون حجم الكتاب كن منه بلا مرور إلا بادة السعر و كان الشارون ضامون لاطلع على طبع هذه الكتب الجامعية المصنونه بتوزيع، سيما

يحاول بعض الأساتذة أن يحتفظوا لأنفسهم بالرجح لدى يعود على الأسافر ، بأن يعودوا بتوزيع الكتاب دون الحاجة إلى ماسر ، فيكتفون بموقف بالكلية سعي للكتاب لحسبهم

وهكذا أصبح تأليف كتاب عامي جزءاً أساسياً من مشاغل الأساتذة بشكل ما يحصل عليه من إيرادات وراثته جزء الأكبر من دخله . ولكن لموضوع المطلوب لتأليف فيه قد يكون حديداً تمام على الأساتذة ، فإدائه لا شرع في المكتبة . لا بعد بدء التدريس ، ويضيع من كتاب مدمرة بعد أخرى تورع على اسلاميد معصنة ، أسوعاً بعد آخر ، قبل أن يعرف الأستاذ الذي يمكن أن يحتوى عليه المصور الثالث . ومن ثم شاع بين الطلاب تعبير الذهاب لشراء مدمرة أو ملاروم بدلاً من شراء كتاب أو كتب

كان المحفوظ أيضاً أن إدارة الكلية تنوحي شر من الطلبة والأساتذة والموظفين على السواء ، فتخطط لامتحنات بعدد من الإجراءات التي يشبه الإجراءات الموكلة خوفاً من ارتكاب أي عمن من أعمال انعش المحتملة وهي تشهه . فالأستاذ يطلب منه أن يودع نسخة من الامتحان في حرايه حديدية في حجرة العميد ، ولا يسمحها العميد للطباعة . لا وحر يوم لامتحان ، فيحس الأستاذ إلى جانب الكاتب على الآلة لكاتبة لطبع لامتحان قبل موعد الامتحان بساعات قليلة ، ونحاط الحجره التي تجري فيها الطاعة بحرمة مشدده ، خوفاً من سرّب الأسئلة إلى أيدي الطلاب قبل بداية الامتحان . والامتحان نفسه يجري في حيمة كبيرة تتسع للآلاف المؤلفة من اطلاب ، يراقبهم مدرسون منتدبون من بعض المدرسين الثانوية ويحصلون مقابل هدي عمن جسده أو جسدهن يضافان إلى مراسيم الزهدة . ولكن إذا ذه الكلية كم أنها لا تتيح ثباتاً في لطلبة ، لا تتيح أيضاً في هؤلاء المدرسين امتدبين ، إذ إن ضعف مرتباتهم هدي يعربهم بعقد اتفاق مع بعض الطلاب يعطوي على غص بصير عملاً يرتكبه الطالب من عشر ، في مقابل مكافأة يحصل عليها المدرس خارج حزمة الامتحان . ولهد فإب أساتذته ومدرسي الكلية يتولون مهمة مراقبة الرافقين ، والتحقق من عدم عقد مثل هذه لاتفاقات . والأستاذ

الحامى محمد ابهمه عسرة للعبه، والأعداد عسره، والظروف نى بحرى لها
لا متحان صعبه، فالخو حار، والأرض متربه، والكراسى التى يمكن لهم الخوس
عليه عليه وحطرة، إذ لم نلق فيه السامير باخر من الكافى، فأصبح الخاس
عليه مهبطا محط عريق ملاسه والظله شديدو الخراة ومستمتتوب فى محاوله
لعشر يهدف السباح بأقل جهد يذكر فهم يمسون فى معاملة المراقبين، ومراقبى
المراقبين، فلا يظفر أحد المراقبين يسارا إلا ويضرب لظلمة الخلسوب فى ناحية يمين
فى سادل المعنوبت سرعة، وعالستهم يعتقدو، أن الامتاع عن مساعده زميل
جاهل يتنافى مع مبادئ لشهامة والبروءة. وفى كل سنة يتكرر الطلاب طرق جديدة
للعب لم تكن معروفة من قبل فتصاد علة مجارب كت على ظهرها بعض
الإحداث تحل محله الكتابة بخط صغير لبعابة عنى ورقة لا تكاد يرى، يقوم
الطلاب بالتلاعها بسرعة إذا حدث وراء المراقب وهو سفل المعلومات مه إلى ورقة
الإجابة همد، سئل الطالب فى ذلك أنكر شدة ارتكابه أى عمن من الأعمد إلى
رأه لمراقب يارسها، ويحلف بأعظم لأيمان مؤكدا براءته، ولا يستطيع أحد، فى
هذه الحالة، توقيع أى عقوبة عليه، إذ إن لائحة الجامعة تشترط لذلك توفر الخمسم
للمادى للمجربة، أى لورقة التى تم منها النقل، وحسم المجربة قد أصبح لأن داخل
معه الطالب وليس هناك طريقة لاستخراجه منها إلا بقتبه والطالب قد يذهب إلى
المراقب راعما أنه فى أمس الحاجة إلى الذهاب فوراً إلى دورة المياه وإلا حدث ما لا
تحمد عقباه فمحله المراقب إلى عمد الكلية، إذ ليس من بين سمطات المراقب ست
فى مثل هذه الأمور الخطيرة و تصميمه قد يقبل أو يرفض بحسب تخمينه عن
شخصية الطالب الذى يأتى إليه همداس أرسل معه ساعيا من سعاة الكلية الذى
تهدد إليه مسئولية مصاحبه الطالب كطله، والدخول معه إلى دورة المياه ثم العودة به
دون أن يسمح له بوحراخ أى ورقة من جيبه ولكن سعاة الكلية فى حالة برش بها
من الفقر، وإعراء الذى يتم حصوله بالسماح للطالب بأن يعمل ما يشاء فى مقابل
رشوه صغيرة، هو إعراء أقوى حتى مما تعرض له المدرس ابتداء من حارج
الكلية وعمد الكلية رجل حصف متمرس بالحالة ويعرف حداً أقوى الإعراء الذى
يتعرض له الساعى المكين، فيصر قبل أن يسمح للطالب بالانصراف من الساعى

على أن يفرغ جيبه من كل ما فيها أو أذ بسن ليعمد أهد حالة من الأصل . ومن ثم
كان من المناظر التي اعتدت رؤيتها في هذه الخيمة العظيمة منظر الطالب وقد أخرج
لفاتة انداحية لطبي سر واله يؤكد بنعيم استعالة أن يكون مذه أي به للعش

أما بطالنت فكس يعتمدن أحياء على حجل المراضين ولأساندة فيتمن بكسه
المعلومات على اخرء العدوى من حواريهن انطوالة أو حتى عسى الباق بمسها ،
الأمر الذي يدهش معه المرء من العناء الذي يبذله من أجل النجاح في الامتحان ،
ويجعله يتساءل عما إذا كان كل هذا بعاء الذي يتحمله في تلخيص الكتاب ، ثم
كتابة لمعص على مكان من أحسابهم بصعب على اوراق رؤيته ، هو أقل من
عناء قراءة نكتاب وهمه في من هذه الحالة تعتمد النكية على بعض الموطعات
العملاء بها إذ تعهد لبهم مهمة تفيش مطالبه المشكوك من أمره ، أو اصطحابه
إلى حجرة حصة يحرق فيها التأكد عما إذا كان المكتوب في ورقة الإجابة مطابقا
محد ايره للمدون على ساق الطالبة

حدث مره وأن اوراق الطلة في أحد هذه الاستحداث أن لمحت من بعد طلة
مائلة جسم يوحى منظرها بأنها تقوم بعمل تدف من اكتشافه ، إذ تطلع بين احين
والآخر سارا ويمينا كالعصمور الخائف ، ولا ترائي وأن أرقب حركاتها من بعيد
نالا ضرب فيلا من خصف تأكذب من أنها ثقل لإحانه من ورقة صغيرة . فما
أحب لوجودى فجأة أسرع بأحفاء هذه الورقة الصغيرة تحب ذقها الممنلى
وصعقت عيها إلى أسفل لكي تنقى ابورقة بين دفتها وصدرها ، دون أن تقع عسى
الأرض وأعثر على «جسم لخرقة» ، ولا يصح بمكانها ينكار واقعة العش ، وهو
بؤدى عادة إلى فصلها من لكسة لمدة عام على الأقل وقد جعل إلى الفصل الكامل
من الجامعة واجهتها بي رأيها تعله وأنكرت ، فطلت منها أن ترتع رأسها إلى
أعنى فكره اب إنكار وأب أن تحرك رأسها مع أنها كانت في وضع مضحك لعنه
إذ تصر على إنكار العش بينما رأسها يصعط على صدره بشكل غير طبيعي بالثرة
وأخيرا وقعت ابورقة وتفتده مع ورقته إلى العمد .

لأن أن أسرة بطالة قد فعلت لمستحيل في ذلك بيوم لمحاولة معرفة اسم أى

شخص يمكن أن يتوسط لدى إلقاء الطاعة. حضرت بعد ساعتين على ومن قدم لى كان يدرس فى حاضره لندس فى نفس الوقت الذى كنت أدرس فيه هناك، رحانى دون حدودى أن أصفح عن النساء، التى ظهر أنها إحدى قريباته، وكان من الواضح لى أنه يشعر بدهشة حقيقية من أن أصغر هذا الإصرار على معاقبتها

بعد انتهاء معركة لامتحانات كانت تحمل معركة «الكترو» ، ولا أدري سر استقرار هذا النمط لأحسى استخدام دون غيره، حتى من جانب من لا يعرف كلمة حبة غيرها من مرطبي الكلية، للإشارة إلى تلك الظاهرة التى يصعب أن تجد مثيلاً لها فى أى دولة أخرى، على الأقل بالشكل الذى كانت تدور به فى مصر والكسول فى الحاسبات لمصريه يعنى جميع وترتيب الآلاف مؤلفه من أوراق الإحانة، ثم إحداء أسماء أصحابها وتدريب الأرقام السرية عليها، ثم توزيع الأوراق على المصححين فى بيوتهم فى ظل حراسة مشددة خوفاً من صياغ أو سرقة إحدى الأوراق، فليصطر لكثرة طفا للمعاون، لاعتبار صاحبها صاحباً ثم متابعة المصحح حتى تنهوا من أعمديهم فى الوقت المحدد، ثم نقل الأوراق من مصحح لآخر، إذ من المتنوع مع بات अगर د مصحح واحد تصحيح لورقة كلها. فإذا انتهى تصحيح أحضرت الأوراق وكبها، نخب حراسة مشددة أيضاً، إلى غرف تقع فى بدوم الكلية، وهى ذات أقفال ومفاتيح يستحيل تزييمها، ودب نوارد عنها قصاص حديدية وتخصص عرفة لكل سه دراسية، ويجتمع ثمانية أو عشرة أماندة ومدرسين فى كل من هذه الغرف ويحكمون إعلاى العرفة من الدحل، ثم يبدأون عملية قاسية قد تستغرق شهراً كاملاً، وتبدأ فى كل يوم من الثامنة صباحاً وقد لا تنتهى إلا فى منتصف الليل. هذه العملية تكون من الخطوات الآتية :

١ - مراجعة كل ورقة على حدة للتأكد من أن كل إجابة قد تم تصحيحها ولم يعرض المصحح تصحيح سؤال أو قراءة نصحة سطور فى صفحة من صفحات ورقة الإحانة، إذ يجب على المصحح، أثناء تصحيحه، أن يحيط بقلمه على كل صفحة من وكل مرة ما ندب على أنه اطعم عليها

٢ - إعادة جمع درجات الإحانة للتأكد من أن المصحح لم يخطئ فى الجمع

٣- رصد الدرجات في كسوف

٤- إذا كانت الدرجة السبائية عشرين ودرجة ساجح عشرة يحرق رفع كل سبع درجات ونصف إلى عشرة رافة بالطلاب

٥- إذا نبي أب الطالب حصل على درجة أم من ١٠ ولكنها لا تقل عن ٨، هي مادة واحدة أو مادتين فقط، ترفع الدرجة بس عشرة، رافة بالطلاب

٦- ثم يُصنف الطلاب إلى طلاب ناجحين وطلاب راسبين (عليهم ما بعدو السنة الدراسية) وطلاب متخلفين (أي عنكهم لا انتقال إلى السنة لتاليه ولكن مع إعادة الامتحان في علم أو علمين)، وطلاب تعرض حالاتهم على لجنة الرافعة، التي تقر ما إذا كانت درجة أو درجتان هـ أو هـ ب، قد يؤدي بهم إلى استحقاق درجة أخرى هـ أو هـ ب، مما قد يؤدي بهم في السبائية إلى النجاح

٧- تأتي بعد كل هذا بوضع إعادة الأرقام أسريه إلى أصلها، أي تحويل الأرقام إلى أسماء، وذلك قبل عرض النتيجة على العميد لاعتمادها

حدث مرة حسنا كنت عضواً من أعضاء «كترول» السنة الثالثة، ان كان من بين الطالبات في تلك السنة روجه أسد من «ماتدة الكلية، فرب في سن متأخرة أن تواصل دراستها التي كانت قد انقطعت عنها بالروح لمبكر كـ روجهها يحشى رسوبها فطلت سر من أحد الأساتذة المشغولين عن الكترول أن يحاول معرفة الدرجات التي حصلت عليها كـ هذا هو عامها بـ، أن يعرف أحد درجات أحد اسلاميـه قبل أن تعلن النتيجة رسمياً ولبي الأساد طلب دميـه فاكشف هذا أن روجه حصلت على ٩ درجات في إحدى المواد، وعلى أقل من ذلك في مواد أخرى مما يؤدي حتماً إلى رسوبها لم يستك لروح، فذهب إلى أستاذ المادة التي حصلت فيها روجه على ٩ درجات وقال له «ما ضره لو رفع كل تسعة إلى تسعة ونصف شفقه اسلاميـه استكين؟» كان هذا سيؤدي في الواقع إلى إجحاح عدد كبير من الطلاب في هذه المادة ما دامت «تسعة ونصف» يتحول بلقيـه إلى عشرة فهم أستاذ المادة مقصده ولبي طبعه، فرفع درجات كل التلاميـه في هذه المادة لكن يستعد

الروحة وينتقل حياها من الرسوب إلى السباح ثم هذا العمل المشين في سرية تامه، ولكن مدرسه صغيرا من المشتركين في أعمال الكترول، عرف بي حدث فصعده لثوره لعميد وأجره بالأمر ثور العميد ثورة عارمه، وكان رجلا عفيفا وصار ما هي نفس الوقت (الدكتور إسماعيل عام)، و مر بإعادة الأمور كما كانت وصرح الأستاذ الروح مع مرعب، واصطرت الروحة إلى إعادة البسة الدراسة من جديد

كما هي هذه الفترة لعصبة، فترة الكترول، برسل بأحد لعة، إذا حل وقت بعدء، ليشتري لنا سندوتشات من لعل والطعمية من محل قريب اسمه (محب) اشتهر بحودة طعامه وبطعمه، فبسع كل ما شئت سندوتشاته، وإذا أراد المرء من الرفعة طلب من الساعي أن يشتري له قطعة أو قطع من لبوسة من محل ملاصق له اسمه «الدشس» أي البوق، اشتهر بسوره بجوده حوياته فإذا جلب الساعي هذا كله مع كوابل الشاي سادت لسعاده الحجرة لسبع دقائق ناديا حللها بعض الكنت، لفرح عن اصبا من عده الكترول، ولكن استنادا إلى الكرم (هو د حليم مراد) كان يسرع من حين لأخر بشراء كمية من الكاف والكعبة، لجميع أعصبه الكترول من ماله الخاص فكانت سعادتنا تنصب عطف وتكرار خلال تناولنا الطعام تعبر عن شديد امتناننا له وثاؤنا على أريحته



كان الدكتور حليم مراد، من بين كل من عرفتهم في كبة حقوق عين شمسي، أقر بهم إلى قليب، وقد تأثرت تأثرا شديدا بعدم وصلتي حر وفاته وشعرت كما لو كنت فقدت أب أو أخا وإلى جانب حليم مراد أتذكر بعز ر ومحنة رحلين آخرين، أحدهم الدكتور إسماعيل عام الذي شغل منصب العميد لفترة قصيرة أثناء وجودي بالكلية، ثم صار مديرا للجامعة ثم وزيرا، ثم عرفه عن قرب من جديد عندما جاء إلى الكويت، بعد تركه الوزارة يعمل في نفس المؤسسة التي كنت أعمل فيها، وهي لصدوق الكويتي بشتية ثم اكتشف مرضه سرطان الرئة وتوفي به قبل أن يبلغ الستين من عمره ولاخر هو عم عوض فرائس قسم الاقتصاد

أما الدكتور حلمي مراد فكان رجلاً وسيمًا ذكيًا، سليم بتقدير الأشخاص والمواقف، وقد ترتب صحيح في رأيي للأولويات، فلا يدلي بتوابع الأمور ويعطي الأمور لمهمة حقها. كان أيضاً لطيف المعشر محاملاً، لديه كلمة لطيفة يقولها لكل شخص دون أن يشوبها أي نفاق. كان هكذا مع ملاميدته ورملائه وخدمته وفقر شئ الكلية صبي السواء. ولكن رأيت أيضاً صديقاً وحارماً مع الرؤساء والعظماء، لا يهانهم ولا تعرّضهم، ما صلبهم. كان يظن ذلك لقول المأثور «كن كلمتك وامض»، إذ كان ما يهمه، فيما لاحظت، أن يقول حتى يصرف النظر عن نتائجه. لا يتنظر الحصول على مكانه عبر قوله، ومستعد لتحمل نتائج هذا القول. ولو كانت قسمة. ولكنه كان أيضاً عدل لقول، يستريح البكته الطيبة ويصحب لها صراحة قصيره ولكنها صافية، وكثيراً ما يحتلظ عبارات المجاملة التي يقولها بحيط رقي من الحرية التي لا يخرج أحداً

عرفته لأول مرة عندما كان مدرساً للاقتصاد في الكلية بحقوق القاهرة وكتب أحد بحثه عندما صعد في السنة الأولى أو الثانية، ولكن لم أكن قط سمع له، ولم أعرفه عن قرب إلا بعد نحو عشر سنوات عندما عدت في إحارة إلى مصر أثناء بعثتي بـجيشرا وكتب قد حصلت نتوى على درجة البجشير، وكان هو رئيس قسم الاقتصاد بحقوق عين شمس التي كنت حصلت على بعثتها، ومن ثم كان من المقرر أن أعود للتدريس بها بعد انتهاء دراستي بالبحريرا. ذهبت إلى الكلية أثناء هذه الإحارة للتعرف عليها، ولأحضر من لم يعرف بحقوقى على البجشير من جامعة لندن، فحورا نفسي ولا أعرف بعد مدى جهنى ومبالغة شأنى. عيسى حلمي مراد معاملة لطيفة للعامة وكأنه فهم شعور شاب في السادسة والعشرين ملئ بالطموح المبالغ فيه، ولا يعرف شئ بعد عن حقيقة الجامعة لمصرية أو المجتمع المصري دعاني لبعثاء في مطعم هدي في وسط البلد، كبرج من الاحتفال بحصولي على البجشير، وصر على أثناء البعثاء إذ رحب أمالته عما إذا كان قد قرأ هذا الكتاب أو ذلك، وأستعرب أنه لم يقرأه. وكان من بين هذه الكتب فيما أذكر، كتاب لباربرا ووتين (Barbara Wootton Laments for Economics)، تُعند فيه علم الاقتصاد شدة. لم أدرك أيضاً مدى كرمه معي. إذ أعطاني بعثتين أو ثلاث ساعات من وقته

وعلى هذه المعاملة اللطيفة، إذ اعتبرت مثل هذه الدعوة للثاء عملاً طيباً من رئيس مجلس نواب حديد سرف يصمم للقسم بعد سواب قليلة، ولم أقدّر هذا لكرم منه إلا بعد أن رأيت كثيرين غيره، من أساتذة الجامعة أو غيرهم، وكيف يعاملون زملاءهم لصغار وغيرهم أيضاً.

بعد عودتي من العنة كثرت مناسبات لقاءنا، حتى بعد أن برك هو حقوق على شمس إلى صاحب أعلى، وخاصة في الدورات والمؤتمرات الكثيرة، التي تناول مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، وكذلك في المجلس الأعلى للعلوم الاجتماعية، وفي جمعية الاقتصاد والتشريع. أذكر مرة أنه قال لي تعليقاً على أحد المؤتمرات التي كانت مخصصة وقبها تحت شعار إصلاح التعليم في مصر، وسط صخب كثير ودعاية واسعة، وساحراً من كل هذا الصخب والإنفاق على مؤتمر لا يرى أي داع له، «يهم لو فتحوا أي درج في أي مكتبة بوزارة التعليم، لأنه أهم سيحلون بغيره كل الإحراجات المطروحة، لا سيما في مصر، دون أي حاجة لمؤتمر جديد».

كنت لاحظ عليه، بعكس غيره من الأساتذة، إذا رأته في كلية الحقوق أو في جمعية الاقتصاد والتشريع، أنه كثيراً ما يضع يده في جيبه ليخرج ورقة نقدية يدهسها في يدها المرفأش أو ذاك، فيلهج الغرض بالشاء عنه ويدعوه بطول العمر، فإذا جاءه تلميذ يسأله عن كتاب به أعطاه به نسخة كهديّة، وإذا هم يركوب سيارته، يجلس بجوار السائق لا في المقعد الخلفي. كيف كان كتابه المقرر على الطلبة أصغر الكتب حجمًا، وأقلهم سعرًا.

ثم شهدته يسرح نواباً لرئيس جامعة القاهرة، ثم رئيساً لها، ثم وزيراً للتعليم، في أعقاب هزيمته ١٩٦٧، عند شكل عبد الناصر حكومة تضم بعض الرجال الذين يسمعون بسمعة طيبة لدى الناس، من حيث أسيرة واستقلال لراي ثم تتعمد جميعاً وهو يقوم بنشاط غير عادي كوزير ومحاول الإصلاح، فعمل، حيث رضى عنه. شارك كل شيء على ما هو عليه، ثم يستقل، أو بالأحرى يحس على الاستقالة، عندما يصبح الإصلاح مستحلاً. ولكنه لم يوجه حاصاً عندما بدأ

يكتب تلك المقالات الرائعة في جريدة شعب متعمداً ساعداً آخر في مساهمة حكومات السادات المتعاقبة، وسه إلى ضرورة الإصلاح في مجال معد آخر من محاولات حياة السياسة أو الاحتياطة أو الاقتصاد

كانت تعاودني الدهشة كلما قرأت مقالاً جديداً له، من كل هذه بصلالة التي تكسرها أقصى درجات الهدوء وهذا الأدب الجم كان يبدأ المقاد هادئاً فيأثر أكثر الموصوحت سحره ماقشة العالم الرصين فيعده الحجاج التي يؤيد رأيه، ولا يبدو عاصفاً أو ساحطاً، وإن يبدو فقط وكأنه فكر مد في الأمر وانتهى إلى هذا الرأي الذي يطرأه، فإذا مث وقد انتهت من قراءة حجة فذامت لك العصب، على الدم في عروقك، وصررت كتب بكتب مسجياً من كل هذه الحجج الواضحة كأنهم لم تغلب نظر أولى الأمر وتعجب أيتها من أن يؤدي هذا الهدوء السام وهذا التحسين المطلق الرصين إلى كل هذه المشاعر القبيحة لدى القارئ، وكل هذا السطح على ما آل إليه الخان

كان يبدو وكأن مجموعة من المبادئ الأخلاقية والعمالية استمرت في دمه ولا يستطيع أن يساهم في نظره من السهيات ودهشة ألا يراها الناس كذلك من هذه السهيات مثلاً أن بورراء حميم مسئولون مسئولية ثمانية عما يفعله بغيره البورراء ورئيس بورراء ليس هناك شخص أكثر من أن يقال به أخطأ إذا أخطأ، لا فائدة من جميع المال إذا جاء عن طريق غير شريف حاجة الإنسان إلى المال هي في الحقيقة محدودة، فحاجات الإنسان الحقيقية قليلة لا يمكن أن ترفع المصعب الكبير شخص صغيراً، ولا الخروح من المصعب يجعلك كبيراً صغيراً إذا قتت تعمل لأن هذا هو ما أعلاه عليك صميرك من بيرينك شرف بشفة الناس بعملك، ولن يقلل من شرفك أن أحد لم يشكره أو يذكركه لا فائدة من القسطه وعدو الصوب في قول الحق، لأن الحق واضح نفسه، ولا يحتاج إلى مكر لتبصر

وهكذا كان بعد حدثنا الدكتور حمدي مر دء المرة بعد الأخرى، ثمنا تذكر منه الناس بأشياء كانت في الماضي تعامل كذبهات ثم سبها الجميع، مثل أن الجماعة مكان تلقى العدم وتوصيه للناس وليس لتحقيق المرح، أو أن القراءات المهمة في

حياة البلد يجب أن تعرض على الناس للمناقشة قبل اتخاذها، أو أن الوزير لدى
تُعطي هدية من دولة أجنبية يجب ألا يحتفظ بهذه الهدية لنفسه من عبثه أن يسلمها
لذوله لأنه لم يحصل عليها لشخصه بل بحكم منصبه، أو أن الوزير انتظف أفضل
من الوزير غير لطيف، أو أن الرعم بالتصديق سفيد شاقص مع تعييد حرية
لصحافه إلى آخر هذه الديدنهات التي يراف حلمي مراد واصحة كالشمس
ويرفض القول بأنها من محدثات الماضي وأن عليه أن يساها

عُرض عليه بوزرة في وقت عصيب (١٩٦٨) فقبلها لأن تقلد الوزارة في رأيه
خدمة عامة وفرصة للإصلاح لا يمكن أن ترفض، مع أن غيره ممن كان لهم مثل
معدنه ومراحه وهدده ومقصوا لوزرة إينارا للهدوء والسلامة قبل لوزرة وهو
يعرف في قردة نفسه أنه لن يعمر فيها طويلا وقبله خرح من بوزرة مفتي دسوان
الذي به نفس معدن حلمي مراد وبواسته وصلاته، لأسباب شبيهة جدًا لأسباب
التي أخرجت حلمي مراد من الوزارة والذي عييه وزيراً كان أقوى رجل في مصر،
لم تشهد مصر في تاريخها حديث من كان يثير ارهية والخوف مثله فرأى حلمي
مراد أحد الوزراء، وهو وزير العدل، يتصرف على بحر لا يرضى حلمي مراد عنه،
إذ أخرج الكثير من القصة من مناصبهم ظلما وتلف لصاحب السلطة فاعرض
حلمي مراد وهو وزير التعليم، مسألة عيد ناصر باستعراش شديد عما يجره إلى
البدل فيما لا يبينه، على أساس أنه وزير التعليم وهذا أمر يتعلق بالقضاء ووزارة
العدل سمعنا رفته أن جمال عبد الناصر. في هذه المسألة، أو في مسألة أخرى
يكنم فيها أيضاً حلمي مراد بما لا يعجبه. أعلن الملك ابدى أمامه وخرج من مجلس
الوزراء عاصبا وهسر حلمي مراد هذا الذي حدث، التفسير بصحيح، وهو أنه
دليل على أن رئيس السلطة التنفيذية الذي اختاره وزير الم يعد راضيا عنه. وأن
عنه به على ذلك، واحتراما لنفسه أيضاً، أن يقدم استقالته ولكن لمسانة لم يكن
بهذه الساطة فالخروج من الوزارة لم يكن سهولة الدخول فيها، ولعصر لم يكن
عصر استقالات، بل إن من يختلف مع الرئيس لم يكن مسموح له بالاستقالة، بل
يجب أن ينظر حتى يصدو قرار بمقالته، فلا تمتع بشرف بمؤسسه حق الاعتراض
والاستمارة

لأكثر مدعاه للإعجاب هو مصروف حلمي مراد بعد ذلك، فإنه لم يحاول قط، طوال العشرين عاماً التي تمت هذا الحادث، أن يستعلم بصلاحه، مع أن هذه كان من سهول الأمور بعد أن نزل كل شيء بعد وفاته عبد المنصور رأب على عقب سم يحظر سأل حلمي مراد قط أن يستعلم هذا الحادث لتقرب من الحكام لحد، بل ولا أذكر أنه قد ألقى شيء تنصص افتتاحاً أو رهوا عواقبه وشجاعت. كل ما صعب أنه كلما حاول أحد أن يصور هذا الحادث على غير حقيقته، رد عليه حلمي مراد بهدوء كامل، وإيجار شديد يتفق مع مبرره الشديد من أن يصاحبه بتصرفه بما به يديهها وطبيعياً تماماً

كان رجلاً مسقيماً بأجمل معنى هذه الكلمة، وكان ما رأيته من مواقفه من السلطة وحيرة للسلطة معه يذكرني بالمثل الشعبي الجميل «مش دوعري يحتر عدوك منك» ولكن هذه الاستقامة كانت تدور لي أيضاً وكأنها لا تكفه أي جهد، ومن ثم كان يبدو لي دائماً بعيداً وراضياً عما في نفسه فكيف لا يختار عدوه فيه؟ إذاً الذي كان يمكن فهمه لحلمي مراد كوسيلة لإعراجه؟ وما الذي كان يمكن أن يصع لإحاطته؟



أما الدكتور إسماعيل عائم فلا أستطيع أن أرفع أن علاقتي به كانت علاقة صداقة حميمة، ومع ذلك فإنه من الأشخاص الذين لا اكف من حين لآخر عن تذكرهم رغم مرور أكثر من ربع قرن على وفاته، ولا أندكره دون أن أشعر بالأسف لفقد

كانت بداية معرفتي به بسبب علاقة رسمية بحتة، فقد كان أستاذاً في حقوق عين شمس عندما تم التحقت به مدرست صغيراً كان يكبرني بسحو اثني عشر عاماً، وقد دهشت دهشة عظيمة عندما رأيته لأول مرة كان اسمه يتردد ذكره في هوامش كتب القانون المدني وأنا تلميذ في كلية الحقوق، فاستقر في ذهني أنه أستاذ قديم محجور، كما تصور الشخص عدده شخصاً مشهوراً لا يكف اسمه عن التردد في الصحف والكتب. مرر بـ أحد أممي «شباباً» في مطلع الأربعينيات، وسبباً بحيف ورفقاً، ثم وحدته رجلاً عصباً متروحاً من هولذبه وهواظاً على قراءة لمحات و صحف

الأجسة، وقد نهى لاهتمام بالحلقات لأيدولوجية من مسار المصري والنمى، مما كان لا يتفق مع بصورة التى أحملها فى ذهنى لمعنىون النمى الذى كان شير فى نفسى معنى الترمز بل وثقل اسم

بم يخص أكثر من عامين أو ثلاثة على اسحاقى مدرسا بائكية حتى عين إسماعيل عام عميدا به، هارتاح الجميع لتعبيه، إذ كان إسماعيل عام يتمتع بالاحترام المعتنى بالحلب من الجميع، وبم أسمع للمبدا من بلائمه يتكلم عنه دون أن يشيد بمصله وكفاءته كمحاضر كنت أشاهده أيضا وهو يراقب التلاخض فى الامتحان تلك الخفة بهائلة التى تضم الآلاف المؤلفة من الطلبة، فلف نظرى بعد صبره مع من يحولون العشر، إذ يعلى دمه ويروح ويخى، فى عصبية ظاهرة فى محوله مسخمية مع العشر، بينما عيل معظم الأستاذة إلى إراحة أنفسهم برك مسئولة لرافقة بنى المدرسين المعيين من المدارس الثانوية، ويشغلون فى الحديث مع ملائهم أو فى صحیح مروعات كشم

بدلى إبن من السداة نه من نوع مختلف وقد تأكدنى ذلك على مر الأيام فبعد شغل منصب العمادة حاول أن يرسى بعض استقاليده الخاصة التى كان بأسف عى صبياعهم. وحاول أن يبدأ العام الدراسى بإدخال نوع من المراسم تكسب الدراسة الجامعية بعض القداسة المفقودة، بأن يدخل العميد فى صحبة الأستاذ بنى المدرس، فى أول محاضرة لكل أستاذ، وكلاهما يرتدى الزوب الجامعى، فيقدم الأستاذ للتلاميذ ويحثهم على الخلة والنشاط

كان هذا فى ١٩٦٦، وكان عام كليا فى تاريخ سببه المصرية دشر فترة طوييه من أكثر هرات التاريخ لمصرى كانه، ولكن لم يكن يدرك ذلك بعد كد من أكثر أعوام الناصرية شدة فى الظلم البوليسى وتقييد الحريات وكاتب الاشرافية العربية قد أصبح مقرر معروضا على جميع الكليات الجامعية، حتى الطب والهندسة، وكنت أقوم بتدريسها فى كلية الحقوق بمحضر احتشارى، حيث كنت أعتبر نفسى اشتراك ولدى ما أخويه فى الأمر كان سمعيل عام بدون شك داميول شراكه حقيقيه أيضا، وداعلاوت فوييه بعض ايساريين المصريين دون أن يكون له نشاط

سببى فقال أو عصفوا من أى من الحركات اليسارية وكان لا يطبق بعض الأساتذة الذين كانوا يهدرون بأنهم ذوو ميول دينية والذين كان إسماعيل عزم يرى فيهم ، نحن ، عاقلا يحضرون به بوارع مجارية ومادية بحتة

ثم حدثت هزيمة ١٩٦٧ ، وكلا شعورا بالهزيمة للهزيمة شعور يترق العصف ، أساتذة وصلات ، ولم تحس بصعقة شعور على انهزيمة حتى اشتعلت الحامية بالإصرار ، واضطر عند الضرورة إلى إعلان الحاميات ، وأصدر أثناء هذا الإعلان بياناً شهير باسمه بيان ٣٠ مارس ، فى محاولة للتهنئة وبعث بعض الأمل فى الناس فى أن ثمة بعضا اسعدت فى طريقة الحكم . ثم أعلن أن الحاميات سوف تفتح يوم السبت ، ودعت كل كلية اساتذتها للاجتماع فى إعدادة فتح الحاميات ، سوجيه من الحكومة ، سلق الأساتذة طريقه تعاملهم مع الطلبة وضرورة قيامهم بتهنئة التلاميذ ولحافظه علم الضم . كان الأمر يدعو دافعا للثناء والعبس فساد ٣٠ مارس نادى مجرد حلة مكشوفة لانتصاف عصب الدم ، وأنه لا يقصده أى تعبير حدى . كما بدت لى تلك الاحتمات مع الأساتذة مجرد مثل جديد دحاله الحكومة إرهاب الأساتذة وصمان سكوتهم عن الحق

كان إسماعيل عزم لا يركب عسدا للكلية عندما وصلتى دعوه إلى حضور الاجتماع ففرت بلا تردد عدم الذهاب . وكان عزمى عن الاجتماع كذا لئلا يثاره على ثورة عظيمه . دعائى لذهاب من ألت إلى مكتبه على الفور ، وإذ بى أجدته يمدنى معاملة المعيد الواحد من المرمين وقد سعى كل شىء ، العلاقة شخصية والظروف السياسية ، ولا يسيطر على ذهله إلا أمر واحد مدرس بالكنية مختلف عن حضور اجتماع دعى إليه لعدم كنى دورى فى ثورة على طريقة معاملة داره الجامعة للأساتذة ، وبررت عيايى بأنى كنت أعرف بالصطرب الاجتماع ، وهو إصدار الأوامر بس عن طريقة لتعاض المصنوعة مع الطلبة ، ونى أرفض ذلك ، وأردت قائلا : «إنما لم نعد قادري على النظر إلى ظلمتنا وجهه لوجه» وفوجئت برده العفوى الذى بين حلاصه وصده «هذه أنت روحك يا أحمى الذى فشت قادر تواجه عيوب الطلبة ، ما كذا عندما نفس الشعور؟»

كان في حجرة العميد شحص آخر يحاول التهذبة، هو الدكتور محمد حافظ عام، وكان وقتها وكلا للكلية ودق التدفون أثناء المشقة، فالتقط العميد السماعة وتحدث الدكتور حافظ عام حاشا محاولا إقناع بعدم الاسترسال في مناقشة العميد وإذا بصوت عميد وهو يتحدث في البليصون يبدو عليه حاجة الاهتمام الشديد، ثم يدعو الدكتور حافظ عام إلى نقاط السماعة إذ إن المكثفة به، والمكتمل من رئاسة الجمهورية

كان عند الناصر وقتها يشكل وررة جديدة يحاول أن يدخل فيها بعض الأسماء الجديدة التي تتمتع بشعبية وتقدير عام، ومن المعروف بالنسبة والاستقامة واستقلال الرأي، حتى ولو كان في استقلالهم بيهذا انفرادا مائلا أي، في محاولة منه تهذبة الرأي العام، وكانت هذه الفكرة هي التي أدت إلى دخول الدكتور حلمي مراد إلى الوزارة لأول مرة كانت هذه الفكرة أيضا انسب في هذه المكالمة التليفونية التي تمت في مكتب إسماعيل عام أثناء وجوده به وقد تناقل السمع بعد ذلك قصة طريقة اعتقد أنها صحيحة، وهي أن عهد الناصر أثناء اختياره للوراء حدد عبر عن رغبته في أن يدخل لوزارة أعظم نتائج الحقوق، دون أن يلتفت إلى أن في كلية الحقوق عامين وليس على واحد، العميد والوكيل وأعلب الظن أنه كان يقصد إسماعيل عام، فهو، وليس الدكتور حافظ عام، المعروف بميله الاشتراكية وباستقلاله في الرأي ولكن لانسب به عرضت انوار على لوكيل دون العميد، وشاهدت الدكتور حافظ عام تناول سماعة مرتعش اليده ثم يرتعش صوته وهو يسأل المكتمل عن طريقة الدخول إلى القصر الجمهوري، كان هذا الخطأ، إذ صاحب الرواية، هو انسب في وجود الدكتور حافظ عام لمحو عشرة أعوام في أعلى مستويات السلطة، فقد نقل من وزارة لأخرى، ومن عهد عبد الناصر إلى عهد السادات، وانتهى به الأمر إلى أن يصبح المسئول الأول عن الاتحاد الاشتراكي، دون أن يترك في الواقع أي أثر على الحياة السياسية للبلاد، فقد عرفت عنه الطعنة الدائمة للممسين الحقيقيين بزمام الحكم.

أما إسماعيل عام فقد ترقى في عهد عبد الناصر من عميد لكلية إلى وكيل ثم

مدير الجامعة عن شعبين، وكان شعوري وقتها أنه أكرر بكثير من أن يشعل هذه لمناصب الإدارية مهما كان شأنها، في وقت كان يستحيل على شخص برعب رغبة حقيقية في الإصلاح، مثل إسماعيل عام، أن يكون له أثر يذكر في ظل سيطرة الباحث العامة والمحاضرات وقصة عبد الناصر ورجاله الحديدية. وقد قلبت مثل ذلك عندما ذهبت لتنهضت في مكتبه عند بحسه وكيلا للجامعة، فكان رده أنه كان يتوقع بالطبع أن سأقرب مثل هذا الكلام. كان الرجل يعتفد مخلصاً أنه أنا كان اعصر أص على انعام الذي تدار به السند فإن علينا ألا نعصر أية فرصة تساح لنا للإصلاح «من الداخل»، وأن عملاً وحداً إيجابياً يقوم به في موقع هام أفضل مائة مرة من الاكتفاء بنقد نظام من خارجه، ثم القول تشف فيما بعد «ألم أقل بكم؟». وري كان الرجل على صواب، ولكن من المؤكدة أنه هو نفسه اضطر إلى العذوب عن رأيي مع تكرار حبه الأمل، المرة بعد الأخرى.

حدثت وهو وكيل للجامعة حادثة ذات معنى، إذ سقى بعض الصوء على طيبة النظام في السنوات الأخيرة من عهد عبد ناصر، وعلى شخصية إسماعيل عام. كاتب الحكومة لاتزال مصورة على تدريس مقرر الاشتراكية العربية وفيه المبررات التي سبب به «قومية»، كالمجمع العربي والنظم العاوسي. وكنت قد قمت بتدريس الاشتراكية العربية في كلية الحقوق خلال السنوات الثلاث السابقة على حرب ١٩٦٧. ثم حدثت الهرجة ولم أعد تصور أن أدخل إلى المدرج لأحاصر الطلاب عن صرايا الاشتراكية، في وقت كان قد اسفر شعوري مع عدد صغير من الناس على أنه لا صلاح بلبل، دا استمر نظام عبد ناصر في ديكتاتوريته. كان اسم عمل عام عصوا في المنحة التي يختار لقدمين بتدريس المقررات القومية وقررت المنحة أن أقوم بتدريس الاشتراكية في كلتين آخرين عن كلية الحقوق، ولكنني اضطررت عن تدريسه في الكليات جميعاً، في ذلك كلتي وأذكر أن إسماعيل عام سأني وقتها مونحاً عن صب اعتدائي، فقلت «لا صاب أندولوجية». ولم تعجه الإحانة ولكنه لم يحاول إقناعي.

تحويت قصة إسماعيل عام إلى ما يشبه الكوميديا في عصر السادات بعد أيام

عبد الصمد اللازمية، وقل أن تنتهي حاشه فحاشة بهانة مأساوية هي الكوت قص
 سرات السادات لأوسى، التي كان من حلالها يستعين بعض دوى الكفاءة
 والإخلاص، عين إسماعيل عديم وريثا لشفاه وقص الرجل بصحة شهور بدرس
 شوب الورودة حتى اكتشف أن حزم مصادفها، ولا عيب تمثيل والمثلات هي
 تعاملهم مع القطع انعدم، كسر بكسر من قدرته على الإصلاح، فذهب إلى
 السادات طالب إعفاء من الورودة وإعادته إلى الجامعة فصل السادات وعيه مديرا
 الجامعة عين شمس وظل إسماعيل عام أنه يدت يعود إلى مكان عكاه فيه أن
 يدر من بعض الاستقلال، فإذا برميل هديم نه هي كفيه لحقوق، يتنعم باحتقاره
 واحتقر غيره، عين وريثا للتعليم العالي ويرأس بذلك المجلس الأعلى للدراسات
 ويش إسماعيل عام وغيره من مديري الجامعات ويصبح أى فرصة لإصلاح
 الجامعة فمعر من عين إسماعيل عام بعد سوب قليلة أن يشعل هو مصف
 وريث التعليم العالي لم يردد هي قوله، إذ رأى، عين حد قوله بى، أن من الأهون
 عليه أن يكون هو الوزير من أن يخصص لثلاثة وريث أهوح لا يحمل له أى احترام
 على أن هذه أيضا لم تدم طويلا، إذ مر عام ما تيير به من جديد امتحالة تعاونه مع
 الحكومة، فاستعنت الحكومة عن خدماته وعاد من جديد أستاذ في كلية الحقوق
 مألته مرة عن مسبب غضب الحكومة عليه وتركه لوردة بهاتيا فروى ل عدد من
 القصص من بينها القصة التالية تى يتجلى على سياتها

كان يجلس في مكتبه، وريث للتعليم العالي، وقد بدأ يحس بعدم ارتاح
 الجهات لعبه له عما في ذلك وريث الداحلة الذي كان يساوره الشك في أن
 إسماعيل عام يحسن اتجاهات بإربة أكثر من اللازم، وبس صادم بالدرجة
 اللازمة مع الطلبة الثائرين ضد حكمه واتصل به تقيويا وكيه العديم المتكثور
 حفظ عام الذي كان قد أصبح مشغولا عن الاتحاد الاشتراكي بحره عن اجتماع
 سوف يجرى عقده من قرية الرئيس ومن العلماء المصريين في الخارج الذين جاءوا
 إلى مؤتمر في مصر وحبوب إسماعيل عام الاعتذار عن حضوره لاجتماع فقال
 حافظ عام إن هذا مستحيل وهو وريث لتعليم وذهب الوزير على مصص إلى
 الاجتماع حيث ستمع إلى السيدة حيهد السادات تحكى للعلماء المصريين مصه

دوت يسها وبين هري كيسجر كانت تحوهم دفتحر شديد كيف أبها استطاعت
 بمهارة الحصول من هري كيسجر على ترع بضعة ملايين من الدولارات مؤسسة
 اوفاء والأمل، إذ قلب كيسجر إن مساعدة أمريكا لإسرائيل خلال حرب ١٩٧٣
 قد كلفتها الكثير نسب كثرة عند الموقوفين، فودا بكيسجر يرسل لها، بمجرد عودته
 إلى أمريكا، شيكا بضعة ملايين من الدولارات شعر إسماعيل غلام بالاشمئزاز
 الشديد، ولكنه لم يستطع أن يمس بحرف، بل اكتفى بأن طأطأ رأسه ناظر إلى
 لأرض ثم رفع رأسه ليصر كيف كان وقع القصة على الحاضرين هدا به يجد
 الجمع ينسحب ابتعاد عريضة، يعبرون بها عن إعجابهم بشديد بمهارة السيدة
 جهان ووطنها. ولكنه لمع بصف وجه لسدة جهان الذي تبين منه أنها لاحظت أنه
 لم يشعر بنفس الإعجاب بذى يشعر به الباقون بل زاد اطمين بله أنه ما إن يعبر
 الموضوع وبدأت ماقشة مشكلات العلماء لمصريين بالخارج حتى انسحب إسماعيل
 عام ناثرًا على أحد الأراء المطروحة، مفرجًا بذلك عن شعوره بالاضغاضع عما كانت
 تقوله روحه لرئيس مند خطاط، ومن انجبه بغضبه اتجاهها محلها نغما ساء دلت
 أيضًا قوينة الوئيس د تسست ثورته في تعكّر وصعو الاجتماع الذي كانت ترعه
 وتضمنه معهم.

سأته أيضًا ضاحكًا عما إذا كان لمصب الوزارة أية مبرة كانت تكفي لأن يتمسك
 به فإن إن لمصب لوزير ميرتير رحيدين الأولى. تنعق «بالطاط» إذ يحصص
 لكل وزير، عدا السارة أو الساراتين حكومتين، والسائق الخاص، شخص
 آخر يعرف «الطاط»، وهو شخص يجلس إلى جوار السائق ويتحضر مهمته في
 القفز من سيارة قبل وفوقه لكي يفتح للوزير الباب. قال إن هذا الطاط مع ذلك
 مسب له مشكلة فقد أسهبجن، إسماعيل غلام بشدة أن تكون هذه هي كل مهمة
 الرجل فقرّر أن يستعيد منه على أي نحو آخر كانت روحه الوزير دائمه الشكوى
 من أنها لا يستطيع الحصول على رد، فحظر له أن يكتب لخطاط شراثة، فوهر
 على روحه غناء لوقوف في طابور اجمعية طلب الوزير إذن من الخطاط أن يذهب
 يبحث له عن ريد ثم سعد إلى مكتبه فإد دتليتون يثق بعد ساعة في مكتبه وإد
 بالتحدث مدير مكتب وزير التموين مستعمرًا من وزير التعليم العالي «كم كيلو من
 الريد بلصط يريد؟»

قال إن هناك ميزة أخرى مصب الوزير لا يمكن لتهويين من أمره، ذلك إنه يجلس الوزير في قاعة اجتماعات مجلس الوزراء، وقبل أن يدخل رئيس الوزراء، كثير، ما يأتي موظف إلى الوزير فيحييها في إيماءة ليحضره بحر ما وصل إلى الجمعية «تعاونية من مبلغ، للوزير الأولوية في الحصول عليها، وكان آخر ما يذكره هو شحنة من البطاطين الصينية كاتب قد أرسلت كجزة من معونة صينية لبعض المحتاجين في مصر، فإذا بالموظف سألته عما إذا كان الوزير يرغب في إرسال بعضها إلى بيته

لم نتحمل، سماعيل عام طويلا العودة كأستاذ في كلية الحقوق، هذا المصعب الربيع اندى كنا جميعا نعتبره أسمى من أي مصعب آخر، وهو ما فعل كذلك حتى يمر المرء سحرته مثل تجربة إسماعيل عام، لم أذكر أنا مثل هذه التجربة، ولكني أستطيع أن أتصور شعور رجل وصل إلى أعنى المصعب وأصبح يهدده بدرجة من القرب من مركز اتخاذ القرارات ثم يشن عجزه عن القيام بأي إصلاح بعد هذا قد يبدو أنه الاستمرار في التدريس والبحث من قبيل العبث، إذ ألم يكن الهدف من التدريس والبحث هو الإصلاح في النهاية؟ فما حدود هذا كله إذا كانت فرصة الإصلاح غير موجودة أصلا؟ لقد فابت روبراغت سابقا مرت مثل هذه التجربة ثم أدهم الحصر، ولكن الأكثر حدوثا هو أن يبحث الرجل المصعب بحبيبة الأمل عن وظيفه مريحة عالية الدخل وقبيلة المنحولات هكذا فعل إسماعيل عام وظيفه مستشار قومي بالكويت، وهو آخر من كنت أتصور أن يقل مثل هذه الوظيفة ولكي فوجئت يوما وأن أعمل مستشارا اقتصاديا بالصدوق الكويتي إسماعيل عام، يأتي ليصمم بيما في عمل لا يتطلب جهدا كبيرا ولا ألمعية رائدة، ولكنه مجر مادنا كان هذا في نظري، بدسسه بمرجل مثله وهي مثل سبه، عملا من أعمال الاستسلام وإعلان للباس

لم تمض ستة أو سبعة شهور على التحق إسماعيل عام بالصدوق الكويتي حتى اكتشف أنه مريض بسرطان الرئة، وذهب إلى نيويورك للعلاج ولكنه لم يدم هو لا. وبلغ في الكويت نأربته على عدد آلاف الأميال من وطنه الذي بد كل جهده في أن يفعل شيئا من أجله فلم يفلح



الشخص الآخر الذي أحسنه حاضرا عن تعرفت عليهم في كلمة المحرق كان عم
عوض الساعى الوبى في قسم الاقتصاد كان يكرسى نحو عشرة أعوام، بحما
ردا نشره حديقة السواد وكان يش دائما برؤيتى بل كان شرسا على الدوام لا
أذكر أنى رأيت يوم متجهما ولا أنه شكالى من شيء كان ككل التوبيخ الذين
صادفتهم في حياتى قوعا، لا يسوف لا فى الأكل ولا فى الكلام إذا وقع حادث
سياسى هاج له طنة الكبة ومجوا، ثم يكن عم عوض يعلو عليه بأكثر من حملة
صعرة يعبر بها عن عجه لما يحدث وقلة فائدته ولكنى لم أشعر قط، مثلما كنت
أشعر مع غيره، دى مشاعه عن الكلام كان منه احرف، بل كان منه مجرد إدراكه
النام بقية حيث، وقلة حيلنا جميعا، واعتقده اجارم بأنه لا جدوى من كل ما
نصنع أو نقول اعتد سنى، كلما جاء إلى سنى لعمل من أعمال الكبة أن أعطيه
محموعة من الملاص القديمة، فكان يقبل بسرور ولكن دون أن يظيل عبارات
الشكر مثلما كان يفعل غيره كنت كلما عت عن الكلمة لذه طويلة ثم أذهب إليها
متشوقا إلى «متعددة تكريات المناصى، أسأل أول ما أسأل عن عم عوض فلما قبل
فى مرة «معتش أنت»، كف كان لانه أن أتوقع أن يحدث يوم ما، شعرت بأن ما
مهما من الأساب الفيلة لذهابى إلى الكلية قد قُعد

(١٣)

الكويت

- ١ -

في أوائل سنة ١٩٧٣ دعت للاستضاف في مؤتمر الاقتصاديين العرب بالكويت،
والغناء تعليق فيه عن شحطط في البلاد العربية كنه الدكتور يوسف صبح
كانت هذه هي أول زيارة لى للكويت، وكنت الكويت في ذلك الأيام تتمتع
بمحاوية شديدة نفية العرب، هم يهيم لمثقفون ذهب للعمل فيها بعض من كبار
اشغفين العرب، وجمعت محفلتها الشهيرة «العربي» سمعة طيبة تحت إدارة مثقف
مصري كسر كن مديرا سابقا لجامعة القاهرة (الدكتور أحمد ركي)، وما كان أكثر ما
يعقد في الكويت من مؤتمرات وندوات عن مستقبل العرب وموقفهم من إحصارة
العربية - بح - وإلى جانب هذا كان هناك الطمع الرخاء الشديد مع انحاء في
الإنهاء

كان المؤتمر جيد الإعداد، وكان الإحدى عليه سحيا أيضا، فحصره عدد كبير حد
من صغرة المثقفين والعاميين العرب، وخطى تنغطية إعلامية واسعة تريد حتى على
ما تخفي به أمثال هذه المؤتمرات في دولة صغره كالكويت

استقبلت تعليقى استقبالا طيبا للغاية، وفاق توقعاتى، ثم فرجت باندكتور زكريا
عصر الذى كان يعمل وقتئذ في الكويت رئيسا لقسم البحوث في الصندوق
الكويتي، يلغنى عر صا من رئيس هذا الصندوق، عبد اللطيف الحمد، بلغىء
للصندوق

جاءني هذا العرض في يناير أو فبراير ١٩٧٣، في أعقاب حماما وثناء شديدين

سقطت بهما كلمتي في مؤتمر الاقتصاديين، مما صاعف من تقديري لمسى وأثار في عرورا جعلني أرفض العرض براء وشمم. رغم إجحاح حاميته على بالمول، ومحاولة قوية من جانب لترين احياة في الكويت في نظري كان هذا الرفض يعتبر مدعشا حلقا بكل من معنعه، وكان المرتب الذي يحصل عليه ابراء، في مثل هذه الحافة، أصعاف ما يحصل عليه مثلي في مصر، وكان أساتذة الجامعة المصربون يكذبون على المصربون على أقل منه، إذ كانت لمرتاب الي يدفعها الصدوق الكويتي أكثر بكثير من مربات جامعة الكويت، والعمل فيه عيطة هائلة من التسجيل لا يحققها العمل في معظم المؤسسات الكويتية الأخرى

لم تقص أكثر من ثمانية أشهر حتى عبر موقفي من هذا العرض تعبراً تاماً هي أكثر من فامات الحرب الشهيرة. وعلى الرغم من شدة تهليل لدى صاحبها لما اعتبر انتصارا عسكريا، أصابني عم شديد بعد أقل من أسبوعين من قيامه، عندما رأيت مرثف السادات وإعلان رغبته في اسلام، وقد س أن هناك حطة محكمة لنذفع مصر دعما إلى التصالح مع إسرائيل وهو اعتقاد أكده في نظري الانقيت المتتالية التي عقدها مصر مع إسرائيل حتى مقتل السادات في ١٩٨١

عندما أتذكر لأن كيف اشتدت رعتي في ادهاف للعمل بالكويت في شهور الأخيرة من ١٩٧٣، حتى كنت أرسل برقية تلو الأخرى استعمل لصدوق الكويتي في إرسال تفصيل العرض الذي يعرضونه عليّ، وأحثهم على ترتيب إجراءات سفرى إلى الكويت، عندما أتذكر ذلك لا أستطيع تصميه ما طرأ على موقفي من السفر للعمل في الكويت الاعاملين ' ردك ذلك الشعور المؤقت الذي مسطر عليّ خلال أيام مؤتمر الاقتصاديين في الكويت، بالمسألة في قدر مسمى، وشعورى بالإحباط الشديد لما طرأ على الموقف السياسى المصرى فيما يتعلق بعلاقة مصر وإسرائيل.

وصني العرض المكتوب من الصدوق الكويتي بعد إلحاحي في استمجاله، وما أسرع ما أنهت إجراءات السفر في مصر واعتذرت عن لتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة خلال النصف الثانى من العام، حيث كنت قد انتدت للتدريس

بها في ذلك لعام دراسي، وأنجمت واجباتي على عجل في كفة حصون عين شمس، التي كنت أدرس فيها ممرافق التجارة الخارجية بالإنجليزية، دون حتى أن أحظر العميد أو مدير الجامعة أو أي شخص آخر يسي في السمر. كان عزمي قد انعقد على السمر، ولم أكن أتوقع بالمرّة أن توفّق جامعة عين شمس على إعازتي بل صندوق انكويتي، إذ لم تكن شروط هذه الإعارة متوفرة في حاشي في ذلك الوقت ووظفت نفسي على الاستقالة، إذ لم الأمر عرصت على الجامعة لأمر بكية زيادة مرتبي إذا قررت السفاء، فأجبت بأن من المستحيل على الجامعة أن تعطي مرتباً أساس المراتب الذي سأحصل عليه في الكويت وسافرت مرحة متصلاً بهذه السحرة الجديدة بما على، واتى كنت متلهف على تذوقها ومعرفه كنهها، ورنست مع روحتي كيف تنحق بي في الكويت هي وأطفالي الثلاثة، بعد أحمرها بترتيب مكان للإقامة لنا جميعاً في الكويت، وبعد أن أعثر على مكانين لتي وأكثر الولدين هي مدرسة ملائمة



بعد وصولي إلى الكويت بصعوبة أيام قابلت مصري كان قد أمضى أكثر من عشرين عاماً فيها وأوشك على معادرتها وعودة يهثبا إلى مصر، فألته عن رأيه في الحياة في انكويت بعد هذه الإقامة الطويلة فقال صاحك «الدخول إلى الكويت كدخول فأر صغير في رحاحه رأى به قطعة كبيرة من الحين، أسال لعابه، وحرى إليها دون أن يفكر فيما إذا كان سيستطيع الخروج من لزجة بعد أن يلتهم قطعة الحين»

وقد شهدت هذا المظر بعيني في مصري بعد أحمر من ذهبا إلى نكوت مدعوين بالرع في «نكوب» «نكوب» استخدام لتعبير الشائع في مصر ومنها، وأدى كد يقصد منه توفير الشاب ليلع من اما، لا يستطيع توفيره في مصر، فيمكنه من نزواح أو شراء شقة أو سيارة، أو يودعه في اسك ويحصل من ورائه على عائد يكمل به مرتبه السيط في مصر، ويلجأ إليه إذا طرأ طارئ هنا أكثر المصريين الذين ذهبا إلى انكويت مدافع «نكوب» «نكوب» هذا، ولكنهم لم يبتطعوا

الخروج بعد أن ألزموهم إقطاعه الحبس، إذ أراد ورثهم وترهلت نفوسهم وأعتجت
شبهتهم للمرء، وما كان يدور كتاب في ابدانة لم يعد كافياً، وما كان كمالاً يسيل
لاستغناء عنه أصبح ضرورياً لا يمكن العيش بدونه

وقد استمررت إقامتي في الكويت أربع سنوات ونصفاً، ولم تعد لي بعد تركي
بها أي رغبة في العودة إليها إلا خصور دوة أو مؤتمر ليوم أو يومين، ولم يستمر
سروري بالإقامة بها أكثر من عام واحد بدأت بعده المعصاة. ولكن كان الخروج
من الكويت بعد عام واحد مستحسلاً، فكنت قد أحترت بيني في مصر لمدة أربع
سنوات، وأنا الذي كانوا يعدّون التحقوا بمدارس حيدة في الكويت، وبدأوا هم وأهمهم
يعادون الحياة الحديثة. ولم أكن وأنا على أي حال من صواب ترك كل هذه المزايا
لمادية الواضحة بعد عام واحد لأسباب قد أكون أنا المسؤول عنها وليس أحد غيري،
إرداد الطين بلة بعد سنة أخرى، وتقدمت باستقالتني، وعرفت على العودة وبو
صطرت لا استجداء شقة أقيم بها حتى أستعد شيئاً من شأن آخر. ولكن سحت
الاستقالة عندما أرسل رئيس الصدوق من سرّصني وحاوّل استعائتي، فقبلت
دون أن تعود إلي راحة المال أو الرضا عن حياتي بالكويت واستمرت الحال على
ذلك حتى تلقيت دعوة لقصاء سنة في أمريكا أستاذاً وانثرا بجامعة كاليفورنيا،
فأمسكت هذه الفرصة بكلها اليبس وانصرفت من الكويت عبر آسف ولم أندم
على هذا قط، بل طبت ذكرى تلك السنوات الأربع التي قضيتها في الكويت، كلما
عادت إلى، تشرى لاستعرااب أكثر من شيء آخر مرغماً أنها لم يحل من بعض
الأيام السعيدة، خاصة في السنة الأولى، هباني استعرب كيف انتفضت كل سنة
الأيام التي قضيتها في الكويت، حلوه عاماً وبلا أي معنى، وبدأ لي الأمر أقرب
إلى حال من أعطى حقاً محسرة تلد سسها إحسانه، ففقت أشياء لم يكن من
انصبر أن يقبلها لو كان في حاله الطبيعية



كان التجدر مناجح بمحاطة المرء، محجود وصونه، من درجة عاسة جداً من
لراحه. ويبدو أن الإنسان لديه استعداد طبيعي للاستجابة التامة لأي شيء يحبه

لراحة ، سواء كان مصعداً أو مشاة مكيفة الهواء ، أو الحصول على أصناف الطعام التي يحبها دون تعب ، أو نوم في مكان بلا ضوضاء ، أو السير في شارع مرصوف رصفاً جيداً ، ومصفاً إضاءة قوية ، فلا يهدئك فيه حفر لا نطعم شيء غير متوقع ، أو اسقوط في حفرة غير مرئية ، أو صرف شيك دون انتظار في طابور ، أو استخدام بلعون لا ينقطع عنه الحرارة أبداً .

كان هذا المستوى لرائع من الراحة هو أول ما يصدرك في الكويت بصرفحتك حتى وصولك على عدد من المساكن الفاخرة للاختيار بينها فتحتار أحسها كلها مكيف الهواء ، ولكنها تحتوي على ثلاثة رائحة ومطبخ مسبح وأثاث مريح متورد كله من الخارج . وتعرض عليك السيارات من مختلف الماركات ، أو ردة من مختلف البلاد لتختار الماركة التي كنت تسمع عن مزاياها في مصر ولا تستطيع اقتناها ، واللون الذي يحبك بالضبط ، فإذا بها أمام بابك بعد ساعة وفواتير الكهرباء ، وتليفون واليه لا تراها أصلاً لأن الصندوق الكويتي يدفع قيمتها بانه عت ولا يحاسبك عليها . ورحضة السيارة وأي ورقة رسمية أخرى لا تحتاج من أجل تحديدها إلا أن ترسلها مع فرائض الصندوق للمستول عن الشؤون الإدارية لكي يعوم باللائم ويعيدها إليك وأنت في مكتب . والعمل المطلوب منك التقييم بسيط للغاية ، ولا يحتاج لجهد يذكر ، فيمكن إتمامه في ساعة أو أقل فتبقى لك بقية ساعات النهار لتقرأ أو تكتب كما تشاء ، أو سادل رسلاً لك الحديث في أي موضوع مهم أو غير مهم .

راعى مثلاً بعد بدء عملي في الصندوق أيام قليلة ، أن مرّ عليّ زميلي المصري الذي يحتل احجرة المحاوره خجزي ، وكان اقتصادياً كبيراً إذا مقام كبير في مصر . وكنت أعتز به في حكم أستاذ لي بحكم سنه وعلمه ، فعال في منتهى الحذية وهو يشير إليّ بإبهامه بحاسي كبير موهوع على الأرض بالقرب من المصعد ، وفيه باب أحصر جمين يسقى ويظف بمعاية كل صباح ، ألا تعتقد يا خلال أن هذا الإبهام يكون من الأفضل كثيراً أو محرك عشرين أو ثلاثين مستبمتر إلى اليمين ؟ لم تصدق أديت تصدر هذه العبارة من الأستاذ الكبير ، إذ لاند أن كان لديه من انمراغ

في الوقت والبدن، ما يجعله يهتم بشيء كهذا، بل وإن يترك مكتبه ويأتي إلى لكي يقول لي ذلك. ولكن الأستاذ كان قد انغص على مجيئه إلى الكويت أربع أو خمس سنوات، فحظرت لي أنا جميعاً لأنني أصبح مثله، دون أن يشعر، بعد انقضاء بضعة شهور أخرى.

لقد تبدل الإحساس ووصل معمول المنحدر إلى أمخ، وكان لابد أن سحت عن شيء يشعر به بدلاً من كل تلك المشاكل اليومية التي كانت تشغلنا في بلد حقيقي كمصر أو ليس الكويت بدلاً حقيقياً؟ قد لنا مره أستاذ مصري طريف من عاشوا في الكويت مدة طويلة إن الكويت تذكره عما كنا نسمعه أحياناً ونحن أطفال إذ يقول أحدهم لأخر: اتعال بلعب مدرسة! أو اتعال بلعب دكتور. ومرص! هكذا الكويت، هي نظر هذا الأستاذ، مجموعة من الناس فرروا أو سموا، أو مرر لهم أحد أن يلعب، فأنشأوا دونه لها عدم وسلام وطني، وحكومة ويران، وجامعه ومستشفيات، وبنين ومحاكم الخ

والتشبه مبالغ فيه بالطبع، ولكن من الممكن فهم المقصود منه عندما يرى الشوارع الرائعة بالعلة الاتساع والمصانة إضاءة باهرة لا يمكن أن تجد لها مثلاً في دولة كمصر، ولكن دون أن ترى شخصاً واحداً يسير فيها، أو مطاعم ومحلات وهاؤ فاحرة تبيها كل ما تجده في مطاعم ومحلات وهاؤ باريس أو لندن، ولكنك تشعر بهيب روحية شديدة لقلّة من فيها من الناس. رأيت حيثما ذهت، على الأقل طوال السوات التي قضيتها في الكويت، تفقد شدة مطر امرأة من أي نوع، ومن أي حصة. فكل من تراهم وحال، وهو أمر مشر للاعصاب وسعت بعد فترة على الاكتئاب، سواء أدركت السبب أو لم تذكره.

كنا طبعاً مصططح ساءنا إلى أنسياب العشاء الفاحرة التي كنا نقيمها على السوي عى فترات جد قصيرة، بلا ماسبة ولا مسبب إلا احتفال وسببة لحضيرة ساعات المساء التي لا تجد فيها ما نعمله، وتسليمة وروجات اللاتي لا يجدن ما يمكن عمله حتى في ساعات الصباح، وحقن فرضي لهن لاردها ثوب عالية ومجوهرات ثمينة ليس هنالك أية فرصة أخرى لارتدائها. ولكن احتفاء اسماء عن الشوارع

والمطاعم والمحلات على هذا النحو كان يطعم الحياة اليومية في الكويت بطابع ثقي
حذا على النفس لا يمكن أن نعوّده الرهابة الممددة

كما تحول العويض عن حبات الخبز في الكويت بعدة أشياء كان لمرتبة الكبير
يصل بالطعم في أول كل شهر، ولكنك لا تستطيع قضاء الشهر كله في التفكير في
صحة المرب، وفي عادة حساب مذكرات من جديد كانت هناك أنواع طعام
الفاخرة التي كانت تفتدها في مصر كالخيمري ومختلف أنواع المكسرات المستوردة،
كالعسل واللوز، كما كان المحلات كل ما يمكن أن تشهيه من سلع لا تستطيع
شراءها في مصر، لا سيما صتيلة حذا من اسس، من الأثاث الاسكندرية، إلى
الغلاس ادرسية، إلى الكرستال التشيكى إلى الأحدث الإيطالية إلخ وكان
من الممكن بالطبع شغل الأطفال باصطحابهم إلى محلات اللعب المدة التي
تحتوى على أصح الألعاب التي تسير بالكهرباء، بل لا بد أن يجعل لب أى طفل
مهما كان عاقلاً وهناك أيضاً حمامات السباحة في الفنادق بكثرة، التي يمكن
لأى شخص دخولها طالما دفع رسم الدخول، وهو في متناول أيدي جميعاً
صحيح أن النحى المحيط بها ليس بحيلة جفيع بل مصنوع من نيلستيت،
وصحيح أن القنن على حدهم ربح يحرم على وحوهم البؤس لا يقدّمهم
لأسرهم التي تركوها في مصر أو سوريا أو لبنان، ولم يأتوا إلى الكويت إلا لنفس
السبب الذي أتى أيضاً إليها، وبكهم لا يتفوق مرتبة يقارب بركتك، وقد يسكن
الثلاثة أو الخمسة منهم في حجرة واحدة صفة كل هذا صحيح فضلاً عن أنك لن
تري امرأة واحدة في حمام المساحة، ولكنك تضمن على الأخص إذا وجدت أطفالك
إليه، أن تسبهم وتستمد بعض السهجة من سماع صحكهم ومن استباح روحهم
لنفس السب، مما يصرف عن دهمك فكرة أنك قد أدست في حق أولادك وروحنت
معيّنك إلى الكويت

نشأ العرب حفا، وهو ما قد يصعب أن يدركه من لم يعيش في مكان
كالكويت لفترة طويلة، هو أن اقرباءه التي كانت تشعل حراً كبيراً من وقتنا في
قاهرة، أو حتى الاستماع إلى الموسيقى، وهذا ما قد يظن أنك لا بد أن تمارسها

درجة أكثر في بلد الكويت، حيث لدينا الوقت لك في لأن تفعل أي شيء، سوف تجد نفسك أقل رغبة بكثير في مدرستهما كنت من قبل ليس من السهل تفسير ذلك، ولكني أظن أن السبب هو أنه كما أنك لا تستطيع القراءة أو الاستماع في الموسيقى بسهولة في مكان صاحب يعج بالحركة والصوت، أو إذا كنت معرضاً في أي لحظة للإزعاج بريدية مدحج أو رنين حرس النبهون، أو إذا سم نكن تشعر بدرجة كافية من الراحة، كما لو كنت في مكان شديد البرودة أو شديد الحرارة، أو لا تجد مقعداً مريحاً لتجلس عليه، إذا كان كل هذا قد يمنع من استماعك في القراءة أو يصعب من وعكك في الاستماع إلى الموسيقى، فرب العكس بالضغط قد يؤدي في نفس النتيجة فالراحة المبرطة وحلو حيثك من أي إثارة أو أي قلق من أي نوع، ورتابة، حبه وحلوه من أي حدث مهم تطلع إلى حدوثه أو تحشي وقوعه، أو عبارة أخرى، حلل أخيراً يومية من أي شيء يمكن أن يرد من قوة اندفاع الدم في عروقك أو سبب لك بعض الإثارة، سواء كانت إثارة محدودة أو مكروهة، يصعب طلب إلى تحد قرار بالحلوس بقراءة أو الاستماع إلى موسيقى، ربما هي المشكلة التي تريد أن تجد لها حلاً في الكتب؟ ومن أي نوع من نوع لقيم أو التعب تريد أن تتخلص بالاستماع إلى موسيقى بيانو هادئة؟ رأي عصب شعريه قد ناعلك على بهلته سيمفونية من السيمفونيات^٩

نعم، قد تقرأ وقد تسمع بعض الموسيقى، ولكن حتى المرة والموسيقى تفقدان في الكويت جزءاً كبيراً من متعتها لأن السبب الذي تفقد منه أمتها مصيغ الكثرة، الباهرة في الشوارع، وتعد منه العادق والمحلات الفاخرة، بل وفي كثير من الأحيان أنواع الطعام الفاخرة منه، طعمها ونكهتها التي كات لها في بلد آخر كل هذا لم أدركه بوصف طوائف إقامتي بالكويت لم تكن لدى الرغبة، على الأرجح، في الاعتراف به لنفسى أو لغيري، بل كنا جميعاً نبحث عن المرات التي نسمع العقلانية على فرار المدحج إلى الكويت واستمرار الإقامة بها كما أن الراحة المستمرة، كما قلت، تعمل في العقل مثله بعض المحذر الذي يجعل المرء يرى كثيراً من الأشياء على غير حقيقتها سم تصح لي كل هذا إلا بعد أن تركت الكويت

وعدت إليها في ريرت قصير ، بضعة أيام حيث سقطت أنزل لمسى «كيف وجدت من الممكن أن أعيش في هذا العدد من السرات؟» بعد أن أدركت هذا أصبح كلما حلت بها طري فكرة السمر من حديد للعمل في إحدى دول الخليج ، بسبب بعض الصعوبات أو المعصيات التي أقابلها في مصر ، أو بسبب عرض جديد يقدم إلى للعمل في إحدى هذه الدول ، أصرف الفكرة عن ذهني بسرعة وسهولة واعتبر ، الأمر مستعداً تاماً ومعتزاً منه

- ٢ -

كنت هناك معصيات من نوع آخر تتعلق بطبيعة العمل الذي كنت أقوم به في الصندوق الكويتي ، وعلى الأخص كوني أستاذاً جامعياً مصرياً يعمل في مؤسسة كويتية يرأسها شاب كويتي صغير السن ، يحيط به من كل جانب رجال من العرب والأحباب ، يطمحون إلى قضاة أي فرصة قد تتاح لهم للإفادة من لواء الفاحش لهذا الصندوق ، ولا يمكن اقتضاها إلا بالتقرب من مديره

كان يهمل على الصندوق عدد لا يهائي من الطلبات والعروض ، من مختلف الدول الأوروبية والولايات المتحدة (وأقلها من الدول العربية) ؛ طمع في الحصول على معسم أو آخر من هذا الصندوق الثري ، وشاف أصحابه في اختراع أي وسيلة جديدة لتحويل جزء من أموال الصندوق إلى جيوبهم كانت تهال بدعوات مثلاً على مدير الصندوق لإلغاء محاضرة في جامعة ما في أمريكا أو أوروبا ، أو أمام حشد من رجال المدن والاقتصاد المرموقين ، أو لتتفضل بموافقة على أن يصحح عضواً في مجلس إدارة أو مجلس أمناء جامعة مرموقة ما أو هناك ، وكان عرض دائم هو المال فما هو أكثر عائداً من كسب موده مدير الصندوق الكويتي الذي يتجاوز رأس ماله مليار دينار كويتي ، أي أكثر من ثلاثة بلايين دولار أمريكي ، عن طريق إحاظته بمختلف أنواع التجميل والاحترام ، والادعاء بأنه ليس هناك من هو أقدر منه على إلغاء محاضرة في موضوع معين ، أو إلغاء العرض على مشكلة

تصادية صعبة، أو أن المطلوب هو الإفادة من خبرته الواسعة (وهو اشباح المني لا يزال في مقتبل العمر) في إداة هذا المعهد أو بنك الخ؟

كان مدير الصندوق يقع أحياها في الصبح، ويصدق بعض هذه الادعاءات، إذ لا أن من أصعب الأمور على شاب في مثل سنه، وحده نفسه حذاء على رأس هذه المؤسسة الثرية، ومحاطاً بأشخاص لا هم لهم إلا تلقاه والثناء عليه، أن يظل محصاً صد كل هذا «لثاق» و لا يحتفظ بآثره ولا يشتط في تقدير نفسه كن المدير كثيراً ما يقوم بحولين هذه الدعوات والطلبات إلى، باعتباري عصفوا هي كن يسمى في الصندوق «إدارة الحوث»، لإبداء الرأي فيما إذا كان من اللائق قبول هذه الدعوات والطلبات أو رفضها. وكنت أكتب نصيحتي مرفص معظم هذه الدعوات، متانة لا مصلحة برحى للصندوق، أو لدولة الكويت، أو للعرب من وراء مولها

كان اتحادي لرأي في مثل هذه الأمور سهلاً ولا يسب لي أي عاء، وإذ لم يحط دائماً برضا المدير ولكن حدث مره ف وجدت من الصعب جداً الوصول إلى قرار بشأنه، وظللت حائر. أتحدث عن الموقف السليم عدة أيام بل وأسابع وتلخص قصه في أن أسناد فلسطيني مرمر في الاقتصاد، ويسمى بشهرة واسمه في العالم العربي (هو الدكتور يوسف صائغ) كان قد تمّ قد مع الصندوق الكويتي فن التحدثي بالصندوق بصنع سوات على تأليف كتاب كبير عن الاقتصاد العربي، وعندم أنتم وخدمه للصندوق أحال مدير الصندوق الكتاب إليّ لإبداء الرأي فيه هل استمر في الشروط لثقت عليها؟ هل يستحق المؤلف الآن أن يتسلم بقية المبلغ المستحق له؟ (وكان مبلغاً كبيراً جداً بما يميز ذلك الوقت)، وهل أصبح الصندوق مسؤول الطلب الذي تقدم به المؤلف بأن يقدم الصندوق دعماً مالياً لطباعته وشراء بعض نسخة؟ كنت حدث المعهد بالالتحاق بالصندوق، وكان لإدارة الحوث مدير مصري كان هو الأحدر من حيث منصبه وخبرته بأن يقوم بهذه المهمة، ولكنه كان رحلاً لا يحب المشاكل، فصاح مدير الصندوق بأن أقوم أنا بمهمة تقييم الكتاب بدلاً منه وقرأت الكتاب ووجدته لا بأس به ومستوفياً للشروط ولا عصابة فيه إلا شيئاً

و هذا استوقفي وهو أنه كان يحتوى على نقد شديد للحالة التعليمية في الكويت
سم يكن ثمه خطأ في نظري فيما قاله في ذلك، ولكني شعرت وقتها، بحكم عملي
في مؤسسة كويتية، وقد طلب من المدير الكويتي أن أقوم بتقييم الكتاب وتقديم
الصحيح له بالسبوك الواجب إراءه، بأن من وأحيى أن ألقت نظر المدير إلى ما تضمنه
الكتاب من نقد للكويت عندما أسعده نصه في ذهني الآن أعقد في كتب أطلع
في أهمية الأمر كله، ولو ووجه بهذا الأمر الآن لا أسعري في التفكير
والتصرف فيه بصع دفاق

ولكني صحت وقتها من حجم مسؤوليتي، فتصورت من الممكن أن تنشر
الصحف الكويتية، أو يشر أحد أعضاء مجلس أمنه من قد يكون عدواة لمدير
الصدوق لأي سبب، ما تضمنه الكتاب من نقد، ويتساءل لماذا يوفق مدير
الصدوق الكويتي على نشر مثل هذا الكلام عن الكويت؟ وتصورت أن المدير يمكن
أن ينفذ نصه أو يعرض لأذى سب ذلك بهجوم لحمل، وأكون أن السبب إذا
ثم ألقت نظره إلى ما تضمنه الكتاب، مع أنه اتسنى على هذه المهمة لأنه لا يمكن أن
يقوم بهذه المهمة نفسه لكثرة مشاغبه

لا بد إذن أن ألقت نظره للأمر، هكذا قلت لعمري ولكن كيف أسمح لنفسى
بأن أقوم بعمل قد يؤدي إلى حذف نقد من الكتاب هو نقد في محبة سنة مائة، ولا
عبر عليه؟ المعروض من ناحية المد أن يتحمل الصدوق مثل هذا النقد ولا يعترض
عليه، ولكن المعروض أيضاً أن ألقت نظر المدير إليه يتحدد هو القرار بشأنه. ولعل
نظره إليه سوف يؤدي على الأرجح إلى حذف الحقيقة وإحسانها هما الذي يمكن
أن أفهم؟ الصمت خطأ، والكلام سوف يؤدي على الأرجح إلى خطأ انتهت بعد
عذاب طوي إلى الخلل الآتي أحررت المدير بالأمر وبصحة بإعطاء المؤلف معة
المبلغ المستحق له على التأنيب، ولكن فله حيره بين أمرين إذا أراد أن يقرم
الصدوق بالإبقاء على صفة فعلية أن يجري التعديل على بعض الفقرات المتعلقة
بقند الحالة التعليمية في الكويت، ولكن من حقه أن يبقى الكتاب على ما هو عليه
دون تغيير إذا قبل أن تتحمل نفسه بعضات الطبع أو أن بحث نفسه عن دأثر لم

أكن راضيا تماما عن هذا حل ولكني وجدته أفضل لحلول لمشكلة، ووافقي عليه اسير، وعرضته على المؤلف فحضر أن بحري التعديل يلزم في معامل أن يعنى الصندوق على صاعته ويدعم عملية الشر عندما واجهت المؤلف بفراسي رأيت علامات الأسف على وجهه وشعرت أن بعض الخجل وأظن أنني لو وجهت تلك لمشكلة الآن لما قمت بلمت بصر اسير إلى ذلك النقد

رأيت في الصندوق الكويشي أيضاً ما أثار دهشتي لشديده، إذ لم تكن لي خبرة مثل هذا من قبل وحبب أملا غامضا كان لدى عندما بدأت بعمل منه كان الصندوق قد صاعف رأس ماله إلى ثلاثة أمثاله ما كان عنه، كما سبق قد ذكرت، قبل انصافى إليه، فأصبح يربو على ثلاثة ملايين دولار، وهو مبلغ يسمح بشمول العديد من المشروعات الكبيرة والمؤثرة في عدة بلاد عربية، كما يمرى بشهد المهمة وإطلاق عداد للحيال د يكن لمؤسسة عربية ثرية تحقيقه لتحقيق بعض الأعمال العربية التي طال لتسوق لتحقيقها أتم يكن من الممكن مثالا محاولة بصورة إستراتيجية لتمويل مشروعات تزيد من ربط لعرب بعضهم بعض بدلا من زيادة تمككهم؟ أو لنهوض باحث العلمى، أو لتحقيق عمل مشر للتكنولوجيا المتقدمة على نحو يتفق مع الحاجات الحقيقية للعرب إلح؟

اسير طهرى للأسف بعد شهور قليلة من بدء عملي بالصندوق، أن انصندوق الكويشي لسبب أو آخر يسير وراء السك اندوى خطوة خطوة، يسلمهم منه الأفكار ويسير في مكانه، ولا يجوز على اتحاد خطوة من شأنه إعصانه، بل يقع الصندوق ماله حول كشرتك صعبر للسك الدولي في تمويل المشروعات التي بعثوها السك الدولي انتقاء

عندما انصح لي ذلك تبين لي بوضوح تام أن المبادرة الكبيرة التي حدثت في أسعار المعد (والتي أدت إلى زيادة موارد الصندوق الكويشي) لا تعنى بالمرأة أي زيادة حقيقية في قدرة العرب على تحقيق آمالهم، وأن لقول بأن هذه الزيادة هي أسعار القطع تمثل فرصة ذهبية للعرب لتحقيق بهصنتهم المرجوة كلام لا أساس له من الواقع، طالما استمر هذان العرب لإزادتهم وعجزهم عن اتحاد أي قرار مهم دون

مستثنى عنهم. أما هؤلاء الإرادة وبعجز عن اتخاذ قرار دون استئذان فلابد أنه يرجع إلى أسباب سياسية (بل ونفسية أيضاً) لا علاج له إلا مواجهته بأسببه، أى أن العلاج لابد أن يكون أيضاً سياسياً ونفسياً

-٢-

أُدخلت في وصفي في صندوق بكونتي بعض الفرض الذهبية برونه بلاد لا أظن أني كتب سأحطى برؤيته بولا عملي بالكوييت كان الصندوق يرسل البعثة بعد الأخرى إلى البلاد التي يريد تقديم المساعدة المالية لها وكنت هذه المساعدة مقصورة في البداية على البلاد العربية، ثم اتسع نطاقها وشملت كل البلاد العربية في إفريقيا وآسيا، بعد أن أدى ارتفاع أسعار الثروة في ٧٣ و ١٩٧٤ إلى تصاعف إيرادات الكويت، وبصاعف رأس مال صندوق الكويتي

لم يمض عام على التحدي بالبعد في الصندوق حتى عرّض على رئيسه أن أسافر معه وزميل آخر كويتي صندوق في زيارة بسبعة بلاد آسيوية بسططلع فيها حاجات هذه البلاد للمعمورة، وبحتر بعض المشروعات لتمويلها قال لي إن لسفر سيكون بطائرة خاصة، لا تنبع إلا بسعة شخص، وإن المسافر الوحيد عليها هم بعض الثلاثة بالإضافة إلى طيار عربي وخادم نسبي، وأن مرحلة كلها ستسغرق أكثر من ثلاثة أسابيع كان هذا في أوائل سنة ١٩٧٥، ولم يكن من الممكن أن أرفض عرضاً كهذا، إذ لم أتصور أن نتاح لي فرصة كهذه مرة أخرى في المستقبل صحيح أن البسة المقررة لها في كل بلد لم تكن تزيد على يرمين، ولكن حتى هذه الزيارات السريعة يمكن أن تترك في أسدس انطاعات قد تنقش مع البرة طوال العمر وهذا ما حدث معي، هذا حرجت من كل دولة بانطاع وفكرة لا تتراب معي حتى الآن

أثرت في نفسي جدية الباكستانيين وحسنهم، أو ما بدا لي كذلك، وحكمة اليهود وراعاتهم، وروح ماليري الشاة وحيوتها، ومسلية الإندونيسيين ويأسهم من الإصلاح، وصراصة أهل سحاهورة وانصبطهم، ويؤس سحلادينش وعبه

حيلتها، وبراءة أهل بيته وطيبتهم كما لاحظت التفاوت المدهش في توزيع الدخل و الثروة في تنزانيا و بوليفيا، والمحنة الواسعة التي تفصل بين غمط حبه لأعداء و انصاره في كل مهمة ولكن حرجت من الرحلة كنهها بكرة أخت على دهي، وهي أن هناك - فيما بدا لي - أتم يمكن وضعها بأنها أم عجوز وأخرى فتية وهذا التمييز يخلق بانوراما نفسية لشعب أكثر مما يخلق تاريخها أو نظامها السياسي أو الاقتصادي أو موادها. والدون التي عبرتها دولا فية تتقدم بسرعة، أو هي على الأقل مؤهلة للتقدم السريع، بسما الأمم العجوز نائمة في مكانها لا تكاد تتحرك، وأنها في التقدم صعب للعدية

كانت اسانكتان وتنزانيا وماليزيا هي دول التي شعرت بأنها «متة»، سيما شعرت بأن الهند وسنغافورة وإندونيسيا وبوليفيا كلها دول عجوز ولكن لم أستطع الوصول إلى قرار واضح فيما يتعلق ببوليفيا أو سنغافورة، الأولى ربما حسب شرط امر لها عن العلم، وكأن قصة التنمية والتخلف لم تسع نالها بعد، والأخرى ربما بسبب أنها مدينة أكثر منها دولة أو أمة

كنت أهم السمات التي دفعتني إلى وصف لمجموعة الأولى بالمتة، هي أن شعوبها بدت لي وكأنها تأخذ الأمور مأخذ الجد، يحاربون عمالي إقناعهم يقومون به من أعمال، أو ما يسحبونه من سلع، ويشعرون بالبحر يدبسون أعمالهم أما شعوب لمجموعة الأخرى فقد بدا لي وكأنهم يشعرون بأنه «لا شيء بهم»، وكأن لا شيء يسحق منهم بذل الجهد وعمل الجاء، وكأن العمل المتقن ليس أفضل كثيرا من العمل غير المتقن كل شيء سواء. والأمر كله في نهاية الأمر عث في عث

قرب نفسي إن الأمر لا يتعلق بدرجة الدكاء أو الحكمة فمن يدرى، قد يكون من الحكمة حقا ألا يتعلق المرء أهمية كبيرة على أي شيء، وقد يكون صحيحا أنه «لا شيء بهم في نهاية الأمر»، وقد يكون من الدكاء أو اللطمة عدم المبالغة في تقدير النجاح، وألا تعلق أهمية كبيرة على ما لا يستحق كل هذا الاهتمام ولكن قست نفسي أبصرت إن الدكاء وحكمة شيء، ونهضة والتقدم شيء آخر الأمة العجوز قد تكون قد رأت في تاريخها لطويل ما شط همتها، ورسخ لديها الاعتماد بأنه «لا شيء بهم

في نهضة الأمره . وقد تكون الأمة لغتية ، كما فعل الصغير أو الغنى اليافع ، معرطة في لغتها نفسها وحماستها ، وتفاؤها ، وستكمل الأيام ، على أية حال ، بردها إلى صوابها نعم ، قد تكون الأمة العجور أكثر حكمة حقا ، ولكن المستغل واستخدمهما من نصيب الأم الغنية . كما أن الشباب هم وحدهم أصحاب استقلال

عندما سألت بنسى عم إذا كانت مصر يمكن أن تنصف من بين الأم الغنية أم لعجور؟ لم تكن الإجابة التي ملت إليها لأور وهلة ماعشة على السورور فالبلاد التي وصفت بأنها عجور كانت قد ذكرى بأمر كثيره في مصر فالمصريون ، إذا جاز التعميم ، يملكون همما يبدو إلى فلسفة فلا شيء يهمهم ولكن سرعان ما طمأن بنسى بعدة أمور فأولا لا يمكن تلخيص أسباب نهضة الأم في عامل واحد بنسى ، كما أن سيادة نهضة عليها في دولة ما لابد أن تكون مرتبطة انطاطا وثيقا بالتركيب الطبقي للمجتمع وكذلك بالتركيب العمرى للسكان ، وكلا الأمرين ، التركيب الطبقي والعمرى ، يترآان في مصر شعيرات عميقة قد تدفع إلى السطح بطقئة اجتماعية جديدة أكثر حيوية ونشاطا ، وأجيال جديده أصغر سنا ومن ثم أشد رعة في التفكير وأكثر تعاؤلا باستقل

كما أن هناك آحر للتناؤل ، إذا نظرنا إلى المصريين كحرة من أمه أكبر ممن بين شعوب العربية ، فيما أرى ، من هو أكثر افسوة بكثير من المصريين إن المصريين بلا شك لا يقتصهم الذكاء ولا حكمه ولكن الذكاء والحكمة شيء ، كما قلت ، والاستعداد للهو هو شيء آخر وقد يكون مستغل الأمة العربية ككل رهبا عما صنعت له تلك الأجراء من العالم العربى التي تنسم بدرجة أكبر من الفتوة ، حتى إن لم يكن بهم مثل ما للمصريين من تاريخ موعلى في القدم

هكذا بدا لى الأمر في ١٩٧٥ ، أى منذ ثلاثين عاما ، وقد حدث خلال هذه الثلاثين عاما أشياء قد تؤكد صحة لمكراه ، كالقادم الاقتصادى السريع الذى حدث فى ماليزيا وتايلاند ، ونطة انموه في سجالايش والمليين ، ولكن حدثت أشياء أخرى قد بنو عبارتها مع هذه لمكراه كالتقدم السريع الذى أحضره بنووب والهند ولكن لى أن معدلات النمو الاقتصادى تكفى لمحكم عما إذا كان هذا

استمير بين اعتقوده والشيخوحة صحيحاً ومفيداً، أو غير صحيح أو مفيد. فهناك عواصم أخرى عديدة، خاصة ما علق بها بالظروف الدولية، قد تتعذب أثرها على^{٢٥} نبر الشيخوحة ولفوة

ولكن بصرف النظر عن اختلاف البلاد التي رانتهب في درجته المفسدة أو لشجوحة، تركت كل من هذه البلاد في ذهن بعض الانطباعات السوية وادكريات التي ليس من السهل محوها. وسأقتل هنا بعض ملاحظات ملاحظات خلال هذه الرحلة الأسبوعية

في الماكسيان رأياً العاصمة الحديثة «إسلام» في أسسها أيوب حان في مطلع الاستيلاء لتعمل محل كراتشي، فوجدتها مدينة ناعمة الاحمال، تقع وسط حدائق لا نهاية بها، ولكنها أيضاً بلا شخصية ولا تاريخ. وقال لنا نائب وزير التخطيط الماكستاني إن من مآزى وجود كل الموارث في إسلام آباد، أن الموطر لا يحتكون بالمحور كما كانوا يحتكون بهم في كراتشي. ولكنهم، من ناحية أخرى، لا يعانون من التعطلات الكثيرة التي تسببها وجود الموارث في وسط مدينة مكتظة بالسكان والمشاكل مثل كراتشي

وفي الهند قبل من قبل لائته هم وزير في الحكومة الهندية وهو مسئول عن التخطيط. وحل كراتشي وعظم الهبة أصلاً تتكلم عن التخطيط كما لو كان يأخذ في اعتباره حملة أو سه قرون وليس فقط سوابخطة احبس، قال إن م حقيقته يهد كسر إذا أخذنا في الاعتبار أن الديمقراطية مسألة لا تحمل النقاش. وفي كلامه عن الهند والعرب قل إن العرب يتسه الدياصور في قوته وحروته، أما الهند فهي تشه اخذون (snai) عطية الحركة ولكنك إذا قطعنها تمت من جديد

كنت قد كتبت قبل ربارسا بدهند شهور قليلة كلمة بلمعها مدير صندوق في وشنط أمام لجنة التنمية في الاحتشام المشترك صندوق النقد والسك الدولي، وبذلك فيها مجهود كبير للتعبير عن وجهة نظر العالم الثالث. وقد منى المدر أنه ربارتا للهند، بناء لكثيرين على هذه الكلمة وأبغى بهد الشاء. وفي حمته الفكرة انكروته في ذهني غير ورواء كيرون من كانوا قد اسمعو إلى الكلمة، عن

ثأثهم عليها، مشكورى المدير مره أخرى عسها ولكن يلدو أن الكلمة اتنى كتشها
كبت من النوع ابدى بعجب على العالم الثالث أكثر من تعجب على الدول العنة،
مدان مدير الصندوق أصاف بسرة نجمع بين احدث واطراح

امن فملكنا باحلال، عندما نكتب لى كلمه أخرى فى ماسة كهده، حاول أن
نكتب كلمه نسمى مباشرة بعد إلقائها!

وفى كى سدو عصمة نيبان لا خطأ أن الفرق بين لتوقنت النيبانى وانهدى عشر
دققت، وقيل لنا إن سبب ذلك هو محدود رغبة اليابانيين فى تغيير مفاهيم من الهدد
وقال فى مستشتر ناسفده المصيرية فى نيبال (وهى السمارة العربية الوحيدة هناك)
إن شعور أهل نيبال نحو الهند مثل شعور السود فى نحو مصر، إذا أراد السود أن
يفضى لجارة النيف، قصاها فى مصر، وإذا أراد نرواح تزوج من مصريه وسى بيت
فى مصر، وسكن لا يمكن أن يطمش تماماً للمصريين!

سكن نيبان ١٢ مليوناً، وشعبها طيب جداً وسدح جنناً، وعنده روح مرح
ودعابة رائعة، تنتهى المساطة فى المعامطة ولا وجود لمبروقراطية حجرة الووير
معروشة كحجره فى ست متواضع فى مصر، ويقطعون عنة السجائر على طبق،
وإذا صحكو صحكوا من قلوبهم ولعت عيونهم وسدوهم جميلات، وسكن
العقر قطع متوسط ادخل ٩٠ دولاراً لا يميزون بين الملك والالة أكثر من ٩٠ /
من السكان يعتمدون على الزراعة (لأنه أن هناك علاقة بين ارتفاع نسبة التصنيع
وتقل دم شعبه) وزعم ان وزير المالية كان زميل مدير الصندوق بكونتى فى
الدراسة فى الولايات المتحدة فيه عامل على نفس المعاملة التى يبدىها للمدير عيوان
موظفا من وزارة الاقتصاد لمرامتها مدعوته إلى العشاء معدى فى الفندق فصل بححل
وعندما جاء الخادم ليعرف طلباتنا كررنا ثلاث مرات على لوطف هل برى شورة
أم عصيراً؟ فرد فى المرات الثلاث: "كف ترون؟" وهو لا يعرف كيف يستعمل
الشوكة والسكين، مستخدم السكين فى نقل الطعام إلى فمه، وقد رفض من ححل
أن يأخذ نصيحته أن يأكل بيده كيف شاء

بعد وصوله مباشرة إلى الفندق أخذوا للفرح على مرار لبيد (ابنى) ولد فى

بيال)، ورأينا مجموعة من النساء يتمسحن بحجارة المحيطة به. والبلد كله رنج
احمدل حتى خطر لي أنه يمكن قصه إجابة ممثلة مع أسرتي ثم وربما المتحف
وهو يدعو إلى الاستمرار في المصحك، إذ لا يكاد يحتوى على شيء ذي قيمة
أو جمال، ومع ذلك فهم محذرون به جداً، وسألونا أكثر من مرة قبل محيبت به
«هل رأيتم المتحف؟» فيه صورة كبيرة قبيحة للعناية للمصنعة فيكوريا، وتذيق حوت
لم يصطادوه طبعاً في بيال التي ليس لها متحف إلى البحر ولكن اشعب لطيف
جداً، مما إن وأنا بعض الأولاد بدخل المتحف حتى دخلوا وراءنا ونشوا حول مدير
المتحف الذي يشرح لنا محبته لكن يسقطوا به بعض المعلومات المصيدة أثناء
تدولنا الطعام في ممدق اشترك الحادام الذي يقدم لنا الطعام معنا في الكلام، وهو
ما لم يجرؤ عليه أي حادام في أي بلد آخر مروا به شكنا في السفير المصري في
بيال من عدم اهتمام حكومته بعلاقتها ببيال، وقال بنا ترسله لعمارة للإتفاق
على القضية العربية في بيال مائة حيه في السنة، وهو مبلغ لا يكفي ليويسكي
وحده. وقال إنهم أرسلوا إليه من اقهره بعض الأعلام عن مصر والبلاد العربية،
ولكن البصرة لا تملك ثمن جهاز لعرص هذه الأفلام كما ذكر أن الجامعة بعونة
مروت في بولكر المصلي تحصيل ٣٠٠٠ دولار للإتفاق على الدعاية للعضيه
العربية، فالتزم السفارة بعض الالتزامات ولكن المبلغ لم يصل حتى الآن

وفد لاحظت أن المدير الكويتي في حديثه مع السباليين لم يذكر قط أي قضية
عربية ولا مشكلة إسرائيلية، رغم أهميتها في حلة بيال بسبب قبالهم على التعاون
مع إسرائيل سبب أرسب بهم حبيرا في زراعة القطن، وله تفكر مصر في أن تفعل
ذلك المدير يتكلم دائماً ككويتي، رغم أن من يقابلهم في كثير من هذه لبلاد لا
يعرفون بين الكويتي والعربي، وكان رأي السفير المصري أن أي معونة من الكويت
سوف يظن أنها معونة من العرب إلى ساء

في ذلك عصمة سخلاديش قابدا رئيس الجمهورية محبب الرحمن، وهو
شخص بسيط ومتواضع ولكن يبدو عليه الإرهق الشديد، وكان الأربعة عشر عاماً
التي قصها في السجن بركت أثراً كبيراً عنه، فهو ملتفت مترعجاً إلى أقل صوت

يصدر من مساعدته ، ويسمو من مقابلة نائب الرئيس بعد الظهر أن هذا النائب قد يكون هو الرجل الأقوى والأكثر اتصالاً بالأحداث والمشكلات ، دعا على رئيس جمهورية الاستثناء عندما قال له مدير الصدوق "إن عندما نحن أيضاً في العالم العربي سجلادث (our Bangladesh) كاييس ومورتيايه" وفي كلامه بعد المدير أحد يبحر بلده مستخدماً كلمة "عدي" و"عدي" (I have I have) مشيراً إلى ما في بلده من أناس ومور وأرض وصناعات . . إلخ

في طريق العودة من معاندة رئيس الجمهور ، نه قنت للمدير "إن لدى فكرة جيدة لماذا لا ننتي صدوق فكره الإنفاق في سبل نشر بلعة العربية والثقافة العربية في بلاد آسيا وإفريقيا المثلثة"؟ قال "وهل هذه فكرة جديدة؟" فقد عرصها بعد ريارتا لإفريقيا على مجلس لوزراء فقيل لنا عرصوها على وزير الأوقاف الذي ذكرها ولم يرد"

عد وصولي إلى بحوثك ، عاصمه تيلاند ، كان في استقبالنا نحو تسعة أو عشرة أشخاص ، أحدهم تابلاند كد وميلا مديا لمدير الصدوق ويعمل لأن في منصب مهم بوراة التخطيط ، وكان حتى وقت قريب مقرباً جداً من رئيس لوزراء قل أن يسقط ويأتي غيره . كما كان في استقبالنا نحو سبعة أشخاص من المسلمين يمثلون هيئة اسمها مؤثر المعلمين ، يقوم بتدريس وشر الدين الإسلامي وعلومه في تابلاند . وقد دعا عليهم فرح شديد بما حيث إن قادمون من بلاد الإسلام الأصيلة ويعرف العربية ، وهم محورو ن غا يسفيعيون نطقه من عدد قليل من تكلمات العربية والمسلمون في تيلاند يشكلون نحو ٥ ملايين من بين ٤١ مليوناً (في ١٩٧٤) ، وقل لا بهم أقواء وشايطهم السامي مؤثر ، وبهم ١٧ من ٧٥ مقعداً في البرلمان مرة أخرى جعفر لى كم يمكن للإسلام أن يكون قوة ، كم يمكن مالنا من أصدقاء وحوال هي أركان الأرض لتراميه جلت مع معصم في عمره كد الروار متطرفين الحوايات ، وقالوا لي إنهم يهيمهم جداً أن نقوم بزيارة وعيمهم واستعبروا أنى سم أسمع باسمه من قبل ، وقالوا إن كل من يأس من اسلاد العربية ذهب لبلده ليحصل على بركاته . سألت مدير الصدوق عن وأنه في ريارته ،

فسأب صديقه نيلاندى الذى أئدى ترددا فى الإجابة فقرر المدير الاعتذر «لعدم تدخل فى الأمور السببية»

فى الطريق لمت نظرى حمام ساء نيلاند. وشترهى اناعمه اللامعه، ورشمه أحساسهى الذى يبدو حرمهى على إظهارها ارتداء الخونلات القصيرة ونر سافيم *ظن أنه أجمل فدى رأبته فى حباتى أوريسا (Onera) ويقل على النهار أول. ما بنت بطرى فبفه كثره السات الحمىلات، المعملات فبفه، وإسالفهى على التواتر لالاسامات سب ودون سب، فإدار أو ما تنجد إلى المصعد أسمرت واحدة فبه لمصط على الرر، وإداحات أخرى شأخذ مالباس المطلوب علهى، بطرت مرة أخرى إلى امورء هل أن تحفى، لمصطك إبامة حببى.

أحدا الرميل النالاندى القصبم بعد هذا للخلقة وأى خلقة صالون يتكور من د. ين ومقسم إلى حجرات صعبه لكل مبه كرسى خلقة واحد، وببها لسر إلا مبرة، وجدرانها لا فصل بالمصط إلى السقف أو إلى الأرض ولكن لا يرى حدس فى الحجرة المحورة، انبهم إلا كعب الفته التى تقوم للخلقة فدى ان اللخافه ففاه على درجه فافقه من الخمال، كن أول ما فبفه عندما دخل أب مررت عى فبها فبقم أحمر الشفء ومائسى وهى فصع دراها على كفى. «هن تريد أيضا نديكيا؟» قلت نعم. ومايكير؟ قلت نعم، ومايكير؟ قلت نعم رسطيف الأديس؟ قلت نعم فكبت التبيحه أن استعرتت الخلقة مبعثى بالمصط، فصببها عى النحو التالى

بعد أن تقص للخلقه شعرك مبرة، تقزم مبعبه، ثم نعمل لأديس. وإد وجدت حبه على حدى آدمى حاولت إزائتها بالمصابون صاحكة فإد كبت إحدى يديهى غير مشقولة بشىء استخدمتها فى مساعده أصبعك أو شعر رأسك ثم بأنى فته أخرى أجمل فتبدا فى بديك وجهك بالكريم، وبستمر فى ذلك وقت طويلا وبستخدم فى ذلك أصابعها مبحاه فافقه، وخاصة فبف بين العينين وحول الأديس، ثم تصبف لمرء من الكرم وتعيد الكرة. فى ميس الووف تقزم لمشاة الأخرى فبديت الجسم (دون قطع اللباس)، وفد ربطت نكفها جهارا كبرنيا

صغيراً أشبه بالكرى يتحرك بسرعة فتتحرك يدها معه وبعد هذا تستمر في التبدل، يدها المخرودة وهي تحرك جسمها باستمرار وكأنها تعجن فطيرة. خلال استعمال هذه وتلك تأتي المخصصة للمايكبير والميديكبر (أي بأصابع يديين والقدمين) مأخذ يداً بعداً أخرى وقدماً بعداً أخرى، بعد أن تقوم هي بحلج حفاطك وجورثك وعميلين القديمين، ثم تقلم لأظافر وقد رصعت قدحك على رجلها لكي تسهر عميداً، بحث تستقر نصف مفاك فوق فوطة تعطى إحدى رجلها، والنصف الآخر على رجلها نصف اعجازية. ثم تلتك الحورب وخذاء كلفس كل هذا ١٢٠ ب، أي ما يعادل ستة دولارات، أصمت بيدها لربين نقشياً إذن فالتكاليف الإجانبية ثمانية دولارات، سب تقاضى الفتاة مهن ما يعادل مائة وخمسين دولاراً في الشهر رتاً

بعد هذا دها لتلبية أجمل دعوة للعشاء تلقينها في حياتي، وكانت من ورة المالية التايلاندية كان العشاء في مطعم يحب الصبر وكانه مصرع من نعت الخائن طلب ما أن يحلج الأحدة قبل الدحول. ثم ودعت علي المشروبات قبل الخلوس فصاحبنا وصحوا أمام كل ما طما كبر انخبض به عشرة أطباق صغيره في أحدهم دجج، وفي لآخر سسل، وفي الثالث حمسري، وفي الرابع خم بالكاري. ربح ثم جاءت خمس واقصت رابعات الحمد ثم قصص أمام بأصابع الأيدي والأرجل وبالأص، ثم قمس تنقل كل ما عقدا كبراهن الوراء واسمسن

في مقابلة مع أحد كبار المسئولين في وزارة اديبة اسمها إلى عرص لحانة تايلاند الاقتصادية ووصف لأهم مشروعاتهم، في حجره للاحتياجات لا اعتقد أنه يوجد حجره للاحتياجات مثل فحمتها في أعني الدول. هذا المدح وهذه المنفعة تتكرر أن كثيراً في مأخوك، في دولة لا يريد متوسط الدخل في على ٢٦٠ دولارات أمريكية سويها. ومن ثم يسهل تخمين مدى سوء توزيع الدخل فيها. وقد قالوا كلاً ما كثيراً عن سوء توزيع الدخل وأك مأخوك لست تايلاند، وأن هناك مذهب عامة في الفقر خارج العاصمة، ولكن لا أظن أنهم يعملون شيئاً لعلاج ذلك، من أنا على يقين من الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. نحن في تايلاند بأن الفساد متعمص

في أعلى مستويات الحكومة، وأن لعلاقة وثيقة بين الموظفين الكبار والشركات
الأحسنة والحلقة، ومن ثم لم يهرس كثيرا حملات المكاتب وحسن طاعة محلات
وتدوير الحلقة

بمجرد وصولنا إلى جاكارنا عاصمة إندونيسيا تذكرت مصر، وشعبي واثقة
«الامتجار السكار» فلما تمشى كالمل في الشوارع، ومع ذلك فلا دحام في
مصر أكثر وحالة الأتومسات أسوأ على أن أكثر ما ذكرني بمصر الاجتماع الذي
عقدته مع وزير المالية وكرد المسئولين في هذه الوزارة ومثل المحيط وأنا على أنه
ما حصرت في مصر من اجتماعات من هذا النوع، أكد أجزم بأن صورة من هذا
لا اجتماع لا بد أن تتكرر كثيرا في مصر فالوزير موهب، ولا يعرف الإجابة عن
سؤال المدير الكويتي عن الكفة التي تتجه بدو ساس التزول، ونظر إلى
مساعديه طالبا لمعونه والكل يقدم لنا مع مشروبات في اجتماع مع المسئولين،
والمسؤولون يفلون على لأكل أثناء الاجتماع وكأنه هو العرس الأساسي، وهم
دائموا الحديث، بعضهم مع بعض، خلال الاجتماع، إما طلب للمساعدة في الإجابة
عن سؤال صعب أو لمجرد التعليق، وكثيرا ما يكتفون بالانسجام والموتون الصغر
الحائسون بتدوين محضر الاجتماع يبدو عليهم السور بالارتباك الذي يصيب
كثيرهم في الإجابة عن سؤال، ولديهم التي يذكرها مدير مصدوق الكويتي
يفتخرون بها أو أهمهم معها، وأسئلتهم يواجهونها ملء أوقات لا رعة في المعرفة
وقبل حضور ممثل وزارة التخطيط (الذي هو قطعاً أقلهم مهلا وأكثرهم ثمة) كانوا
يسألون عنه في نفس حوز من ألا يميء، فمما جاء تنفسوا بعدده، يحيل أحدهم
الكلام إلى آخر دون سابق اتفاق، فلماذا يندى يقدم على أنه سيقنكم عن مزار
المدعو عت يتكلم عن أسبوت وصور رئيس الجمهورية معلقة في كل حجره
الج ونكس في المساء فندى في اسندى نائب رئيس الك الدولى لثئون امب
وسأله عن إندونيسيا فامتدح الحالة فيها بشدة

على أن ما لفت نظري في كلام نائب رئيس البنك الدولي أنه قال إن هناك ثلاثة
أو أربعة ملايين من السكان في جزيرة سومطرة شمروا بحرية وديمكية عرية

حلالاً بقية السكان، وإتباعهم مسلمون أصوليون ويتمى إليهم ورير المواصلات، وهو في رأيه أكثر التوراة نشاطاً وتأثيراً، وإن هذه الفتنة يتمير أثرها بالحرم واصطلاحاً وسرعة التلاحق وعلقت على ذلك نقول إن عيب أن يدرس أساس وجود طائفة معينة داخل كل دولة، تتميز بمثل هذه الصفات (كأهل ديباط في مصر مثلاً) فإنها ههنا شروط نجاح التنمية على نحو أفضل، فأيدى بشدة

لا أزال لا أدري ما الذي يجعل شعب عجمياً واحداً في ذلكي لأحظ (إن ك، لهذه الملاحظة قصة) أن قوة الشعور الديني (أو ليس التمسك اللفظي بالناس) أكثر وضوحاً في الشعوب الفتية فالشعور الديني قوى في بيل وديلا، سيما بين الإندونيسيين والبنجلاديشيين وكأهم لا يبالون بشيء وكلام نائب رئيس الك عن قوة الشعور الديني عند تلك الطائفة في شمال غرب سر مطره يزيد هذه الملاحظة

§ § §

تفكرت المصنفات التي قاستها في وطبعتي بالصدوق الكويتي، مع اشتداد قوة شعوري بأن أعيش في الكويت حياه غير طبيعية، فأصبحت أعيش خلال الفتنة الأخيرة من سنوات إقامتي بالكويت وكأنني في انتظار حدوث شيء يدفعني دفعاً لمغادرتها وقد حدث هذا سلمى دعوة من صديق أمريكي، هو الأستاذ مالكولم كير (Malcolm Kerr) وكان أستاذاً بالمعروف في جامعة كاليفورنيا بلموس أنجوس، ومدير المراكز الدراسات العربية بها، بقضاء سنة في تلك الجامعة أجمع فيها بين التدريس والبحث قلت على الفور وكان الأمر لا يحمل أي تردد ولكن مدير الصدوق الكويتي كان كريماً مع كعادته مع الجميع، فجلد عقلي، الذي كنت مدته ينتهي خلال سنة إقامتي بالولايات المتحدة، دون أن أطلب منه ذلك، فأعدي من لقلو لدى ك، لاند أن ينتج من التفكير فيما يمكن أن أفعه بعد انتهاء تلك السنة التي أقضيها بلموس أنجوس، بعد أن كنت قد فقدت وظيفتي في جامعة عين شمس بسبب تركي لها بدون إذن

لوس أنجلوس

عندما اسحت لى فرصة لرؤية الولايات المتحدة لأول مرة فى سنة ١٩٧٨ ، كنت أظن نى سارى فقط صورة مكثفه ومتطورة بعض شىء من المجتمع الأوروبى ، لى كى أرى تطوره عاما بعد عام كلما سمع بريادة أهل زوى فى إنجلترا فبدأ بى أشعر بمجرد أن وطنى قدماى أرض الولايات المتحدة وكأنى انتقلت بى كوكب محتف غاب عن كوكب الأرض ، وأدركت على الفور بأن لى أرى ه نيس مجرد «الطهرة» الأوروبية مكثفه ولكن طهرة جديدة بمعنى بكلمة ، حتى إنه كثيرا ما يحظر بى ، ضد ذلك الحين ، أن وصف «الحصارة العربية» بهذا الاسم سوف تصبح شتأ شتأ أنه محجب عن الأنظر حصقة مهمة للعامة ، هى هذا الاختلاف الشاسع بين معطين من الحياة . صحيح بالطبع أن معط الحياة الأمريكية شتأ أوروبا بى الأساس ، ولكن قد تكون الحصارة لإساية كنها ، بهذا المعنى واحدة ، إدسهم كل من الحصارات هى شتأ حصارة أخرى وتطورها و نتجها الأمريكية تتعد شتأ فسيبتا عن الأصل الذى شتأ عنه حتى أنه عن هريب سوف يصح من الممكن ، بعرض أن هذا ليس محكا الآن ، الكلام عن «حصارة أمريكية» بها سماتها المهمة لى تغيرها عن كل ما عداها

وجدت المجتمع الاستهلاكى متطورا بى درجة مذهلة فى الولايات المتحدة ، ولكنى وجدت أيضا شىك آخر لعله كان بدوره نتيجة لىمو المجتمع ، الاستهلاكى وإبشاره . هذا الشىء الآخر يقع فى تطوره حد خطير ألهم بكن من الممكن بلعبن أن تحفطه فى الولايات المتحدة ، حتى إذا فاب المرء الانبء إليه فى المجتمعات الأوروبية . وأقصد بهذا «الشىء الآخر» ، وبعبكش اشائع عن الولايات المتحدة :

أصول الفردية ونبوع موع من تفكير لشمولى الذى بطع مختلف جوانب الحياة الأمريكية

كتب مدمرات رواه جورج اوردس (١٩٨٤) هل دعائى لولايات المتحدة بعدة سواب، وكب أعرف أن الرأى الشائع أن هذه الرواية وضعت أساسا بعد انتظام الشمولى فى الاتحاد السوفيتى، فالأج لأكر هو متالين، وبوليس الفكر هو جهر المتأثرات الروسى . إلج وكى وحلت فى الرواه أكثر من هذا بكثير، وقراءتى لأعمل أخرى لأورويل جعلنى أعقد أن ما كن يققه لم يكن لنظم شمولى السوفيتى أو الشيوعى فى حد ذاته، بل قدرة المجتمع تكملو حتى على قهر فرد، وأن نمو قوة الدولة إنما هو نتيجة حتمية نمو قدرة المجتمع التكم بوجية، وأن أورول كان حريصا جدا على إتمام برومة قبل أن يموت لأنه كان يشعر بأن من وحسه أن يحذر الناس من خطر يمكن حدها أن يحدث وعم انتصار الجماء على البادية والماشية، وأن الدولة البريطانية معها يمكن أن تتحول إلى نظام شبه بنظام (١٩٨٤) لو لم يأخذ لباس حذرهم ويعهموا الخطر المحدث بهم فلما ذهبت إلى الولايات المتحدة التى كانت ولا تزال صررب بها المثل دائما على به تتحرره المناقصه مما لتحرره اسوفيتيه، وأن النظام الذى قرر طى فى أمريكا هو تقبض نظام شمولى أسى بصوره أورويل، إذا بى أحد أن الحقيقة أهد ما تكون من ذلك

وحلت فى الأمريكيين أمه، وإن كتب ساهى بتشجيع الفردية والتعير، يعشق أفرادها أن يكونوا أعص، هى فريق، يفعل كل منهم مثلب بفعل الآخرين، ويعهون بعض لهامفات ويعهون بعض الأفعال أو المنحوم وهم يتقون فى رؤسائهم أكثر من اللارم ويقولون ما يقال لهم بدون شك أو تمحيص، وهو ما يسهل مهمة الدولة فى حكمهم، إذ يندو الأمريكيون وكأنهم أسهل أم العالم حكم، وأكثرها نقاده يمكن أن تعير وسائل الإعلام مسار الرأى العام من اتجاه إلى ميمصه محمود سيط، ولا يحتاج الأمر إلى استخدام لكثير من الجمع والتراخي، كما يحتاج هذا فى أورول، بل يحتاج فقط إلى بعض الإلحاح واستخدام بعض أنواع المؤثرات التى نستلخدم فى الدعاية لسلع، وهى مؤثرات لا يحاطب لمنطق بقدر ما تعاطب

ابلا شعور قرأت في أول رحلة إلى الولايات المتحدة معاً «العلوم تشومسكي»
 ابلى يحمل عنواناً ملخص مصبونه وهو «الحدود التفكير المسروح به» (Boundaries of Thinkable Thought)، وكب أرى موبيا في أمريكا م يؤكد بي أن هاك مثل
 هذه الحدود التي لا يسمح بنحطها، بس فقط في الفعل والكلام، بل وفي مجرد
 تفكير. لقد فسر هذه السمة من سمات الحياة الأمريكية بما يتبجحه انتطور
 التكنولوجي أمام الشركات وأصحاب الأعمال من نشر الفكرة الواحدة وانتعور
 الواحد بين ملايين من الناس في نفس الوقت، وبتناسع السوق الامريكى بلى
 سمح بأن تستخدم وسائل تكنولوجيا المعلومات في أمريكا قبل غيرها. وسطفا
 الدوله، ابلى يبدو صعب ولكنه في الحقيقة ففى في أمريكا مة هي الكثير من
 الدول المسماة بالشمولية، مستمد من قوة الشركات وأصحاب الأعمال. ومن ثم
 فليس صحيحاً البلى بأن الخطر الذى يهدد الحرية الفردية واستقلال الرأى إنما يأتى
 فقط من ازداد قوة الدوله، كما يظهر مثلاً في رواية ١٩٨٤، بل قد أتى أيضاً من
 ازداد قوة الشركات وأرباب الأعمال الذى قد مؤدى إلى ازداد سلطان الدوله

ثم تمحس فقط بلى لما يسمى بالديمقراطية الأمريكية بل وحده فيها الكثير من
 الريف والادعاء، إذ عتبرت أن أقل أنواع سظم حرية وديمقراطية هي تلك التي يظن
 فيها الناس بأنهم أحرار ويتممون باستقلال الرأى و تفكر دون أن يكونوا في الحقيقة
 كذلك. بل اعتبرت أن مصر وأمثالها، بما شاع اعتبار نظام الحكم فيها شمولياً، وهو
 بالفعل كذلك، قد تدعم أهله بدرجة كثر من الاستقلال وحرية التعبير عن النفس،
 بما يسمح به الأمريكيون، لحرر أن المصريين لا يمسريهم أى شئ في أى وقت في
 ريف م ير عمه بدمهم من ديمقراطية، ولا تنبر فهم الدعامة السياسية من حلال
 وسائل الإعلام إلا السحمة المعلنة أو الصامتة، سيما يلى الأمر يكون استعداد
 عدنها يقول ما تقوله لهم وسائل لإعلام



كذلك ذهبى إلى الولايات المتحدة في ١٩٧٨ كتب ذكرت، تليه الدعوة من
 الأستاذ الأمريكى «مالكوم كير» الذى كب ومنها مديراً مركز بحوث عن الشرط

لأرمط يحمل اسم المستشرق «فون جروناوم»، في جامعة كاليفورنيا و«ديوس
ميجوس» وكان مطبوع في قصبة عام دراسي في تلك الجامعة أقوم خلاله
بتدريس بعض لغوات في اشعية واقتصاديات الشرق الأرمط، مع القيام في
بعض الوقت بكتابة بحث عن الاقتصاد المصري يشر ضمن مجموعة من البحوث
عن التصورات الحديثة في اقتصاديات البلاد العربية. وقد رحبت بالدعوة بشدة،
ولم أتردد لحظة في قبولها، فحصلنا عن فرصة رؤية لولايات المتحدة لأول مرة (أو
ما تكاد تكون أول مرة، إذ حدث أن ررت في بعض السنة مدينة «ماديسون» بولاية
«ويسكونسن» للاشتراك في ندوة عن سياسة الانفتاح الاقتصادي)، كان شعوري
قد أصبح قريب حد بضرورة الرحيل عن الكويت

وقد حققت هذه برحة إلي الولايات المتحدة العرص منها كنت بحث بالعرب
أولاً بشر في صورة كتاب بعنوان (المشرق العربي والعرب)، ثم بالإنجليزية في
كتاب مشترك بعنوان الدول نمية ولعقبة في الشرق الأوسط (Rich and Poor Countries in the Middle East)، والأهم من ذلك هو تعرفي على عقد الحياة
لأمريكي ما لاند أن ترك أثراً عميقاً في نفسي اسمر معي حتى الآن، وساعد على
بلورة أفكارى عن الحضارة العربية والعرب

لم يكن انطباع عن عهد الحياة الأمريكي إيجابياً مبدرة، وعلى الرغم من أنى مع
الوقت أصبحت أكثر استعداداً للاعتراف بأوجه إعانة به، فاب موقفى السلى مه
لا يرب هو العرب ولا يرال ما يبا معى حتى الآن كنت على استعداد، ولا أرب،
للاعترا فبصل اسجره (أو الحضارة) الأمريكية في الانتماع بمشرى معيشه
المنحصر انباعدى أو التوسط، ليس في أمريك وجدها بل في العالم ككل
فالمدوح الأمريكي موجه في أساس لخدمه رجل العادى والمرأة معانده،
متوسطى، لكاء والختال والخلق، وهذا في رأى هو السبب الحقيقى وراء انتشار
المنط الأمريكي في الحياة، في مختلف بقاع الارض، انتشار النار في الهشيم،
وهذا هو سر حادييته ولكن الروحه الآخر لهذا النجاح هو ما تنسم به الثقافة
الأمريكة بوجه عام من تراجم مختلف انواع الثقافه الزمعه أمام ذلك التيار الكاسح
الذى يحاطب أكثر بواع الإنسان سطحية، والاستعداد للصحية وكيف لحساب

لكم، ورمال ما لا يمكن قياسه وحده بالأرقام لصالح التقدم المادى البحت لذى
يمكن قياسه وحده

كتر هت أبص ما لاحظته من مين متأصل فى نفس الأمريكى لتفصيل كل ما هو
مصنوع، طالما أنه قد صنع بمهارة، عني كل ما هو طبيعي، وندلى أن للأمريكى
عزائلا لا حد له بإثبات بقوة على الطبيعة وقدرته على الاستعلاء بها، واستمررت
شدة كيف يمكن فى بلد سحر فيه الطبيعة هذ السحراء على الإنسان أن يبنى
الإنسان نحوها كل هذا العناء؟ رأيت مثلا فى ولاية كاليفورنيا، التى قصيت فيها
معظم فترة إقامتى بالولايات المتحدة، ولا تكاد نصب فيها ولاية أمريكية أخرى فى
جانب ساحلها وأعداله عني مدار العام، أنى أذكر ماء بعد آخر، ومفهى أو مضاعف
منو لآخر، فمادام أحد؟ أجد البواقي مركبة على نحو يجعل من المستحسن فتحها، و
مصروعة من زجاج ملون يحدب ضوء شمس عجا ورائع، وأحد أجهزة تكييف
الهواء شائعة الاستعمال على نحو يحيل إليك سعة أنك فى أشد بلاد العالم حرارة
وأقساها، ما حيا، وأحد المصابيح الكهربائية مصضاء فى وضح ليلها، ولم لا؟ فقد
يكون ضوء الشمس أشد قليلا أو أخف قليلا مما تريد فى خصه بعينها، والحرارة أشد
قليلا أو أخف قليلا مما تحب وتشتهى فى ساعة معينة من ساعات النهار أو الليل؟

ثم ما هي هذه المعجزة الشهيرة فى كفه أنعماء الأرض، المعروفه «ديبرى لاند»
أو مدينة ملاهى ديبرى، فى جنوب لوس أنجلوس؟ مساحة مسيجة من الأرض تقوم
عليها من مشاتل تقدم لك وسائل مختلفة للترفيه والتسلية، رائحة التنظيم والتثاق
حق وبالعلة النظافة والنهاء، ولكن شيئا واحدا يجمع فيما بينها محاولة الإنسان
الأمريكى أن يثبت أنه قادر على سيطرة الطبيعة ولتغوى عينيها، فعلى مكان منها
يحاول مدرب سحيف أن يقنعك بأنه قادر على أن يجعل فرس البحر ياتر بأمره،
يرقص أو ينبع بالكرة أو ينقل امرأة حبيبة نصف حدية، وفى مكان آخر تنص
مركبة تدور بك بسرعة بالغة المفروص أن تشعر معها أنك تحوم فى مركبة فى
الفضاء، وانكان كنه لا نهاية فيه لما يبدو وكأنه حيوانات وليست فى حقيقة كذلك،
وطيور ليست بالطيور، وأشجار ليست بأشجار، هذا أعجاب هذ كله ودهت إلى

مكان لتناول الطعام ، فإنت ستجلس إلى مائدة تدور كأنها مصنوعة من الخشب ولكنها ليست كذلك ، وسوف يقدم إليك شيء شبيه بالطعام ولكنه ليس طعاما ، إذ من بين ما يعرّم به الأمريكي أن يصنع لسا خائلا من الدسم ، وسكرا لا يحصى على مادة سكرية ، و حر لا يؤذى إلى السمّة ، وقهوة لا تحول دون النوم

في حليقة أخرى من حدائق لوس أنجلوس رأيت شيت مذهشا ، ولكنه أيضا أمريكي مائة مائة . كان هذا هو «سرك الطور» ، وهو مسرح صعر يمكنك فيه أن تشاهد عروضا بالغ المهارة لا تختلف عن السيرك المألوف إلا في أن أطفالا من انطويور وليواهيله أو أسودا وفيه تتربع المروض الصغين من الحناصيرين لدى رؤيتهم طائرا ، مثل الحمام أو الديك أو السعّاء ، رائح لألوان ، بالغ المهارة والخيال ، يقف على قدم واحدة ، أو يتسلق سلما ، أو يحطو فوق مكعبات دون الوقوع فيما بينها من مسافات ، أو يقوم بمختلف لألعاب الهوائية ويحى للجمهور بدى تصفيقه له في نهاية العرض

وبد ذكرى هذا المنظر سلاسل العفيرة ويصمعه بالرجل الغربى مما يشبه ما صمعه المروض الأمريكي . فما هي طيور لا تقل عن مروضها في قدراتها وإسكابنها ولكنها تموت في نهاية ، فهي تستطيع الصبر حيث لا يستطيعه ، وهي تهتم بصغارها حيث لا يبدى اهتماما كذب بصغارها ، وهي لا تكذب أو تافق في سبيل حصولها على الرزق . ولكن المروض لا يريد أن يعترف لها بمفضل إلا إذا نجحت في تقليده ، واستطاعت الوقوف على قدم واحدة ولعبت كرة القدم ، وأظهرت من القدرات ما ليس لديها أدنى استعداد به أو حاجة إليه

في بندله مثل ما بلولاياب المتحدة من مو رد تدور كأنها لا حدر أو نهيه لها ، كيف يكون لأهها هذا الولع بالأرقام والحساب ؟ أم أن وفرة المزايا كالب هي دنتها دافعا لهذا الولع ؟ ذلك أنى لم أصادف شعبا يستخدم في كلامه أبعاد قدر ما تستخدمه الأمريكي من أرقام ، ولا من هو أشد منه هراما بالاعتماد على أرقام . فأسعار البع مخراتها العشرة ، وسبعة مائة من الررس ، وعدد الأموال بين مكان وآخر ، والوقت الذى تستغرقه رحله أو تأديته عمل ، حاضرة في دمه دائم ، يحطرك بها

دون أى جهد وبنار سها دون مشقة . والرجل لا يوصف بأنه طويل أو قصير ، ولكن يقال لك إن طوله خمس أقدام وبوصتان ، والمكان لا يوصف بأنه بعيد أو قريب وإنما تحضر عما تستعرفه الرحلة إليه من الدقائق بالسيارة أو بالطائرة . والشئ الذى لا يمكن حسابه بالأرقام يعتبر صمياً أنه لا يستحق الاهتمام

وقد لا يبدو فى هذا الملل الواضح إلى التعبر الرقمى عاصمة لولا أنه انعكس فى فكرة الأمريكى عن «الكفاءة» فالكفاءة لدى الأمريكى هى بوجه عام إنتاج أكبر قدر بأقل تكلفة ، أو القيام بأكثر عدد من الأعمال فى أقل وقت ممكن ، دون اهتمام كبير بالآثار التى لا يمكن تقديرها مقديراً قمياً . فما أسهل على الأمريكى أن يشعر بالرضا إذ يجد مبررته قد قطعت عدداً كبيراً من الأعمال ، و يجد نفسه قد أتم عدداً كبيراً من الأعمال ، أو ر عدداً كبيراً من البلاد ، أو شهد عدداً كبيراً من المناصب ، دون أن يعبر اهتماماً كبير لطبيعة الرحلة أو بمرص منها ، أو لعدالة الحقيقة من العمل وجدواه ، أو لك جهاه من معرفة حقيقة عمارته من بلاد أو شاهد

فكثير ما يبدو لل الأمريكى «كأم المروس» فاضيه ومشغولة (كم يقول التعبير «مصرى الشعبى» ، لا يطبق الكف عن الحركة والعمل وكان أى عمل مهما كان باهياً أفضل من عدمه . لا يظن السقاء فى مكاد لاد فى انتظاره عملاً آخر لاند من تأديته . يتناول طعامه بسرعة ثم يقصر إلى صلاته أو يشاونه أمام التلفزيون أو فى السيارة معها . فإذا دعك إلى لغة فهو «عذاء عمل» ، وإذا فكر فى أن يدعو معك شخصاً آخر فلا يرى أن من المميد أن يتعرف أحدكم على الآخر . وهو معرم بجمع أسماء المعارف وعديهم ، ويشعر بالفخر لكثرة معارفه واتصاله بها . هناك عذار ، بلداً من انهم الأخصى وقتنا أطول من اللامى فى مكان واحد ، هب تدبر عليه السبعه حيثنقطه الصور . ورامح لتلعبرون لأمريكى تنمير بعض الطابع الكثرة على حساب الجودة ، وبسرعة على حساب التحق وكثيراً ما يحدث ألا عدد من بين برامج العدد اللانهاى من القرات التلفزيونية ، التى تنمر بعضها طوا ٢٤ ساعة كل يوم ، برامباً واحداً تشوفك رؤيته ، أو فى العدد النهائي من صفحات حريدة الأحد إلا القليل مما يستحق التقرء . هباً عرض

تلفزيون معاشاً، و مدونة فكلما تجد نعمما في التحليل أو راحة بالظاهرة التي يدور حولها النقاش من مختلف جوانبها، والمهم في إعداد لأحد أن تحتوي النشره على أكثر عدد من الأحياء دون جهد يذكر في تحليل أساب الخير أو أثاره صحيح أنك عود في الحياة الثقافية الأمريكية العث والسمين، ويملكك إذا أردت، لاستماع إلى موسيقى رقيقة وبعثو على تحليل جيد للأخبار، ولكن هذا ليس هو الصنيع العام للثقافة الأمريكية السائدة



تراسلت كالعادة، خلال العام الذي قصصته في الولايات المتحدة، مع أحي حس، وهذا هي مقتطفات من بعض خطباتي إليه من لوس أنجلوس

١٩٧٨ / ١٠ / ٢٥

أخي العزيز حبيب، نحياتي وأشراقي (.)

الجميع يقولون إن لوس أنجلوس ليست أمريكا، أو هي أمريكا كما سوف تكون، فهي رائدة في كل شيء، هي التكنولوجيا كما هي الخرائط ولا تتصور صعوبه حمايه الآلات من هذا الجو المسموم الذي يحيط بهم من كل ناحية حتى الأخبار في التليفزيون لا تستطيع أن تأمن على أولئك منها فالجرح يصح داخل الجرحمة والمجذرات . يح كما ذهبي أن وجدت كل واحد في حاله، حتى الطلبة في الجامعة، ويبدو أن نجد أحدا يصحك . هل أخص لك الصورة كلها في كلمة واحدة؟ ١٩٨٤ هذه هي الخلاصه لقد كان أوروبين يصور أن ١٩٨٤ هي مستقبل روسيا، ولكن يبدو أن أمريكا سيقبها إلى ذلك . وأعقد أن أوروبا ما كان يصحق عيه بر كان رأى لوس أنجلوس الآن، فرعا وجدها عديت حياهه الس على وشك أن يصحوه مكنيات، والعائلة لم تعد موجودة، والكل بحري من أجل الحصول على درجات، صبه كل هذا معروف من قبل؟ نعم، ولكني سم أكثر أتوقع أن أحد الخصية بهذه المرحه من العرب من المخوف ما يكتب هذا لا ينفي أنا مسرطوب، وأستعمل الآن سجد على كتاب جديد، أعنقد أنه سيكون جيدا، ولأنه أنتهى منه قبل عودتي . ولكن هذا البرول إلى لوس أنجلوس شيء بسرول على الصرا

كانت مشاهدتى لأمرىك والمعشة معه، بضعه أسبوع كفية لأن أقدر أنه لاند من العوده و لاسمرا في مصر العوده إلى الكويت بدوى من ها أمرا مصحكا، لا أدري بالوسط اسب وبكى عرفت (بهاثا - شاء الله) على العوده إلى مصر في بولو، وأن أذهب إلى الكويت لده أذوع خلال الخريف، فقط لأحضر عفتى وأبع سارنى من حسن حظ أن لك حبراً بهم أولاد في سن أولادى. ولهم نظرة إلى مخياة في أمرىك مثل بصرنا (ولو أنهم أمرىكن) ولا سمحون للأولاد عثمادة لىهريون على الإطلاق. ()

أزوحو أيضاً أن تذكري ولو كلمة سريعة عن تطاع الناس عن كد دافع (لعد انتأست كثيرا لها)



١٩٧٩ / ٢ / ١٩

أحى اعير حىي، مد مدة طويلة سم أسمع مث ()

أحبارياكلها بحير وقد قصى و بدخان معا ثلاثة أسبوع وادنتها شهرين وسمرت مد أيام، وأن أوح دائما بريدتهما سب الأولاد أسبا، ندين يمرحون كثيرا بهم أب أحبار شعنى فقد وحدث بعد أسبوع من وصوى أن المطلوب من ها لا يتشكل عينا كبير فالحث المطلوب يمكن أب أجره في اشهرين لأحيرين وعلم حصر بعض محاضرات اسمية الاقتصادية ها، وهو نفس المقرر المطلوب من تدرسه خلال الشهرين الحديين، وحدث أن محاصر من القديمة في الجامعة الأمريكية تكفى وريادة، فلا مستوى الأستاذة ولا العلية يتطلب أكثر من ذلك لهذا عكمت في الشهور الأولى على عدد مائة الكتيب الذى كنت ارسخت مكنابته فركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) وأنهيت عددها مد شهر، وسأدا الكتانة هذا الأسوع، وأمل أن أنتهى منه في منتصف مايو ولا أستطيع أن أقول الآن ما مدى وصاى عن الماده اننى جمعتها، ويتصح الأمر عندما أبدأ الكتانة، وسكون عواها سمما أتصور (المشرق العربى والعرب ١٧٨٩ - ١٩٧٥) وهو تدرب أساب أثر اتصال العرب في تعصيل النهضة العربية والوحدة العربية ومن

«الأشياء حتى استرعت بتنهى حذا وإعجابى ثناء فر عتى، احركة السوسيه فى بيبا
ومدى لشه الكير سها وبيز الحركه الوهايه وحركه لمهى فى السودان، مما يقطع
بأن البلاد العربيه لو كدت تركت وشأها لأثعرت هذه الدور (قصلا عن حركه
محمد عيسى فى مصر) بهضه حقيقه

ومن ناحيه أخرى ندأنا، مع طوفان إغماهاها، نقدر بعض لحوات الإيجابيه فى
الحياه الأمريكنيه فاناس هما يصعدو عاه يدكرونى فى طابعهم، يطالب مصرى
أرسقراطى لم يصادف مشكله ماده فط، وتخرج فى مدرسه أجيبيه فى مصر
الدمنه والرقه والسدح والعاؤل والمساطه، مع عدم القدره على تكوين علامات
اجتماعيه عميقه، وعده أنه رعه فى التحليل وتغيب الأمر على وحرفه فلعيل
الأمريكيين هم أكثر لشعوب التى أعرفها بعداً عن أن يوصفوا بال «uncle
بل لعلهم يعرفون من أى جهد دهى يُبدل لوجه الله

وامامه انى ألقاهاها تكفى لحاه مريحه وبعض الكماليات لقليله (كالتسما
والمنسرح) دون أى فائض. وبهذا تجدنى قد سحب من مدحرائى «الكويتيه» لأنفق
على شراء اسياره مثلاً، وبعض الرحلات التى قضاها مع والدى جان ولكن ما
أعتبره أهم أنجباى هو انى تعددت مع الحاميه لأمريكيه بمصر على رعيه أستاذ
رائد لده ستين اتداء من أول ستمير القادم ومحمد بن وعت العقد معهم كنت
للمصدق الكويتى تأمى لا بوى العوده إلى الكويت لم أتردد كثير فى اتحاده
القرار، لأكثر من سبب فرباده المدحرات كيف تعرف لم تكن مُداحراً من
طموحى وبعد محشى هالحدث لى حياتى فى الكويت لأمضى لى، حاضه بعد أن
أصحت حياه روبيه حاله من أى جديد إلى أدرك لى صعوبات الحياه فى مصر
الآن (ولقاءه الأهرام ه نصحت من شعورى بهذه المصعب) ولكن الوجود فى
مصر الآن بالنسبه لى يحمل من الاحتمالات ما أصحت الكويت لا تقدمه لى.
وانى أعتبر الحاميه لأمريكيه مجرد فتره انتقال يعقبها، إما رجوع لى جامعه غير
شخص أو لى جامعه إقليمية كالقاريق أو المصوره.

كذلك مررت ألا أكب بعد الان لادلعه عربيه فقد بلغ سأمى من الاحاث
والشترفين أعصه ()

أخي العزيز حبيب، عياني وأشواقى ()

اكتشيت بعد أن قضيت به بضعة شهور مدى عنى الحياة الثقافية في لوس
أنجلوس، فالشروع الهائل لعروف عن أمريكا في السلع موجود أصلاً في الثقافة
وبكن كما أن من الصعب احتدير نوع القميص الذي يشتريه بسبب وجود آلاف
الأصناف، فمن من الصعب الاحتيار بين الأصناف العديدة الموجودة في المتفاحة أيضاً
() ومع هذا الناس هنا يحدون بحياة لا طعام لها (كما أن طعامهم أيضاً لا
طعم له إطلاقاً مهما كانت محذمة الطعام الذي تذهب إليه) وهذا الأمر يحيرني
جداً فأنت تمشي في الشارع فتحد البيوت غاية في الخفاء، وأحدية المحطة بكل
مرور بدعية التسميق ولا ينقصها شيء ومع هذا لا يمكن إلا أن تشعر بأن كل هذا لا
طعم له أن لا أتمحب إطلاقاً عندما أسمع أن رجلاً من بين كل ثلاثة رجال هو
مدمن حمر alcoholic أو يعاني من اكتئاب مستديم، فأنا لو عشت هنا ستين أو
ثلاثاً لاند أن أصبح هذا أو ذاك! كما لا أتمحب من أن تقرب كل امرأة تفلبها ما
مطلقة إن الحمع يحاور أن يحدث بعض لطيفاته معنى، فإذا لم يجده في امرأة
جديدة أو لم يسمح له دحه بذلك لما إلى أسكر أو المحبوت ولكن السؤال
كيف عذر مجمع هذه الرجاء عن أن يعطى للحياة معنى؟ إلى أرفض التعبير الذي
يقول بأن الرجاء منه هو السؤل لا اعتقد ذلك، ولعنى أصل إلى رأى قبل
رجلى !!

لاند أن أرى ما قصة مؤثرة ولكنها أيضاً ذات نهاية محزنة لعبية، وهي قصة
الأستاذ مالكولم كير، الذي كان له فصل برب ريدري أمريكا، والذي عرفته عن
قرب خلال ذلك العام الذي قصيته في لوس أنجلوس، وتطور شعوري نحوه إلى
شعور عميق بالأحرام والحب، وحزن حزناً شديداً عندما سمعت بعبه المأساوية
في بيروت بعد ثلاث سنوات من عودتي من لوس أنجلوس.

كانت أول مرة أقابل فيها مالكولم كير في سنة ١٩٦٦، عندما شتركت في ندوة
نظمتها كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن بعنوان «تطور مصر منذ ١٩٥٢»

وكان هو أيضا واحدا من معدمي الأوراق لهذه السدوة. ذكره وقد جاء إلى حلال سدوة سألني عن الكتب العربية التي صدرت عن اشترابية عبد الباصر ثم وهو يكتب رعاية أسماء هذه الكتب ويوصيها بحروفها العربية. لم أراه أو اسمع عنه بعد ذلك هذه ثمانية سواب، ولكن اسمه دافع وشهر حلال هذه السواب، بين الأكاديميين المشتهرين بالشئون العربية، سبب نشره لكتاب صغير سرعان ما أصبح يعتبر عملا كلاسيكيا في موضوعه وهم كتاب «الحرب العربية الباردة» (The Arab Cold War)، الذي حلل فيه تحولا مدعيا للعلاقات العربية العربية منذ صعود نجم عبد الباصر في منتصف الخمسينات وحتى هزيمته في ١٩٦٧. علف أتذكر الآن مستوى الجودة التي حققها هذا الكتاب، وتغير كتابات مالكولم كير لأخرى، أدرك كم كان الرجل محلل عن غيره من مدعي معرفه شئون لعرب ولعالمين كان بالإضافة إلى حله وإحلاصه في العمل، يملك عقلا مقادام مع قدرة على الكتابة السليمة والبوصة التي كثيرا ما تقرب من التعبير الأدبي.

وقد أرسلت إليه نسخة من مخطوطة كتابي (تدوين العصر) (The Modernization of Poverty) بعد مراجعته، فقرأه بعناية وكتب لي ملاحظاته المفصلة، وحاول أن يأسدني في العثور على ناشر للكتاب. ثم عرض على بعد ذلك صنع سواب ذلك لعرض لدى أي بي إلى لوس أنجلوس لمدة عام.

وفي لوس أنجلوس تعرفت على صفات جميلة أخرى فيه. فهو مصيف كريم، وسحق بوقته وجهله إذا احتاج أصداؤه إليه. ثم بهربي كمعاصر وخطب استمعت له وهو يلقي محاضرة عن الاشتراكية العربية في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، فوجدته يقول لمدة ساعة كلاما عميقا ودقيقا ومظنا، وبأسلوب فصيح، دواء أن تكون أممه أي وره تذكره ي يحب عليه أن يقول ثم بهربي مرة أخرى بعرفه وهو يلقي الكلمة الرئيسية في اجتماع أقيم في نفس الجامعة لإهداء جائزة مرموقة للأستاذ البير حوراسي المؤرخ المعروف بجامعة أكسفورد.

كان مالكولم كير يجمع على نحو فريد بين مهته الحرة والإخلاص لعمله، وبين حساس قوي بالبحرية والمعارفات الكامنة في الأشياء وفي تصرفات الناس.

ما كان يجمع من أن يأخذ نفسه بحماية أكثر من اللازم أو أن يدافع في أهمية ما يصممه ولكن أكثر ما نهضني فيه شجاعته بعد وصولي إلى لوس أنجلوس بأيام قليلة تنفيت منه دعوة لبعشاء في بيت ألبان الجمعان في منطقة باسيفيك بلامبيد (Pacific Palacard)، المقام في أعلى جبل وتطل حديثه مباشرة على المحيط كان قد نشر قبل يوم الدعوة نصعة أيام مقالاً في جريدة لوس أنجلوس نايمر، مقالاً اعتبرته منظمة الدفاع اليهودية (Jewish Defense League) معروفاً في غيره للعرب وقد قال لي مالكولم كبير إن رئيس تحرير الحريدة كان قد حذف بعض العبارات من المقال بهذا السب، دون استئذان كتبها ثم حدثت في الليلة السابقة مباشرة على حملة البعشاء أن قام أفراد من هذه المنظمة اليهودية بإشعال حريق في سيارته التي رقت أمام باب منزله واستبيط هو من دونه على رائحة الدخان المسعث من سيارة المشتعلة، ثم تلقى مكثلة تضييوية، بعد أن حاول بقاد مسيرته دور جدوى، من شخص يقول له إن الحريق أشعلته المنظمة اليهودية على سبيل العقاب له والتأديب وعندما سمعت الخبر في الصباح طست أن مالكولم سوف يلقي حفل بعشاء المرمع عقده في نفس المنزل في الماء، ولكنه قال إن كل شيء سير كما كان مخططاً وبالفعل ذهبا إلى بيته ولم يدعه أن يحدث قد برك في نفسه أي أثر

كانت هذه الشجاعة هي دبطع ما أدب إلى مصرعته، وهو لم يحاور الخمسين من العمر وقد قرأت وسمعت الكثير من نداء عليه بعد وفاته وعن ظروف معمله الشعة، ولكني لم أسمع أحداً يحاور أن يسس ست شعة ضمن يمكن أن يكون قبله أو عن ذر فح هذا القتل كان قد عرض عليه منصب مدير جامعة الأمريكية في بيروت في أوائل الثمانينات أثناء اشغال الحرب الأهلية، وكان ما سمعته عن متاعب الحياة اليومية في بيروت وخطورتها كافي لإثاء عزم أي شخص عن الحياة فيها ولكنه قبل الوظيفة، وبعد شهور ثلثة سمعنا أن الرصاص أطلق عليه أمام مكتبه في الجامعة في بيروت، ولم يتجرأ أحد على أن يقول أو حتى أن يتكهن بنحوصه قاتله أو سب القتل حتى روجته، التي كنا نتم لها أنا وور حتى جيداً، بذت عارفة تمام عن الخوض في الموضوع، وكنت أشعر شعوراً قوياً بأنها تحاف أن تقول ما تعرفه

الجامعة الأمريكية

عندما اتصل بي رئيس قسم الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، في أحد أيام سنة ١٩٦٦ ليعرض عليّ تدريس «تاريخ الفكر الاقتصادي»، بيّحت على المتبادر جماعة عين شمس، فقلت على الفور وسرور: كان هذا العمل جذاباً في نظري لعدة أمور: فتاريخ الفكر الاقتصادي كان دائماً من أحب موضوعات الاقتصاد إليّ، ولم يكن تدريسه متاحاً لي في كلية الحقوق إذ لم يكن من المطلوب لدّرس لقانون أن يعرف من علم الاقتصاد أكثر من مدته الأساسية والتدريس في الجامعة الأمريكية بالإنجليزية، مما لم يشكل لي أي صعوبة بالنسبة لي بل كان يتيح لي فرصة التعبير عن أفكار الاقتصاديين بكمّار مباشرة كما عبّروا هم عنها دون ترجمة، كما يسمح لي بأن أطلب من الطلبة أن يقرأوا بي مكتبة لا أستطيع أن أطلبه من طلبة كلية الحقوق. والجامعة الأمريكية كانت تدولي من بعيد عالماً جداً أحب أن أدخله وأكتشف فيه، كما أن المكتبة المالية التي كانوا يعرضونها كانت عصر جديد عصامي يعبى على بلية حاجاتي الجديدة التي يعجز عن الوفاء بها مرتبة كلية الحقوق، بهريل، وأنا لا أرا أبداً أحاول أن أكمل فرس بيتي وأدفع أقساط التلاجة وألغون.

ولم يحب طلي في أي من هذه التوقعات دخلت معي الجامعة الأمريكية بالفرس من مبداء باب اللوق، فإذا بي حذوها كالواحة الصعبره ومط صحره واسعة مجذبة كل شيء فيها هو عكس ما يجري بحار حها فمجرد أن تتجور عنة الناب تجد من انطفاء والحمل ما لا تجد مثله خارج الدب الحديثة بقعة ومبهره الخصره ولأرهار، مما يعني أن ثمة شخص وأشخاصاً لا عمل لهم لا

سقيها وتسيقها و المحراب والمرب تطيعة وتحوى على كل الوسائل اللازمة
للمراة والمساعدة على العمل دون تعكير ودون حاجة مستمرة للشكوى والسبات
الحميلات الناصرات التي تعرف كل مهن، حتى الأقل جملاً، موضع احتمال فيها
تبررها، ولديها من الملب ما يسمح باستخدام كل الأساليب اللازمة لتحقيق ذلك،
من شراء الملابس الخاصة لها بالوسط، إلى الذهاب إلى كوافر كفه يساعدها على
تحسين مظهرها وإلح الأمر إن في محمله مذهب تماماً ولا عيب فيه وهو في كل
هذه الأشياء وغيرها يكاد أن يكون النقيض التام من كت أراء في حاميها عين شمس،
حيث يحثهم على الطليعة الحرب والمفر، وحبوب الأسبادة مقفرة لا تحوى كل منها
لا على مكيب وكرسى، بل لم يترك أحداً أن يصنع على النافذة ستارة حميدة أو على
المكتب باء لأرهاق والأرض ملاط لا يمهض شمس، وكاف لإصاكن سارد ديد
قصت في الحجرة ساعة واحدة في الشتاء مما يدفعنا إلى العودة إلى مبرك بأسرع
طريقة، دون مفسدة لأطلاب والعراشون يحجم عليهم من الأسمى وسوء أحوال ما
يحجم على التلاميذ والأساتذة ودورة المياه سطيفة الوحيدة في الكلية كلها موجودة
في الدور العلوى الذى تقع فيه حجرة العميد، وهي المخزرة الوحيدة التي تحوى
على سحادة ومروحة ومقاعد وثيرة ولكن حتى دورة المياه هذه لها مفتاح يحتفظ به
فراش العميد في حينه، وهو فراش طويل عريض أحمر يعناية ليحرس مكتب
العميد، وللمتج للعميد نفسه وبروزة المقربين، باب دورة المياه كلب أحاجوا
لذلك وساب كنية الخقوق فيهن الحميلات تضع، فهن لا يحسن في أبعاد
الذى صنع من طسات الجامعة الأمريكية، ولكن طروفهن كلها لا تسمح بأن
يظهر مهن ما قد يكون لهن من جمال لا للباس التى يرتديهن، ولا طريقة
تسريح الشعر، ولا المشية المثقلة، ولا حوهم استطيع من أن يعترف مهن أى
رجل بل اتاح في دخول الجامعة الأمريكية أشياء طيبة أخرى لم أكن أعرفها من
قبل فملكته عامرة مكتب والدوريات الحيدة، وانظله يدعون إلى الملكة بالفعل
ويسمكون منها ولا يسعروا أن يطلب منهم الأستاذ أن يقرأ أو فيها كتاب أو مقالة
والفظة يقصون آخره الأكر من اليوم في الجامعة، ما بين حضور المحاضرات
والقرء في المكتبة، أو حضور محاضره صمة لأمتددر من مصر أو حارجها، أو

رؤية فيلم جبلة من الأفلام التي يظلمها ناد للسمع، أو يحضرون مسرحية يمثلها الطلاب أو حفلة موسيقية يقيمونها، كما يستطيعون أن يتدبروا وحدهم حيلة من الطعام، أعدت إعدداً جيداً في مطبخ نظيف. كل هذا كان طلبة كلية الحقوق في عين شمس محرومين تماماً منه، ومن ثم فلا شيء كان يستطيعهم في الكلية بعد انتهاء المحاضرات، أو حتى قبل انتهائها، إذ يصبح الأمر كله ثقلاً جدياً على النفس يعبر المرء بمحاولة الهرب منه كلما أتاحت له الفرصة لذلك.

فلما عدت من لوس أنجلوس وأصبحت أستاذة متفرغة بالجامعة الأمريكية انتداه من سبتمبر ١٩٧٩، أناحت لي الجامعة الأمريكية أيضاً قراً صلاتها لمقررات لم أكن أستطيع تدريسها كنسبة الحقوق. فالتفت إلى الاقتصادية لم تكن مقرراً مستعلاً من بين مقررات هذه الكلية، ولا الاقتصاد المصري، بل كان كل منهما في أحسن الأحوال، جزءاً يضاف دون تعمق لأحد المقررات الأخرى. وقد قمت بتدريس هذين المقررين، التفت إلى الاقتصادية والاقتصاد المصري، لعدده سواث في الجامعة الأمريكية. ولكن التجربة المثيرة جداً، والتي لم تكن من الممكن تصوّر تطبيقها في جامعة من جامعات لأعداء العنصرية في مصر، هي تدريس مقرراً يكون من محور اثني عشر كتاباً من الكتب الكلاسيكية في موضوعات مختلفة، خلال فترة أربعة أشهر، هي طول أحد لفصلين المكونين للنسبة الدراسية. كان على الطالب في هذا المقرر أن يقرأ ويناقش كتاباً كلاسيكياً من نوع محاورات أفلاطون، ومسرحية من مسرحيات سوفوكليس، واعتراضات سبت أو حنين، وكتاب الأمير لماكيافيلي، ومسرحية من مسرحيات شكسبير، إلى جانب بعض فصول من كتاب دروين، والبيان شيوعى لكارل ماركس وإيجلر، وكتاب صغير لماركس، وبعض الكتب الأدبية الشهيرة المعاصرة. إلخ.

وقد شتركت بعدة سواث في تدريس هذا المقرر، وهو ما كان يعنى أن ألقى خلال الفصل الدراسي محاضرة عامة واحدة، لجميع الطلاب الدارسين لهذا المقرر، عن أحد هذه الكتب المختارة. ثم ألقى مجموعة صغيرة منهم، يتراوح عددهم بين الثمانية والعشرة، مرتين في كل أسبوع، لسقش معاً كتاب الأسبوع،

كما ناقش لمحدرة العامة التي سمعناها عن هذا الكتاب أتاح لي تدريس هذا المقرر أن أقرأ بعض الكتب المهمة والرائعة التي لم أكن قد قرأتها من قبل ، ولإعادة قراءة كتب أخرى مهمة وقد أثرت في بوجه خاص كتب يعيها ، فهدت جهدا أكبر من المعتاد في إعداد محاضراتي عنها ، وأحيانا أيضا في القراءة في أمور متصلة بها . من ذلك كتاب الأمر لما كما فهمي الذي وصفه بعض الكتاب أنه «أول رحل عصري» ، فهدت جهدا في محادثة فهم هذه العبارة والتدليل على صحتها ، وفي الربط بين الكتاب والفكر الاقتصادي الحديث من حيث العلاقة بين السياسات والمؤسسات من هذه الكتب أيضا كتاب ابن رشد «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» فهدت جهدا في محادثة فهم الأماط الخفيفة للحلافه به وبين لعراي وأنعت عجانا هائقا برواه الكتب البحري المعاصر (أشي) «عند يهر كل شيء» (Things Fall Apart) وأثرب في محاضراتي عنها قصبة اصطدام ثقافات العالم لثلاث ماحصاه عربية ، وهو ما أروبه أيضا عدها حاصرت ، أكثر من مره ، عن تلك الرواية الأثيرة لدى «موسم الهجرة إلى الشمن» لطبيب صالح كت قد مرأت مقدمه ابن حلدون قبل اثنتي كى في تدريس مدة دريح الفكر الاقتصادي ، وأثر حماسي أن أكتشف أن كانا عربيا أحرر كل هذا التقدم في صياغة بعض الأفكار الاقتصادية المهمة قن آدم سميت بأربعة قرون ، وشرحت هذا في محاضراتي في تاريخ الفكر الاقتصادي ، ولكني لم أكتشف أهمية كتاب حي بن يقظان لاین طعيل إلا بسبب اثسراكى في تدريس هذا المقرر عن الكتب بكلامسيكية ، واعتبرت هذا الكتاب من الدرر الشمية ، ولاندأن أبى كان قد شعر بعوه شعور مائلا هو الذي أدى به إلى تحقيقه ونشره ومقارنته بكتب عرسه أخرى في نفس الموضوع



كل هذا جميل وعظيم جدا ، ولكني مع مرور الوقت وتدريس سنة بعد أخرى في الجامعة الأمريكية حتى أصبحت في مكان أعلى الأساسى منذ ١٩٧٩ وحتى الآن ، أكتشفت ببطء صمعي ، واتصحت لي مثاب دكرتنى بمثالب كليتي القديمة في

عين شمس، وهو ما ذكرني بخوار طريف در مره من أبي وأخي الأكبر منذ أكثر من خمس عاها كان أحي محمدا قد عاد منذ وقت قصير من أوروبا بعد أن قضى فيها عدة سنوات في الدراسة بالكتوراه ويسدونه في الأسابيع الأولى التي مضاهها في مصر بعد عودته صادف بعض المتاعب غير المتوقعة، حيث حلالها بعض الناس أمه، أو لم يقدواها وعلوه به، أو استعلوا بسبه لبعض طرق التعامل في مصر بسب عيبته الطويلة سألته في عن حاله ورأيه عم رآه في مصر بعد عودته فقال أحي بحزن «الأساس ه يأكل بعضهم بعض» فمكر أبي قديلا ثم رد عليه مستمها فوهي أوروبا أصلا، ون كانوا هلك يأكل بعضهم البعض بالشوكة والسكين!!

حدث مثلا، عندما قامت حرب ١٩٧٣، وحشيت إدارة الجامعة الأمريكية أن منحها بعض المتاعب من جراء رفوف بولايات لمتحدة إلى حسب إسرائيل ومنها بالأسلحة لتعريضها عما فقدته في هجوم أكتوبر، أن قرر رئيس الجامعة إعلانها لأجل غير مسمى، وشكل لجنة من بعض الأساتذة والإداريين لمساعدة الموقف يوما موم. وإثناء الصلحة يومها لرئيس الجامعة بما إذا كان الوضع أصبح يسمح أو لا يسمح بإعادة فتح الجامعة وأخبرت أن عضوا في هذه اللجنة التي كانت تجتمع كل يوم، وفي أوقات مختلفة من اليوم، وتجاد بهالة من الاهتمام، إذ يتوقف على قرارها (هكذا كنا بعض) عديد الموعد الذي نعود فيه للجامعة إلى ممارسة نشاطها كنت وفيها أكثر مداجه مكثير مما أنا اليوم، فكانت أظن فعلا أن المقصود بهذه اللجنة ألا يتقدم أحد بالرأي، وأن يكون إعلال الجامعة أو فتحها بقرار من العاملين بها أو من يمثلهم ظلمنا مجتمع كل يوم، في ساعات مختلفة من ساعات الصباح أو المساء، ويجلس معادائنا نائب مدير الجامعة، وهو مصري وثيق الصلة بالأمريكيين وبالحكومة المصرية في نفس الوقت، وكنا نعيش أصعب أثناء ذلك أشخاص مهمين للعباية ألا يتوقف فتح الجامعة أو استمرار إغلاقها على قرارنا نحن، وعلى تقييمنا اليومي للوضع السياسي؟ كان نائب مدير الجامعة يأتي إلى الاجتماع في كل مرة، بعد أن يجلس مع مدير ويناقتش معه في حلوة وفي أحد الأيام، بعد أن مضت أسابيع على هذه الاجتماعات المهمة، دخل عديدا هذا النائب

وأخبر أن آت لنؤم من مكتب مدير الجامعة وقد استمر رأى يسير على أن تمتح أبواب الجامعة عدا، ولم تترك لنا فرصة لمشهه صواب حد الثقرار أو حظته، فبصرنا في دهول ومن نساءل عن حدودي كن احتماعات المسافه انهم إلا التطاهر بالديمقراطية وننادون برأى

حدث بعد هذا بقليل حادث آخر يستحق أن يروى كان لأبور السادات، رئيس الجمهورية، هناك، بيت تقدم لخطبتها أحد أبناء رجل ثرى ومن المقريرين لسنطه، وكان وقته رئيساً للمجلس الشعب كان هذا الابن قد تخرج لبوء من الجامعة الأمريكية، ولكن سم يكن قد وجد لنفسه بعد وظيفة يمكن أن تذكر إلى جانب اسمه في الصحف، عدمه يعلن بأحظته لست السادات واستقر رأى الأسرة على أن من اللائق جداً أن تذكر لصحيف أن هذا العرس سعيد يشعل وظيفة مفيد لجامعة الأمريكية بالفترة ولم يكن هناك في الحقيقة وظيفة بهذا الاسم، فأنقص ما بطمع فيه شخص حديث التخرج في الجامعة الأمريكية إذ أراد أن يعمل في الجامعة بعد تخرجه، أن يعين مساعد باحث، أى مساعداً لأحد أمانته الجامعة لصنع ساعات كل أسبوع تكافئة بسطه، ودون أن يؤدبه هذا على الإطلاق لوظيفة ثابته في هيئة التدريس بالكلية، بعكس وظيفته المعبد في الجامعة المصرية الى توهل صاحبها بعد أن يحصل على الدكتوراه لأن يصمم إلى هيئة التدريس

كان المقصود بأنطع أن يعهم قارئ الصحيفة المصرية الخير بهذا المعنى الخاطيء، فيكسب حظيت بسب السادات الاحرام الواجب تم الاتصال بمدير الجامعة الأمريكية لإحطاره بالرعة السامية، ففقه بدوره إلى رئيس قسم الاقتصاد، وكان شاب أمريكي يسارى الأفكار، وبوهمياً جريث في نفس الوقت، منقل إلى البنا الخير بالنصط، وقال له إن رعة مدير الجامعة هي الاستجابة لرعة رئاسة الجمهورية وأن الأمر بيدنا نحن أسئلة لقسم، لنقرر ما نشاء فيما إذا كنا نقبل تعيين هذا الشاب في وظيفته مساعد باحث بالقسم أصناف رئيس القسم إلى معلومات أيضاً الخير المثير الأذى وهو أن مدير الجامعة قال له إنه فهم عن اصله من الحكومة المصرية، أن مسألة اعتراف الحكومة بشهادة الجامعة الأمريكية أو عدم الاعتراف بها، (وكنت

مطروحة في هذا الوقت ، إذ لم تكن هذه الشهادة قد حصلت على هذا الاعتراف
(بعد) تتوقف على قرار قسم الاقتصاد نقول أو رفض تعيين هذا الشاب المحظوظ

كان تصرف رئيس القسم سريعاً مئة بالمائة ، وإن كان قد وصفا جميعاً في ورقة
لا يحسد عليها . وكان حتماً مثيراً ومسلِّباً للعبادة ، ذلك الذي عده في القسم
سحق الأمر - كما أربعة أو خمسة بالإضافة إلى رئيس القسم أم رئيس لقسم فقد
ترك لنا حرية اتخاذ القرار الذي يرضى صميرنا . سألت أستاذ مصري ، من بين أعضاء
القسم ، عما يد كان هناك متقدمون للوظيفة عبر هذا الشاب ، فقل له إن هناك شاباً
واحداً آخر يقدم لها وهو حاصل على درجت أكثر . فاقترح هذا الأستاذ المصري
نعت الإنسان صفاً للفرح وحر وجام من هذه الورقة ، هو اتفاق على ذلك وتم العس
ولكن فوجئنا بعد فترة قصيرة للعبادة ، لعلها لا تريد على شهرين من توزيع نشر حر
التعيين هي الصحف . حذر استمالة هذا الشاب المحظوظ من الوظيفة . نتي عيبه
فيها ، بعد أن وصفا كلها في هذه الورقة . رسمت بعد ذلك إيمه شمل يحمل أكثر
دحلاً بكثير يتصل سحرة التصدير ولاسيراد



كانت هناك بطبيع أشبه كثيرة مشتركة بين الحضارات المصرية والحد مع
الأمريكية . كان من بينها لم يكن يحظر لي مال عندما كنت لا أزال شاباً عصا
عائداً لتوّه من البعثة . كانت لا تزال لديّ صندقة فكرة مثالية أكثر من اللازم وغير
واقعة ثانياً عن أستاذ الجامعة ، أيّ جامعة ، تتعبد بالاهتمام الخفي بالعلم ،
والانشغال المستمر بالمصايف العسكرية ، بدرجة تفوق درجة اهتمامه وانشغاله بأي
شيء آخر . فلما رأيت أساندة الخسمة عن قرب وجدت أنهم ، ما تشاء قلّة بدرة
للعبه ، على عكس هذا تفرد . رجال من لحم ودم ، بهم تطلعاتهم لاديه مثل
غيرهم ، ودور أهله ونحيرات صارحه تحكم إراءهم ومو فهم . والذي وحدته
أعزب من كل هذا أن صبرهم على أي ماضيه فكرية حقيقيه صثيل للعبه ، وميلهم
إلى تقليد الأمور على أو جعلها متعددة صعب أو غير موجود أصلاً

لقد تبين مع مرور السنين ، أن مدلول الكلمة الإعلانية ne actual لا يتوافق

لا في عدد قليل جدا من الناس، وتوافره بين أساتذة الجامعة، مصرية كانت أو أمريكية، ليس أكثر بالضرورة منه بين غيرهم، وأن الحصول على شهادات العالمية، كالدكتوراه، من جامعات عصيمة، كهارفارد أو لندن أو أكسفورد أو باريس، لا يدل على أن شيء على الإطلاق فيما يتعلق بهذه الصفقة (intellectual) ليس لها في الحقيقة مقابل شئ في اللغة العربية، فهي بالطبع لا تعني التعلم ولا حتى التفهم، بل تشير إلى الأشعب المستمر، أو شبه المستمر، بأفكاره، أو رؤية المشكلة لعنصرية وراء أي حدث أو ظاهرة من أحداث وطوره الحياة اليومية (م عيبر عنه بعبارة طريفا كاتب إنجليزي كان يصنف جورج أروويل، فقال عنه إنه لا يمكنه أب يحرج لمديل من جهة لسميح أنه، دون أن يحظر سائل المشاكل، لاجتماعية التي تشرفها صاعقه المبدل!) هذه الصفقة هي التي رعتي بذكرها من أساتذة الجامعة، مصرية كانت أو أمريكية، فمداني أجدهمهم نفس معاد الصبر، عند ما تثار أي مشكلة ذات طابع فكري، الذي يمكن أن تحده عند أي مجموعة من الشبان صغار السن المشغولين بأي أمور صغيرة، أو عند رجال لا يعرفون نقره والكلمه



عندما جاءني خطاب من جامعة أمريكية أثناء وجودي في الولايات المتحدة في سنة ١٩٧٩ يعرض عني العمل بها، ولم تكن لدي رقتها أية بنة للعودة إلى العمل بالكويت، وكنت راعيا في العودة إلى مصر بعد انتهاء عملي كأستاذ وإثر بلوس أنجلوس، وحدث العرض ملائمة لي تماما، ورُسنت باسمقائتي إلى الكويت دون تردد عني الإطلاق. حظ لي بالنطق حاضرا يتبعني بأن الجامعة أمريكية وليس مصرية، وأن العمل بها قد يكون عملا غير وطني. لم يكن من الواضح لي قط ما هو بالضبط الشيء، «غير الوطني» في قبمي بالمدرس في الجامعة الأمريكية بعد درُست فيها سنوات عديدة قبل ذلك، أسادا لبعض الوقت أحيانا، ومتفرعا في سنوات أخرى، ولم أشعر قط بأنني أقوم بعمل غير أخلاقي، أو أنني بذلك أتكر لوطني ومومي. كانت العالمية الساحقة من تلاميذ الجامعة الأمريكية مصريين مائة

باللغة، ولمس لدى كثيرين منهم شعورا وطنيا قويا، من أجل معصهم كانوا يريدون لي أكثر قدرة على التعبير عن هذا الشعور الوطني، من طلبة جامعة عين شمس مثلا، ربي لأن ما يسمعون به من رحاء يسمح لهم بالانتماس، ولو بعض الوقت، في رفاة المشاعر الوطنية. كما لي لم ألس قط من إدارة الجامعة الأمريكية ندخلا في النشاط السياسي للطلبة أكثر مما لمس من إدارة جامعة عين شمس، من كان من لم أصبح تماما لي أ الحكومة، ومعها إدارة الجامعات المصرية. أكثر حساسية بكثير لأي بادرة احتجاج أو تمرد من طلبة هذه جامعات منهم سدوك الطلبة في الجامعة الأمريكية، لسبب سيظ ويدهي وهو كثرة العدد في الأولى وقت في الثانية ثم لي لم أشارك قط في أي عمل إداري في الجامعة الأمريكية بحر صلي لاجتماع موافق قد تتعارض مع مشاعري أو موقفي السياسي. بعد لم أتوقف طولا عند ذلك التذوق عما إذا كان في التدريس بالجامعة الأمريكية شبهة أي سدوك «غير وطني»

كان بطوف بحاطري أحياء، وإلم يكن بكثرة. تساؤلي عن اندرس الإنجليزية على الرغم من اعتمادي الأكيد بان بهمة أي أمة تتطلب لدرس العلوم بلعنها القومية، وتساؤلي عما لاند أن ترب على الدراسة بالإنجليزية في جامعة هي أمريكية في بهمة الأمر، من إصعاف انتميت بمختلف مصاهر إشعاعه الوطنية ولكني لم أكن أنصأ أتوقف طويلا عند هذا تساؤلي أو ذلك، إذ كان من الواضح لي أن المرء يضادف يوم أفته لا حصر لها على اهتمام البعة القومية والتكر لشعارة الوطنية حتى في مؤسساتنا التي يعترض فيها حماية هذه بلعة وهذه الشفاعة، بحيث تدو أي حرمة قدر تكها الجامعة الأمريكية في هذا الصدد كقطرة في محيط، أو كدرة صغيرة من الملح تلقى في بحر صالح واسع، لا يمكن أن توبده ملححه ثم شعرت بأن أرايا المحتشمة التي يوقرها لي انتميل بالجامعة الأمريكية، تحب في الحقيقة أي عيب من العيوب الي ذكرتها حالا، وأن راحة البال الي أحصل عليها من العمل في مكان كالجامعة الأمريكية تسمح لي بالقيام بأعمال، لخدمه وطني وتلاميذي، قد تمنعني منها بطوف العمل في جامعة مصرية كم ضرور إذن عندما قرأت قولنا لسك بكتب الأثير لسي (جورج أوروبس) يمتد به إرساله لاسه بالنسب إلى مدرسه من المدرس لأرستقراطية والمسماة في إنجلترا Public Schools، على

الرغم من ميله الاشتراكية وكرامته للاختيارات الصعبة ناله أوروبيين معلقا على ذلك (بمعنى أما صد نظام Public Schools، وأؤيد للعاهة، ولكن طالما هو موجود ساحل أرسل إلى مديرة من هذه المدارس) لقد فهمت هذا القول بمعنى تفصيل الواقعية الكاملة على الاستسلام للشعارات المخدرة، وبمعنى الاعتراف بأن قيمة المروءة على أن يحدث بحسب المعرف تعبيراً مهماً في نظام السائد قدرة محدودة جداً، وأنه قد تكون من عواقب أن يصحى المرء بمسسه، أو بمصالح شخص مهجة أو لأسره، في سبل التمسك بمدأ عام لا توجد أمامه فرصة جدية لتحقيق في المدى المطلوب

ومع ذلك فقد اتحدث بعض خطابات في نشهور لأولى التالية لبدء عملي في الجامعة الأمريكية كأستاذ مخرج بها في ١٩٧٩، لتحقيق مدى ذلك هناك عمل آخر ملائم لي في مكان آخر «مصري مائة بالائة» فقامت مدير مركز الدراسات الاجتماعية والجمعية والجمعية (الذكور أحمد حلمة) سألت من العرض المتاحة لي للعمل في هذا المركز، فلم أحداً منه تشجع وبصحي أن أبقى حيث أنا ومألت عن حالة الجامعات والديمقراطية ومديرة من أساساً أن أقدم بطلب للعمل بها، فكان ما سمعته عن ظروف العمل بها كافي لصر في نظري عن ذلك أم فكرة العودة إلى كلية القديسة، حقوق عين شمس، فقد بدأت مستحبة من ائدية بسبب ما لا بد أن ترتب عن عم دولي إليهم من مراجعة زملاء قدامى فيما يحققونه من دخل من كتبهم الجامعة وهكذا انقضى العام بعد الآخر، وأندأ من في الجامعة الأمريكية دور انقطع إلا مرتين، مستفيداً مما تتيحه هذه الجامعة كل من سنوات، من تنوع للبحث لمدة سنة كاملة دون تحييص في المرتب كتاب بيحه التصريح الأول كدسي لكتاب «قصيدة مصر الخراجية من عصر محمد علي إلى يوم» وسيدتي المخرج الكسبي كتاب «كشف الأئمة عن نظريات الشيعة الاقتصادية»



دانشگاه السنين اللين فصتهما بعد نحرني مباشرة في وطعة بإدارة الفتوى والشرع بمجلس الدولة، ولوت الأربع التي قصيتها في الكويت كمستشار

اقتصادى للصدوق الكويتى، كانت وطيمنى الوحيدة مد تخرجت هي التدريس في الجامعة. واعتقد الآن، كما كنت أعتقد دائما، أنى معيد الخط إذا اشتعلت بالعمل الذى يلائمى تماما. فانا أكاد أن أكون قد ولدت مدرسا، أعين موقف ادرس عشقا، ولدى القدرة على تسبب الفكرة المعقدة، وأجد متعة في توصيلها للآخرين. وبم أعطى نفسى على الأقل لىم أحل بسوس والمعادنة لتلاميذى، إذا حكمت على نفسى بما على ما أسمع من رأى تلاميذى في محاضراتى ومعاملتى لهم. أما فيما يتعمّن بدرجة تحصى في توسيع مداركهم وزيادة معلوماتهم فانا أقل ثقة في نفسى، إذ كنت دائما أخرج من المحاضرة، أنا أشعر بأنها كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير، ولكن لعل هذا هو في حد ذاته دليل على الأداء الجيد في هذا الأمر أيضا.

لقد مرّ علىّ الآن أكثر من أربعين عاما منذ ألفت أول محاضرة جامعة لى في كلية الحقوق بجامعة عين شمس (١٩٦٤)، وما أكثر دن ما ألقى من محاضرات! درست بالعربية والإنجليزية، لصحية لم يبدعوا العشرين، ورحال وساء ما صحين يحضرون للبحر جئير، في جامعات مصرية وأمريكية، في مصر وفى الولايات المتحدة، كما كنت أحيان ألقى المحاضرة في كلية حقوق عين شمس، ثم أذهب بعد انتهائهم لإلقائهم من جديد على طلبة كلية شرطة، إذ كانوا يتقدمون لى لاعتبارات ليصبحوا قانونيين وصباط شرطة في نفس الوقت. ما أكثر المحاضرات إذن التى ألفتها في جامعات مصرية، وكذلك في بعض الجامعات العربية كعدداد وصعاء، وما أكثر المحاضرات بعامه التى ألفتها في داخل مصر وخارجها، في بيروت ودمشق والكويت وأبو ظبي وعمان وتونس والجزائر، وفي خارج العالم العربى درست في لوس انجلوس، وألفت محاضرات عامة في اكسفورد وطوكيو وأستطيع بعد هذا أن أقول بكل ثقة لكم هي مهنة رائعة!

أقول هذا بكل ثقة، ولكنى أعرف أيضا أنها ليست مهنة. نعه في نظر الجميع لى أعرف أشخاصا من أصدقائى ومن أفراد عائلتى ممن أعزهم أدنى لى بكثير، أو أوسع ثقافة، أو أكثر نشاط وأعلى همة، ولكنهم لا يطبقون فكره أو يشتغلوا ول

يوما و حدا بالتدريس . بعض هؤلاء يرون في وظيفة التدريس تكرارا عملا لنفس الكلام عاما بعد عام دون إضافة تذكر . وبعضهم يفصلون بوجبه عاقبتهم لمحاولة اكتشاف شيء جديد أو اكتساب معرفة جديدة ، على إصاعتها في محاولة توصيل معلومات معروفة أو نظريات مستغرة إلى آخرين ، أو إلهام تلاميذ صغار ، بعضهم لا يستحق أصلا بدل أي جهد معه . والبعض يفصل استخدام معرفته وعلمه في صنع شيء له نتائج عملية مباشرة ، كإثاء مصنع أو إدارته أو استصلاح أرض ، على تدريس شروط الإدارة لباحة لشركة صناعية أو شرح الأبراع المختلفة للترنة أو الطرق المختلفة للرى إلخ . لا بد أن مثل هذا هو الذي كن يقصده اسكاتب لايرلدى لشهر برناردشتر في عياره السخرة من التدريس والسرير "من يعرف كيف يقوم بعمل ما ، يقوم به بالفعل ، ومن لا يعرف ، يقوم بتدريسه"

هناك بعض الصلحة ، بلا شك ، في هذا القول ، ولكنة ناس أكثر من الازام فالمدس ليس دائما شخصا هائلا دهعه قبله إلى لاشغال بالتدريس ، بل قد يكون دافعه إلى ذلك بعض انصعات الطسة بلعية ، كالتلفط مع الآخرين ، وانفدرة على فهم نوارعهم واهتمامانهم ، و الحاسبة ما يحون سماعة ، ما يصهم بالملل و لشخص المفرط في حجه من الناس أو خوفه منهم ، أو المفرط في الحساسية ، لا يمكنه فيما أظن أن يكون أستاذ باحدا . وكذلك الشخص الثرثار عطبه ، أو العاجز عن رؤية ما يصحك في موقف ما ، أو الذي يسى بمسير ما يرتسم على وجود تلاميذه أو المستمع إلى إبح المدرس الحاجح يحتاج إلى نوارع صمرت عرب من صفات امثل الحج لا بد أن يهمن ان يحصل على إعجاب ناس وتصفيقهم ، ونسره شمة رؤية وجوه المستمعين أو المعرجين وقل عنهما انبذمة أو معسرات الدهشة أو الالعب ، ناهك الطلع عن قوه انصوت ووصوح سراه وبعض لفصاحة لا بد أن بعض هذه الصفات تتوافر في ندرحة معقولة ، وإلا ما طبلت راضيا عن بعضى ، بل وما استمر اشتغالى بالتدريس طوال هذه سنوات . ولكن لا شك أيضا أن خردا من محاحى كمدس يرجع إلى نوافر بعض الفاتص وأوجه ضعف فقد كان دائما يهمنى رأى الناس في ويهمنى الحصول على تقديرهم أو إعجابهم ، بل ويبدو أنى كنت دائما أحتاج إلى ما يؤكد

في هذا التقدير أو الإعجاب على فترات متعاقبة، والاداءات أبعاد الثقة في نفسي
فكان كل محاضرة حديده كانت تعطى هذه الفرصة ومن ثم استعد لها تمام
الاستعداد، وأحد بها كل وسائل الحيلة وكأني مقدم على معركة. لاشك أنني لم
أكن قط شديد ثقة بنفسى، وهذا على الأرجح شعور ولد معى ولم تعلق ظروفي
أسرتي وبشأنى في اقتلاعه. والذي يعانى من مثل هذا الشعور لابد أن يجد مصدراً
مهماً لنسوى والطمأنينة في عمل كالتدريس أو التمثيل، وأظن أن التدريس أدى
لى هذه المهمة بكفاءة عالية

كان من الطبيعي أن أشعر بسرور مصعب إذ لمست هذا الإعجاب أو التقدير
فيما يرسم على وجهه تلميحاً نياً، خاصة الحميلات مهن لقد كان لى أيضاً
شعور دفين مدس منكرة للناية، بأن من الصعب جداً أن تعجب بى فتاة أو امرأة
لا أدري من أين جاء هذا لشعور اللعين الذي لم يطلع قط في القصة، عليه أى دليل
يأتينى على عكسه. ولكن هاهى وطيفة التدريس تعطى بعض التعويض، لأن
كان تعويضاً مناسباً للنناية، عما حرمنى منه هذا الشعور تجاه المرأة فكلم تلقى من
تعبيرات الإعجاب والتقدير على وجه تلميذات حميلات، في كل جامعة فب
بالدريس فيها، (بأسوء كليه الشرطة بالطبع حيث كب. لهذا سبب ملاشت.
أقل إقبالا على التدريس فيها سوى في غيرها) وكم ظلت رؤية وجه حميل بطلانة
معيه أو أخرى، و مسترة تعبير الإعجاب به، حافزاً إضافياً لى لندهدد بحماس
لللقاء المحصورة. وقد اعترف لى مرة أستاذ مصرى كبير بأن شيئاً كهذا هو اثنى،
الوحيد الذى يجعله يفتق مهمه لتدريس أصلاً. وقال لى أستاذى روس مرة، في
محضرته بكليه لندن للاقتصاد، إن الأشغال بالدريس به شبه بالرواح من امرأة دائمة
الشباب. ولعله كان يقصد أن الأستاذ قد يستمر عما بعد آخر في تدريس نفس
المقرر لثلاثين من نفس العمر، فإذا به يجدد شأبه باستمرار من اتصاله المستمر
تلاميذ لا يشيخون أبداً. قد رجحت ملاحظته صحيحة، ولكنى وجدت ملاحظة
صحيحة بوجه خاص إذا كان بين التلاميذ بعض الفتيات الحميلات

هذه امبره المهمة التى كان يحققها لى بالدريس، وهى المحصور على إعجاب
اساس وتقديرهم، أو بالأحرى التصويت كل فترة وحيرة على تحديد الثقة فى، ومن

ثم تجديد الشعة بنفسى ، لابد أن كثيرين من احبوا هذه المهنة يشتركون فيها معى ، ولكنها على أى حد ليست المرة الواحدة التى كنت أجدها فى وظيفة لتدريس كاد هناك بالإضافة إلى ذلك الحرية الوافدة التى يتمتع بها الأساتد أكثر من أى موصاف آخر ، إراءه مرفوسيه ، وهم الطلاب ، وإراءه رؤسائه ، وهم رؤساء الأقسام وابعدهم ومديرو الجامعات . فمن المبادئ المستقرة وإن لم تكن مدونة ، أن الأستاذ حر فى اختيار ما يقوله لللاميذه ، واختيار الطريقة التى يريد بها للتدريس ، وفى وضع ما يشاء من امتحانات فى الوقت الذى يروق له ، وفى تحديد الكتب التى يطلب من اللاميدقراءتها . إلتح هناك بالطبع حدود لكل هذه الأمور ولكنها حدود قصده حدًا وترك للأستاذ سلطانا تصب مقاربه بأى سلطان آخر هكذا جرى تمثيل مبدأ «الحرية الأكاديمية» حتى أصبح الأستاذ ملكا غير مروج ، يرفض بإبه وشمم فرض أى قيد على حريته ، و صرح من أصعب الأمور على الطلاب أن يخلصوا من أساتد سيئ ، بد من بدري ، ألا يجوز أن يكون أساتدا عبقريا بطن طريقة فى التدريس سم يسمح بها أحد ، ولكنها أفضل فى الحقيقة من أى طريقة أخرى ، وقد يؤدى أساسا بحريته إلى تعطيل إبداعه وقد المجتمع لتضار علمه ؟

ولكن وظيفة التدريس نأحت لى أيضا مزايا أخرى كانت ذات أهمية كبيرة لى وقد وجدت أن أفضل طريقة لمهم لشكته المعقدة أن يصطر لمرة لى بدريه ، بد خطة رقة متروك على درجه فهم الأستاذ لما يعون . وقد يجبر لأمت ، عالم يكن يصاد ، على فعل استحيل حتى يصبح عادرا على مواجعة أى سؤال لتوضيح ما يقوم بشرحه . والأساتذة الذين يتحرأون على أن يتكلموا عن أشياء لا يحسون فهمها صنف نادر ، والعادة أن تصبح أمرهم تنصل بذلك مبيرة أخرى فى الانتكاز . والاشداء إلى أفكار جديدة فالمحادثة المستمرة للشعوب فى معهم استعدادا لمواجهه التلاميذ كثرأف تعود لأستاذ لى أفكار جديدة قد يكون بعضها ذات قيمة . والحقيقة انى مديني للتدريس بكثير من مقالانى وكنتى فإذا كان شعبي بعض الجمع فهو بلا شك نافع فى الأصل من حوفى من أن أقول كلاما غير مفهوم

لكل حد أعتبر نفسى سعيد المخط ، بد كانت الوظيفة انى أكسب منها ردمى تحلب

لى كل هذا اعترف من السرور والرضا عن انفسى وللهذه الاسباب أيضاً، تكثر من
 ائى سببى، لم أفكر قط فى أن أستبدل بمهنتى مهنة أخرى حتى المرة الوحيدة
 لى تركت فيها التدريس للاشغال عمل آخر، كاستشار للصندوق الكويتى، كان
 فى دهى دائماً أهدى بحرية مؤقتة لا يمكن أن تستمر طويلاً، وهذا هو ما حدث
 بالعمل



لم أصادف أثناء عملى فى الجامعة الأمريكية الكثير من المشاكل من النوع الذى
 يشتر قصبة «أخلاقية» حدث مثلاً بعد شهر قليل من بداية عملى بهذه جامعة
 لعمره الثانية كأستاذ لكل الوقت فى اواخر السبعينات، أن اشحق بالجامعة، كتلمذ
 فى السنة الأولى، ان شاء يربا كانت الثورة الإسلامية فى إيران قد أطاحت
 بحكم الشاه وحالت أسره فى السدي للإقامة فى مصر خلال عهد السادات صديق
 الشاه الولى. وكانت الأسره معتقد أو تأمل أن يكون الثورة الإسلامية قصيرة
 العمر، وأن يعود الأمره إلى إيران فجلس هذا الأس على عرش أبه خلال هذه
 الفترة لم تجد للأسره مكاناً للأسر أفضل من الجامعة الأمريكية بالقاهرة وكان أحد
 الفصول التى التحق بها الفصل الذى تدرس فيه مبادئ الاقتصاد كان يحصر إلى
 الفصل محاطاً بحراسة مشددة ويظل الحراس واقفين خارج الفصل طوال
 المحاضرة، وحتى يعودوا به إلى مرله أذكر أنه حضر محاضرتى مرتين أو ثلاثاً ثم
 انتقم عن الحضور وبعد بضعة أيام اتصل بى رئيس القسم ليقول لى إن رئيس
 الجامعة يرجو أن يكون من الممكن أن أذهب لإعطاء الشاه دروس الاقتصاد فى
 مرله، إذ إن ظروفه لاس وصعوبة حرسته تجعل من غير المستحب جروحه يوماً
 إلى الجامعة أخبرونى أيضاً بأن بقى الأستاذة بذي سد سون له سوف يطلب منهم
 نفس الطلب، وأن معصهم هذا وفق العمل واستعرت ان أسمع ان أستاذة أمريكيا
 كسرا فى العلوم السياسية قد وافى على أن يذهب لإعطائه دروس فى مرته، كما
 لم تعارضى وميله مصره لم يطل تفكيرى فى الأمر وسرع ما رفضت طعناً
 مرت محاضرى صورة بعض اسجاد الإيراني وهو يصل إلى بيتى كهديبه، أو شىء

ثم آخر ، و تكى اعتسرت المسألة و اصلحة كالشمس ، و أن الرقص هو الموت
 الوحيد ، لا لا تقى بدت في الأمر إهانة لا شك فيها للأستاذ ، و بدكرت انقصة التي
 حكاهما لي د . عبد العظيم أيس ، أستاذ الرياضيات اخليل ، عندما كن مكلما
 بوضع أسئلة الثانوية العامة في الرياضيات فاقصه له مكتب رئيس الجمهورية ،
 و كان الرئيس في ذلك الوقت أنور اسادات ، ليطلب منه أن يعطى دروسا
 خصوصية في ارياضيات ، لاس الرئيس ، و كان العزم الطبع محذولة إعره بال
 يساعد الولد على اختيار الامتحان سدريه ، على نحو أو آخر ، على لإحادة على
 من الأسئلة التي سينضمها الامتحان ، فما عمل د . عبد العظيم عن القيام بهذه
 المهمة شارحا لهم السب ، و هو أنه هو الذي يقوم بوضع الاسمان ، ثم يروا الطبع
 و حاسة هذا العسر ، إذن هذا العسر بالاضبط هو ما جعلهم يطلبون منه لقيام
 بهمه . رشح لهم د . عبد العظيم أسادا آخر و امدح قدراته و كفاءته ، ف صطروا
 لظهور ماواقفة و تكى انتهى ، الأمر بأن ميارة من رئاسة الجمهورية كانت ذهبت
 لإحصار لأسد إلى مرس الرئيس ، يوما بعد يوم ، ثم ترك لأساداته أو أكثر في
 حجرة الاستقبال ، يقدم له خلالها مشروب بعد آخر ، و تنتهى بأن يثنى شخص
 ليعتذر لأستاذ بأن التلمذ مشغول اليوم بحفلة عيد ميلاد مهمه أو ماى عدد طارئ
 آخر . تصورت الأستاذ لسكير ، أثناء عودته دليلا إلى منزله و حجم الدم الذي
 لابد أن يكون قد شعر به إذ قل أن يعوم بهذه المهمة . ولم أستطع أن أنصروا أن اصبع
 نعى في مثل هذا الموقف . ثم يلح على أحد في الفصول ، ولا أعرف ما إذا كان قد
 ذهب شخص آخر بدلا مني أو لم يذهب ، ولكن سمتمش شهر فقية حتى سمعا
 أن أميرة الشاه قد تركت مصر بأمرها تتعش في مكان آخر



من التلمذ من مصدر لا سرورى و تحديده رصاي عن نعى ع ما بعد عام ، ولا
 بصى منه السأم . ولكنى لاحظت أنني في محاضراتي أسأل أكثر فأكثر ، مع تدمي
 في السن ، إلى لقو . من الخوض في التفاصيل ، و من شرح نظريات و موضوعات
 كنت أعشرها مهمة في الماضي ، فأصبحت أعتبرها قليلة أو عديمة القيمة ، و إذا
 أشك في قيمة تدريس كثير من نظريات المشهورة ، التي ربما امتضت و فتتها من

أداتها وفتحها دون أن تكون لها أي قيمة علمية، هدر استهال ليست إذن أكثر من مبرر عقلي يمكن أن يحصل الطالب على بعض منفعته من إنشاء أخرى قد لا تكون لها صلة بالعلم. لاحظت أيضاً زيادة اهتمامي بأن أذكر في محاضراتي، أكثر فأكثر، خواص الشخصية للاقتصاديين الكبار الذين ندرس أفكارهم، كمعنى المعلومات السدئة عن تعليم جون سبوارب ميل وشخصية آييه، أو عن علاقة كير بمصن الكتب لمشهورين من أعضاء جماعة بلومبري، وحرص مارجينيا ووف على معرفة رابع قى رواياتها، أو عن علاقة والد مالتس بحاك روسو. إلح الطلاب يحمون دائماً، بالطبع، أن يتفرقوا المحاضر إلى مثل هذه الأمور، ولكني أصبحت أميل مع تقدمي في السن إلى إعطائها أهمية أكبر من ذي قبل، بل وبدأ أشعر أن تأثير مثل هذه المعلومات في النفس قد يكون أعمق وأكثر دواماً، وربما أيضاً أفضل وأحسن، من تأثير المعرفة بالنظريات العلمية بها.

قد يزيد هذا أشى لا أزال أتذكر حتى الآن ما قد يكون قد فاته أستاذ قديم لى، من إحدى محاضراته، عن شىء لا علاقة به بالعلم الذى كان يدرسه، ولكنه يتعلق بنجاب إنسانى أو أخلاقى عام. وبعد وقت قريب وقع بيدي كتاب أستاذى القديم ليوبيل روسو، الذى أشرف على دراستى للبحوث فى إنجلترا، عن تاريخ الفكر الاقتصادى، وهو كتاب استخرجه تلاميذه مباشرة من محاضراته. نرى أنه بعد أن تجاوز من الشعبى، وتعتمد اعتماداً كلياً تقريباً على تسجيلات هذه المحاضرات، مع حرص على عدم إجراء أى تعديل مهم عليها، إلا ما كان منها ضرورياً تماماً لاستقامة المعنى أو استكمال الجملة. لفت بصرى أن هذا الكتاب (أو هذه المحاضرات) كان مليئاً بمثل هذه لقصص والأحار عن جرائب شخصية نحتة للاقتصاديين، ليسين يتكلم عنه، واننى تكشف عن جوانبهم الإنسانية، أعالج منها، والطلالغ، أكثر مما تكشف عن مساهماتهم الفكرية. قلت بنفسى (وما الذى توقعه غير ذلك؟) رجون يلقى محاضراته بعد أن تجاوز الشعبى، أى بعد أن اكتشف ما هو المهم فى الحقيقة وما هو غير المهم، فبما أكثر فأكثر إلى الحديث فقط عما يقع الناس ويكتب فى الأرض»

«ماذا حدث للمصريين؟»

في أعقاب توقيع أئور السادات الاعتراف المعروفة باسم «إماتية السلام» مع إسرائيل في مارس ١٩٧٩، أصبحت كلمة «السلام» هجاء من أكثر الكلمات تداولاً في مصر، فأصبح رئيس جمهورية الذي وقع الاتفاقية يوصف بأنه «مطل السلام»، وأحياناً «مطل الحرب والسلام»، وأعلن عن أن ترعة جديدة شقق توصيل مياه النيل إلى سيناء وأطلق عليها «ترعة سلام»، وشع سحخدام «السلام» كاسم لمحلات والمطاعم والحدائق الجديدة. وكان لا يد أن غتند الظاهرة تدخل في مقرراته العنيفة أيضاً.

فعى صيف ١٩٨١، عادت ابنتى من امتحان الشهادة الابتدائية الذى جلس فيه أكثر من ٦٠٠ ألف تلميذ وتلميذة متوسط أعمارهم ١١ - ١٢ سنة، ودخل معهم أكثر من نصف مليون أسرة مصرية تمثل أكثر من ٥٠٪ من مجموع الشعب المصرى وأساسى لدھول عندما قرأت ورقة امتحان اللغة العربية.

علامتحد يكون من عشرة أسئلة (بما فى ذلك أسئلة الخط والإملاء) كانت أربعة منها تتعلق بالسلام. مسؤال المحفوظات يبدأ بالعبارة الآتية «أشرفك يا يوم السلام»، ومسؤال النحو يطلب إعراب «أشرفك راية السلام»، ولعمل مصرع انصوب اسمرححه من القطعة هو «يشيد بعالم يحب مصر لسلام». والموضوع المختار من موضوعات القراءة المقررة تكلم عن استرداد مصر بقائتها «نشئت للعالم رعينها فى السلام». بن ولم نجد واصحو الامتحد فى الفردن الكرم ما يطلب من السلام شرحه إلا «مولد الرسول صلى الله عليه وسلم كان يوم السلام»

أسدي الغصب لدى قراءة ورقة الامتحان وجلس لكثافة مقال تضاءت فيه عن الدافع الذي يجعل المستحق بصور أنه ليس هناك قيمة من القيم تستحق الاهتمام والغرس في نفوس التلاميذ من تلك التي تتعلق بقيمة سياسية، وعمما إذا كان الدافع إلى اهتمام المتحدين به هو دافع "تحرير مبادئ الحكماء وأرست لقائهم إلى جريدة الأهرام اليومية ولم أستغرب أنه لم يشر فقبح المقال في أحد أدرأحي حتى حاولت مرة أخرى بعد نحو سنة ونصف، إذ أرسلته بالبريد العادي مجلة "الأهرام الاقتصادية" التي كان يرأس تحريرها رجل شجاع ووطنى هو د بطى عبد العظيم، وكم كان سرورى عندما وجدت رؤية المقال مشور بالمجلة (فى عدد ٢٥ يناير ١٩٨٢)، وعنوان المقال عنى علاهها ولم أستغرب بشر المقال هذه المرة، إذ كان رئيس الجمهورية قد قُتل قبل نشر المقال نحو أربعة أشهر، ولأسباب ليست ميتة الصلة بعاقبة "السلام"

كما هي عادتى، لم أتأكد من أن المقال جيد إلا عندما قال لى بعض من قرأه إنه جيد، وكانت هذه بداية شعورى بأنى قد تكون أكثر من قنصدى كان هذا منذ ٢٤ عامًا، ولم أتوقع منذ ذلك الوقت عن الكثافة في الأمور العامة، وكأنى عثرت مجلة، عن طريق كتابة هذا المقال وبشره، على حرفتى الأصلية التي تنكرت لها منذ قررت دخول كلية الحقوق وأنا في السادسة عشرة من عمرى شجعتى بطبع عنى الاستمرار في كتابة هذه المقالات الامتقال لحد الذي حظت به مقالاتى بنى مشورتها بعد ذلك في مجلة الأهرام لاقتصادى ثم في جريدة الأهالى، بعد عودة حرائد المعارضة إلى أعينها السادة إلى الطهور. كاتب أفضل هذه المقالات، في رأيى، تلك التي تجمع بين الخاص لعام، أى بين تجربة شخصه خاصه بين ومشكله عامة ذات معنى، تتعلق بأحوال مصر والمصريين كان مقدس عن أسئلة امتحان الاسدي من هذا النوع، إذ جمعت فيه بين تجربته اسى الشخصيه والعبد الذي يطوى عليه جبار السلام على التعبير عن موقف سياسى حاطى اتحدته الحكومة، كما كان من هذا نوع أيضا مقال آخر لى بعنوان "المذكرات مثقف مصرى عن وقائع تمديد رخصة سيرته"، احتوى على وصف مفصل، خطوة خطوة، لمبادئ فى تحديد رخصة سيارتى، وهى معاناة استمرت أربعة أيام كاملة انقطعت فيها تماسا عن

العمل بالتعريف لتحديد الرخصه ، ولكنه يلخص أصلاً مشكلة عامة هي ما نعناه
لمصريون جميعاً في تعاملهم مع البيروقراطية المصريه

تبين لى بكتابة مقال بعد اخر من هذا النوع ان هذا هو أحب أنواع الكتابة لى ، لا
الكتابة في الاقتصاد ولا في السياسة ولا في أى موضوع آخر ما لم أستطع مرحة
تجربة خاصة لى . ثم تبين أيضاً أن كتابة هذا النوع من المقالات هو فى الحقيقة
أكثر ما يجلب لى السرور على الإطلاق ، أكنه بلا عمام واستعراق نام وبذلك النوع
من السرور الذى يجلبه التعبير الحر عن النفس . كانت عملية الكتابة نفسها مصدر
سرور يتوق لى لتجلبه لى رؤية المقال منشور ، بل ويتوق لى لجله ثناء أسمعته أو أقرأه
على لقال . نعم كان هذا وذاك يسر لى بالطبع ، ولكنه سرور قصير العمر سرعان
ما يبرول ، أم السرور الذى يجلبه التفكير فى موضوع المقال ووضع حصته ثم كتابته ،
وهو ، كما بيت ، لأكثر حذوثاً والأطول عمراً .

مع تكرار تجربتى فى الكتابة والنشر استقر فى ذهنى أن من الممكن بالعمل أن
اصح «كاتب» ، لى أن أحقق ذلك الأمل القديم الذى بدأ يراودنى منذ مطلع الصبا ،
وبكده كان حينئذ أعرب إلى حلم من أحلام اليقظة . وبعد زادت ثقتى بذلك شيئاً
وشياً بشرى كتاباً بعد آخر فى موضوعات غير اقتصادية ، واستقبال بعض هذه
الكتب استقبالا حار من القراء . ولكن لى رشح هذه الثقة بنفسى ككاتب ، هو
المجاح الذى حققه كتاب «ماذا حدث للمصريين»^{٤٩} ، وهو مجاح ، وإن كان قد جبت
لى الكثير من التعرج ، اثار لدى أيضاً الكثير من اعبط

بدأت قصة هذا الكتاب فى سنة ١٩٩٦ بطلب من صديقى مصطفى سبل ، عدم
كان رئيساً لتحرير محله لهلال الشهرية ، بأن أساهم بمقال فى ملف بعنوان «ماذا
حدث للمصريين»^{٤٩} دى فيه عدد من كتاب الهلال ، كل بدوره ، فى الإجابة عن هذا
السؤال ، من أى زاوية يشاء ، إذ قدرت المجلة أنما ، ومنح على أعتد انقرب الواحد
والعشر من ، يجدر أن نتأمل ما طرأ على الحياة الاجتماعية فى مصر من تغيرات ،
وأن نحاسب المصريون أنفسهم على ما ارتكبوه من أخطاء ، على أمل أن سداوا
صمغ حديدية فى القرن الحديدي يحققون فيها ما مثلوا فى تحقيقه من قبل .

وقد رحلت بالمصاهرة، واحتجرت أن أكتب بعد طراً على مركز المرأة في مصر من تمر خلال الخمسين عاماً خاصة، من خلال ما حدث من تطورات سنتها من حرق أنا والشخصية، فصار بين مركز ثلاثة أجيال من النساء في أسرتي جيل أمي، وجيل أختي، وجيل بنتي وحاولت من جديد، أن أهتم بالخاص من خلال العام، والعام من خلال الخاص، إذ مرت بين تجربة أسري الخاصة وتجربة المجتمع المصري بصقة عامة، ووجدتهما، كما توقعت متطابقتين. وقد شععتي هذا، كما شععتي أهمية الموضوع، على أن أناول ناحية بعد أخرى من المجتمع المصري، فأشع بطوره في الخمسين عاماً الماضية هو عمر وعيو وإدارتي لما يحدث من حولي فكانت حصيلة هذا العصور التي تكوّن منها كتاب «ماذا حدث للمصريين؟»

وقد نجح الكتاب مع القراء محدداً بآهر جعل نسخ الطبعة الأولى التي شرحتها دار الهلال في يناير ١٩٩٨، تعد في أقل من عام، مما دفع مكتبة الأسرة إلى إصدار طبعه الجديدة في العام التالي (قبل أن يها من حمير ألف نسخة) وبعدت أيضاً في نحو عام، ثم صدرت بعد ذلك طبعتان أخريان بالعربية، وترجمه فم النشر بالخمسة الأمر نكة بصدرت طبعة إلكترونية في سنة ٢٠٠٠ أعيد طبعها تسع مرات

كنت أستطيع أن أحضّر لمدّ نجح هذا الكتاب مع القراء أكثر بكثير عما نجح غيره، ومع هذا فقد كتب أشعر بالعميق عندما كان يحدث أن يقابلي شخص، بعد صدور الكتاب بعدة سنوات نشرت خلالها عدة كتب أخرى لا بأس بها، فإذا به يقول لي «أهتلك على كتابك»، وأطّل لوهده أنه يقصد كتابي الأخير فإذا به يقصد بالطبع «ماذا حدث للمصريين؟» تذكرت العيط الذي كان يشعر به يحيى حقي عندما لا يذكر أحد اسمه إلا مقترناً بقصه «قيليل أم هاشم»، على الرغم من أنه شرع عشر القصص والروايات بعده، وكان هو بعصر أن أفصلها جميعاً برواية أخرى هي «صبح اليوم» وتكررت أيضاً الكاتب الاثير لدى (ألفريد إيبر) A. J. Ayer، الذي نشر وهو لم يتجاوز الثالث والعشرين من عمره كتاباً صغراً اسمه «اللعنة والحققة والمطلق» (Language, Truth and Logic) لخص فيه بوضوح وسلاسة مذهبه فلسفة الوصية للمطلق، فظل حتى آخر أيامه لا يذكر اسمه إلا مقترن بذلك الكتاب، وكان هذا يعطيه بدوره إذ كان يعتقد أنه شرع بعد هذا الكتاب كتاباً أفضل منه بكثير

لاحظ أن هذا الكتاب (ماذا حدث للمصريين؟) مريح أيضاً بين وصف تحارب شخصية لي وتحارب المجتمع انصري ككل، فقلت لعمري «أليست هذه اسمته هي أيضاً لي تلاحظ في كتابات أحب الكُتّاب الإعلاني، وهو جورج أورويل، الذي كان يكتب وكأنه يتكلم، ولا يجد أي عضاصة في مقالاته من التطرق من الحديث عن موضوع عام بالغ الأهمية، إلى حدث عن تجربة شخصية له، أو العكس؟ أو ليست هذه سمة من بين صاحب الرجل إلى؟ ثم أليست هذه أيضاً سمة لكتابات واحد من أحب الكُتّاب السياسيين المصريين إلى وهو أحمد بهاء الدين، الذي كان بدوره يكتب وكأنه يتكلم، وكان كلامه، الممتع دائماً، مليئاً بالفصص أبو قصة الصبغة التي مرّت به وعاشها معه، ولكنها كانت دائماً فصفاً ذات معنى عام ولا تكون تأمّله أبدأ؟»



في سنة ١٩٩٠ حدث اعتداء فظيع على بعض الأقباط في مدينة أبو قريص بالصعيد، وأثر الحادث في نفسي تأثيراً بالغاً، فكنّت مقالاً شديداً اللهجة أعترّفه عن مشاعري براهه. وقد سررت جداً برد الفعل الذي أحدثته مقالتي في الدفاع عن الأقباط وسهول الاعضاء عليهم وسكوب الدولة على ذلك، وخاصة بين الأقباط الذين حُبروا بالمقال ترحيب شديداً وصح بعضهم سحاحاً جديدة من لقائهم وقاموا بتوزيعها وأصل بي كثيرون منهم، ومن المسلمين كذلك، للتعبير عن تقديرهم لمقال. وكان سروري شديداً على الأخص بمكافحة تمهيتها من يوسف إدريس قال لي فيها إن في مقال إشجاعة وحكمة وموهبة. وكانت هذه إحدى مرتين كلمتي بهما يوسف إدريس تليغوي، كان في المرة الأولى يشكرني على مقال كتبتة بعماد «عصر التشكيك في الديهييات» ونشره جريدة الأهرام في أوائل الثمانينات، دعت منه عن يوسف إدريس ضد الهجوم، لعائتي، الذي تعرض له، بما في ذلك هجوم على من الرئيس مبارك في إحدى خطبه، لمجرد أن يوسف إدريس تحرراً ونشر وطبع مقالات في حربه خليجية يتقد فيها الرئيس السادات ودوره في حرب ١٩٧٣. وأذكر أنني في ذلك المقال ردّدت على من قال إن يوسف إدريس بذلك

يسى، إلى سمعة مصر، بقولى إن سمعة مصر هى سمعة يوسف إدريس بعينه باعتبار أنه أكثر كاتب قصة قصيرة عرفه العالم العربى. وقد سراً المقال يوسف إدريس لو درجة جعلته يصمم مقالاً كاملاً إلى أحد كتبه (فكر الفقر وفقر الفكر) مع إشارة طيبة إلى



كنت أيضاً بحساس شديد فى الدفاع عن أحمد بهاء الدين ضد هجوم فى عاية السماعة من ثروت أبطة، عندما دفع بهاء الدين عن القطع بحام ققائ ثروت أبطة إن دواسته فى كنية الحقوق تؤدى إلى القول بعير ذلك مرة كان الأجلد سهاء، ما دام قد درس هو أيضاً فى كلية الحقوق، أن يدرك ذلك. وقد كان شعورى نحو ثروت أبطة، منذ وقت طويل، شعور سلبى، بدأ منذ كان أبى تلميذ مع مكلمات تليفونية، عندما كان ثروت أبطة لا يزال شاب صغيراً، ويسمى أبى جرأته عليه، وعنى غيره من كبار الكتّاب، اعتماد على ما لأبيه، دسوفى باننا أبطة، من ثروته وحاء. كان من الو صبح قد سالى أنه رجل قليل الموهبة، يظن مع ذلك أنه أديب موهوب، ولكنه يتسم، فضلاً عن ذلك، بجرأه مذهشة وإصرار عريب على الحصول على كل ما يريعه. وقد فتحت له هاتان الصفتان، الضرور مع الحرأه، أنوما كنثرة ما كانت تفتح لشخص غيره له نفس هذا القدر الضئيل من الموهبة هكذا. ستمر ثروت أبطة مكتب وبنشر، ويحتل ماصب لا تتحقها، وتتبع له سلطات أعلى من كثيرين عن هم أكثراً وأكثر موهبة منه بكثير. ودعته للأسف بعض كبار الكتّاب، كنم فى الحكيم وطه حسين وعجب محفوظ، فأرضوا غروره ولم يكبحوا جماح طموحه. إما طمعاً فى مكتب صغير من روائه، أو انقاء لشهرة، أو طلباً للهدوء و سلامة لهذا أهله نفس الأول صله، بدهشة وعصب شديد، رعبه أنه قد قد رثر فى محله محدودة التنوع (الأهرام الاقتصادية)، وإذ به يرد على عمال عيب فى صحيفة الأهرام اليومية، ذكر فيه أنه لو لا أنى ابن أحمد أمين لعرف كيف يذنبى

ثم عدت إلى الهجوم عليه مرين بعد ذلك أثناء حياته مرة عندما قرأت بعض

حلقات سريره الذاتية التي كانت تنشر في الأهرام اليومى، فراعته تشاقتها وسخافتها، ومرة عندما نسب في محن صحفى شاب وموهوب (جمال همى) بتهمه سب القذف، عندما كتب مقالا يذكر فيه بعض ابرقاع عن دور أنه اليسى

كنت دائم مطمئنا إلى صوب موقعى من ثروت أناطه، برغم أبى لم أكر قد قرأت له حتى ذلك الوقت من الروايات أو القصص إلا رواية واحدة لم أستطع إتقانها. كنت أمتعرت دائم تقاعده ما يشهده من مقالات سياسية، ومما أحهم صحيفة يومية في مصر نشر ما يكتبه، وإشارتها المستمرة له على أنه «الكاتب الكبير»، وفخره من السلطة السياسية، وتمتعه بحق نيكلام باسمه في لقاء رئيس الجمهورية السوى بالأثناء واكتفى كان ثروت أدلة في نظرى، لهذا السب، ظاهرة في حد ذاتها يصعب العثور على مثل لها، إذ يبدو أن تجتمع هذه الصفات في شخص واحد قلة وعدام لموهبة، مع الشهرة والوجود الدائم في وسائل الإعلام باعتباره أدبا كبيرا، وتقريب بسطة اسما له مع شدة حماقته الساسية. ولم توفى في سنة ٢٠٠٦ ذهبت مرة أخرى بمسار التجليل والاهتمام للذي أحبط به حب وفاته، ولحجم الثاء الذي اغدقه عليه بعض الكتّاب لكار من سهم يجب معفوظ صحيح أن الأمر لم يستمر أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، وبسى الرحل بعدها أو كاد نرى سنانا تاما، لكنى ظلت متدهشا من أن يصل تدهور ادج الشافى (و ليسى) في مصر إلى هذا المستوى شعرت حينئذ بشعور مماثل ما أشعر به عادة عندما أحس بأن طبع كبيرا قد وقع ويحتاج إلى كشفه وإزالته، فأطلت أشعر بانقلق ولا يهنا أبى بل حتى أغتر كتابة عم أشعر به وأحاول تصويره وشرحه صممت على كتابة مقال طويل عن ظاهرة ثروت أناطه، ولكن الأمر كان يقضى قراءة بعض رواياته، خاصة المشهور منها مثل «شئ من الخوف» و«هزب من الأيام»، فوجدته أحدث عهده حتى وجدت مجددا يصمم رأعمالا أخرى له مع مقدمه طويل كتبها رجل محور عرفه فيما بعد أنه كان يتقر بهذا المجلد إلى ثروت أناطه ويحطب وده قرأت الروايتين والمقدمة الطويلة فلم أجد أى شئ يشبى عن عربى أو يعبر رأبى في مرحل وأدبه يصحى العصف بالأناشر المطالة

إلا بعد مرور الأربعين يوماً على وفاته ، فأنصبت لهذه الصبيحة ، ولكها نشرت بعد ذلك مباشرة في جريدته معارضة ، فبدأت أتقرأ رداً عينا عليها موقفاً باسم أرمنة ثروت أمانطة ، وتساءلت في ردها عما يمكن أن يكون «قد حدث للمصريين» حتى اكتسب مثل هذا الكلام عن روحها الرحمن ، لئلا أعترف بدمه الخميني وعلى رأسهم هذه حيناً وبحيث محفوظ وتوفيق الحكيم . وقال بي رئيس تحرير الجريدة التي نشرت مقالتي اب رئيس مجلس الشورى الذي كان ثروت أمانطه وكيله ، قد اتصل بي اسمه ليحتج على مقالتي وحذر الجريدة من العقاب إذ لم تقم بشئ رد أرمنه التقييد ولكن المدهش في الأمر أنه ما تشاء هذا الرد سم أصادف أي رد أو تعديلاً كتبه في أي صحيفة أو مجلة ، وكتب الرجل بموته قد فقد صحافة كل من كان ينفذ إلى جاسه وشئ على أدبه . وهذا السكوت المطلق والمخاض ، بعد كل ذلك الصحيح من إنشاء والمديح ، يؤكد نفس التحصيل الذي كنت وصلت إليه بظاهرة ثروت أمانطة ، ولكنه يؤكد أيضاً مدى التدهور الذي وصلت إليه الحالة الثقافية (وإن لمسة) في مصر



نفس المشاعر التي قادني إلى كتابة دفاعي عن أحمد بهاء الدين ، والهجوم على ثروت أمانطة ، هي التي قادني إلى كتابة نقد شديد لرحاء استقاضي رداً على مقال له يكيل فيه البناء على الرئيس حسني مبارك بسبب أفضاله على الثقافة المصرية والمتقنين ، ومن بين هذه الأفضال ، حصول بحيث محفوظ على جائزة نوبل ، إذ تم يكر ليحصل عليها ، في رأي رحاء استقاضي ، لا الرئيس مبارك ضابطاً أيضاً شدة ما حصلت عليه رواية «عصر الحامي» للكاتبة المصرية محمد شكرى ، والصبيحة التي أثارها أسادة الجامعة الأمريكية كاتب تقوم بتدريسها بلطفلة ، عند رأي رئيس الجامعة بحق أن ما هي الرواية من بدعات يجعلها غير صالحة للتدريس ، وكان قد أعطاها لزوجته لأمريكية لإبداء رأيها فيما يحترم تحاده من قرار منعها ، فكان رأيها أنها هي أيضاً كانت مستمع أولادها من قراءتها إذاً أنها بالذنب صاغى المدح عن مثل هذا باسم حرية الرأي ، وعبرت عنها في مقال طويل قدمت فيه بين هذه الرواية ورواية لطيف صالح المدفوعة وهو سم الهجرة إلى الشام التي

أراد البعض مع تدرسها، بل ومع تناولها بالفعل في سودان بزعم أنها تدور العلاقات الحسنة بصراحة عبر مسرودة. وقتت في معالي إن تناول الطيب صالح لجنس مختلف جدًّا عن تناول عبد محمد شكرى، والافتقار عبر موجود هذا الأول وبكته موجود عبد الله

كنت نصف عن سطحى على فيلمي يوسف شاهين «المهاجر» و«المصري»، وعلى كتاب المسيرة الذاتية ليحيى الخليل «قصة حياة عادية»، بل وعن سطحى على كتاب طه حسين «في الشعر الحائلي»، وكن هذه أمثلة يجمع بينها، فيما اطل، شيوخ البناء على شخص أو عمل وإصرار الكتاب على محبته وتعظيمه، بينما أعتقد أنا أن العكس بالضبط هو الموقف الصحيح. وكان من الطبيعي أن يجلب هذا الموقف من جانب السخط والعصب من جانب المصادر مع، وبكن كان سرعان ما يطمئني العدد الكبير من القراء الذين يؤكدون بي أنى عبرت بالضبط عبر يدور في ذهنهم مدبرة طويته. حاضى هذا التأكيد من بعض من كانوا يجمعون مع يوسف شاهين في فيلم «المهاجر»، ومن كاتب شهير قال لي عندما انتقدت كتاب طه حسين إنه كان يريد أن يقول بعض الشيء مدبرة طويته ولم يحضر على قوله. وانصبت بي صحفيتين شاتن في صباح يوم ظهور معالي عن رحى الناصر، لتعزى في سر الكلمة عن مرحهما بأن يجداً الأخير كاحداً يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام. وأحد آخرون يحكون لي ما لم أكن أعرفه من قصص عاشوها شخصياً مع بعض من انتقدت وتؤكد نفس النتيجة التي وصلت إليها عنهم. أما نروت أمانة للإجماع على السخط والندسة بما خضعه من نجاح وشهرة دون استحقاق، كان معروفاً من قبل أن أكتب عنه بكثرة، وبما جاءت مقالاتي عنه لتسجيل ما كان شعره به كل المثقفين المصريين باستثناء واحد، ربما، هو محب محفوظ، الذي أصر على أن يستمر على ولاته لصديقه. ولكن كشراً من مواقف محب محفوظ لا يجتمع والسياسة، طلت دائماً لعرا محب الجميع

«التراثيون الجدد»

في كتب «حبي» وصف أبي الميت ابدي شأ فيه بقوله إنك إذا فتحت ماله
«شعمت» منه رائحة «لابين» ماطعة رائحة. أما أنا فلا أستطيع بالمره أن أقول إن هذا
الوصف ينطبق على است الذي شئت فيه فأبى على الرعم من شأته هذه، وشدة
تدين أبيه وأمه، وروح التعليم الذي تلقاه في صباه وشبابه، ورغم أن أهم كتاباته
كاتب تدور حول الإسلام، لم تكن سديا بمعظم المعاني الشائعة اليوم. بل لا أتذكر
مثلا أبي رأيت أبي وهو يصلي، ولا أذكر أبي رأيت وهو يقرأ في المصحف أبي
أتذكر اعتداده عن الصوم بسبب مرض أو آخر كان يمرض عليه نظاما معينا في
الأكل، أو حسب التشخيص، ولكني لا أتذكره وهو يتطر حلول الله رب ليتناول
إطاره في رمضان. لأشك أن للأمر علاقة بأبي أصغر أولاده، وربما كان يحسني
الدين عاصروه في فترات أخرى من عمره،ذكروا أشياء أخرى ولكني أقول
فقط ما رأيته سمعته ولم أراه. إن هذا لا يسمى ما كان ينبغي به أبي من صفات
قريبة من المصوف، كما لا يعارض مع ما أتذكره من أقواله الكثيرة التي تنم عن
إيمان عميق بالله من الذكريات الملتصقة بفترة في دهس ركوبها معه في فارب
شراعى في السبل في حدى لالى الصف في رأس السر، وكانت هي سلة القدر،
وإذا به يطلب ما أن مردد وراه دعاء طويلا إلى الله، يقول منه حملة، ويقول
بعده، ثم ينتقل إلى ما بعده. كان هذا في أوائل الأربعينات، هلاية أبي كت في
السانعة أو الندسة. وأب أتذكر هذا لأن مرتبطا بشعور من السعادة لاند أن كان من
أسببه ما يشعر به صبي في مثل هذه السن عندما يرى العائلة كلها تقوم بعمل
مشترك، ويسطر عليها أثناء شعور بانحة والوفام وعلى أى حال فإبى لا

معدومي ئى شت فى اب ائى كان يعلق على أخلاق المسلم أهميه أكرهما بعينه على شعائر الدين بدى ألف دليل على هذا من أهوله وتصرفاته وكتابات

اما نى هم نكن أكثر ندسا من ائى كانت نكره مثل ائى أن تسمع أى قول سم عن أى شبهة كفر بالله، ولا يمكن أن تلذع مثل هذ يردون أن تعترض ولكنى لا «تذكر أداءها للصلاه أو صوم، ولا هى أدت فريضة الحج أو عثرت عن دعة شديدة فى أدائها وما أكثر ما كانت تستخدم عبارة «إني الأعداء بالنيات» بشرط تقصيرها فى أداء شعائر الدين .

كيف يمكن، واحال كذلك، أن يروح راحة لئدى من ست كما كان لحال فى البيت الذى نشأ فيه أبى⁹ بل اراجع أن هذ الموقف من جانب أبى وأمى قد ترك بما كنت، نحن الإخوة، الذكور والإناث، ارا دائما لم تحمه لأديم فلا أذكر أن أحدا ما نحن لإخوة قد اطلب على أداء شعائر الدس لفترة طويلة من حياته كان هاتك المثل المعروف إسى نئدى فى فترة من فترات الصبا وبداية الشباب، وهو ما أذكر أنه مسطر على مسمة او مئتن، كما أذكر نفس الشىء هما يتعلق باحوثى الدس وعت هذ الفترة من حياتهم، أما نفسة الإخوة فلا معترى أى مهم فى ذهى نأى مشاعر دينة قوية أو حرصى على أداء شعائر الدين بانتظام

لم يتحد أى ما فقد أى موقف عدائى من الدين، لا جهرا ولا سرا، ولكن كان هناك ملا شك نوع من قلة الاهتمام بما إذا كانت شعائر الدين يؤدى كاملة أو ناقصة، ولا أذكر أن أبى أو أمى اتحد أى موقف يحارب به إعادتنا إسى حطرة الدين

من القصص المشهورة فى أسرب ان أختى نعيمة ذهبت مرة إلى أحد رجال الدين الصالحين، وكانت تدعى من صانقة مالية لقلة ما كان يحققه روحها من دخل لا سب إلا فرط قناعته وقلة طموحه، وسألته «لماذا يقتصر الله على وعى روجى فى الرزق، يسب يرمع على نعية إحدوتى فيه، رغم أنى أنا وروجى أكثر تدبنا مهم جميعا؟» . روت لنا أختى نعيمة نفسها هذ القصة، كما أخبرنا أن الشيخ أجابها «بأن الله يمتحن»

مرت أعوام كثيرة إذن قبل أن يشير الدين آيه مشكله لئدى، وبم بيد الدين فى

ثارة بعض المشاكل هي ذهني إلا وقد قدرت الأربعين من عمري قبل ذلك لم يثر
 هتافى جدائى حرب البعث وأنا في نحو العشرين من عمري أى مشاكل تتعلق
 بالدين، ولا حتى حوك ولانى من البعث، بي الماركسية بعد ذلك ثلاث أو أربع
 سنوات، ولا نحوى عن الماركسية وأنا في نحو الساعة والعشرين إلى الإعجاب
 وحساس لأفكار الوضعية المطقية اتى متحد من الدين موقف سلبياً جداً، ولا
 رواجي بالعنصرية مسحة وقد قدرت اثلاثين كان المصوص أن ثور بعض
 التساؤلات المتعلقة بالدين بسا كل من هذه التطورات، بل إن كثيرى من الدس
 مذهبهم هم وقدق ثلثان بسب تعارض موقفهم من الدين مع مثل هذه
 التطورات ولكن لأمر بالنسبة لى كان هادئاً جداً وبسبب للعابه لم تكن أفكار
 حرب البعث تهم الدين مناً صائراً، ولم يكن أعضاء الحزب وأصدقائه يعلمون
 أنه أهميه على أن صاحب فكرة البعث ورئيس الحزب (ميشيل علفى) مسيحي.
 ويحب أن ذكر أنى لم أعمر بعد كون ميشيل علفى مسيحياً أمراً أهميه على
 الإطلاع، بل لم يثر انسابى أصلاً ولا آثار أى تساؤل بدنى. ولم يكن حرب ابعت
 يطلب من يقسم بيه إلا أن يكون مقسم بالقومية العربية والوحدة، ومبطلا مع
 الاشتراكية، مهم كانت درجة تدينه ركان لميشيل علفى محاصرة بدعية، ألفاها في
 الأربعين في يوم الاحتف بالمولد السوى، وطبعت مرارا تحت عنوان «في ذكرى
 الرسول العربى» كاتب كفية لإقناعاً بسهولة بأنه ليس ثمة تعارض بين الولاء
 للعربية والولاء للإسلام

أما حماسى للمار كسة وقولى لأفكار المادية الجدلية، فقد مر أيضاً بسلام دون
 أن يعكر، على صفو احبه. فقد بدا لى ونها أن أولوية المادة على الفكر أمر يكاد أن
 يكون بديهى. أما إقناعى على الروح من بعبدية مسيحية فلم يسقه أى تردد
 يذكر، وإذا كانت قد ثارت في ذهني بعض التساؤلات لأيم قليلة قبل أن أتحد
 القرار بالرواج، فإن هذه التساؤلات لم تكن تتعلق باختلاف الدين، وإنما كان
 بعضها يتعلق باختلاف الحسية، وبعضها باختلاف الطبوع. بل يجب أن أذكر أيضاً
 أن اختلاف دمه عن دس لم يطف سحاطرى قط طوال فترة رواجها، ولا سب لآى
 من أى مشكله في أى وقت من الأوقات

رى كن شخص الرحيد اندى طاف بدعه بعض الشك فيما يد، كان من املائم
 ان يتم هذا الزواج بين مسلم ومسيحية، هو أم روحى التى رأت من لاسب، و
 سم تكن هى نفسها مديية، أن تذكر الأمر لقسيس فى الكنيسة التى تذهب إليها مرة
 أو مرتين فى السنة، وبعلها كانت قد سمعت أن المسلم له حق الزواج من أربع
 نساء، وحنها البعض من احتمال أن يكون لدى بالفعل روجة أو أكثر تركهن فى
 مصر قل قدرى إلى إنجلترا، وإلى الآن أصيب بهن ثلاثة أو أربعة فذهبت أم
 روحى إلى هذا القسيس تستوصه بعض الأمور، فقال لها إنه قد يكون من المييد
 أن يتناسى قبل أن يتم الزواج ولم أراسا من أن أذهب لمقابلة مع حطيتى
 الإنجليزية، بل كما ترى الأمر كله سلبا للعامة، ولا يطوى على أى شىء جدى، أو
 على أى خطر يهدد مستقبل، وهو ما لأد أن يتوقع من شين وقعا فى الحب حيث
 وباعها على بروح وقد وجدنا القسيس رجلا ودودا ولطيفا، وإ كانت قد
 أصابته صدقة هائلة لم يكن يرقعها عدم تلقى جدي عن سؤال وجهه إلى يتفق
 مععتقداتى اللسة إذ جاءت إحدى تعبر عن حماسى لعلقة الوصعة لمنطقة،
 وهى تعتبر فى نظر رجل مثله قطع وأبعد عن معتقداته من الإسلام ومن ثم أنهى
 الرجل المقابلة بسرعة ولم يرفى أى أمل برحى

إلى حدث التحول فى مرقى من اندس لأصاب غير مألوفة أو متوقعة، وذلك
 فى أو ثل السبعينات عندما كنت أقترب من سن الأربعين كنت فى ذلك الوقت
 أروور إنجلترا على فترات متعارة، بل كن يلمر أن يحل صيف دون أن أقضى شهرا
 أو أكثر فى بيت والدى روحى فى فينكسو Felxstowe وهى بلدة صغيرة على
 البحر فى الشمال شرعى من لندن وقد نأج بى هد أن رى بعير الذى لحق سبط
 الحياة فى إنجلترا، وهى العرب عموما، عندما بعد عام، منذ أن أنجب دواسى هناك
 فى منتصف الستينات كن العرب فى تلك السنوات يدوف طعم حياة الرفه على
 بحولم يعرفه فى أى وقت فى الماضى وكان ما أسميه الاقتصادى الأمريكى حو
 جاليريت «مجتمع ارجاء» (The Affluent Society) يتصح عام بعد آخر على نحو
 لا يمكن أن تحطته العين كانت حياة اليومية التى عرفتها فى العرب فى أواخر
 الخمسينيات وأول ثل الستات لا يزال يحمل كثيرا من بقايا مجتمع انقشع اندى

اتسمت به سنوات إعادته ماء ما دمره الحرب أم الآن فقد سمح بتحقيق العمالة الكاملة، وهبم الدولة، في ظل ما عرف بـ «نظام دولة الرفاهية» (Welfare State)، يتاحه الخدمات لضروريه للناس بلا مقابل أو بأسعار زهيدة للغاية، مع ما تحقق من تقدم تكنولوجي سريع ومعدل غير مسبق في النمو الاقتصادي، سمح كل ذلك بظهور وعو ما أطلق عليه «المجتمع الاستهلاكي»، حيث شاعت فيه تدور حول الانهماك في إشباع الهم إلى الاستهلاك، وغول الكمال إلى صوري، وتسابق الناس وتنافسوا في اقتناء المزيد والحديد من سلع واخدمات، مع الانتشار المتدريعي للإباحية في العلاقات بين الحسنيين، أو حتى بين أفراد الجنس الواحد، وأصبح كل هذا مقبولا، بل أصبح غير المقبول هو الاحتجاج على أي من هذا، وكان المرء الذي يحجج عليه بدخل في حريات يفرد بشخصية التي أصبحت تعام معاملة المقدسات

لم يعجى ما رأيت وبدا يعتري الشك، الذي أصبح يرد بقوة يوماً بعد يوم، بل وبحول شينا فشيئا إلى يقين، في أن ما سميته «الحضارة الغربية» هذا يكون «غربياً» أكثر من كونه «حضارة» لم أفقد بطبع احترامى لما أدته هذه الحضارة من خدمات جليلة للبشرية كلها، في العرب والشرق، وفي الشعب والجنوب على السواء، ولكن الذي بذأب فقد الثقة فيه هو الاعتقاد بأن كل ما يفعله العرب يمثل بالضرورة «تقدماً» للبشرية بعبارة أخرى، بدأت تظهر في مخط الحياة العربي مثلما ينظر عدم الأثروبولوجيا للمسائل غير المتحصرة في إرميبي أو آسيا أو أمريكا اللاتينية، فأخذت ألاحظ في الحياة اليومية في الغرب ديبلا حديثاً في كل يوم على «حصرية» مخط الحياة العربية، مما لم أجد أي مرور لإبرام المجتمعات الأخرى به، أي إلزامهم بالاعتقاد بأن الطريق الذي يقطعه العرب في هذا الاتجاه أو ذلك، هو نفس الطريق الذي «يجب» على المجتمعات الأخرى أن تسير فيه

لم يكن الأمر بالنسبة لي، (ولا هو الآن) مسألة «نقد» للعرب، أو شعوراً من حاسي بأنا «أفضل» منهم، فقد بد لي أن هذا الموقف الذي يعتبر ثقافتنا ومعت حاننا أفضل من ثقافتهم ومعت حياتهم، ليس أقرب إلى الحقيقة من الموقف الذي تحللت

عه، وهو اعتبار ما يفعله العرب المثل الأعلى لواجب احتدزه المسألة ليست هي من هو الأكثر أو الأقل رقياً، بل هي مسألة اختلاف ثقافات وأدراك وميول وعدادات وتقديرها حدود عمله في التاريخ والاعتراف والعبء إلخ، مما يتعكس فيما يمكن تسميته بنوع نظرة إلى الحياة

هذا التحول في تفكيرى جعلنى أفتش مما يصدر من كتب عما يتفق مع وجهة نظري الجديدة في أحوال العرب ولم يحب على الطمع، بل وجدت الكثير مما بشر في العرب هي أواخر لسياسات وأوائل المسيحيات، بتقد شدة ما ال إليه حال لعرب ويسمع مع ملاحظاتي، ويؤيده من مختلف الروايات، ويلبني بحجج وملاحظات جديدة. وهكذا قرأت في تلك السور عدداً من الكتب الجديدة وانني تركت أثرًا كبيراً في معنى، (مما أكدنى أن من الممكن أن يعرف الكتاب «الحيدة» تعريفاً ناساً به، بأنه الكتاب الذي يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل، أو الذي يذكرك بالحجج التي تحتاج إليها لتأييد وجهة نظرك).



كان لابد لهذا كله أن يؤثر، ولو عن طريق غير مباشر، في نظري في الدين فقد أوال إدراكى لحياة الحديثة في العرب، وللعيوب وسقائص لهذه كما كان يعتبر من الأفكار والماضي المسلّم بها، أو فما كان يحاط بهمة كسرة من انتحال من النظريات والكتابات الاقتصادية والاجتماعية، أرى كل هذا كثيراً مما كان على عيسى من عشاق، ومكررة القدم نفسها أصبحت عدى محل شت كبير، أسهى بي إلى رفضها رفض تاماً. وانظر إلى العرب بعيناه المثل الأعلى لواجب احداؤه والاهداء به، لم يعد أيضاً صحيحاً في نظري. وقد أصاب كل هذا بغض رابع، في نظري، فلسفي كانت كل منهما، في مرحلة من مراحل حياتي الماضية، سائلة تحتها تعاطى مع الدين والتدين الماركسية والوصفية المنطقية

أما إذا ركس فكأن الشى الفلسفى منها قد تمقى، في نظري، صرية فصمة من الوصفة لمنطقة نفسها إذ بعد أن كنت موقف الوصفة المنطقة من المتفرقا، واعتناؤه إياها «العو من العول»، لم يعد هناك فارق في نظري بين العول بأن المادة

سابقة على تفكير» والقول بأن «الفكر ساسو على المادة»، كلاهما كلام فى الميتافيزيقا ومن ثم فكلاهما، هكذا عتقدت وقتها، نمو من اقوال وكن حتى النظرية الماركسية فى التاريخ، التى تعرف باسم المادية التاريخية، منقت لآن، فيما يتعلق بى على الأقل، سهاما، إذ لم تكن قد أصابها فى مقتل فقد جرحت جرحا جديدا وأغنى بهذا، على الأخص، ما اعترانى من شت عميق فى فكرة التقدم، وأن كل مرحلة تاريخية هى «أعلى» و«أرقى» من سابقتها، وهى فكرة يعتمدها معظم الماركسيين من المسلمين. فهنا نحن نرى الحصار العرس العظيمة يصيبها الاستكس، وبدلا من أن تتحول الرأسمالية، مع مريد من التقدم التكنولوجى، إلى نظام أرقى هو الاشتراكية، إذ ما يتحول إلى نظام يقوم على الهم الاستهلاكى المربيد بل وحتى بدول التى أعست أنها بطق لاشتراكية يبدو عليها وكأنه قد بدأ يصيبه أيضا هذا الهم الاستهلاكى لدى عهد الدولة الاشتراكية صمومة نابعة من صله. ولكن رى كد الأهم من هذا وذلك سى كما قوى إدراكى لفتاى شط الحده العربية، كان يقوى لدى الشعور بى من الصعب وحتى من المستحيل أن ترتب الثقافات المتعلقة بعضها فوق بعض، وأن نعر بعضها «أرقى» من غيرها. ذلك أنه يبدو أن هناك أنشاء أخرى، إلى جند التقدم الاقتصادى أو التكنولوجى، بها تأثير بالغ القوة فى تشكيل نظره لأمة إلى الحشاء. ومن ثم لم يعد من الممكن لى أن أرد كل شىء بأسهولة لى كت أرد بها كل شىء فى الماضى، إلى العو من الاقتصادية والتكنولوجية، مثلما يميل الماركسيون فى أغلب الأحوال. والاختلاف الكبير بين ثقافة أمة وثقافة أمة أخرى، لم يعد من الممكن فى نظرى أن ترد إلى عوامل اقتصادية فقط، بل هناك أنشاء أخرى أكثر عمقا ورعا أكثر ثباتا من العوامل الاقتصادية، ومن بى هذه العو من الناس.

ولكن بدالى من نحة أخرى، أن هذه الاختلافات الشديدة بين ثقافات وأنماط حياة الأمم ليستمة كثيرا ما تكون مجرد أساليب محتمة للتعبير عن بواع عميقة وثابة لدى الإنسان، يحكم كونه إسما، وإنما يتحد التعبير عن هذه البواع المشتركة والنشأ أساليب محتمة سب الاختلاف فى التاريخ أو الجعر فبا أو الظروف الاقتصادية أو مسرى المقدم التكنولوجى. إلخ من بى هذه البواع العميقة

واشبهه لدى الإنسان، يصرف النظر عن اختلاف الثقافات، الرعة الدينية، التي
 تدلى أنها شديدة الارتباط بالكويين اسيرورحي للإنسان، وهو رأى بحثت عن
 حجج تزيده فوجدتها لدى بعض علماء البيولوجيا الاحصاعية وعلى الأخص عبد
 إدوارد ويلسون E.O. Wilson في كتابه «عن لطبيعه الإنسانية» (On Human Na-
 ture) أدى بي هذا كله إلى إعادة النظر في ذلك المرض الذي كتب أميل إليه فيما
 يتعنى بأى شيء يمكن أن يندرج تحت لفظ «المتافيزيقا» فإذ كان المتافيزيقا تسمى
 كل ما لا يمكن إثبات صحته أو حطته بالجربة أو الملاحظة، فما أكثر لأراء
 المتافيزيقية الشديدة الحادية ومع ذلك ليس هناك من طريق لحسم صحته أو حطتها
 باستجربة والملاحظة وإذا كانت المتافيزيقا هو كل ما كان غير محسوس، فما أكثر
 الانشياء التي لا تظهر أماما في شكل حسي ولكن هناك ما يرجح أنها مائة الأثر في
 مصرفنا ومعقدنا فما أصعب مثلاً أن نحسم اختلاف نظره أمة عن أخرى إلى
 الحدا، واختلاف معتقد تهما بلدية ومبادئهما الأخلاقية نعم إن لكل شيء
 أصله، ولكن ما هي درجة الأمل الحصى في أن يصل إلى تغيير كرف وشاف
 لهذه «اختلافات» ما هي درجة الأمل الحصى مثلاً في أن يفهم لماذا نجد شخص
 حصصاً لطرف واحد، عائلية وقصادة واجتماعية، وتعلماً نفس التعليم، ومع
 ذلك مجتمعان مختلفان سماعاً في قوة الجنس الاجتماعي له تهما ونوع نظرتهما إلى
 الحياة؟

كل هذه العوامل والأسباب التي لا تظهر في أى شيء محسوس، والتي يمكن
 وصفها بـ «المتافيزيقية»، إذ كان من الصعب كشعها وتبين كنهها، قد تكون في
 الحقيقة أتم ما لدينا بها هي التي غير أشياء الخى عن الميت، وهي التي تث
 الحيوية في الحسد الخامل، سواء كان حسد شخص أو حسد أمة إن الذي يحرف
 الأثم ويدفعهم إلى الهووس والابتكار ليس إلا هذه العوامل «المتافيزيقية» العسيرة
 حق على الفهم، ولكنها مع ذلك هي المسئولة عن بهضة الأمة أو تحللها، فإذا كان
 هذا صحيحاً، وهو لا يزال يبدو لي صحيحاً، وإذا كانت العقيدة الدينية مختصراً
 من العناصر المكونة لهذه المتافيزيقا، فإن لم تكن العصر الوحيد فيها، فكيف
 ستتهرب بها أو سحر؟ بل وكيف تسمح لأفكارها بإضعافها أو هدمها؟ أليس في

لشكر المتأثرين «الأمة بكر لحق هذه الأمة في الوجود أصلاً، وفي لضمير والمهنة
وفي ساء حصاره أو المساهمة في نتائجها؟



هكذا حدث أنه بينما ضعيف انهزمى بوضع لمناطق من اسهارى بالمر كسبه،
شاهدت من تطورات الحياة في دعوت ما ساعد على مزيد من صمعه الانتين
لقد بدأ هذا التحول بطيئاً وتدرجياً كانت بداية تعبيرى عن هذا الموقف بداية
متواضعة في كتابى الذى كتبه بالإنجليزية في أوائل السبعينات ونشر بالإنجليزية تحت
عنوان (The Modernization of Poverty) أى تحديث الفقر، وهو عنوان استعربه
من تاجر استخدمه إيفان ليتش (Ivan Ilich) في أحد كتبه لوصف تجربة كثير من
بلاد العالم الثالث في التنمية، واستخدمته عنواناً لكتابه الذى عرضت فيه تجربته
تسع دول عربية في تنمية في ربيع القرن التالى لمحروب العالمية الثانية، ورأيت فيها
أيضاً شيئاً أقرب إلى إيمان المعمر ودا حديث دون نجاح كبير في تحقيق المعمر
نفسه وكتبت هذاهذا الكتاب على النحو التالى

إلى أولادى الذين أتمنى أن يكون مستقبلهم أكثر رخاء (more affluent) ولكن
أقل حداثة (less modern) وكنت أقصد بذلك أن المعروف فيه هو تقدم اقتصادى
يحفف من فقر ولكن دون تقيد بالجمع الحديث فيما لا يقع فيه على أن هذا
الموقف لدى عمره عنوان «كتاب وإهداء». لا يظهر خلال فصول الكتاب على
الإطلاق فيما عدا الحقيقة، فقد بدأت البحث وأن لا أزال تحت سيطرته الأفكار
السائدة في تنمية، وكان الهدف الأسمى هو زيادة متوسط الدخل، ورفع معدلات
الأدخار والاستثمار، وتغيير الهيكل الإنتاجى بصانع المصانع، إلى آخره كانت
تردده كسب السببه ولكن مع تقدم فترتى عن حدث للأقتصاد والمجتمع العربى
من ناحية، وعمما ولده النمو السريع في الغرب من مشكلات، بدأت ألاحظ ما
يحدث من صحة نمط الحياة العرسة من أجل التنمية ونامها، وبدأ يحاربى
الشيء من أن الشمس الذى يدفعه قد يكون أعلى مما حصل عليه في مقايسه فأذكر أنى
عزأت أثناء اجتماعى على هذا الكتاب فقد لا لكتاب أمريكى، ترك فى أثر كبير،

وكان يشروح ما م في أوائل الستينات في مصر من إجراءات من أجل «تطوير» الأهر، فإذا بالذي يحدث هو أن يتحول الأهر إلى نسخة مكررة من الجامعات المصرية التي لم يكن فيها الكثير مما يبعث على الإعجاب، بينما صنعت بشدة شخصية الأهر الشهيرة. عندما قرأب هذا المقل شعرب ناب أفكارى حول السمية وثقافة والأصالة والمعاصرة، تنرايط وتتعمق في شكل مرتب وواضح، فقد انتصح بى فجاء ما لى بى يجب أن يكون هدفنا الحقيقى وما لى لا يجوز النصيحة به

بعد سبعين من نشر كبرى (تعديث لعقرب) الشربك فى دعوة فى انكرب فعب عنوان «نظام الاقتصادى العالمى الجديد و معالم العربى»، فإذا بالورقة التى كتبها لهذه الدعوة محتوى على كلام فى ثقافة (المعنى الأنثروبولوجى الواسع وليس المعنى الضيق الذى يشير إلى الإتاحة الفكرى و معنى) أكثر مما تحتوى على كلام فى الاقتصاد. وإذا بى أشكو ههنا من التسمية ثقافية أكثر مما أشكو من السمية الاقتصادية، التى كانت مدرسة أمريكا اللاتينية فى التبعية تؤكد عليها، وكان هذا بمثابة ترايد حجم المعرفة الثقافية فى كتاباى على حساب الجرعة الاقتصادية. ولكن هذا سم بشر لطفى، إذا دت المحافظة على الاستقلال الثقافى تكاد أن تكون مرادفه للمحافظة على الشخصية بى وعى البقاء، وبدت لى التسمية بالمعنى الاقتصادى الضيق أقل أهمية بكثير، وبدت مهمة إصلاح المعوج فى الاقتصاد أسهل بكثير من مهمة إصلاح المعوج فى الميدان الثقافى، بل لى أن الضرر أو الشرح الذى يمكن أن يحدث للثقافة، نتيجة لما يسمى بـ «المعور الاقتصادى»، قد يكون من أصعب الأمور أو من المسجبل إصلاحه، وكتب أصرب دائما كمثل على ذلك، ما فعله الاستعمار العربى باللغة العربية فى آخر الأمر. بينما لى أن تحرير الاقتصاد من سطره الأجانب أمر يمكن تحقيقه بى يوم وليلة

لقد جمعت ما كتبتة من مقالات فى التنبيه فى هذه الفترة، أى فى منتصف السبعينات، ومن بينها تلك الورقة التى قدمها فى ١٩٧٦ لدعوة لنظام الاقتصادى العالمى الجديد، ونشرها بعد ذلك تحت عنوان «سمية أم بعية اقتصادية وثقافية؟»، وهو عنوان عبر تغييرا جيد عن اتجاه هذه المقالات. ثم اردد اقتناعى بهذه الفكرة،

وعُثِرَتْ عليها بقراءة أكثر في كتاب كتبه و تأليفه و أثره في جامعة لوس أنجلوس ،
ونشرته في ١٩٧٩ تحت عنوان «المشرق العربي والعرب» وهو يدور على فكرتين
أولاهما أن السبب الأساسي في محبة العرب هو العلاقة بينهم وبين العرب ،
والثانية هي أن الاستقلال الثقافي لا يقل أهمية ، إذ لم يرد ، عز الاستقلال
الاقتصادي

في أثناء عملي في هذا الكتاب (٧٨ - ١٩٧٩) كان من بين أكثر الكتب تأثيراً في
كتاب صغير لكانت سم أكثر قد قرأت له من قبل شيئاً ، ولا أعرف شيئاً عن أهميته
ومواضعه . فقرأت الكتاب ففتنتني لغته العربية البديعة وأسلوبه بقوة العبارة
ووحدة موقعه من الدين شيئاً حاداً وموقفي ، إذ يعطى عليه التأكد على دور الدين
في إحداث النهضة القومية بدلاً من اعتباره مجرد طريق للحلاص الروحي للعرب
كان هذا الكتاب بعد تأخر لمسموع ولماذا أقدم غيرهم ؟ لشكيب أرسلان وقد
جعلني هذا الكتاب قرأ أي شيء أجده لهذا الرجل العظيم ، راح يحب حتى أنه
ولا يزال كتابه «حاضر العالم الإسلامي» ، الذي فيه من التأليف أكثر مما فيه من
الترجمة ، من الكتب الأثرية بدي ، كتب أنوار مقدمته البديعة لكتاب محمد
العمراوي في نقد كتاب الشعر ، جاهلي لغة حسين ، حماسي مشبه انوار كتاب
العمراوي نفسه . وقد وجدت في كتاب العمراوي مثلاً لا حديد يؤيد فكرتي عن
العلاقة بين الدين والعلم . فما هو عالم مير في الكهنة ، لا شك في علو مقامه
كعالم ، ولكنه شديد التمسك بدينه ، فلم تزد صلاة إيمانه إلى إصعاف برعنه
العلمية ، ولا حدث انعكس . إذن فإن مر الممكن ، بعكس ما كنت أقصّر من قبل ،
أن يكون الإنسان صدقاً في علمه ودينه على السواء ، وكان كلاهما يحاطب جزءاً
من الإنسان لا علاقة له بالآخر . واعتقد أن موقف بي كان قريباً جداً من هذا

هذا المحي من التفكير لدى قواه ولم يضعه اكتشاف شيئاً فشيئاً كم كالمع في
موضوعية العلم ، وفي إمكانية الوصول إلى حقائق مجردة لا تؤثر فيها تحيزات
العالمات وتفضيلاته ، أو مصاحبه الشخصية أو مصالح الطبقة أو الدولة التي ينتمي
إليها . أحد هذا يظهر لي برصوح فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية ، ولكن حتى في

علوم طبيعية بدأت اكتشاف شت ماثلا رول لم يكن نفس القوة بالطبع، وذلك بتأثير قراءتي لكتاب (T. Kuhn, The Structure of Scientific Revolution) وكتاب أساد الفلسفة السوي الأصل فايز أحمد Feyerabend ومقاله الذي اعتبرته سديعا، عن ضرورة تحرير الدولة من العلم، مثلما تحررت من الكنيسة

ذلك أرى من ناحية تبنت شيئا فشيئا، كيف أن العلم هو أكثر «شخصية» أو «دنية» مما كنت أظن، وليس دقيقا بالدرجة التي كنت أظنها، ومن ثم من الممكن جدًا أن يكون صارًا ومدمرًا. وفي نفس الوقت تبنت أن ليس رعم أنه لا يقوم على التجربة أو «اللاحظة»، قد يكون مرة دافعه لأعمال عظيمة. هذا كل هذا لعمرو إبن لدى يسم به تكتيرون من العلمانيين؟، ولماذا كل هذه المعاملة السيئة والاحتمار «للمدنيين» يديانها إزاء المتدينين؟ المسألة إذن ليست مسألة اختيار بين العلم والدين، وإنما هناك علم وسد وعلم يقع الناس، كما أن هناك تدب وسدا وتديبا يقع الناس



يبدو أن كتابي «لشرق العربي والعرب» قد لفت نظر بعض من كانوا أقرب مني إلى الدين، مثل عادل حسين وطارق الشري، اللذان كان قد سارا شوطا بعيدا من الكثير من التعبير عن تعاطفهما مع النهج للإسلام السياسي، ووجدتهما بدعوى في حضور ندوة دورية يحضرها حوسته إلى ثمانية أشخاص، من عبروا بشكل أو آخر عن اهتمامهم «بالراث» أو «الأصدية» أو «لاستقلال التقدي أو انحصاري» لباقيشوا في كل أسوع أو أسوعين كتاب من الكتب التي تثير اهتمامهم وقد حضرت هذه الندوة التي استمرت عدة شهور، ثم توقفت الندوة عندما شعر أعضاءها بتمتع حدواها. كان لهذه الندوة م لأثنها من فائدة «اجتماعية» سحتة، بمعنى إتاحة فرصه اللقاء وتبادل الحديث بين أشخاص متقاربين في الذكاء والقدرة وموع القضايا المثيرة لاهتمامهم، ولكن سرعان ما تبين بعد عدة قليل من الاجتماعات أن المنفعة العسكرية منها محدودة. كان من الحاضرين من يستمرسل في الكلام بلا توقف دون أن يشعر بما يعترب من ملل، ومنهم الدافع الخشن الذي يتعثر أكثر من اللازم في التعبير عن نفسه، ومنهم من يسر لذين تعبيراً حرّاً مثل قوله

إن الله هو الثورة، ومهم الحب للسيطرة لدى لا يقلل اختلاف في الرأي، ومهم انصامت معظم الوقت، يحلم لم أشعر بالأسف إن لتوقف هذه الاجتماعات، وإن سمعت وقرأت إشارات إلى بعض أعضاء هذه الدوة، ذكر فيها اسمي أحياناً، مقترنة بوصف «ثلاثين الحدد» وهو وصف لا بأس به من حيث الدقة، فقد كنا جميعاً «ثلاثين» بمعنى من المعاني، وإن اختلفت نظراتنا إلى تراث اختلاف كبير، وكنا أيضاً «حدود» بعض المعاني، ولكن بعد فترة أصبحت أفضل ألا يدرج اسمي بين أسماء هؤلاء الثلاثين الحدد، إذ سرعان ما تبين لي مدى الاختلاف بين نظرتي للتراث ونظراتهم، لم يكتوبوا هم أيضاً على واقع نام فيما بينهم، ولكني أدركت على أي حال أن حرصي على التراث مصدر من دوافع مختلفة عن دوافعهم، ومن ثم فهمي وتعمي للتراث يختلف عن فهمهم وتعميهم، وبوع تعاطفي واحترامي للذين يختلف عن نوع تعاطفهم واحترامهم به، يمكن أن أحسن هذه للاختلافات في القول بأن نظرتي للتراث كانت سوسيولوجية أكثر منها ميديويقية، وتعاطفي مع الدين واحترامي له وحرصي على حمايته يقع من تعاطفي مع أمي واحترامي لها وحرصي على حمايتها وليس بعكس، وليس هذا السبب حدث خلال الثمانينات ما خلق حموة وبرود في علاقتي بأحد أعضاء هذه المجموعة، بما سببه تكرار أحداث اعتداء بعض المسلمين على بعض الأقطاب في بدوة عقدها صحيحة من صحف المعارضة لما يشهه واحد من أشد هذه الاعتداءات مسورة وهمجية، تكلمت بعدة مسقداً أحد الشيوخ الإعلاميين في وسائل الإعلام والذي كان يجمع وقتها شعبية وصعة، واعتبرته أحد أمثولي عن تهيج الناس ودفعهم إلى القيام بمثل هذه الاعتداءات، فإذا بهذا الرميل والصديق، الذي كان حتى وقت قريب مشاركاً لما في مافشات «الثلاثين الحدد»، يقول عبارة مديح في الدفاع عن هذا الشيخ الذي لم أكن أكن له أي نوع من التسجيل

وعه هذا، فقد صادفت خلال الثمانينات والتسعينات ما جعلني أشعر في تعاطفي مع الدين والمتدينين، وأن دافع عنهم عنائي في كتاباتي منشورة عندما أشعر أن بعضهم قد تعرض للظلم من جانب العلمانيين، فقد قرأت مقالات كثيرة حادة للعاهة لكتاب يصنفون على أنهم من «الكُتّاب الإسلاميين» فوجدتهم أقرب إلى في

كثير من موقفيهم السياسية والاجتماعية هي كتب أجدهم في كتابات كثير من لادكس
والعلمانيين بوجه عام كان بعض هؤلاء الكتاب الإسلاميين من المثاليين الذي كتب
أقرا لهم في ذلك الوقت لأول مرة، فإذا بي أجدهم منهم للدين معتبرا بالصدق
والموهبة، والإحساس المرهف بمشاكل المجتمع، وبرب صحيح للأولويات. قلت
لنفسى: «ها هم متديوب لم جمعهم موقعهم» لمتأففى «من رؤية الأمور على
حقيقتها، ولم جمعهم حماسهم للدين من اتحاد الموقف العلنى من قضايا المجتمع
فإذا كانت هذه المرات تقترب ثقته عليه بالنفس مستمدة من الإيمان بأن الله يقف إلى
حسبهم، وهذه الثقة تجعلهم على استعداد لتصحيحه والصبر والصابر أكثر مما يظهر
من كثير من غيرهم، فما لدى برده سهم أكثر من هذا؟»

وحدث من بين طلبة الجامعة الأمريكية عدد من الشبان والشابات، ممن تنوهر
بهم هذه المرات يا كنها، بالإضافة إلى الشجاعة التي جعلهم يعلنون تديهم في
مجتمع (وهو طلبة الجامعة الأمريكية) كان يعتبر مثل هذا الموقف مدعاة للسخرية
والاستهزاء، فشعرت بحوهم بالإعجاب والتقدير، خاصة وأن أداءهم الأكاديمي
وذلك هم كثير ما كانا أعلى بكثير مما وجدت في زملائهم. أما الكتاب المعروفون،
الذين وجدت فيهم هذه الصفات، فكان أبرزهم فهمى هويدى، الذى وجدت في
معظم مقالاته المتعلقة في جريدة الأهرام يعبر عما أعثره الموقف، بصريح، سواء
في مشاكل السياسة أو المجتمع، ويتخذ من قضية فلسطين وإسرائيل مواقف أكثر
شجاعة من مواقف معظم العلمانيين، فأكثرته واحترمته ثم حدث أن قرأت له
هؤلاء في الأهرام في أوائل التسعينات ينتقد فيه شدة قام ورامة الثقافة بشر روية
كتبها مؤلف مصرى غير معروف وتتضمن أساء كثيرة لا تراعى أسط قواعد الأدب
واللغة وتسخر من الدين وتستخدم في ذلك أساطير جارية. فما لب هاجم فهمى
هويدى الرواية حتى اسرت له أقلام كثير من الكتاب العلمانيين ولادكس
ممن يعتبرون حرية افان والأديب مطلقة، ولكنهم لا يعتبرون الدين كذلك، ومن
لا يعبور في أمر هذه الحرية بين المؤدب والبدى، بين من يراعى مشاعر الناس وبين
من يسعى إليهم، كتب لا يعيهم ما إذا كان العمل المشهور هو بالفعل عمل فى
يستحق الهدية أو عملاً من أعمال السب والقذف

حاولت أن أعثر على نسخة من هذه الرواية فلم أجدها، فطلبتها من فهمي هودي فأرسلها إليّ، وقرأت منها بعض الأجزاء ولم أجد أي داع للاستمرار في القراءة. يُست من الجزء الذي قرأته صحة نفسه فهمي هودي للرواية وشاركته رأيه، وشعرت بالعصب الشديد مما تعرض له من ظلم، ورايت أن موقعه، في هذه الواقعة بالذات على الأقل، يستوجب الدعم والتأييد، وكنت مصاباً أعز منه عن تأييدي له، وكان المقال بعنوان «دفاع عن فهمي هودي»، شرته لي حرية جديدة كانت تمنح بحرية غير معهودة حتى بعد صر الدولة عليها وأغشها، وهي حرية الدستور. كنت أعرف أن المقال سيغضب الكثيرين، إذ كان أعداء فهمي هودي الذي يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، كثيرين. كما كنت اتوقع أنها ستصيب بحية أمل كثيرين من الذين يصنفون في معسكر آخر، سواء كان معسكر «اليساريين» أو «المركسيين» أو «العلمانيين» إلخ. ولكني لم أر مبرراً لأن أكس رأيي في هذه القضية التي اعتبرها مهمة (قضية الحرية) من يجب أن تناج للناس أو الكاتب، وهل هي حقاً بلا حدود؟، وقتت نفسي إن من الواجب في تقييم الأشخاص التعبير عن مواقفهم في القضايا المختلفة، وليس من حق الناس أن تصنف الكتاب تصنيفاً نهائياً فتصبح كلاً منهم في معسكر ثابت وجامد على الرغم من المرونة الدقيقة وغير الدقيقة التي تميز بين شخص وآخر. كما قلت نفسي إن الحق مصيره أن يتضح في النهاية، وإن الذي يسعى إلى العلم الكامل للحقيقة المقتدة سوف يصل إليه، ومن لا يسعى إلى هذا العلم لا يجب أن ييأس به.

وقع ذلك قبل المضي نزع الكثيرين من معارفي وأصدقائي في تصفني على هذا النحو، حتى وصل الأمر بعضهم أن يعنى «الاصولي»، وتساءل بعض الآخر «ماذا حدث لي؟» وكأنني قد مسى صر من الحون. ولكن الذي ألمني بوجه خاص عجز بعض أصدقائي ومعارفي من الانقاط عن هذا التمييز، وتسرعهم مثل عرهم في عتري وكأنني قد هجرت موقعي، وانصممت إلى المعسكر المعدي لهم. وعلى الرغم من أني عتريت هذا الموقف منهم خطأ محصاً، فقد اعتبرت أيضاً من قبل الخطأ لمعروض عليهم فرصاً ويكاد يسجل عليهم الحد من صرهم لخص في المجتمع المصري، وفي هذه الفترة بالذات من تاريخ مصر قد

نقصي للأسف ذلك لعصر الذي كان يمكن أن يقول فيه مكرم عبد، ذلك لتعطى
المد، فأبي قطي دبد ومسلم وطبا، فأى تعبر أحمل من هذا عن المعنى الذى يدور
بذهنى؟ نعم، الإسلام دين، ولكنه أيضا وطن وثقافة ولكن التفكير على هذا
النحو يتطلب ظروفًا سياسية وإحصائية كانت متوافرة فى العشرينات والثلاثينيات
والأربعينيات ولكنه لم تعد متوافرة الآن

الذى مدولى أنه منى رالت تلك الظروف التى توحد المسلمين والأقليات فى
مشروع واحد للهضة، والى يكون فيها الولاء للذين علاقة بين الفرد وربه دور
يهدد العلاقات الاجتماعية بين الأغلبية والأقلية، منى رالت هذه الظروف السعيدة
يعود الأقطار إلى الشعور شعورًا قريبًا بأنهم أقلية، ويعتبرهم خوف دائم من أن تنكسر
الأغلبية لهم ويتعرضون عليهم، ويصبحون فى تلك دائم من أنهم سيتعرضون
للاعتماد أو إخماء إن لم يكن اليوم فى العبد، مما جلب إلى دهن صورة الروح
التي لديها سم قوى يجعلها تعتقد أن زوجها قد يفصل غيرها عنها، ومن ثم فهي
فائمة الشك فى زوجها، حيث ترى فى أى تصرف منه، وفى أى كلمة يصدر عنه،
دليلا على أنه ضمر شرًا، وأن قلبه يتطوى على الخيانة تطل أن زوجها يرمع
تطليقها وهجرانها فى أول فرصة تسمح به، وتعرض كل نظرة منه إلى مرة أخرى بأنه
سوف يستغل هذه المرأة بها خطر لى وجوده بين مشاعر هذه المرأة ومشاعر
الأقليات فى مصر فى ظروف سياسية كالتى يعيشها اليوم فأى كلام فى الدين يشي
حساسيتهم، وإن لم تكن له أى علامة بهم أو موقف الشخص المشي بهم، بل
وأى كلام عن العروة والوحدة العربية يؤخذ على أنه يتطوى على تهديد، وهو فى
المستقبل، لمكرهم فى مصر وللعلاقة للمسلمين المصريين بهم. إذا كان الأمر كذلك،
فما حيلة مثقف مصرى يجد فى حماية الإسلام من المتهجمين عليه، وفى احترام
الشعور الدينى، شرطًا من شروط تحقق للهضة قوسا للمسلمين والأقليات على
السوء؟

إلى إذا استعرض فى ذهنى الآن موقف أبى من الدين، ربما باستثناء فترة صباه
وشبهه المكر، أجد أن موقفى لأن قرب حذا من موقفه فعندما كتب أبى كتب

في عماء الإصلاح في العصر الحديث، أو حتى كتبه لأساسه في تاريخ لجنة
 العملية في الإسلام، أي سلسلة صحر الإسلام وصحاه وطهره، كان الذي سيطر
 عليه هو دور الدين في النهضة وفي إحياء أمته، أكثر من أي شيء آخر، نعم، لقد
 مرت ناس فتره كان موقفه من الدين سطوي على بعض لفتور و انشك، ولكن لا
 أظن أنه فقد في أي من الأوقات ثقته في دور الشعور الديني في استعاده الأمة
 لفتوبها وشاها

المرض والشيخوخة

كانت أمي ، مثل العائلة الساحقة من سوء جلها ، لا تجعل أي شعور ودي إزاء الأضواء ، ونحاول أن نجسم بقدر طاقتنا ، ومن ثم فوبى : أكاد أذكر أمي قط وهي في عياد طبيب ، أو وهي تستدعي طبيباً أو يستدعي لها طبيب في المنزل ، ناهيك عن شعورها نحو المستشفى ، الذي كان في نظر ساء هذا الخلل (وكنز من رجال أيا) مجرد خطوة بحر الموت ، بدر هي نظروهم إذا دخله شخص أن يعود إلى منزله

لقد أصيب أمي طبعاً بعدة أمراض ، منها مرض السكر ، ولكنها كانت تسيهين بأمراضها كلها ، ولا تشج من يحذر من تناول هذا الطعام أو ذلك ، كان العمر في نظرها (وإحدى) ، أي مفرداً سلباً ولا يمكن إطلته أو تفصيله . ولكن لعن ما كانت تعب حقيقته هو أنها بعد أن بدت ساء معي ، ومات أبي ، وتروح معظم أولادها أو سافروا إلى الخارج ، ولم يبق لديها ما تشعر بأنها تعيش من أجله . لم بعد رى في الموت شيئاً مخيفاً . وعندما جاءها الموت وهي في نحو الثانية والثلاثين (ولم تكن تعرف سنة ميلادها إلا بالتقريب) لم تكن بحاجة لم أكن بجوارها عندما ماتت ، فقد كنت في بعض العداسية بمحذراً ، ونكس كنت معها قبل ذلك سنة ، وما يرويه لي أختي حسين الذي كان بجوارها حيث يدعى أنها لم تكن تجد في الموت ما يخيف . ومعنى أي حال ، فقد كان بإمكانها لم قدر لها أن تعلق على ما بها أن تمرل : "أتم أفل لكم؟ هأنذا يأتي الموت في المستشفى في المرة الوحيدة متى دخله فيها ، ولم أعمد منه إلى بيبي"

إد كان هذا هو موقفها من الأطباء والمستشفيات فلا يمكن أن نتوقع أن يكون

لوقوعها من المرض بضعة عمدة أى سمة من سمات «لروح العنمة» كان كلامها عفا تشعبه من أوجع أقرب إلى الشعر منه إلى نغم، فهي ماهرة في استخدام التشبيهات البليغة في وصف ما يشعر به، كأن يقول إنها شعر بجسمها وكأنه شوا من دم مل، أو بر جلها «تسح عليها»، وكأن مشارا لا يكف عن شرها جيفة زهدا، أو بقدمها وكأن مسامير قد دقت فيها . إلخ . فإذا مرض أحدا فارتفعت حرارته عرفت عن ذلك بأنه «ساح كالار»، وإذا طلب أحد منها أن تأتى بترموتر لقياس حراره قالت «أنا إيدى بترموتر» وكانت صائفة في ذلك إلى حد كسر وقد سررت عندهم قال لى انى لأصغر من سموات قليلة، عندهم سألته عما إذا كانت صديقتها الأمريكية تعرف بعض للكلمات العربية، «إنها تعرف عشرين فقط بالعربية إحداهما (أنا إيدى بترموتر)»

لم يكن الترمومتر يعتبر حسنا من لوبرم الحياه التى يجب وجودها في كل بيت، كفا أن كمية الأدوية التى تجدها في بيتنا في ذلك العصر كانت صئبة لعانة، إذا فترت ما يحتويه فى بيت الأنا، فكانت تكاد تقتصر على ماء صغبر من «العكس» الذى يستخدم عند البرد والركام، وعلى «ملح الفواكه» عوار الذى يستخدم عند اضطراب المعدة، وعلقة «لأسبرين» لتخفيف الحرارة . ومن ثم كان من بادر ان يسمع عن استعمال ادوية الطب الخطأ في اختيار الدواء، إذا كان النحوء إلى الأدوية محدودا جدا في الأصل، وكان الاعتقاد شائعا بأن معظم الأمراض يكفى لعلاجها بخوء المريض إلى الراحة في السرير، ويجب التعرض للبرد، مع تناول طعام صحي، بالإضافة إلى بعض المشروبات التقليدية المعتمدة على بعض التوابل التى تبيعها محلات لعطارة، وتنى يوجد معها لكل داء دواء . أما الجوى إلى الطب لى ظهور أى عرض من أعراض المرض أو لى أى ارتفاع في حراره، أو شعور بضيق أو فقدان للشهية . إلخ، كالى أصبح شائعا أن، فلم يكن يحظر على دال من (بل ولا حتى على دال أبى أو أحد من إخواني) فى ذلك العصر وقد قرأت مؤجرا في السرة الثانية لأستاذ الفلسفة الشهير والنسوى (الأصل (بول فاير أبند (P Feyerabend) وصفا لموقف أبيه وأمه من المرض يشبه حد موقف أمى، إذا كان يعتقدان مثلها أن المرض في معظم الأحوال، سوف يبرول دون سبب

واصبح، كما جاء دون سب واصلح. وقد فيبراند تعيقاً على ذلك إن موقفيهما هذا كان أكثر عقلانية من الجري إلى الطبيب لدى ظهور أى عارض للمرض مهما كان عرضاً ناهب

كنت أسمى، مع ذلك، تؤس محدودى بعض طرق لعلاج التقليديه، أو «البلديه» كما أصبح سبها مع زيادة احكامنا بالعرب، مثل علاج تورم البدن «التلجيس»، وهو علاج لم أسمع أحدا يتبعه باسمه منذ طفولتى، وكانت تقوم به امرأة لا علاقة لها بالطب أو الأطباء، تصحب أسمى إليها كلما أصابا احقان فى اللوز، وسط صباحا وعروب، لا سب ما نحن فيه من مرض، ولكن كحزناء من قبل من هذه المرأة، كانت تدخل صعبا فى حلقها بعد أن نغمه بكمية كبيرة من اللبن، وتقوم بطلاء اللوز الممرض بوضعها بهذا السن مع الضغط باصبعي شدة على حلق

كان لأسمى أيضا موقف صارم وواضح جداً من لبرد. كانت نظريتها فى الصحة والمرض تتلخص فى أن الشرطين الأساسيين للاختفاظ بالصحة وتجنب المرض هما تناول الصم الكافى والجيد، وتجنب البرد. ولكن حرصها على تجنب البرد كان تحذرا بعدا متطرفة للعامة، فهي فى سبيل تجنب البرد لا تنسى أى سب لدرجة نساء الهواء أو فادته، ولو استطعت أن تد كل ماهد الهواء أثناء نومها، ففى ذلك اللرع فى أسفل الأبواب، بعلت. وهى تجربنا ونحن نستعد للذهاب إلى المدرسة فى الشتاء على «سب» ملابس داخلية لا يمكن لأى أمره عصرية الآن أن تتصورها. ولا أرب أذكر مرعى عندما كانت تصر على ارتدنى بلك القانية للصوفة العربية وأنا ذاهب إلى المدرسة، ذاشتد البرد لم تكن فائلة عادة مصوغة من الصوف بل كان لها وبر طويل لا يكف عن وحر «خسب»، ولا أشك أن لها شمشا كما كان المتصورون يريدونه، وربما اكتسوا اسمهم منها، إيمانا فى عديد أنفسهم. ولكن بالإضافة إلى ما كانت بسبه لى هذه المانلات العربية من ألم ماضى محض، كنت تصبى أيضا بألم نفسي، إذ كان زملائى فى المدرسة يريدون ما ارتدته تحف القميص كلما ذهبا لتغير ملابسنا استعدادا للقيام بعض الألعاب الرياضية. كانت هذه القائلة تثير استعجاب بعضهم وأحيانا بعض التعديفات الساحرة. وربما كان لهذا علاقة بما طلت أشعر به من كراهية لأى نوع من الألعاب الرياضية بقية العمر

كتب لنا أحيى الأكرم مرة، علمه كان يقضى بضعة شهور في السويد في زيارة بعض مصانعهم، وكان بطعمه معروفا بالمأكلة الشعبية، فقل إن البرد في السويد من شدة بحيث يحدث أحيانا أن يتجمد أحد برجل أو المرأة أو أذنهما وهما سائرون في الطريق. وقد أحدث هذا الخطب رعا لدى أمي طفل ملامر لها السوات طويلة حتى عاد كل أمانيها من أوروبا، إذ كانت تتصور أن أحدا منهم قد يفقد أعضاه أو أدمه بسب البرد وعلت نغمةهم من ذلك في كل خطب ترسله إليهم



كان أبى بالطبع، معلمه لو مع وعقلانيته، محصنا ضد هذه المعتقدات ولحاف، كما كان أكثر ثقة من أمي بالطب و لأطباء وسانا نحن الأولاد والنساء أقرب بالطبع إلى مرقف أبى من إلى موقف أمي ومع هذا فلا بد أن أعترف بأبى إذا مضرت الآن إلى خلاصة خبرتي مع الأطباء، خلال حياتي المدنية بأكميها، أجد أنها أقرب إلى حمية الأمن منها إلى الإعجاب. بل إلى عندما أستعيد ذكرياتي مع الأطباء، خطوة بخطوة، منذ أرن عهدى بهم حتى الآن، تدهشى كثرة عدد من ارتكوا أخطاء حسيه في حقى

بداهداى من مكررة للعناية به لم تكن تجاورت من السبعة أو الثمانية عندها أحدث أبى، نحن الإخوة الثلاثة، أحمد وحسين وأنا، إلى عذب الألف والأدن والاحرة لاستنصت بلور في يوم واحد، وكان فيما أذكر أشهر طبيب مصرى في هذا التخصص ونعت العملية وعدنا إلى بيت، دون أن ندرك وقتها أن الطبيب في حافى أنا، لم يستأصل من اللوز كل ما كان عليه استنصاه، وأنه من ناحية أخرى استأصل أكثر مما يجب فقد لاحظ أبى في السوات التالية شئ غير طبيعى يجرى في حلقى ويسمى كل صباح للإسراع بالتحلص مما تجمع في حلقى حول اللب، وأنى أتعرف أكثر من إحق فى سويات من السعال والإنفلونزا خاصة في الشتاء. اسمر أخال على هذه الحولمة سواب حتى حدثني أبى وأن في ثلاثة عشرة من عمرى إلى طبيب كبير آخر، بدأ عليه لدهول عندما قام بمحض حلقى وحرر بأن الطبيب السابق، فضلا عن استئصاله للحدة دون موجب، أثناء عملية اللوز، ترك حرقا من اللوز دون استئصال معاد بموها من جديد

في عن الس أحدي أنى يطب العيون له لاحظته من ضعف في بصرى فأخبرني
الطبيب بحسنى إلى نظارة ولا أزال أذكر كيف بهال أنى على طوال طريق عودتنا
إلى البيت، في الشارع وفي الأتوبيس، باللوم و تقريع، وكأنى أنا المستنوب عن
حالة عيسى. وذكر أثناء ذلك كل ما يمكن ذكره عن عادات القراءة السليمة التي لا
أنصحها، وأضرار القراءة في ضوء ضعيف أو تقرب بكتب أكثر من اللازم من
العين. إلخ. كان عاص وحرب، ولم أذكر إلا فيما بعد أن سب عصبه وجرحه لم
يكن اعتقاده سحياً ارتكبه أنا، كما كان يرغم، بل اعتقاده بأنه هو المستنوب، عن
ضعف بصرى ثورينى يراه على العكس من ذلك، لم أكن أنا أشعر بأى حزن أو
عصب، بل أظن أنى كنت أقرب إلى الانتهاج لما كان يسعه لس نظارة من أهمية،
أو هكذا تصورت في تلك الس

صلت علاقتى بأبناء العيون، في علاقة امانوفة بقصار انظر حتى أصبت بمرض
السكر، أو على الأقل اكتشفت أنى مصابه، فى سن الثامنة والستين، وبصحت
أن أواط على الكشف على عيسى مرة كل عام على الأقل للتأكد من أن السكر لم
يصب النظر بالدهور. وإذ يصحى أخى أحمد، الذى كان يتق فى الاطباء أكثر
بكثير منى، بأن أواط أيضا على الكشف عن ضغط العين لمخطورة ارتفاعه،
اعتدت أن أذهب فى كل عام لطبيب عيون للكشف عن هذا وذلك، وبكى فى
إحدى مرات لاحظت أن الطبيب دخل عبده مهرو ولا على غير عادته، وكان قد
وصل متأخرا عن مواعده أكثر بكثير من المعتاد حتى من سائر الأطباء، وذهب من
حديثه مع مساعديه أنه يستعد للمصر فى العدا إلى مؤتمر خارج مصر

كشف على الطبيب وهو فى هذه الحالة فوجد ضغط العين عندى أعلى من
اللازم، فأعاد يكشف ووصل الى نفس النتيجة، ثم كتب لى الدواء. وعندما سأته
عن المرة التى يجب أن أسمى خلالها فى استخدام هذا الدواء، قال لى الأبد. ثم
أضاف سرعة أن على التأكد من سلامة لعد أو الكلى (لا أذكر) لتجنب الضرر
الذى يحدثه الدواء. لم يكن هذا سببا اندهشت دهشة عظيمة من أن شيئا بهذه
الأهمية يحرق بهذه السهولة. دواء يؤخذ طول العمر، ويمكن أن يكون له اثر

حاسة حنجرته، يجري الصبح تناول هذه السرعة وهذه المساحة قررت أن أعمل
 لصحة تماماً وانتظر حتى أعود للكشف عند طبيب آخر وقد حدث، وتبين أن
 ضغط العين طبيعي جداً، سنة بعد أخرى وعده عدت للطبيب الأول ونظر إلى
 أوزانه وقال لي: بالطبع أنت الآن الدواء الخاص بضغط العين، قلت له إن حقيقة أنني
 لا أتناول، لأنني أفصل أن أظل استخدام لأدوية إلى حد الأدنى، فأعد الكشف
 المرة بعد المرة، ثم أعود استعراة الشديد أن يحد ضغط العين عدي طبيب تماماً فأنزل
 وكانت شخص حر تماماً»

أذكر أيضاً أني في سن الثانية والثلاثين، وفي أعقاب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة،
 اضطرت للهجرة إلى طبيب أسنان، تصدق أن كان أشهر طبيب للأسنان في
 مصر في ذلك الوقت، ولكنه لهذا السبب كان مثقلاً بالعمل، وليس أمامه منعه من
 التوجه فأتيت إلى به، طبيب الأسنان المتخرج حديثاً، والذي كان يتدرب في
 بعض عيادة أبيه. فإذا بهذا الابن يستعمل حلع ثلاث أو أربع من أسناني، عرفت
 فيما بعد أن كان من الممكن إنقاذها من الخلع، ولكن الابن كان فيم يبدو أكثر قدره
 على حلع الأسنان منه على حشوها

بعد سنوات كثيرة سمعت شياً كبيراً على طبيب أسنان آخر، «شهر عيادته
 انطفأت واتباعه أحدث أساليب العلاج التي أحضر لها أحدث الآلات والمعدات
 عند عودته من أمريكا، ذهبت إليه وكنت أظن أني لا احتاج إلا إلى علاج بسيط
 ومريع للقضاء على ألم عارض في إحدى الأسنان، فإذا بي أحذنه قد حول عيادته
 إلى سوبر ماركت فاخر، ستعكف فيه محرمات حملات عند اتهم من الكوافير،
 وموسيقى باعثة قلاً المكان، فضلاً عن عدد كبير من أجهزة الكمبيوتر التي تحترب
 كل المعلومات المتعلقة بكل من أسناتك

عندما مدّ يده إلى تحمل صورة الأشعة الملونة التي المنقلب لعمى من
 الداخل، اتسمت على وجهه سمات الغزع والألم الشديد إذ وصلت حال عمى
 وأسأتني إلى هذا المستوى من تشهور، وأخذ يشير بإصبعه إلى هذا الجزء من
 الصورة ثم إلى ذلك فأنزل

«الأتري نفسك ما حدث؟»، وأن أحاول أن أرى ما يراه دون جدوى، إذ لم أر
 أى شيء سوى معرى و صبح لقد بدت من الصورة شمعاً حمراً، ولكنى تصورت أن
 صورة أنى هم من بداخل لأنى أن تكون يشعة، حتى ولو كان هم صوفياً ثوريس، إذ
 ما الذى يمكن أن يتوقع المرء أن يره فى صورة مكسرة لكشف والأوعب الدموية وقد
 كساف كلها اللعاب؟

تركى هذا الطبيب المشهور بعد ذلك بصبح دقائق فى حجره مكنته ريثما يرى
 مريضاً آخر. وفى تلك الدقائق كانت لدى فرصة كافية لتأمل بعض الصور التى
 وضعها على مكتبه فى مكان واضح لا يمكن أن يفعل برائر عن رؤيتها، ومها صور
 له وهو واقف فى عظمة مهرة معظفه لأبيض وإنى حاتبه من يمين مطرب شهير،
 ومن ايسار سيسى كبير هو أيضاً من أشهر بصحفيين المصريين فى نصف الثانى
 من القرن هذا، إذن هو نوع اساس الدين يقصده به علاج أساههم فلا بد أنه طبيب
 عظيم. وعندما عاد إلى الطبيب شرح لى ياهتمم بانع أن حائلى ستلزم علاجه لابد
 أن يطول، ويتعم إلى مرحلتين، الأولى ستتكلف نحو عشرين ألفاً من احبهاات
 والثانية يصعب تقدير تكاليفها حالياً وإن كاد، لسبب لم تذكره بوصوح،
 ستطلب دفع بالمولار

ترك العيادة مهموماً، ولكنى سرعان ما اسعدت رباطة جأشى وصحبك من
 الأمر برمته. وذهب إلى طبيب آخر، عالج سنى المولدة ثلثين حبسها ولا تزال
 تعمل بكفاءة حتى لآز وقد انقص على هذا العلاج أكثر من عشر سنوات

مع تكرار مرورى لتجارب من هذا النوع مع الأطباء، لم يعد يدهشى أن
 أصادف طبيباً جديداً أو مستشفًى حديثاً، فى مصر أو خارجها، يدرس درجه أو
 أخرى من لاحتين لتحقيق مكسب مادى أكبر على حساب المريض المسكين
 واتضح بى شئت فسمنا أو جه شبه مهمة بين ممارسة مهنة الطب وممارسة مهنة رجل
 الدين عتد تكون درجه لرهة والاستقامة لحلقه فى أى منهما أقل مما يجب
 كلاهما يحارب أن يستغل هطلى ضعف حظيرتين هم يندأ إليهما طاب مهما
 المعون شدة الحاجة مع شدة الجهل فمن لا يلجأ إلى الصب أو رجل الدين إلا

عندما يشتدب اخوف عني مصيرى، إما حلال هذه الحياة أو الحياة التالية، والعالمية العظمى ما لا يعرف نكت يذكر عن أسرار الجسم الإنسانى أو سرار الألوهة و لحياة بعد الموت. وفي حياتى، يجد الطبيب ورجل الدين من يلقى الكثر من مصطلحات الصعبة وغير المثبوتة، والمراسم والطقوس التى لا يعرف بالسط مدى ضرورتها فتصل المألعة فى أهميتها

على ساعد الأطباء على الاحتياط بما يتمتعون به من هبة واحترام، بس أن سمة يحا حهم أكبر بكثير من سمة فشدهم، بل، هناك قوة خسارة نعمل باستمرار لصالحهم ولإيقادهم من لأخطاء الكثيرة التى يرتكبونها هذه القوة الخسارة هى طبعاً لقدره الطبيعى الذى يحورها جسم الإنسان على مقاومة ما يمكن أن يصبه من أمراض، وعلى نصصح معظم أوجه الخلل التى لابد أن تصبه من وقت لآخر، دون أن يكون من الواضح، فى معظم الأحيان، إلى من يعود الفصل فى الشفاء الطبيب أم تلك القوة الطبيعى خسارة هكذا شفت من مرض عصب، أصبت به فى بيروت وأنا فى سن الأربعين، وقصبت بسمة أسوعى فى مستشفى جامعة الأمريكية، وأنا بين الحياة والموت، ومررت خلالهما بكن أقسام لمستشفى، بما كان الأطباء يحولون اكتشاف ما أصابى دون حدرى، وجمعت لديهم عشر ث من صور الأشعة وعشرات تحليلات والقياسات، وانتهى الأمر كله شفى بوه الجسم بطفعة وقد به على المقاومة وكان تشخيص المرض بأنه امبر من عمر معروف الهوىة، إذ كن من لحائر عباار هذا تشخيص على الإطلاق



روى عن الكاتب الأمريكى دى لأصل الأرمى (وليام سارويان) قول طريف يقال إنه صدر منه وهو على فراش الموت «لقد كنت أعرف دائماً أن كل إنسان لابد أن يموت، ولكنى كنت آمل دائماً أن يحدث استثناء فى حياتى» وأص أن هذه الشعور ليس مقصوراً على وسام سارويان، بل يطن على جمع حسن الخط، إذ بذوه لا أنطى أن الحياة يمكن أن تكون محتملة كما أعتقد أن هذا هو موقف أيضاً من الشيخوخة فكلاً يعرف ومستعد للاعتراف بأنه لابد أن تصبه الشيخوخة يوماً

ما، ولكنه يتصرف في حياته اليومية ويرسم خطته، وكأنه سيظل سليماً معافى إلى الأبد. أعرف أن هذا صحيح على الأقل في حالتي أنا. إبي الآن في السبعين وقد دنت أحسن أعراس الشجوحة من أربع أو خمس سنوات، من ورما قبل ذلك بالتدريج، ولكني لم أعترف بذلك لنفسى إلا منذ شهرين عليه، كنت قلها أثير في فريدة بنفسى بديث الشعور غير العقلاني بالمرّة، هو أن شجوحه لن تصيبى بل حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام، لا أرا أن أقول بنفسى كيف شعرت بأعراس الشجوحة، بأنها أعراس مؤقتة لا نلت أن نرول، مع أن أى عاقل لا بد أن يعترف بأن هذه الأعراس جاءت تنقّى أولتتحول إلى ما هو أسوأ منها.

ليس هذا هو الطي اللاعلاى الرجيد الذي تم إلى المرّة في شجوحته. فهناك أيضاً الطي السليخ الحماقة بدوره بأن هذه الأعراس التي أحسن بها لا تراها غير من ثم فإني لا أرا أن أظهر من الآخرين كما كتب أظهر دائماً أعامهم. لقد أصبحت أحياناً بين حين وآخر كلما رأيت صديق أو زميلاً قدي من زملاء المدرسة أو الجامعة، لم أكن قد رأيت منذ مدة طويلة، فإذا بي أجدته وقد أثقلت الشجوحة حرركه، ورما وجدت معه عصاً يتوكأ عليها، ونشرت التجاعيد في وجهه، دهك عن شجار الشعر الأبيض وسقوط أكثره. ف أكثر ف رأت هذه الشجوخة في زملاء الطموحة والنساء، ومع ذلك فإن لا أريد أن أتعلّم وأغير رأيي في نفسى. قد أتناظر ولا أعرف بأن ما حدث تغيرى قد حدث لى أيضاً، ولكنى لا أعتقد هذا حقيقة في فريدة بنفسى، وبأسرع ما أضط ما يقول لى مجامل أو مناس من لى لم تغير قيد ألفة منذ رأى منذ سنوات كثيرة. من ما أكثر ما تشد هذه الحماقة تمتد إلى نظرة الرجل إلى النساء، حتى بعد أن بلغ الشجوحة. فطى لمجرد أنه لا يزال يشهى المرأة الجميلة وشماتها، أنها يمكن أيضاً أن تميل إليه وترعبه.

فأحيان الشعور ناشجوحه في وقت ما بعد بلوغى الخامسة والسين، ولا أستطيع أن أقول متى حدث هذا، بالطبع، وإن كتب الآن، بعد أن بلغ السبعين، أستطيع بسهولة عقد مقابلة بين حالتي بعد حدوثه وقبله.

لم يكن جسمى موضوعاً للتفكير، أو حتى لوعى على أى نحو كان.

فأصبحت وغيابه في فترات كثيرة من كل يوم، يعود إلى تذكيري بوجوده وجمع بسط في هذا الفصل أو ذاك، أو رؤيتي لتسلم حال، على ارتقاء درجاته، أو أي شيء ثمين على أن أحمله. تباطأت الحركة، وأخذت أرحب بأي فرصة للجلوس، وأصبحت الضوضاء تزعجني أكثر من كتاب من قبل، بينما أصبح الهدوء العام مصدرًا للممتعة في حد ذاته ولو لم يصحبه أي شيء آخر ممتع. كنت قد لاحظت من قبل إلى أي حد يتأثر سلوكنا في مختلف المجالات، بالرغبة في الحصول على إعجاب الجنس الآخر، ولكنني بعد بلوعي الشبحوة أدركت هذا موضح أكثر، ودهشة أشد، إذ وجدت أن حماسي لكثير من الأمور قد أصبح بعض العصور مع ضعف رعشي في الحصول على هذا الإعجاب والرضا لا أزال أحد رفاق كثير، أثناء إلمائي لمحاصراتي، بين درجة سروري بما قد يتركه حديثي من أثر طيب في المستمعين من المذكور، وبين سروري بما تعبير عن الرضا أو التقدير أراه على وجه امرأة جملة من الخاصيين، ولكنني لا شك فيه أن انصعف الذي أصاب الرغبة في الحصول على إعجاب الجنس الآخر قد ترك أثره على درجة الحماسة لأشياء كثيرة في الحياة، من احتياو انسي، إلى تنف، أحدث، إلى تعين المرء في إظهار قدرته في أحسن صورة

ذكرني هذا انصعف في الحماسة لأمر كثيرة، الذي نتج عن انصعف الذي أصاب الرغبة في الظفر بإعجاب الجنس الآخر، مما كنا نشعر به في الكويت، في منتصف سبعينات، حيث كان من الممكن بأن يقطع المرء شوارع طويذة ويدخل محلا أو مطعمًا أو فندقًا بعد آخر، فلا يصادف امرأة من أي نوع، شابة أو عجوزًا، مثقاة أو محجبة أو غير محجبة ولا مثقاة، فيشبع شعورنا بحد التام قد لا يدري إدراكه منه الحقيقى، ولكنه بلا شك له علاقة ما بهذا غياب الكامل للمرأة

مع الشبحوة لا تصعب مطر وعبائك فيما يمكن أن يحققه الداس وتحمعه الحياة لث، ولكن تصعب أيضًا، وبالأسف، رعب الداس فيما يمكن أن تحققه أنت لهم. ذلك أن الحقيقة أن قدرتك على تحقيق رغبات الداس، لا بد أن تصعب مع تقدمك في السن. فالوظيفة المهمة التي كنت تشبعها، تعتمد على سلوك من المعاش،

وقد ترك المعهودة على تلبية طلبات الناس بذكاة أو إلقاء محاصرة أو الاشتراك في برنامج تليفزيوني لم تعد كم كانت، لا كت ولا موعاً، من وحتى الاشتراك في الماسكات الاحتفالية المختلفة، كحضور حفل دوايح أو تلبية دعوة عشاء، قد يصعب الأمل فيه بتكرار عتدائك من هذه الدعوة أو تلك، أو بصعب وعنتك في اشتراكه في الكلام أو الصلحك لا بد إد أن تجد عدد المرات التي يرب فيها جرس لتليقون في بيتك قد أصبح أقل بكثير مما كان، وكذلك عدد الخطابات التي تأتيك في البريد إلى لم أقطع بعد شوطاً بعيداً في هذا المحدث، ولكني أراء أمامي بكل وصوح، خاصة وأني لا أراي ذكر بعض الآخرين، ف كان يظهر على وجه أبي في شبحوخته، من حبه لأمل عندما كان يدق جرس انليقون فجأة وهو حائس درج انشدن حقيقي بأى عمل محدد، فيعثر به لأمل في أن يكون المتكلم صديق له أو حتى شخصاً لا يعرفه يحاوي أن يحصل على وساطته للحصول على وطيه أو بعته أو ترقية، ثم تصيبه خيبة الأمل عندما يكشف أن المكالمة لاس من أخته

ولكني أذكر أيضاً مقالة كتبها العيلسوف البريطاني برنارد رسل في صحيفه بريطانية لدى بوعه الخامسة والثمانين، وصف فيها الممرات المختلفة التي يتمتع بها المرء في هذه المس الكبيرة أذكر أنه ذكر أنه تخلص من الأيد في أى شعور بالعبيرة وروح الماسة والرغبة في التمتع على الآخرين، وف يصاحب هذا الشعور أحبا من آلام و ضيف إلى ذلك الميرة الأكثر وضوحاً و لمنشئة في أحفاد درجة الاحتياج إلى المال مع انحصار حدة مختلف الرغبات، وانحصار درجة احواف من انحراف أنادى بعة المتاح من الوقت الذي يمكن للمرء فيه إفاق ما سأل له ادحاره بل بعد لاحظت أن حوفي من الموت به قد أصبح أقل بكثير في الشجوة مما كان قبل عشر سنوات أو عشرين ربما كان السب أن الشجوة، مما تنطوي عليه من صعب مادي، تنطوي هي نفسها على شيء من الموت، ولكن مع الشجوة يرداد تعرض المرء للموت بصور أخرى، إذ يريد شك عشياً عدد أقراه ومعارفه الذين سموه في الرحيل، فتصبح المكورة أقرب إلى التصور وأقل ثقلاً على النفس، أو ربما كان السب أن صعب ختمه تحقيق مختلف الرغبات يجعل الحرمان التام من تلبية هذه برغبت أحفد على النفس ويريد من قدرة المرء على احتماله. بل

هناك أيضاً مجرد الملل فالحبة الممتدة لابد أن تتكرر فيها التجارب مرة تلو الأخرى، والسرور أو الإثارة التي كانت تجلبها لثجربة عذبة كانت تجربة جديدة، تعتقد قوتهم وحاديثها بالتكرار والعود، فإذا المرء يضعف أيضاً تطلعه إلى المزيد من تكرار نفس التجارب

عندما أنظر الآن إلى أولادي وحفيديّ، وقد اعتبرتهم أحفاداً لشيء دم بعد بشرى لدى أي حمامة من فرط تكرار حدوثه هو نفسه أو حدوث مثيل له، يعتري أولاً تعب ودهشة لا تدوم أكثر من لحظة قصيرة. دمرعان ما أتذكر حماسي لهذا الشيء عندما كنت أصادفه لأول مرة. فينرف عجي ودهشي، وقد ألتصاهر بمشاركتهم حماستهم، أو أكتفي بالشفاعة صغره، ولكني بالطبع لا أسمع لمشي قط بأد ذكر لهم السب الحقيقي لهذا عارق الكبير بين موقفي وموقفهم

البدائيات والنهايات

-١-

هأنذا اليوم، وقد تجاوزت السبعين من عمري، أسعرت حياتي فأحدها ملبنة بالأمشة على حبة الأمل، وهكذا أيضاً أجد حياة كل من عرفتهم عن قرب، حتى من كان أكثرهم حاجاً

كأنسى بعض حياتي دحجته، كما يظهر بوصوح من القفرة التي أنهى بها كتابه «حياتي»، حيث يقول إن الله من عليه بالتوفيق (في أكثر ما راوت من أعمال فيما أتت من كتب، في عملي بنحو التأليف، في اجتماعه الشعبية، في اجتماعه المصري، في اجتماعه لعربي، في عمادة كلية الآداب، كحدث الشأن في حياتي العلمية والأدبية والدينية والعائلية معاً من أنه لا أستطيع أن أقوم بالشكر عليها).

ولكنه يمرر أيضاً عن دهشته من هذا الحجاج فيتور إليه يحد من الصعب تفسيره بالتحليل العقلي أو تفسيره بالتحليل الاجتماعي والنفسى، «فكم رأيت من أماس كانوا أدكى منى وأمت حنق وأقوى عريضة، وكانت كل الدلائل تدب على أنهم سيحسون في أعينهم إذا مارسوها، ثم بدوا بالخيبة وهو بالإحراق، ولا تحليل بها إلا أن ذلك فصل الله يؤتبه من يشاء وله ذو الفصل العظيم»

«السر إذن في هذا الحزن الشديد لدى كان يحتم على أبي في سوانه الأخير؟» وكأنه لم يعد هناك شيء قادر على إبهائه، لا الثناء على كتاب حديد له أو مقال نشره. ولا حصوله على أكبر جائزة أدبية من الملك، ولا منحه الدكتوراه الفخرية في حفل مهيب في قاعة الاحتمالات بالجامعة إلخ

أما أمي فربما كانت أكثر ميلا من أبي للشكوى، ولكن معظم من عرفوها يعتبرون حصة أمي ناجحة أيضاً، معديس جلها وعصره، رغم أنها في سنواتها الأخيرة أصبحت قليلة الكلام، وفقدت الرغبة في المشاركة في أي مناسبة للدمج أو المرح، وقد وجدت أبا في هذا ديلا على حزن أقوى مما عهدهت فيها في أي وقت مضى.

لاحظت نفسها تطبق أيضاً على حوتي، وعلى كثير من أبنائهم وبنايتهم، رغم أن معظم هؤلاء الأبناء والبنات لم يلمحوا الخصميين بل لقد لاحظت حتى على بلامدي الذين مرّ على منهم عشرات ورعا عشت في كل عام، لفترة «بريد» على ثلاثين عاماً، أنهم يذأون حياتهم الخاطئة مشربين متعاقدين، ثم أراهم وهم على وشك التخرج فإذ بهم قد حُيّم عليهم شيء كالخوف من المستقبل، ناهيك عما يبدو على معظمهم من حياء أمل إذا حدث وفلتهم بعد بضع سنوات من التخرج.

أما أبا فبني أعز حياتي بدورها ناجحة، ولكن ما أكثر ما شعرت به خلالها من خيبة أمل، ليس فقط فيما يتعلق بي شخصياً، بل وأيضاً بأصدقائي ومعاري ولدي. وكما صادفت من أشخاص كنت شديد الإعجاب بهم فظهرت لي أوجه ضعف كثيرة فهم مع مرور الزمن، وكما علف من آمال على تغير سياسي في مصر ثم ظهر أن الأحوال لم تحسن سبه بل وأصبحت اسوأ مما كانت عليه من قبل. كتب أطل أن عطا من أعماط لحياة نموذجي فوجدت أنه ليس أفضل من غيره، وكنت أص أن تعلم عندما بمعرفة يقينية «عالم ثم طهر بي مدى حصر العناء، خاصة في العلوم والاجتماعية والإستبيات، شأنهم في ذلك شأن غيرهم، لتجذيرت والأهواء» أي أؤمن بصحة المثل الإنجليزي بأن «الفهم معناه الصصح» (To understand is to forgive)، «يكنى أطل الآن أن من الصحيح أيضاً أن المرشد من المعرفة معناه المزيد من حياء الأمل، وأن المثل العربي القديم «أن تسمع عن امعدي خير من أن تراه» صحيح أيضاً.

من الممكن أن تعتبر هذه الطريقة في النظر إلى الأمور معرطة في تشاؤمها، ولكني أظن أن لها بعضاً كبيراً من الحقيقة، إذ ما الذي تنوقعه غير حياء الأمل من توالى أحوال المرض والموت، بصيان أشعاصا عربيين عليا، مستيق أو في زمان

الشباب؟ وكيف لا يتوقع حبة الأمن مادامنا نرغب في أشياء مستحبة التحقيق،
 مهذا أن نعش إلى الأبد، وهي صفحة جلية، وكذلك كل من حبة، ومادامنا نرغب
 في أشياء تعوق قدراتنا؟ بل إننا نطمح إلى تحقيق رغبات متعاضدة لا يمكن أن يتحقق
 بعضها إلا إذا فسلنا في تحقيق رغبات أخرى. نحن نريد كبر قدر من ادن وأكبر قدر
 من راحة البال في نفس الوقت. نريد احترام الناس وحبيبهم ونريد السيطرة عليهم أو
 سيطرتهم في نفس الوقت. نريد صحة الناس ونريد أيضاً الأبرار بأنفس
 وحسب لو لم نطمح إلى شيء مسحوق التحقيق، ولا إلى أشياء يتعارض بعضها مع بعضها مع
 بعض، فإننا لابد أن نرغب في أشياء تتعارض مع رغبات الآخرين. فأننا نرغب في
 وطاعة يريدها أيضاً غيري، ولا يمكن أن نحصل عليها نحن الاثنين معا. وأنا أحب
 امرأة أحبها أنت أيضاً، ولا يمكن أن يحصل كلانا على حبها. فها الذي يمكن أن
 نترفعه عبر حبة الأمن؟

ولكن حبة الأمل لها أيضاً معنى آخر، غير مجرد المثل في تحقيق ما نريد وهو،
 وبالعامة، أن نحقق نصف ما نريد! ما أكثر ما كتبت عن السعي الحثيث في جمع
 المال الذي ينتهي مصاحبه إلى اكتشاف أن كثرة المال لم تجلب له من السرور ما كان
 يظنه ويأمل فيه. ولكن من ملاحظة تطبق على أشياء كثيرة عبر المال لكم عبت
 في مختلف مراحل عمري أن أرى اسمي مشهوراً ومفتوحاً يقرأ أو كتاب من دأبي،
 وقد حققت هذا المرة بعد المرة، حتى أصبحت رؤية اسمي مشهوراً، تكاد تعادل رؤية
 اسم شخص آخر لا أعرفه. وعندما تصدمت في نفس عمدة الثقة في أشياء كثيرة
 كنت أعين عليها الأمل كمصدر من مصادر السرور، ثم تبيّن أنني بدعيت في
 قدرتها على تحقيق ما كنت أتوقعه.

اندهشت جداً عندما أدّى بي استعراضى لكل هذه البدايات والنهايات إلى
 اكتشافى لهذا العدد الكبير من الأمثلة على نوع أو آخر من خيبة الأمل. متراضية
 كنه أبى على ظهور صورة النقط به يوم رواجه، وما عثر فيه من آمال عظيمة لنفسه
 وأمنه، بما رأيته محبب عليه من كتابات في سوانه الأخيرة. حبة أمن هذا الأخ أو
 هذه الأخت من إحتوى السعة، وهذا الأبن أو هذه البنت من أسألهم وينالهم، بل لم

يكن سبب رواج غير موفق، أو صحة تدهورت في من مكررة، حسب وفاة اس في من شباب، أو اضطراب بالهجرة والعد من الوطن ولأهل لصعوبة للحصول على وطقة ماسة إلح وما أشد حبه امالاً جمعاً في الثورة المصرية، إذ يبدو كل م عضاء ههنا من امال مند حبيب عاماً وكأنه قد تحرر، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة من هندا أنظر إلى الدولة الأوروبية التي عرفتها عن قرب أكثر من أي دولة أخرى غير مصر، وتروحت جدى نتائجها، إذ أروى عنما بعد عام، فأحد قد فقدت دورها كثيراً من سمات التقدم، أو ما كما يعتبره كذلك، واقتربت ليها ربة ارف هية المادية، في نظرى على الأقل، سدهور سياسى واحماعى ونقدى ولكن كل هذا يحتاج إلى الكثير من التفصيل، ولأبدأ بأبى وأسى

-٧-

لارلت أتذكر أسى، بوصوح تام، وهو جالس، مد م يقرب من سبن عاماً، في جلده الأبيض في مكانه المعتد على الكسة الكبيرة وسط الصالة، وعلى يمينه مائدة وضع عليها عدد كبير من زجاجات الأدوية لمختلفة الأشكال والأحجام، حيث كان يعبد في تسيير بين دواء وآخر على اختلاف أحجام الزجاجات، بعد أن أصبح من الصعب جداً عليه، من شرط صعب بصره، أن يقرأ اسم الدواء المكتوب على الزجاجه. كان يحاول أن يكتب شيكاً لمساخر، لأد من الزراعته التي يملكها، بيد مرتعشة، فعمد فرع بصعوبة من كتابة الاسم والمبلغ، وجاء وقت التوقيع، وجد صعوبة بالغة في أن يكتب اسمه هو بالطريقة التي تعودت والتي يكن أن يقلبها انبك، مما اضطر إلى قرين الشيك وكتابة غيره، وواجه نفس الصعوبة فوجئنا بمحاربه بالسكاء، إذ وجد أنه لم يعد قادراً على القيام بهذا العمل البسيط جداً، وامهم جداً مع ذلك، والذي طالما قام به دون عناء

كان تدهور صحته ونظره هو بلا شك السبب فيما أصابه من حرب ولاند أن هذا التدهور هو م جعله بمقد اهتمامه بأشياء كثيرة مما نهتم بها سائر الناس، ولم تكن تنهية لهذا الحد في نظره في الماضي كان في سرته الأخيرة يذهب إلى بعض

المجلات المهمة، في مسابقات رسمية، فلا يرى داعياً لرابطة العبق، بل وقد يستمرى عن حلاقة دقه، من فرط لاسلأته بما يمكن أن يكون عليه مظهره، أو ما يمكن أن يكون رأى الناس في ذلك. الأعرب من ذلك لاسلأته برأى ليس في مقالاته إلى درجة قبوله لأمر لارلب حتى الآن أتعجب أشد العجب من قوله به لاند أن هـد كان في أراض الخصمسات، وكانت محلة الثقافة لارابت تصدر ولكها لم تستمر طويلا بعد هـد، إذ واجهها من المصاعب المالية ما اضطرها إلى التوقف. وكان أبى يكتب فيها، في كل أسرع، مقالا قصيراً جداً لا يريد على مائتى كلمة أو ثلاثمائة تحت عنوان «حطرة». وكان يعتر عن صفه أحياناً أنه لا يجد فكرة جديدة يكتب عنها مقالة، وقد حل موعد تسليم المقال. كت وقتها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرى، ومعم ما يكتبها بعض المقالات القصيرة، كت أعتبرها «مقالات فلسفة» دون أن تستحق هذا الوصف على الإطلاق. فعرفت على أبى مرة أن أكتب أنا مقال في ذلك الأسرع بدلاً منه، وهو جئت بقسولة وبأساله مقالاً للطبعة، إذ كان هو رئيس التحرير، ويظهر مقالى حاملاً اسمه هو. كان كل هذا معتر سرور هائق بى، إذ لاند أبى طست وقتها أبى أو شكت أن أسع مكانة أبى كاديب. عذم أقرأ هذا المقال الآن لا أحده مما يسىء شربه كثيراً إلى أبى، ولكنى أجد فيه شيئاً من الصبانية يبق شباب صغير يفتر نفسه بأكبر من قدرها، عقيقى إلى هذا الحد بلغت قوة إكثراث أبى برأى الناس فيما يكتبه، أو لعله وجد فرجى بأن يشرى مقالا على هـد النحو بمحنة الثقافة، أكثر أهميه من أن يقر الناس له مقالا جيداً.

لاربت أشعر ببعض الألم ووحز يصمر حتى الآن، كلما تدكرت مظر أبى وهو وحسب في الصالة وحده ليلاً، في صوء حامت، دون أن يبدو مشغولاً بشيء عنى الإحلاق، لا قامة ولا كنية، ولا الاستماع إلى راديو، وقدر جعت أن لتوى من مشاهدة فيلم سينمائى مع بعض الأصدقاء. أحتى أبى فيرد التحية، وأن متجهه بسرعة إلى باب حجرتى وفى نسى أن أسرع فوراً في النوم، بينما هو يحاول استفتائى بأى عذر هو وبأى حصة، وشوقاً إلى الحديث فى أى موضوع يسألى

أين كنت فأخسبه، وعمن كان معنى فأخبره، وعن اسم المصمم فأذكره، كل هذا باحانات مختصرة أشد الاحتصار وهو يأمل في عكس هذا البصير فإذا طلب مني أن أحكي به موضوع مصمم شعرت بصعق، وكأنه يطلب مني العام بعمل ثمل، أو كان وقتي ثمين جداً لا يسمح بأن أعطي أبى بصع دقائق

لا أستطيع حتى الآن أن أفهم هذا التبرم الذي كثيراً ما يشعر به شاب صغير راء، نيه أو أمه، مهذب بلعب حختها إليه، يما يدي منتهى السماح ورسمه الصنير مع زميل أو صديق له في مثل سنه مهمم كاتب سحافه وقلة شأنه هل هو خوف المستطير من فقدان الحرية والاستقلال، وتصور أى تعليق أو طلب يصدر من أبيه أو أمه وكأنه محاولة للدمج في شتوبه الخاصة أو تقييد حريه؟ فقد لاحظت أحيانا مثل هذا التبرم من أولادى أنا عندما أكون في موقف مثل موقف أبى لدى وصمته حالا، وإن كنت أحاول أن أنجب هذا الموقف بقدر الإمكان لما أتذكره من مشغورى بالتبرم والتأفف من مطالب أبى، ولكنى كنت أقول لنفسى إذا صغرت إلى ذلك أبى لا أرغب في أكثر من الاطمئنان على أبى هذا، أو في أن أصر له عن اهتمامى بأحواله ومشغوره، فلماذا يعتبر هذا السلوك الذى لا باعث له إلا الحب، وكأنه اعتداء على حريته واستقلاله؟



كانت أبى بوجه عدم أكثر استعداداً للفرح وأكثر تعذلاً باخية من أبى، ومع هذا فقد أعصابها أبى أيضاً في سوانها الأحيية مشمأ أصاب أبى من فلة أكثرات ع، يحدث

كانت أبى تقوى إنها قبل رواجها من أبى، عندما كانت تقيم في بيت قريبها الثرى، بعد أن هربت من بيت خالها، لم تكن تكف عن نصيحك والمرح مع بات الأميرة اللاتى يقاربها في السن، ثم كفت عن ذلك فجأة، تنقها إلى بيت الزوجية حيث وجدت ذروح دكتانوراً متسلطاً، قليل الكلام ولا يكاد يعرف المراجع وقد طلت سوات طويلة تحاول أن تحقق لنفسها الاستقلال لمادى عنه، حتى تستطيع أن تواجه أى احتمال لشكره لها أو لهجرها وتروجه بعيرها وقد استطاعت في

الهيئة، مما كَوَّنَتْه من مذخرات، أن تطعم مقدار كبير من الحرمة وكن هذا في السوات الأخيرة من حياة أبي مع تدهور صحت، واضطراره في التزل عن الكثير من سلطاته أذكر أنها، بعد أن تحقق بها هذا التقدر الكبير من المذخرات، وهذه المذخرة من الحرمة في اتحاد الممرات، رأت مرة في أحد المحلات المتحارة لوحة معدنة صغيرة كتبت عليها الآية القرآنية «إن نصركم الله فلا غالب لكم»، فمرحت بها واشترتها وعلقتها فوق سريرها وكنت كثيرًا ما تردد هذه العبارة كلما يحل بها أن تقارن بين حالها في مقلب حياتها مع أبي وحالها بعد أن أصبح لديها ممتلكاتها الخاصة وكتبت حريتها في تصريف أمرها هل تطرد هذا الخادم أم تستقيه؟ هل تؤخر أخذ أدوار بيت الذي ملكه أم لا تؤخره؟ وكان تكرر هذا لهذه العبارة «إن نصركم الله فلا غالب لكم»، يظن د ثم على إشارة ضمنية إلى أبي، فكان لله سم يصورها إلا على أبي، أو كان لعلاقة بينهما كان لابد أن تسهي بعالم ومغلوب، مما يمكن أن ينير المساواة عما إذا كانت العلاقة الروحية هي دائما علاقة بين شخصين متحابين، أم كثيرا ما تكون أشبه بالعلاقة بين متصارعين؟

ولكن أسي مدب عيها هي أيضاً بؤادر اخرون وبعض الاكتشافات في سنواتها الأخيرة لم أكن بجوارها خلال مسها الأخيرة، ولكني أذكر جيد كيف أصبحت أقن مرحا بكثير في السنين السالفة على سمرى في اسعة إلى بحسرا، وأثن ميلا لتبادل الحديث كان وراء ذلك بلا شك، كما كن الأمر مع أبي، تدهور الصحة مع معاقم مضاعفت مرض السكر في حالتها، وإهمالها الشديد في مرادها ما يجب أن تتدوره أو التناوله من طعام ولكن ربما كان وراء هذا الإهمال الو صبح لصحتها شعورها بأنها لم بعد لها مهمة واضحة في الحياة كان أبي قد مات قبل بضع سنوات، فلم يعد هناك من يسهر على العناية به وخدمته وكان الأولاد والبنات قد تزوج معظمهم أو سافروا للدراسة أو العمل خارج مصر فف هي بالوسط الوظيفية الضرورية التي يؤديها؟ وإذا لم يوجد هذه الوظيفة الضرورية فما هو بالوسط الداعي للتصاع لأوامر بطب وما يتعلق بحب تناوله أو عدم تناوله من طعام؟

لم يكن أسره روحنى الإعلانية أسره متدنية بأى شكل من الأشكال، ولم يكن للدس رقومته أثر على حياه الأسره سومة ردى استثناء بعود والده و حتى الذهاب مرة واحدة في لعام إلى كنيسة للانشراك في عاء بعض الأنشيد الدينية بمناسبة بدء عام حديد، بالإضافة إلى الاحتفال كل عام بعيد الميلاد، أى الكريسماس، شراء شجرة وتزيينها، وتبادل الهدايا وقائمة عداء وعشاء أفر من المعتاد. وقد برزت روحنى وبر عرت على فكره أن تزيين شجرة الكريسماس، كبيرة أو صغيرة، طوعية أو صاعية، من الطغوس التى لا يجوز إهمالها، على أن يحتفظ بهذه الزينات من كور ملونة إلى تماثيل رخاخية، إى شرائط مذهبة أو معصقة، من عدم الآخر، ويضاف إليها الحديد في كل عام. وكذب حوارب لأطفال ثملأف من يومهم فى الليلة السابقة على الكريسماس، وهى ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر، مختلف أنواع الخلوى ولهدايا، ثم تدس الخوارب تحت الأعطة بعد أن يدم الأطفال، حتى يحسوها بأقدامهم عند استيقظهم هذاون يومهم سرور عامر وهم يحضون ما جاءهم به «لأب كريسماس» أثناء يومهم، ليتحققوا أى ذا كن هذا الأب لعطوف قد تذكر تمصيلهم لنوع معين من الخلوى على غيره، ردت قبل أن يجتمعوا حول الشجرة مع بقية العائلة، بعد أو قل وليمة فاحرة، بفتح الهدايا الأمسية، وقد وضعت كلها حول الشجرة الحسلة وغلفت كلها بأوراق مشرقة بألوانها ورسومها، وقد وضعت على كل هذه بطاقة صغيرة، حميلة دورها، تحمل اسم المهدي والمهدي إليه، مع عبارة قصيرة تشوق المهدي إليها إلى معرفه ما لدى تمنويه هذه اللقاة الثمينة وأحياناً تُعَلَف الهدية بمذقة قوى أخرى حتى يستغرق استمراح المهدي أطول وقت ممكن، فإذا حملية فتح الهدايا تستغرق عدة ساعات تحتفلها صيحت العرح وتقبس الأطفال لدوهم، اعترف منهم بكرمهم وذكائهم في اختيار الهدايا المزعونة

لم يكن من الممكن لى أن أرفض استمرار هذا السليد الحصيل بعد الزواج، ولم

مد لى أى سب مقبول لحرمان روجتى من استمرار هذه البعادة ،لهيجهه فلما جاءها أطفال، وعرف أطفالنا ما الذى يجرى فى الكريسماس، لم يكن هناك أى احتمال للكوص عن هذا لا احتمال، من اقتناء الشجرة وتزيينها، لى تبادل الهدايا وملء الحواري، وإقامة عشاء أو عشاء شهي، إلى ادعاء وجود شخصية حقيقية فى «الأب كريسماس»، الذى سول إلى الت من المدحة متصلة بالمدحة، إذ كانت هاك مدحة ومدحة، أو من اساب أو نافذة مهم كان إعلاقهما محكما، بعد أن يستمرق الأطفال فى نوم فلا يحسرون مجيئه.

بدأنا هنا بتقليد بدعوه أشقائى جميعا وأرواحهم إلى العشاء فى بيتنا بالمعدى مد أكثر من أربعين عاماً، وطوال هذه العترة لم ترقب عن إقامة هذا الاحتفال بالكريسماس فى نفس بيت، وعن دعوة نفس الأشخاص، باستثناء السنوات الأربع التى قضيناها فى الكويت والسنتين اللتين قضياهما فى أمريكا، ومنه العيا فيها الحفلة بسب وفاة أحي حافظ، وأجرى سب مر من شديد أصاب طارق من أختى عبد الحميد نعم طلت الحفلة هى الحفلة، تتكرر لمدة أربعين عاماً، وتقام فى نفس البيت، ويدعى به نفس المدعوين، وأصاف الطعام المقدمة لا تعبر كثيراً، فمعظمها هى لأطباق التى كانت تقدم فى حفلة لكريسماس فى بيت والدى روجتى فى إنجلترا، ويعبر المدعوون عند انصرافهم، فى كل مرة، عن شكرهم العميق لروجتى لما تعشخته من معب، وللى لأبى الوحيد من بن الإخوة العشانة، رغم أنى أصبحهم جميعا، الذى يواصل هذا الجهد لجمع شمل عائلته كلها، عام بعد عام.

مع كل ذلك، لم يكن من الصعب على أحدهما أن يدرك أن هذا الاستمرار فى إقامة حفلة لكريسماس على هذا النحو، كل هذه المدة الطويلة، لم يكن إلا ف مد على السطح، وأن ما يجرى تحب السطح أصابه تعبرات كبيرة وعميقة بل حتى ما بدا على السطح أصابه بدوره تعبرات كبيرة فقد اختفى البعض احتفاء تاماً، إما بالموت أو الطلاق، وهاجر البعض إلى بلاد بعيدة، وشاح آخرون فأصبح الحديث معهم مستحيلاً أو غير مجد، إذ لصعب الاستحاة للحدث أو عهد بعيدة على

سبعة أصلاً وكثر الأولاد والبنات وتزوجوا ، وسرعان ما حلّ بكثير منهم
الحرمان ، إما بسبب روح غير سعيد أو بسبب طلاق غير سعيد أيضاً ، وراثة الأبناء
على الجميع ، إن لم تكن أعيان مالية فهي أعيان مجردة لتقدم هي لس ، وتسمع
الأحداث للحياة للأمان ، سواء كانت آمال الشخص نفسه أو لأولاده أو لبلده

عندما لاحظت أنا وروحتى أن المرح الذي كان يسود الاحتفال في السنوات
لأزلي ضعف بشدة في السنوات الأخيرة ، فكّرنا في أن ندعو ، إلى جانب الأصدقاء
وأولادهم ، أولاد الأولاد أيضاً ، ومن ثم ظهر في الحفلة أولاد وبنات لم يلدوا
العشرين وبعضهم لم يبلغ العاشرة ، ولكننا لاحظنا أن الأمر لم نحسن كثيراً ، لقد
بددنا هؤلاء لصيحه فدأبهم هم أيضاً شيء ، بل ذلك الشعور بحسرة الأمل
الذي أصاب آباءهم وأمهاتهم ، وإن احلف الآباء

- ٤ -

كان أكبر إخواني (محمد) عندما بدأ دعوة العائلة لحفلة التكريس ما من في سنة
١٩٦٥ قد تزوج للمرة الثانية بعد أن طلق زوجته الأولى التي أنجب منها اثنين
كاتب بهال اصغر اثنين ، وقد بد لي عندما رأيتهما آخر مرة ، وكنت في نحو
الخامسة والعشرين ، فساءر رنة الحما ، وكانت قد أنجب بدورها بين جيمس
لم أكس أرى بهال كثيراً ، بل رأى كان كل عدد مرات معانتي لها في حياتي كلها لا
يريد عني أربع أو خمس مرات ، كان أخي محمد ، أثناء رواجه الأول يعيش في
الإسكندرية ، إذ كان مبرسا بحامستها ، وبعد طلاقه ورواحه الثاني ظلت أنتدن
تعيش مع أمهمها ولا تزور أناهما إلا عبر مرسات طويلة ، كما يحدث كثيراً بعد
الطلاق ورواح الأب من جسده

كانت البنات من الزواج الأول تشهدنا ما يعيش فيه أبوهما وزوجته ، الحديدة من
نحوحة ، وما يحيط به الأب اثنين الآخرين من تدليل واهتمام رائد عن اخذ ،
وبريد لا شك عما تحيطان هما به من اهتمام الأب وتديله ، خاصة وقد اعتلى

الأب أعلى المناصب بعد طلاقه ، ويدفع من يديه المال الذي أعتق أكثره بالطبع على روجته لخدمته ونسبها

ثم يبدل الأب جهداً في ترويض البنتين الأوليين كالذي يفعله مع الآخرين ، ولكنه قام ببعض الواجب عليه إزاء النسيب ، فعثر لكل منهما على شقة متواضعة وساعدهما في دفع قيمة الخبز المطلوب ، وكان من نصيب « بها » شقة لا بأس بها في عمارة حديثة تأسس في شارع الهرم

كان هذا في أواخر السبعينات ، عندما كثرت أحداث سقوط العمارات ، بسبب ميل بعض المقاولين إلى استخدام أسمنت معشوش ، أو الوفي في أسبغ الحديد المستخدم في البناء . فسمعا عن عمال محارة يسطوا تحولوا إلى مليونيرات خلال سنوات قليلة عن طريق بناء مثل هذه العمارات ، مع إهمال شجع من جانب السلطات المدنية لتراخيص بناء ، وشيخ تقديم الرشاوى للحصول على هذه التراخيص لسبب من اتباع القواعد التي يفرضها القانون . هكذا فوجئنا في ظهر أحد أيام الجمعة بسماع خبر سقوط العمارة التي تسكنها نهال في شارع الهرم وهرع أخي ومطلقة إلى مكان العمارة ، وهرعت أما بدوري لأكون بجانبه خلال هذه الساعات المظلمة . وجده حالما في مدخل فندق صغير قائم أمام مكان العمارة ، وعلى بعد خطوات قليلة حلت مطلقة التي لم أكن قد رأيتها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً . كانت مثل أخي ، قد تجاوزت الستين ، وبدت سيئة محطمة تماماً وقد وصحت رأسها بين كفيها دون أن تبدل أحداً الحديث . كانت العمارة داب الأطلاق بعشره قد تحولت إلى أنقاض لا يريد ارباعها على ارباع طابق واحد أو أكثر قدلاً ، ومن ثم كان الأمر في عثر المقيمين الأنداس على أي شخص حتى ، صعب بل في حكم المستحيل . وسمعا بعض التفاصيل عما حدث . كانت بهال وروجها وطفلهما الصغير نادى ابان كانت أكبرهما في خمسة والأخرى في النصف من عمرهما ، إحدى أسرتي اثنتين سكنت هذه العمارة الحديثة ولما متفقوا في الصباح لاحظ الزوج شروحا في عمارة مع سقوط بعض اشراب من السقف ، فاستدعى السواب بدى اتصل بصاحب عمارة فطمأنه على أن كل شيء على ما

يوام وذهب بروح لأداء صلاه الجمعة في مسجد قريب وبرك في الست ورحته
 بهن وضعتهم ثم حدث ما حدث، وطلبا يراقب أعمال الثقب حتى امساء دون
 أن يعثر على شيء وأحدث تصور م لا بد أن يكون قد مرت به بهل و بطلان من
 دعر وجوف متبطن لتطير، هذا اللحظة التي سقطت فيها بعض قطع السمب أو
 أحد الحواظ إلى أن صار من الحيلة لم يكن هناك شيء يمكن أن أمرله لأخى أو
 لمظنته لتخفيف من وقع الحادث ولكن ذهنتي بصعة أمور

هائدا واقف أشهد من أكثر المناظر مأساوية عمان يقلبون الأناقص أملا
 في أن يعثر على جسم امرأة أو طفلة على قيد الحياة، مع أن كمية الأناقص امهيرة
 تكفى ثقبها وحده أن يقص على أي شيء حتى ولكن وجوه العمال وروع الكلام
 الذي يتدلوله أنه عملهم لا يختلف عما يمكن أن تكون أو ن يتفوه به لو كانت
 المهمة امركولة إليهم عديدة تماما ولا تطوى على أي مأساة، كساء عمارة حديثة
 فعلا والأب حارس أو ولف هي ردهه القدر ولكنه مأساة لا يمكن أن يحسن
 أحد، إدراكه سبب محيته إلى هذا المكان، وهو قادر على تبادل الحديث معي أو مع
 غيري، أي أن يصرف بذهنه عن التفكير فيب يجرى ادم عيبه وما يتوقع أن يسفر
 عنه البحث وسط الأناقص

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها شيئا كهذا، ولكن المفارقة هنا بدت
 لي أكبر منها هي أي مره سابقة المفارقة بين حادث الموت وطريقة تلغى الناصر له،
 حتى، بواكرا من أقرب لمقربين إلى شخص المفقود للحبر وقع شديد في بداية
 ولكن ما أسرع ما يأتى لذهن الخبر وبمايش معه لتند طلبت مسرة طويلا لا
 أستطيع حلالها أن انصور كيف يمكن أن تعيش أي أم أو أب بعد فقد الابن أو
 الب، أو كيف يسمر العاشق بولها في الحياة بعد فقد حبسه ليع ولكني
 صادقت بعد ذلك، المرأة ثلث المرة، ما يميز بي عطئي، إدراك قدره الإنسان على
 التأقلم مع أشد الأحداث يلاما، أكثر كثيرا عما كنت أنصور

ومع مرور بضعة أيام على هذا الحادث، تأكد لي هذا أكثر فأكثر، وكنت النتيجة
 مرسجا من الاذتياع والمرض هي نفس ابوقت الاوتياح لأن لآلم أقل بكثير مما كنت

توقع، والفرع من حجم الفسوة التي نزلت لي أنها كاملة في الجميع، بدرجة أكثر بكثير أصلاً من كنت أظن

- ٥ -

عند كنت أنا وروحتى على الناحية التي اقلنا من أوروبا إلى مصر، لأول مرة بعد زواجنا، وأحدث أصعب لها أشتاتاً وغلط حياتهم، واحد بعد الآخر، فبعداً لبقائها الأول بهم، حدثتها من أنها قد لا تستطيع معانة أحى عند الحميد إلا بصعوبة، بسبب اشتغاله المستمر بحوثه العلمية وتجاربها في مركز البحوث بالديهي، بالإضافة إلى وظيفته كأستاذ في كلية الهندسة. وقد ضلت روحتي تذكروني بما قبلتها عن عند الحميد، مرة تلو الأخرى، بعدة سنوات بعد ذلك، إذ أن اندى حدث كان العكس بالضبط. فمن بين الإخوة جميعاً لم يكن يفتق بأحد أكثر من لعائد عند الحميد، وكان يبدو وكأنه لا يعمل له ولا رطيمه. ثم هو جالساً بسطاه التام عن أى عمل، سواء في الجامعة أو مركز البحوث، بل وعن أى قراءة أو كتابة، هذا كثافة بعض الخطابات لتقصيره لأنه المقيم بالدمسا، و توقع على نطاقات النهضة بالكرسي عامس لأقارب زوجته المملوية. كان سبب هذا التعبر الذي طرأ عليه مذهلاً وغير متوقع بآخرة

بعد عودتي وروحتى إلى مصر في ١٩٦٤ أسابيع قليلة بدأت تظهر على عند الحميد أعراض مرض بعض عضال لم استطع تفسيره. بدأ يكلم عن أشخاص يريدون إيداءه ولا يكشفون عن مصابفته بكمالات تعسفية غير مفهومة، دون أن يعصم عن يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص أو عن السبب الذي يمكن أن يدفعهم إلى مصابفته. ثم بدأ يعمل بعض لباس البسطاء، كجوانب عمارته مثلاً، أو المشرف على حمام السباحة بالمادى الذي يذهب إليه، بمنطة شديدة ويهيجهم دون مرورهم إيمانهم منتهى الصبر معه. كان حديثه شخصيات مثيرة، إلى جوار التحارث أو المباحث العامة، أو إلى الأستاذ البرمى الذي كان يتعاون معه في تأليف كتاب يتعلق بتجربته في مركز البحوث قبل صاغت بهذا المرض مباشرة، وكان موضوع

الكتاب ذات صلة باستحداثات الطاقة النووية. كما كان كثيراً ما يربط، على نحو غير واضح بالمرء، بين ما يحدث له وما يحدث لمصر والعالم، ويستخدم أثناء ذلك كلمة إيجيبتية كاسية تردد كثيراً على لسانه وهي كلمة الـ (system) وكان هناك قوة وحدة تحكم العالم، احتكر هذه الكلمة اسماً لها، وترسم مجرى الأحداث هنا وهناك، حتى ما بدا لها أنها -إذ طبعاً- هي الاستمارة هي شرح كل هذا الـ (system) وأهدها، صحت ما وسم بترسل في الكلام. هذا تطويع نحن تفسر بعض الأحداث على نحو بطل أنه يسلق مع نظريته صحت أيضاً وقال إن هذا هو المستوى لأور أو التي من مستويات الفهم ولكننا لا نلنا أهد ما يكون عن فهم حقيقة هذا الـ (system)

كنت أهد في كلامه وهو يحاول شرح ما يحدث في العالم حديثه شديدة وإن لم يكن متسقاً ثم ولا واضحاً، كما وجدت جاذبية أشد في كثير من القرارات التي اتخذها وتعمق بسط حياته والتي نفذها بصورة متقطعة، الطير كان انقطاعه انعام عن التدريس، مع استمرار حصوله على المرتب، بل وعلى كل العلاقات التي يحصل عليها وملاؤه في الخدمة، يطوى على ثمرة بالغ وحرارة زائدة عن الحد، ولكني كنت أعجب بكل ما أهد من ثمرة على خط حياته المعسر في سهم الاستهلاك دون أن أستطيع أن أجاريه في هذا التمرّد

استعني عن السيارة، وصدر يذهب حيث يشاء مشياً على قدميه، بما في ذلك دهانه لشراء حاجيات المنزل من مأكولات، إذ اسمع أيضاً عن الخدم وقدم زوجته بكل الأعمال اللازمة للنظف والتنظيف. ثم يكف أو يشعر بى علة في أى من ذلك، ولا في استخدام اتصالات العمة التي لم يستعملها بعض إخواني منذ عشرات السنين، وبذلك كل ذلك وكأنه اسبوك طبيعي، بل ولم نلاحظ أنه يقوم بأعمال غير مأثورة. امتنع أيضاً عن قراءة الصحف انقطاعاً تاماً، ومن ثم لم يعد يفهم ما الذي يفصله بحروح هذا الوزير من لورة أو تألف ذلك الحكومة الجديدة وقد قل لي مرة، تعلّف على شكواي من حالة التي وصلت إليها الخرافة المصرية. فبدأ حلال هذه الخرافة لا تصدر لأمثالك، بل لوع محتف حد من الناس. وكنت

أشعر بأن كلامه فيه شيء مهم صائب، ولكنه لم يكن قادر على الاسترسال في توضيح ما يقصد، ولم أكن أن أقدرُ على الاقتداء به

بعد أن مقطّع مطاعاً تاماً عن أى عمل خارج المنزل، وتوقف تماماً عن التدريس وعن القراءة في مجال تخصصه، وهو فرع من فروع الهندسة الكهربائية، أصبحت تسيطر عليه لا تستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية من محطة الإذاعة المصرية، وفي رسم بعض الصور البسيطة غير الملونة. والخروج لشراء الأشياء الضرورية التي تحتاجها روحه. ولكن كاتب أكرر متعه يحصل عليها هي في لدهاب ثلاث مرات كل أسبوع، هي أوقات محددة لا تتغير، إلى البادى القريب من بيته، فيجرب حول الملعب عدة مرات، ثم يسبح في حمام مساحه عدد ثمانين المرات دهبا وإيدان، ثم يتلقى دشا ساخنا ثم ياردا، ويعود إلى منزله ليتناول عشاءه حقيما في الثانية عشرة ظهرا ثم ينام بوماهنا

كان يقول لي، عندما أمد به عما إذا كان لأزال مواظبا على أخرى والساحة، إن هذا هو السبب الوحيد لديه للاستمرار في الحياة، إذ من جذوى الحياة إذ يوقف عن السباحة والخرى؟ وعندما أصيب مرة بأزمة قلبية رخصه الطبيب وشدد عليه بأن يتبع عن الخرى والسباحة، استمعف الطبيب مستحافا تاماً، وعاد بعد شفائه مباشرة إلى ما كان يفعله، واستمر على هذا مسوات كثيرة، يجرب ويسبح، حتى قارب الشد ي دون أن يلحقه من ذلك أى ضرر

كنا أنا وأخي أحمد، قد اضطررنا هي بدة هذا التغير الذي طرأ على عبد الحميد، لاتخاذ بعض الخطوات الخاصة لمنع مراد من لتدهور في حالته النفسية، خاصة وأن روحته حاءتا يوما وهي تكنى وهي حالة فرع شدة، لتجرب باعته بالصرير دون سرر على بواب العمارة اقتنعنا بضرورة اللجوء إلى طبيب نفسى الذى رأى ضرورة دخوله المستشفى وتلقيه بعض الصدمات الكهربائية. حدث هذا مرتين ثم استقرت حالته وعمط معيشته على ما وصفت، وظل على هذه الحال نحو أربع سنه، حتى بلغ التاسعه والسبعين



لأنه أن عبد الحميد قد شعر بما أكتفه في مصفى من حب له، ومن عجبت شخصي
بمط حياته، ويكثر من راته وموقعه، هو تنسى واسترح إلى وأندى من المودة
أكثر مما كان يبدى لبقية إخواني لم يكن يستطيع مجازتي في الإنفاق، إذ لم يكن له
دخل غير منته، وما يحصل عليه روجه مقابل بعض الدروس الخصوصية، فكان
يستحيل عليه الذهاب إلى بعض المطاعم التي أذهب إليها أو مجازتي في الذهاب
إلى حفلات الموسيقى العربية التي تقام في الأبرار، أو حتى في زيارة بعض الأتارب
الذين يسكنون بعدا عن منزله، ما لم اصحبه هو ووجهه في مساوئي، أو أذهب
لعداء أو عشاء في مطعم أو لخمعة موسيقية في مساهمة نرد أن أدفع أن تكاليفها
ولكن الشيء الذي أبدو سعادة عمرة به هو الذهاب بقضاء يومين أو ثلاثة على
ساحل لبحر الأحمر في فندق صغير بديع بالقرب من مدينة رأس مندر، ما أكثر ما
ذهب إليه نحن الأربعة، فإذا بعد الحميد، حتى وهو في التاسعة والسبعين، يقصر
إلى الماء محمرد ووجهه وسبح في الماء الشديد البرودة، وكأنه سمكة أعادها صاندها
إلى البحر بعد أن رأى عذبتها على الر

كتب أحمد عبد الحميد، وعم كل ما مره من معانيه، ورغم قلة دخله
بالمقدرة بقية الإخوة، أهدا نالا وأكثر رفعا بحياته ما جميعا صحيح أنه بعد أصابه
ذلك المرض نفسه فقد مر به اشدهم وقدرته على الاسترسال في الصحت، نضلا
مالمط عن توقعه عن القيام بأي عمل للمح، ولكني نادرا ما رأيت منه أي دليل
على شعوره بالقلق، أو سمعت منه تعبيراً عن سخط أو نلهم على أمل صعب
الحقيق كان ولده الأكبر نعم بالمسا فكان عبد الحميد به هب كل مصنع سوت
لزيارته ويسمع ثناءها بالسيرة في حماه رضى انه الأصغر سوان كثيرة في
ماليزيا في مركز لتعليم العوص، فكان عبد الحميد يذهب إليه لمرّة تلو الأخرى
نقص شهر أو أكثر، فستمع تتحرر مناح جديد ونمط مختلف من الحدة، في ظل
كرم ودفء وحب حقيقي من انه وروحه انشويدي كان النمط الطبيعي الذي اختاره
لحياته، وبسولة لتمام بسيط دائما وفي مواعيد ثابته، ومواطنته على أخرى
والساحة في أي طرف من لطروف وبهما كان لحو، مصادر كافية للرضا بالحياة

وهذه أسرار، بل لعل هذا النمط من الحياة هو الذي حلّصه تمامًا من مرض السكر
ندى أصيب به قبل أن يبيع الخمسين، وحافظ له على بشاعه وعدواته النديه حتى
بلغ التاسعة و لسمعين، عندما حدث لايته لأصغر ذلك الحدث لعظيم.

كان طارق، به الأصغر، شادا رائف من أكثر من ناحية كد طويلًا عريض
وسيمًا، شيط العقل والحسم، ولكن كان أكثر من يبره عشقه للطسعة، وهى صفة
بذرة فى المصريين ولكنها كانت موجودة فى أبيه وقوية جداً عند أمه علمه أبوه
الملاحه فى البحر وهو صغير، فأصغر عندما كبر عني أن يتعلم أبى واستى الملاحة
بدورهم، وأن يكون هو معنهم. وحرب مرة العطس فى أحد مراكز العطس فى
شرم الشيخ مهم حياً عماره تحت ماء من أسماك رثعة الألو وشعب مرجحية
ثم أراه بعض الغربان فى سماء جمال الصحراء فعشقها أبداً. أصبحت شرم
الشيخ أحب مكان إلى قلبه، يقص فيه شهورا متتالية، حتى وهو لا يزال طالبا فى
كلية التجارة، وببيت عدة ياب فى الصحراء القريبة منها، فإذا جاء إلى القاهرة
مضطراً لأداء امتحان أو تجديد بطاقة، أنهى مامورياته فى أقصر مدة ممكنة إذ لم
يكن يرى فى القاهرة، عني حد فوه إلا فصلها كبيراً للقمصه، وعاد بسرعة
إلى شرم الشيخ

عندما اصطر طارق إلى القيام بعمل دائم لكسب قوته، اشتغل مرشداً للسائحين
فى العطس فى شرم الشيخ، وأخبر من المال ما يمكنه من الإقامة بنصح سواك فى
المب حصل لخلاله على لماحسير فى العلوم السياسية، ثم سمع أن من الممكن أن
يحصل على الدكتوراه من إحدى جامعات ماليزيا بمئة أهل بما تتطلبه دراسه فى
أوروبا، فصلا عن توفير مراكز العطس فى ماليزيا أيضاً، فذهب إلى كوالا لامر
وحصل منها على الدكتوراه، ولكنه فصل بعد ذلك أن يكسب ورقة من عمل إلى
جوار لبحر

بعد أن حلت الأزمة الاقتصادية بماليزيا فى ١٩٩٧ التى أودت بحره كبير من
مدحراته، عاد إلى شرم الشيخ، وبدأ سعادته وزوجته السوديه التى تعرف بها
فى ماليزيا، ووجد هو وزوجته عملاً فى أحد المراكز البحثية وسط محصره من
الأصدقاء الذين يشاركونهم عشق الطبيعة وكراميه حياة المدن الكبيرة. ولم تكن

ورجته السويديّة أنس حماماً منه نقصاء الهزار في العطس و الليل في الصحراء ثم سمعنا فحاة بساتنه صداع شديد طنه في الداه أفرأ تعبه لم تبين، عندما جاء لتكشف في القاهرة، أنه مانع عن روم في الملح، لم يستطع أمهر أطباء فيسا علاجه، فمات في بيت أبيه وأمه في القاهرة بعد عام ونصف من بداية شعوره بالمرض، وهو في السادسة والأربعين من عمره.

لم يثر أي شك حول مكان الذي سيمد من طاروق، فقد كما يعرف أنه احتار مكاناً حميلاً على ربوة عالية في الصحراء، على بعد خمسة كيلو مترات من شاطئ البحر في شرم الشيخ، وأحضر زوجته وأصدقاءه بأنه لا يريد أن يذهب في أي مكان غيره. وقد رتب أصدقاءه لقيمته في شرم الشيخ كل شيء، بل وحضروا ماسارات من شرم الشيخ إلى القاهرة لنقل حثامه، وامتدحوا كل تصرعات المطلوبة لمرور السيارات حتى مكان الدفن. سافرت روحتى مع الموكب لتكون سنداً لأمه في الطريق وأثناء مراسم الدفن، وحكت لي روحتى بعد عودتها أن أحي عبد الحميد بدا طبعاً تماماً وشماسك، وأنه لم ينقطع عن الحديث طوال مسره إلى أعلى الربوة حتى تم فيها الدفن.

كان عبد الحميد طوال شهر المرض واقفاً تماماً الثقة بأن الله سيتم شدة، وعم فقلب من لآي أمل بعد فراء لتقرير الطيب المصري وعدم اختيار الطيب المصري، بعد أن اشتد المرض، بين تركه يموت بالتدريج وبين إجراء عملية أخرى الأمل في الشفاء بعد ما صعب جداً، مع احتمال قوى لبقاء صبع سرت أخرى في حالة أمرب إلى الموت منها إلى الحياة، انضم إليها عبد الحميد في اختيار الحل الأول، إذ أكدت لما روجة الابن أن هذه كانت رغبة هاروق التي لاشك فيها وكنى عثر عليها قبل أن يفقد وعيه. فمات انقطع عبد الحميد عن اتع نظامه اليومي، من السير إلى البادي ثم أخرى وراحة ثم شراء حاجيات المنزل. نج ولكن هذا الانقطاع لم يسمر أكثر من شهر عاد بعمه إلى مصر نظامه القديم، وتساءلنا، فيسا رين أنصب، عما إذا كان قد استطاع حقاً أن يتغلب على أحرانه كان كثير أنصمت قس وفاة أمه، وظل كثير أنصمت بعدها، فلم يكن يعرف بالضبط نوع

الأفكار التي تدور بذهنه. ولكن الأمر انصح له، عندما تدهورت صحة عبد الحميد
 فحالة تدهورا ملحوظة، وبعد المدة على المشي أكثر من يصعب خطوات، وتذكرت
 قوله المسم عن معدان الحياة أى معنى، في نظره، إذا بعد مدة على الحرى
 والسبحه



عمور سنة بعد أخرى، وفقدت وحقاً بعد آخر من إخواني، وهو ما كان لابد أن
 يتوجهه أحر العقود الواقف في حر الصيف، بشرط ألا يصح أن الترتيب مسيرى
 بدقة كاملة. فقدت أولاً أختي بعيمه في ١٩٨٣، وهي لم تحاور الثانية وسين،
 وكانت حريه في سنواتها الأخيرة بسب تدهور صحتها وبسب حبة إيمانها في
 رواج كبرى باتها، وهدرة ست أخرى مع روحها إلى أمريكا، وشملها في العنور
 على روج لأصغر سنها وأقربهن إلى قلبها. وعثرت أكثر من مرة عن فرعها من فكرة
 أن تدب ثمرة تمها في جمع ما جمعت من مال إلى روح هذه الت أو تلك.

ثم بعدت أختي محمد بعد ذلك بثلاث سنوات جاءني خبر وماتت وأنا في
 كليثوريا في خطب من أختي أحمد بعيمه في وبعد شهر قليل من وفاته جاءني
 بيا رواج أرملة من من عمها الذي قيل إنها كانت تحبه وهي عملة ثم مات أختي
 حبيب في ١٩٩٠ وهو في ثلثة وستين دون أن يحقق الشهرة التي كان يتمناها
 كمؤلف مسرحي. وعشت أختي عطمة بعدة خمسة عشر عاماً حتى توفيت في
 الخامسة والثلاثين دون أن تعد أي ملكة من ملكاتها الدنية أو لعللة إلا في الشهور
 الستة الأخيرة، حيث أصبحت عاجزة عن السير من حجرة إلى أخرى، ولكنها
 استعظت حتى النهاية بشهيقها لماتقة للطعام وخبة، وكان يسمرني أن أراها تسم
 اسمها واسعة، قبل أن تغوب بأسابيع قليلة، عندما ترى علة الحبوب الشامية إلى
 أحصرت لها، ثم وهي تلثمها كلها تنهاها في لحظات دون أن تعاً بما يصعب بها

كان لابد أيضاً من علي قد الحبة أن نذكر صغر حبه المرمض وبصع
 عثرت صفو أختي عبد الحميد حتى ثل وعة إليه، ما أصابه من ضعف شديد في
 السمع، حتى أصبح توحيه الكلام إليه مهمة في عبة للصعوبة وقليلة الحدوى، لا

مستطعم أحد أن يمارسها بفترة طويلة مهما حسنت بيته وصدق عزمه . وقد أدرك هو
هذا صبح هو نفسه قبل الكلام مطلوب على نفسه ، وكما كنت أشعر بالذهشة
واخرج من إذ اكتشف أن لـب الواحد لعدم دعوت له لكي يصم إلي أهى عشاء أو
برهة هو صعب قدرته على السمع ، مما قصى على أى احتمال ساهمه من حاشه من
الحدث أو الصحت

إن أحي أحمد فقد أصابته مجموعة من بعلل التي لم تعقده شطه ، وإن كان قد
حتم عليه الحرب بعد فقدان المكنز لروحه ، فعلى يقتضى معظم أيامه فى سب ويقى
فى قرية كمشوش بالمروحية ، كان أبى قد ترك لنا فيها خمسين فدانا لم يحتفظ بها
بصبيه فيها إلا أحمد . فنكح أحمد من ربيعة بصبيه من الأرض بنجاح وأصاف
إليه ، ووجد من العلاجين من يخدمه ويعجب له اللبن ويظفوه طعامه ويظف بيته ،
فأصبح التقاؤه فى القاهرة نادراً ، وإن ظل يحضر على حضور حفلات أسي
بقيمته للكريمات كل عام . ومع هذا كنت أراه فى أسواق الأخيرة ، خلال
الخمسة ، مجلس وحيد لا يكاد يحط أحداً ، ثم يكون أول من يستأذن فى
الانصراف

ثم بعد أحي حبيب حماسه وشهوة الحياة مع تعذبه فى السن ، وأطى أن الذى
احتفظ له بهذا الجمان هو حبه للمفردة والكثافة ، وشعوره العامر بسعادة يد رأى
ثبات مؤثراته ، كتاباً أو مقالاً ، ولكن صعبت حركته كثيراً بسبب خلطه فى سافه
جعبته لا يدرب بيته إلا لناما ، وأصبح هو أيضاً من الصعب لتقاؤه دون الذهاب إليه
فى منزله ، وهى مهمة أحدثت ترداد صعوبة ، فى نظرى على الأقل ، سنة بعد
أخرى

-٦-

كانت نظرة أبى وأمى ، وجلههما كله ، إلى إطلاق ، نظرة سفسية قداماً كبوا
بالفعل بطرون إسه على أنه « أبعص الخلال » ، وكانت كل الظروف الاجتماعية
السائدة أمام أبى وأمى تمرى هذه النظرة وتدعمها ، ومن ثم كان لخبر إطلاق على

سمع وبصر أطفال صغار ، ومع سبي حداثته وكأته كانه كان لأمره تدبير
 قليلا عندما بلغ سن الشباب ، فكان حرم طلاق أختي محمد ثم حافظه أحب ومع
 وإن آثاره مشتتة وامتصاصا حول أبي قدر استطاعته أن يشي أختي محمد عن فكره
 الطلاق إلى حد أن هدده بأنه إذا طلق زوجته سيطلق هو أمه ! قال أختي ذلك بهجة
 تتراوح بين لحد وادرج ولكنه أراد أن يبين لمحمد خطورة ما يفعله ، فردت أمي ،
 وكانت حاضرة ، برد يراوح بدوره بين الفرع الخيموي والمصطفي ، تمنح على طلاقها
 هي بلا دس . لم يستجب محمد لوجاء أبي وطلق زوجته ، كما لم يستجب حافظ
 للمحذورات المستميتة لإبعاد زوجته ، سواء من جسدنا نحن ، أو من جانب أهل
 زوجته . كانت النتيجة أني لم أكن أختي محمد طوال الخمسين عاما التي انقضت
 على طلاق أكثر من أربع أو خمس مرات ، ولم أكن أختي حافظ قط منذ كان
 عمرها تسوعا أو تسعين ، وحتى الآن ، وهي لاندأن تكون قد نعت اخمسين
 من عمرها ، وبكى لأعرف في أي بلد تعيش

رأيت حالات الطلاق ريدة كثيرة هي الجيل الثاني سيما انتهت ريجتهان
 بالطلاق من حالت بحر الإحوة الشمالية ، أي بسببه الرابع ، لا يتظر أن تريد وقد
 عاود أصغرنا السبعين ، ارتفعت هذه النسبة إلى نحو النصف في الجيل التالي ، أي
 بين أولاد ويلات الإحوة الشمالية . فمن بين عشرين ولداً وبت تزوج منهم ثمانية
 عشر ، انتهت ثمانية زيجات بالطلاق ، وكنهم لادأوا هي معتل العمر ومن ثم
 طلاق أمهم فزح وسبعة ، إذا شاءوا ، بالطلاق و بواحد من جديد .

لا أحد من الصعب تفسير هذا التغيير . فقد كان الطلاق في حالة أبي وأمي أقرب
 إلى المسحيل ، وأبعد ما يكون عن التصور ، إذ ما الذي كان يمكن لأبي أن يفعله
 شمانيه أولاد ، لم يولد أصغرهم إلا بعد أن بلغت الأربعين ، وهي عذرة تمام عن
 كسب أي دخل لا من عمله ولا من أهله ؟ كانت أمي وساء جيسها يتصورون أن
 إجماع أكبر عدد من الأولاد والبنات سوف يشكك الزوج ويقطعه بقوله نعمة من
 الحركه ومن محرد استكرر في الطلاق . ولكن من المؤكد أيضاً أن المرة في أيام أمي
 وأبي كانت على استعداد بقول معذرة أسوأ بكثير مما يمكن أن يقبله الزوجه لأن ،

حتى لا يفرق الطلاق بينها وبين أولادها، وهي تعتمد على أى جدل أى قدرة على الإنفاق عليهم بمجرد ما

فى آخر حفلة من حفلات الكريسماس التى أضاف فى بيتا نظرت إلى حبل أولادها وبناتها، وقد انتشرت بينهم حالات الطلاق على النحو الذى ذكرته، وأعمار معظمهم تتراوح بين الأربعين والخمسين، فوجدتهم أكثر ميلاً للحزن والاكتئاب مما كنا عليه، نحن أمائهم وأمهاتهم، فى مثل سنهم، وأقل استعداداً للصراح والصحت، وأقل تفاؤلاً بالهبة، لم يكن بطلاق هو السبب الوحيد، ولا هو، وما أظن، السبب الأساسى لكل هذا الحزن المخم عليهم، فقد وجدت نفس المثل إلى اخرين والاكتئاب فى المروج وبطنى على اسواء كان من الوصح فى أن شيوخ هذا الجيل إلى الحرب لدى هذا الجيل، الحزب من الأسرة لا يرجع إلى سبب مرمى يتعق بهذا شخص أو ذاك، وهذه الأسرة دون غيرها، بل يتعلق بما حدث لمصر بوجه عام، بل وربما يتعلق أيضاً بما حدث فى العالم ككل



لم يقص أكثر من سنتين على بدايه هذا التقليد فى سنة ١٩٦٥، بدعوة الأسرة كلها للعشاء فى يوم الكريسماس من كل عام، حتى وقعت حرب ١٩٦٧ غم تعد الحياة فى مصر بعد ١٩٦٧ مثلما كانت قبلها، كانت هذه الحرب هى البدايه الحقيقية لما سسمى فى مصر «الانفتاح الاقتصادى» أى، دخال مصر فى العالم الواسع وقد أشاع هذا الانفتاح على العالم درحة عالية من تدوير فى المجتمع المصرى، وأثر من الأعمال لدى شرائح واسعة من المصريين أكثر بكثير مما يمكن تحصيله، ولم يكن من قبل المصدرة أن اقتربت ندانة عصر الانفتاح فى مصر بدرجة عصر التصخم الخافض، الذى وضع حداً بعصر مذهش لا تكاد الأسعار تتعبره بين عام وآخر، ولا ترد فيه، مدحون والنفروات إلا سده شديداً، ولا يكاد يغير فيه لمرة وطبعه الذى بدأ به، ولا رجوعه، ولا يشع فى النفوس قلق مص مما يمكن أن يأتى به المستقبل كان هذا هو العدم الذى ولدت فيه والذى عشت فيه حتى أشرفت على الأربعين، أما سى الأصغر فقد ولد قبل ثلاثة أشهر من إعلان اسادات دة سياسة الانفتاح، وكان

معظم أولاد و بنت إخواني شراوح منهم حسنة بن حمس وعشر سنوات شمس هؤلاء الأولاد والبنات وهم سمعوب اءاهم وأمهاتهم لا مكفون عن الكلام عن ارتفاع الاسعار، سيما أن الموضوع لا يكاد يرد على لسان أبي أو أمي. لقد بدا أبي وأمي وكأنهم قد اطمأن على أولادهما تمام الاطمئنان عندما رأوهم قد أتموا دراستهم الجامعية، فظنوا أنهم لا يمكن أن تصيبهم بعد اليوم أى ضائقة مالية. ولكن أبى وأمي لم يربا، ولا كان من الممكن أن يتوقعوا ما حدث بعد هاتين العشريين عندما أصبح المرتب الذى تأتى به الوظيفة الحكومية عبر كاف المرة، حتى لمحتصوب على ثلاثة أو عسالة كهربائية، فمالمثل جهاز التكييف والليفر يون اىون وجهاز الفيديو، ناهيك عن السيارة الكيفة أو السبرتين، وكلها أشياء أصبح يعتبرها جيل أولادى من ضروريات الحياة. مثل هذه الأشياء أفقدت الوظيفة الحكومية، عمرتها البسط والذات تعريب فى مكانه، أنهتها التى عرعرها نى رأى، بن وعرفت أن وإخوانى. وعندما فقدت الوظيفة الحكومية أبنتها فقدت الشهادة الجامعية، التى بضم الحصوص على هذه الوظيفة، الكثير من قيمتها. لا أحب أن تعرفت مشعر الشاس نحو أساتذتهم ومدرسيهم، ولمح هؤلاء لأساتذة والمدرسون مطهر هذا التغير تعبيرت دورها بظرتهم هم إلى تلاميذهم بل وبظرتهم إلى «سهم

علما فخر» على، الابن الأكبر لأخى عبد الحميد، أن يترك مدرسته قبل أن يحصل على الشهادة الثانوية، وأن يسافر إلى المساء بلد أمه، لبحث عن أى عمل، أو الالتحاق بمدرسة تدرس عمال المتقدمة، ورأى علامات الاستعراب والامتعص على وحوف جميعا، قابل سحرأ «وماذا فعل أبى شهادة البذكوراه التى حصل عليها مرة من اعملترة ومرة أخرى من ألمانيا، وبوطنيته الرائعة كأستاذ جامعى؟ إنه لم يستطع حتى أن يشتري لى دراجة!«

أصبحت الكلمة التى تتردد بكثرة على ألسنه هذا الجيل الذى يتسمى إليه أولادى وأولاد إخوانى هى كلمة «مشروع» وكانو يقصدون بها مشروعا استثماريا بأتى بربح كاف للتحصول على هذه السلع التى لم يكن معروفة من قبل، والتى بدت أسعارها أهد بكثير عن متناول أبدى أصحاب الوظائف دوى بذل الثالث صاحب هذا

تحويل دخول التليفزيون إلى السوق وانتشاره كاشفاً النار في بهشيم، ثم أصاب التليفزيون بدوره موجات سريعه في برامجه وكميه ربيع إعلاناته، أدت إلى تعريب مصر، أكثر فأكثر، مما يحرق في العالم بواسطة، وإدنا سيميريون يقول للناس بـ الحياة يمكن أن تكون متممة، بل ومن الواجب أن تكون متممة، وبدى يقصر في إنتاجه هو شخص مقصر في القدام بواجب مقدس، أو بالأحرى شخص فشل بكل معنى الكلمة، لا يصلح لا كزوج ولا كصديق. هذا كان الحصول على هذه المصادر الرائعة للمتعة متعدياً في مصر بسبب الارتفاع الهبط في الأسعار وقلة لدخول، وقلة لفرص المتاحة لإقامته «مشروع» يحقق الدخل المطلوب، فلا مانع من السعر، بل ولا مانع حتى من الهجرة الدائمة.

هكذا انتشر أفراد هذا الجيل من أستراليا، يبحثون عن مصدق للفرق في أي مكان في العالم يمكن أن يعدهم بتحقيق هذه الحياة الحديثة الرائعة. هدرت ثلثون منهم مع زوجهما إلى أميركا، وهاجر ثالث إلى أستراليا ورابع إلى النمسا وجرت حاصره ألف أولاً ثم ذهب إلى فيلينا، وتزوجت بيت أخرى من ربح أستراليا في الهابة في بحسراً، ولكن أغلبهم رأى نحن في السعر لنضع سواب إلى إحدى دول خليج

من المدهل إذن كيف بدأ للعالمية العظمى من هذا الجيل أنه لا حل أمامهم إلا السعر. لقد فتحت مصر أبوابها أمام عالم فجاء العالم إليها ولكنه طرد المصريين منها ومع هذا فداراً ما حققت الهجرة الأمل التي عقدت عليها. فقد روت سى أختي اللين هاخرت مع زوجهما إلى أميركا فلم أحد في حياتهم هناك ما عوّضهما عما تركاه في مصر، بل وانتهى الأمر بإحداها أن بركت وزوجها هناك وعادت نطشها إلى مصر، ولأولاً لا يعرف، بعد انقضاءه، يعرف من أو يعين عاف عني سفرهما لأول مرة إلى أميركا، ما إذا كان الرجل قد وجد عملاً مناسباً أو لم يجد، بل ولا حتى ما إذا كان له عمل على الإطلاق. أما من سافروا إلى الخليج فقد صدهوا مشكلاً من نوع آخر. لم يكن الشعور بالعارفة قويا ومحصناً كما كان مع من هاجر إلى أميركا أو إلى أستراليا، فاللد المهاجر إليه عربي، والتليفزيون ماضق بالعربية، والأفلام المصرية متوافرة في دور السينما والتليفزيون، والفن وفيه

الأصمة المصرية في متدول البد، ورياره مصر سهلة على أى حال عندما يكون في
خلج وإما كانت المشكلة أن البلاد هناك ليست بلاداً حقيقته، وإما هي بلاد
مصطنعة احتلت احتلالاً، رهما حاول المهاجر إليها تعويض ذلك بشراء المزيد من
السلع أو اقتناء مجوهرات ثمينة لروحه أو ألعاب كهربيائية لأولاده، بما كان
يستحيل عميه فتأواه في مصر، مهم فعل ذلك فإنه لا يستطيع منء الخواء نفسه
الدى يتعاقم الإحساس نه يوماً بعد يوم لا عجب أن فترت بسر إلى الخلج بكثرة
أحداث الطلاق ويسرتر العلاقة بين الزوجين سواء نهى لأمر بالطلاق أو سم يسه
فها هو شاب من شباب العائلة يعمل في شركة خرول في الخليج، يقضى الأسابيع
وحيداً في وسط البحر، بعيداً عن زوجته وطفليه فلا يراهم إلا للصعة أيام كل شهر
أو أكثر. وها هو آخر يحاول إيجاز روحته على التمتع بثمرات عمل أهل الخليج
متفرغ وتعود إلى مصر وحدها وتطلب لطلاق. وثالث يترك زوجته وأولاده في
مصر ويذهب إلى الخليج بمفرده ويرسل لهم ما يعينهم على العلاء في مصر، وما
يسمح للأولاد بإعناق مبالغ طائلة على الألعاب الإلكترونية، وكن تفشل الروجة
في الاحتفاظ بهم في البيت ولا تدري كيفهما اندى يصحونه في الخارج

هناك من لم يسافر لأمريكا ولا إلى اسبانيا ولا إلى الخليج، ووجد الحل
في الاشتغال في مؤسسة أجنبية داخل مصر تريد مرتباتها نفس سرعة انتضهم أى
أن الحل في ظل الافتتاح كان يحصر إما في خدمة لأحاب في الخارج أو خدمتهم
في الداخل. أم من صنعت ممتة وبعدهم طمرحه وبقى عى ما كان عليه قبل
الافتتاح فقد أصبح معرضاً لمختلف أنواع القاء عن حوله، أو للشعور بانسب
وبأب الصير بما أصاب حياته بعدنية هو الآخر بالتوتر والاضطراب

واعى بوجه حاصر م لاحظته من شدة الميل إلى العمل لخدمة الأحيى لدى
الجيل الأصغر، أى حيل إحصاى والحد أنشقى إن حميدى أنا لأرالا طمبر
صعبرين ولكن هناك من الأحماذ الآخرين من تخرجوا في الجامعة وبدأوا العمل
وكسرو رزقهم بأنفسهم، فبدأى لا أكذ أحد واحد منهم يكسب رزقه من عمل
غير خدمة شركة أو مؤسسة أجنبية، سواء في داخل مصر أو خارجها منهم من

يعمل شركة برول بالخليج، ومن يعمل مرشداً ومعبداً للعصا هي شركة سياحة
أحبيه شرم الشيخ، ومن يعصن شركة أدويه أجبيه بالمعديه، وآخر يكتب
محاسنة أجبي بالمعديه أيضاً، ومن يعمل بهيمة الإداغة البريطانية بسند، وآخر
شركة تلغريون عالميه هي كينيا، بالإصاذه إلى أولاد المهاجرين الذين يعملون كدهم
بالطبع في البلاد التي هاجر إليهم ويشغل أحدهم في وظيفة باليب الأبيض
لأمريكي م الذي كان يمكن أن يعرف بدهم أبي لو كان قد سمع بوع الأعمال
التي يقوم بها الآن أحفاد أساقه؟ ودا سمع بأن أحدهم يكسب ورقه (وان كان ورقاً
ومبركاً) بالبناء باللغة الإغريقية كجرء من إعلانات بذاع في بعض قنوات التليفزيون
العربية، وترويج بوع من أنواع الصدود الذي تنتجه شركة أمريكية شهيرة؟

-٧-

سند سوابق قليله رأيي ان أحد إخواني، وكان في نحو لعشرين من عمره،
وهو جالس وحده وعلى أدبيه سماعان مصلدان بجهاز راديو أو تسجيل صغير،
دون أن يسمع أحد غيره ما يبعث من هدا الخهار، وكان رأسه يميل يميناً ويساراً
دون أن يستطيع أن يحاربه في ذلك لأن لا نسمع ما يسمعه كنت أرى مثل هذا
المظهر لأرب مرة، وما لي الفتى وقتي وكأنه مختل العقل، ولكن سرعان ما اعتدت
امطر عذمت تكررت مث هبنتي مثله لقد بد هذا المظهر عريفاً جداً في البداية
شخص مثلي لم تكن الموسقى شغل هذا الجزء، تكسر من وقته همتماً شغل من
وقت الشباب الآن، فإذا استمع إلى موسقى كان من البادر أن يستمع إليها مفردة
بل كان يسمعها عادة وهو مخاطب من، ولم تكن هناك تلك الوسيلة التي يعرفه
عزلاً تأت عن الناس وتصمم أدبيه عمن حوله وعلى أي حال كانت الموسقى
والأغاني هي البيت الذي نشأت فيه من نوع مختلف غنائاً

كانت الموسيقى والأغاني التي يسمع إليها أبي أو أمي، في التلحظت البادرة
التي كنا يسمعون فيها أي موسيقى أو أعان، بل وحتى موسيقى ر لأغاني المصرية
التي كنت أستمع إليها أنا وإخواني، كانت من النوع الذي يلائم حالة المصريين

وفتيه، وبنفق مع علامه لرحل بامرأه فى حبس أبى وأمى أو حبلى أب ويحوتى
 كبت امرأة فدعة فى المنزل فى أغلب الأوقات، ومحشمة، قليلة الاحتلاط
 بالرجال فلم تحرجت المرأة واحتلقت بالرجال بل وسكنت لنفسها أحيانا
 دتمنايل سونغ أو آخر من الرقص فى حضورهم، سارعت للموسيقى والأغاني
 المصرية بالتميز لتلبية الأعراس الجديدة المطبوعه بهم صاحب هذا انتشار للموسيقى
 الغربية الأسرع إيقاعا وانتشار مختلف أنواع الأجهزة التى تسمح بسماع هذه
 الموسيقى والأغاني فى أى مكان وكفاءة غير معهودة فهذه الأجهزة جميعه الورق،
 سهله الحمل، ومن الممكن للمرأة أن يسمع إليها وحده أو مع آخرين، فى المنزل أو
 السيارة أو أثناء سيره فى الطريق، ومن أسهل الأمور تسجيل ما يعجبه منها وتخزينه
 وإعادة الاستماع إليه فى أى مكان لا عجب أن أصبحت الموسيقى والأغاني تلعب
 دوراً فى حياة ولادى وحياة جيلهم، ثم فى حياة أولادهم، هم كثير عاملت فى
 حياتى وحياة أشقائى، نهيك عن دورها فى حياة أبى وأمى كذا أصبح النوع لى
 معجهم من الموسيقى ونوع الكلام لى يستمعونه فى الأغاني، مختلفا جداً
 أيضاً كانت موسيقاتنا وأغاني أكثر حرراً وأطرافاً، أم أولادنا وأحفادنا
 فيريدون موسيقى يستطيعون رقص على إيقعها وكلمات أكثر مرحاً يمكنهم
 ترديدها على ألسنهم بحس لآخر، حتى ولو كانوا فى الحقيقة أقل وعاءاً بحبه ما
 وأكثر حوقاً من المستمع

نقدر ما زادت أهمية الموسيقى ولقاء والرقص لدى هذا الجيل من الأولاد
 والبنات، بالمقارنة بحالى علماء كفاى مثل سنهم، قلت أهمية السبسة وضعف
 شدة الاهتمام بالشئون العامة والقومية وأظن أن الطاهر بن متراسكان. قد كانت
 المثمة، بل والمثمة الحالة هى الهدف، فب هى بالضغط جسدى الانتع، بالسبسة
 وبالأمور العامة والقومية؟ هذه الأمور السبسة والقومية تتعق فى نهاية الأمر
 بالنرم أخلاعى، ولكن المرء مع مسئول عن نفسه فقط هذا هو ما توصل إليه هذا
 الجيل الجديد من الأولاد والبنات، ودام الأمر كذلك فلا شىء يبدو أكثر مصيبة
 للوقت وشدة إثارة للخلل من السبسة وشئون الوطن بل وحتى إذا تفرصنا أن

بعبارة مسار المسألة والعمل من أجل إرضاع شأ. الوطن يمكن في نهاية المذهب أن يريد من حقد الناس من المتعة والسعادة، فأى أثر يمكن أن يكون لى لنا، أو لآى شخص آخر، في تغيير الأحوال في الاتجاه المشؤد؟ إن هذه الأمور تبدو لآى وكأنها محكومة بقوى لا تملك شأنها شيئاً وحارجه تماماً عن إرادتنا. أهلاً يكون الاهتمام بها إن مصيحه لوهوت وتنديداً بالجهديم لا يفيد؟

هكذا، يبدو لى تفكير هد خيل من شباب أسرتنا ليوم ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن كل هذا الحزن والاكنتاب اللذين يحثيم، عليهم؟ ولماذا يبدو، ركنائهم أفس حظاً من هدوء السال وانضمامية وانصب عن النفس مما كنا في مثل سبهم؟ هل يمكن أن يكون السبب هو هذا الذى ذكرته حالاً، أى أن هذا التوجه إلى تحقيق متعة الخاصة يصعب اضطر عن أى اعتبار آخر، كالشعور بالمسئولية الاجتماعية أو بآثرهم خلقى، هو نفسه المستور عن كل هذا الحزن والاكنتاب؟ هل يمكن أن يكون تحديد الهدف بأنه السعادة أو المتعة الباردة يصرف لغير عن أى هدف آخر، وتقييم أى عمل أو هدف آخر وفق نجاحه أو فشله في تحقيق هد الهدف وحده، السعادة أو المتعة، هو السبب لائق التحقيق السعادة والمتعة، وبأقصى طريق لتحقيقهما هو السعى، لى تحقيق هدف آخر؟

- ٨ -

عندما قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كت في لسابعة عشرة من عمرى، وكنت كل اللاسات تدعو للاتجاه الشديد بقيامها ثورة معاشة تطيح بمدك فاسد وينظام سياسى واجتماعى مكروه، وأسى يعمل ذلك مجموعة من الصراط بشأن لم نسمع عن أى منهم من قبل، ولكنهم يبدو من كلامهم وبصرهم أنهم شيان وعنيين غامر را بحياتهم من أجل اللهو وبيدهم، ويبدو في سلوكهم ليومى أقرب إلى عامة المصريين في عهدناه من كانوا يكونون تقاليد احكم قلوبهم ولكن لعل أهم سبب للاتجاه بقم الثورة كان هو ما ذكرته حالاً من أن عمرى وقتها لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة

كان أي وقت قيام الثورة في الجامعة والسنن من عمره. ولا أذكر أنني سمعت
 منه أي تعليق ضد الثورة، بل لا أشك، بسبب ما أعرفه عن رأيه في الملك وهي
 لأحزاب سياسية التي كانت تبادل الحكم من الثورة، في أنه قد عبر قيام الثورة
 أفضل من عدمه. ولكني أذكر أيضاً أنه لم يبد حماساً له من أي نوع. ولا أخاص
 في التعبير عما يعلقه عليها من آراء، وهو موقف فسرته وقتها بشذوذه وصحته،
 ولكني الآن، وقد مر على قيام الثورة أكثر من خمسين عاماً، أميل إلى تفسير هذا
 الموقف من شأنه أخرى. فأننا الآن، بعد أن تجاوزت السنين أستطيع أن أنصوّر
 كيف بدت ثورته في عصره شبيهة بأحداث حدثت في الماضي، حتى وإن لم يكن
 اسمه كمالاً، وكيف بداهه حماسة هؤلاء النباط مختلط بمختلف المشاعر والدوافع
 الطبيعية التي لا بد أن توجد في أمثالهم وبأن لا يمكن أن تكون حلقة وبقيّة مائة
 بالمائة. كما أنه لا بد أن يد له أن طموحات هؤلاء النباط، على الأقل كما يعرفون
 عنها في كلامهم، أكثر بكثير من قدراتهم، في عالم تحكمه مختلف الأهداف
 الأنانية. ولندعوه للأسف بقوة عسكريه واقتصاديه ليس لدى هؤلاء النباط لقدرة
 على مواجهتها وتعلب عليها

بلغ حماساً للثورة أقصى مدى له في مطلع الستينيات، أي بعد قدّمها عشر
 سنوات. كما نحن طلبه للمنه في إنجلترا بعد نهزنا الخطوات الحثارة التي تعدت في
 طريق الوحدة العربية والتسمية وإعادة توزيع الدخل لصالح العمال والمزارعين
 الصغار، وإتاحة مختلف أسبع والخدمات المصروفة بأسعار هي متناول الجميع،
 أرحى مخناً، كما في حالة المعلمين والعلاج. كما في سبيل ذلك على سبيل
 لصبر الصمغ عن نمو الديكتاتورية والنظام البويهي، كما أننا لم نتمتع بحقيقة
 موقف النظام الجديد من قضية الهوية والحفاظة على التراث ومقاومة التعريب،
 فقد بدت لنا هذه القضية ثبوتة وكما يليه بالمعارضة بالهرص لانقصاى واستغلال
 الإرادة السياسية تجاه الدول الكبرى. بل لم نعتق أهميه تذكر على ما كان يرتكبه
 النظام من أخطاء فاحشة في احتجاز الأشخاص الذي يوكل إليهم مسؤوليات شديده
 الخطورة، كرئاسة الجيش مثلاً، وكأننا كما على استعداد لتصديق ما يحب تصديقه

مصرف الطر من بعده أو قرنه من الحقيقة كما شوق إلى أن يكون له جيش قوى
مصرف الطر عن كل ما كما سمعه عن تصرفات المشول عن الحش، وكما تحرق
شوقاً إلى أن تصبح مصر في يد الدول الصناعية المتقدمة بهدف ما لم لنا من أمان
دخلنا ببعض أمر حلة الإطلاق الاقتصادي التي يسير بعدها النمو الاقتصادي
شكل تلقائي ومنظم دون حاجة إلى نصحيات مستثناة ولم يعلق أهمية على
اعتماد خطة التنمية اعتماداً كبيراً على المعونات الأمريكية، التي كانت تأتي في
صورة قمح وسمك وروعية، وعلى المعونات السوفيتية التي كانت تموّل السد العالي
واسمية الصناعية، وكما ليس من الممكن أن تنفق هذه المعونات وتلت بحياة
دون أي خطأ أو جرم من جانبنا، فتتوقف تنمية الاقتصاد توقيفاً تاماً، كما
حدث بالفعل

كان أسوء واحد، أو بالأحرى حيلة أيام فقط، كافية لإيقاظنا من كل هذه
الأحلام الحميلة وفي الأيام ٥ - ٩ يونيو ١٩٦٧ إن من الممكن أن أقول إنه يمسى
من المعاني، لم يستعد حلى توريه حتى الآن مد بحرصه لصدمة الهزيمة العسكرية
التي ميّتها في يونيو ١٩٦٧، رغم مرور ما يقرب من أربعين عاماً عليها ولكن
الحقيقة أن تابع حيلة الأمن، الواحد منها بعد الآخر، استمر طوال هذه الأربعين
عاماً حتى أصبح من دواعي المثل الشديد أن يقارن المصير ما انتهيا إليه وما كانت
عليه طموحاتنا وما لنا عندما قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢

في السبعينات تحرر السادات من الالتزام الذي فرضته الثورة على نفسها بإعادة
توزيع الدخل لصالح الشرائح الاجتماعية الدنيا، كما أطاح باستقلال مصر
السياسي، وقبل رفضه اعتراف في السيات من صعوبات أمريكية وإسرائيلية
وصعوبات المؤسسات المالية الدولية كصدوق النقد ولسك الدولى في مقابل هذه
أعض السادات للمصريين موعاً من الديمقراطية سرعان ما تبين، للأسف، أنها
ديمقراطية مرفقة لم تمنح السادات من وضع كل معارضة في السجن قبل مقسه
بأنه مع قبلة أما الرواح الاقتصادي الذي شهدته مصر في عهد السادات فكان
بدوره وواجب ظاهراً مصدرة تحولات انهاجرين من الخارج، أو تحولات المعونة

لأمريكية، أو رفاع أسعد الشروك أو رواح الساحة، وكلهم مصدر لدجل بحرج
عن سيطرة المصريين. فهم أن جمعت أعمار الشروك، وقتل تحويلات
المهاجرين، وتكرر صرب الرياح، حتى بدأ المصريون يدفعون اثنى الماهل لإهمان
الصاعه والرعاية

وفي الثمانينات والتسعينات عاد الكساد الاقتصادي بعد سراب فليله من بداية
عهد مبارك، واستمر دون انقطاع تقريبا حتى الآن، واستمر النظام في لاصالانه
بزيادة الفاحشة في تعاوت بين الذحول، وهو التعاوت ائدى رادم من خدمه
وقسوه استمرار الكساد لاقتصادى وارتفاع معدلات البطالة. كما استمر النظام
في استنكته مطالب لأمريكيين والإسرائيليين ومثلى المؤسسات لدولة، سواء
فيم يتعلق بمصبة فلسطين أو فتح أبواب لاقتصاد دون صوابط. وأما الديمقراطية
السياسية التى تصح ريفها في أحر عهد السادات فقد زادت تريفها في عهد
مبارك، حتى أصبح الكلام عن «أزهى عصور لحرية» في عهده مشر محربة
المصريين.



هكذا بدأ لى، دعا أن مر أكثر من نصف قرن على قيام ثورة ٢٣ يوليو، أن امالنا
التي عمدناها على هذه الثورة في ١٩٥٢ قد حاب أكثرها، فلم تتحقق امالنا في
تحقيق الديمقراطية، ولا في حل مشكلة فلسطين، ولا في ائدم الاقتصادى، ولا
في التقريب بين الطبقات، ولا حتى في نشر التعليم ومحو الأمية. نعم، رتب
المستوى ائماى للمعيشة، ولكن بأقل كثيرا عما كنا نصوره ونطمح ليه، ولا يبدو أن
المصريين يتمتعون اليوم ببحرية سياسية او فكرية أكثر عما كانوا يتمتعون به في
١٩٥٢، ولا بعام اجتماعى أكثر عدالة. بدالى أن التقدم الحقيقى الذى لا شك فيه
هو فقط أن المصريين قد أصبحوا اليوم أكثر عددا بكثير عما كانوا مد نصف قرن،
فأصبحوا أكثر من سبعين مليوناً بعد أن كانوا اثنى وعشرين، أى أن عددهم
تضاعف أكثر من ثلاث مرات، وهو تقدم لا يستهان به بمقيار داروسى بحث، ولكنه
أبعد ما يكون عما كنا نرجوه ونوعدة عندما دبت الثورة في سنة ١٩٥٢

بدل لي أنصاً من استعراض تطور الأحوال والأحداث في مصر في الخمسين عاماً
 في مرتبة مدثورة يوليو أن من أفضل لشخصيات أو الأوصاف التي يمكن أن تقدم
 بهذه الفترة، شخصيتها أو وصفها بأنها كانت بشكل في إحصاء العصر
 الأمريكي^١، أو على الأقل الخمسين عاماً الأولى من هذا العصر الأمريكي. فقد
 كنت في العاشرة من عمري عندما انتهت الحرب بعدي شابة في ١٩٤٥. وبعد
 بدأت فترة ما بعد الحرب بسعي الولايات المتحدة لحثيث لم ورائة مظهر العود
 التي كانت تنحصر للاستعمار اسيطاني والفرنسي، وقد حدثت هذه الوراثة في سد
 عربي بعد آخر، كما حدث في سد بعد آخر في آسيا وإفريقيا. وقد دخلت مصر
 تحت المعود الأمريكي في ١٩٥٢ ولازيت غتته حتى الآن. أما استقبالات التي
 شهدتها مصر خلال هذه الفترة، من استغلال سبي إلى حصول تام، فلا يجب أن
 نحب عن أنظارنا طبيعيه بصورة مأجودة ككل. إذا نظرنا إلى هذه الفترة على هذا
 النحو فإن مصر تدو كأنها فقط متبذلت سيداً حديد أسيد قليم، ومن ثم فإن
 التقدم محدود دائماً يسمع به السد الرافى. وهو لا يسمع إلا ما لا يتعارض مع
 مصالحه. هل كان خاطر كهذا يترى هو ما كان يدور ذهن أس عندما سمع بقيام
 الانقلاب العسكري في ٢٣ يونيو ١٩٥٢. ومن ثم لم يتحسب شدة لما سمعه من
 أحوار وبيانات الثورة^٢

لقد كان أبى في العشرين من عمره عندما وقعت حادثته دشواى، إلى قبل
 سبها للإجبر طمعا عدداً من الملاحين المصريين عقب، بهم على حرية لم
 يرتكبوها، وإن أراد للإجبر فقط إدخال الرعب في نفوس الشعب المصرى. وقد
 قال لي أبى، به سكي بكاء مرأ سبب حادثة دشواى. ولكن حادثة دشواى
 والأحداث المعاصرة لها لم تدخل في وعى السياسى إلا عن طريق القرعة. وبعد
 حدودها بوقت طويل، سدا دخلت في وعى أبى. لحظة بلحظة، فكونت حرة من
 محرره العسكري والعاطفى. عندما سمع أبى بقيام ثورة ١٩٥٢ لا بد أن هذا المخزون
 من الأحداث والاطاعات قد أثر في نظرتة إلى هذه الثورة وفي توقعته بشأنها، أما
 أن وحيى فمما كان عيباً أن يعيش هذه الثورة لحظة بلحظة قبل أن يصل إلى مصر

السنحة التي وصل إليها من مدح خطتها الأرسى، وإن لم يجد من الملائم أن يذكر لها
وفتها ما كان يدور بذهنه.

- ٩ -

لم يكن يحظر سائى عندما ركت الساحرة إلى إنجلترا في ٢٣ يناير ١٩٥٨،
وعمرى ثلاثة وعشرون عاماً بالضبط، أن إنجلترا مستلمة هذا الدور المهم في
حياتى أبى ساقصى فيها ست سنوات متتالية في مطلع سنائى، وسأتزوج من
جدي سنها، وسأظل بعد ذلك أسافر إليها مرة في كل صيف، بدون انقطاع تقريباً
خلال الأربعين عاماً التالية، وأن تطل هذه الدوره ولعمري القاعدة الأساسية التي
تعرف من خلال على العالم العربى والحضارة العربية

كذلك فى ابداية، ما ورو جتى، شهر أو شهرين من كل صيف في بيت
يملكه والداه حتى في مدة مطمة على سبحر في الساحل بشرق إنجلترا هي
«فيلكسو» (Felkstone)، وهي بلدة صغيرة ليس بها حادية شديدة ولا شخصيه
متميزة، وإنما كانت ميزتها الوحيدة وجود ودي روحى فيها، ويسمى الجميل
مجدبه الرائعه المطمة مشرة على البحر فلم توفى روحى ثم والله، والى على
العور أى دافع بديلاً لهاب إلى فيلكتو، وتحولنا منها إلى مدينة كامردج، تلك
المدية الرائعة التي اعتبرها من أقرب مدد العالم إلى قللى كنت في سنوات السبعة
كثيراً ما أذهب إلى كامردج مع بعض أصدقائى المصريين لقضاء يوم جمين، من أيام
الأحد، في حرقوان في بهر، ويتفرح على مائى كلياها لتي تحلب اللب، ثم
يسير نحو ساعة إلى اقوية، الملاصقة لكامردج «جرانشستر» (Granchester) فتناول
الشئى ولطائر التي اشتهر بها الإنجليز في بستان من شجر التماح، ويحمل هذا
الاسم (The Orchard)، وقد شجر هذا البستان في المنطقة كلها، ليس فقط
لحملة، ولكن لأنه كان المكان المفضل لساول الشئى لعدد من شهر الكتاب
والعلاسة الإنجليز وأصدقائهم الذين عاشوا فترة من حياتهم في كامردج، مثل
الفيسر في دتراندسل ومجسائين، والاقتصادى الشهير كير وقد حرص
أصحاب البستان، منذ الإنكان، أن يبيع كل شئ على حابه، الموائد والكراسى

وايكوخ الخشنى الذى يستخدم إذا سقط المطر، كما كسب بضبط عندما كان هؤلاء
الرجال اعظم يساولون الشاى فيه

استطعت بما ادخرته من مال فى فترة عملى بانكويت شراء شقة صغيرة، ولكنها
فى موقع بالغ الجمال فى كامبردج، تطل على النهر مباشرة وتقع فى أقصى الطرف
لشرفى لكامبردج، ومن ثم فهى ملاصقة للحقول لا نهاية لها من ناحية الشرق
تسمح للنمو بالنسب مسافات طويلة لا يرى خلالها إلا النهر والأبقار والخيل، وهى
مرعى فى هذه الحقول لمنبوكة ملكة شائعة للمجتمع ككل، ويجمع الفنايون
الإنجليزى إقامة أى مساء عليها كتناؤجر هذه الشقة سبعة أو عشرة أشهر فى كل عام
لأستاذ زائر للجامعة كامبردج أو لبعض طلبة الدراسات العليا فيها، على أن يحلواها
لدى شهر الصيف وهكذا ظلنا نأتى إلى كامبردج فى كل صيف تقريبا منذ سنة
١٩٧٨ وحتى الآن، أى مدة تعرب من ثلاثين عاماً، ولا أظن أنه قد انمضى عام
واحد خلال هذه الثلاثين عاماً لم أذهب فيه مع أسرتى وبعض أصدقائى لساول
الشاى فى ذلك المكان الجميل فى حرم بشير

ها قد مرّ إذن ما يقرب من نصف قرن على بداية تعرّفى على غطاء الحياة
الإنجليزية. وعندما أقارب غطاء الحياة حينئذ بما أصبحت عليه الحياة الإنجليزية اليوم،
لا أكد أصداق حجم التعيررات التى طرأت عليها، وهى محتفلة بواحي الحياة
والأمر يستحق بلا شك أن يروى بعض التفاصيل



كانت إنجلترا بلا شك فى سنة ١٩٥٨، عندما سافرت إليها فى بعثى الدراسية،
أقل راحة بكثير منها الآن. كانت بعض مظاهر الفقر موحدة حتى فى أرمي الأحياء
وأكثرها تقدماً، كما كان الفقر وتوزيع الدخل موضوعاً أساسياً فى الموضوعات التى
يدرسها السياسيون وتكتب عنها الصحف. لم يكن من البادر على الإطلاق أن ترى
متسراً أو أكثر حلال سبرى من محطة مترو الإنفاق فى لندن إلى كنلى، أو أن
أشاهد امرأة فقيرة واقفة على الرصيف تحاول بيع كمية صغيرة من المأكولات، فى يوم
شديد ببرودة، دون أن يكون على حشمتها ما يكفى لحمايتها من البرد. كانت

الاشتراكية لا تزال موضوعا مهما ، يدعو إليها البعض بحماسة ويتقدها البعض
شده ، وليست كما هي الآن موضوعا مهملًا أو مثيرًا للتحريية . كان إطلاق وصف
«مركسي» أو «شيوعي» على شخص يكتفى لاستدراج العصب والسط عليه ،
وبس كما أصبح الآن شيئًا نادرًا من ناحية ومثيرًا للدهشة بدلًا من السخف ، من
نحية أخرى . معم كانت مظاهر نفق أكثر شيوعًا في إنجلترا حينئذ كما هي الآن ،
وإن لم تكن تعازي بالطبع مظاهر المعرفى البلاد التي أتت منها ، ولكنى أستطيع أن
أقول بكل ثقة ، إن إنجلترا ، في أشياء أخرى مهمة للعامة كانت حينئذ أكثر رقبًا بكثير
كما هي الآن ، وأكثر عصرًا

كنت أسمع مد رقت طويل ، من أبى ومن إخوانى الذين سمعوا إلى رؤية
بحلرا ، فصلا عن الكثيرين من لكتاب والصحفيين ، كلام كثير فى اشاء على
أحلاق الإنجليز وبالات على قوة حساسهم بالصلحة لعامة واستعد دهم بطيعى
للانترام بالقوة واحترام القانون حتى ولو كان يتطلب سهم انتصحية مصلحتهم
اخصة ، ذراكا مهم أن هذا فى صالح للجنتمع ككل . كم سمعت عن احترام
الإنجليز «للظانور» ، بل وكانت تنذر بهذا الاحترام وترغم أن الإنجليز يبح
الوقوف فى الطبور . حتى إذا كان يحفل سب وحوود الطبور أصلا . كس قد
سمعت أيضًا عن مدى استهجان الإنجليز بل ودهشتهم من أى شخص يحاول
العث ماى شى . يعتبر مملوكا ملكية عامة ، كشجرة فى حديقة أو مقعد فى قطار ،
وعن مدى احرامهم لحقوق الآخرين فلا يسمح أحد لنفسه بالاعداء على حق
الخالسين فى قطار فى تمنع بالهدوء ، طوال الم حلة فلا يعك صفهم صحيح يصدر
من راديو أو راك بكلم آخر بصوت عال أكثر من اللارم . إلح . وقد لاحظت كل
هذا بنفسى عندما دأبت إنجلترا لأول مرة فى ١٩٥١ ، ثم رأيت من حديد حلال
إقامتى الطويلة انتهاء من ١٩٥٨ ، ولم ألاحظ تغيرا علموا فى شىء من ذلك حتى
تركت إنجلترا فى ١٩٦٤ . ولكنى كنت كلما زرت إنجلترا بعد ذلك ، مرة بعد
أخرى ، ألاحظ البدهور المحفوظ فى كل هذه الأمور . شعرت دهشة شديدة عندما
رأيت لأول مرة كلاما مكتوبا بخط كبير ، وباستخدام دهان لا يسهل محوه . على

حوادث محطات مترو الإيمان، كمنه عذرون أو مكاري لا يصدون إلا محض العت والتحريب، وعندما بدأت ألاحظ أشياء مماثلة في المطارات بعضها والحدائق العامة ودوراب المياه وعلى الكبارى وملاط المهملات، وكثرة المراجعات الفارعة والملق والأورق التي استعنى عنها أصحابها ملقاة على الرصيف أو على أرض محطات المطار، ثم تكن لمحتلر أكذلك قط، ولكنى بدأت أرى نوع الأشخاص الذين يمكن أن يفعلوا مثل هذا، بل ورأيت بعضهم وهم ينددون بفعله صفيه وقتيات مرهقود يسبرون في الشوارع بلا هدف، يرتدون ثيابهم بإهمال واضح ومتعمد، وبعضهم يدخن السجائر، ويحملون في أيديهم رجايات أو عل عتري على مشروبات كحولية مختلفة، يتكلمون ويصيحون بصوت عال وبدون عيهم الاستعداد الكامل لإهانة أى شخص يحاول أن يتمرص بهم، بالك على الأقل وبما بالصر أيضاً، ثم نسمع أو نقرأ في الصحف عن واحد من هؤلاء وقد طعن شخصاً لا يرفه عطفواه أو سكين بدون هدف معروف، أو بدون هدف على الإطلاق، ومن ثم نسمع من يعرف لك من الحكمة تجت الشوارع ابتادة أو الخابيه سام المارة بعد حلول نظام

وقد انتشر الإقبال على البارز وشرب الخمر بوجه عام خلال هذه العقود الخمسة لأخيره، وبدأت العاده تنتشر أكثر فأكثر بين صغار السن، حتى أصبح منظر فئة محمورين يسرون في الشوارع، ممن لم يدعوا العشرين بعد، منظرًا متكرراً، خاصة في عطلة أحر الأسبوع، وهو منظر منفر للغاية خاصة من العييات، ولكن يبدو على أنسازين الآخرين في الشارع، من الإنجليز أنفسهم، أنهم بدأوا يقبلوه كمظهر طبيعي ومألوف ولا بدو عليهم الانزعاج منه

لاحظت بداية هذا التحول هذا منتصف الستات، مع بداية ظهور حركة الهير (Hippies) التي اقتصرت بإطلاق الشباب لشعر رؤوسهم، وبدأ الحديث يكثر عن انتشار المحمرات بين الشباب، التي كانت أنواعاً حفيفة في اسدابة وبسهل الإقلاع عنها، ثم أصبحت أكثر خطورة وأصبح الإقلاع عنها أصعب وقد اقترن هذا ذلك بما عرف من هذه الفترة من ارتفع مستوى المعيشة رتباعاً ملحوظ وحلول فترة من

أرجاء الاصصدي غير المسبوق، مع وصول لمجتمع إلى حالة لعائلة الكاملة والأرتفع لشديد في مستوى الأجور كسب تلك السنوات أيضاً هي فترة ظهور فرقة البيتلز (Beatles) التي حققت شعبية هائلة، وعلى الأخص بين المراهقين الذين كانوا يستقلون عائلها بالمصاح الهستري وكانهم قد فقدوا الوعي

في أوائل السبعينات عرست على المسرح الإنجليزي أول مسرحية يظهر فيها بعض الممثلين عرايا تماماً كان هذا العرض «أوه كالكما» (Oh! Calcutta)، من تأليف راند مرسي مشهور ومحترم لا كيث بايان (Kenneth Tynan). لابد أنه اعتمد أنه قد آن وأن شخص من هذا القلد الذي لا يروم له، وهو رند الملائس في العمل البقي وسرعان ما انتشرت موجة من التحرر الجنسي في الأفلام والمسرحيات اعترت مطهرات من مطاخر زيادة ما يتسبب به الناس من حرية بوجه عام. وهكذا أصبح ما لم يكن يتصور ظهوره إلا في الأفلام التي تقصد الإثارة الجنسية عمداً (المساة بالوزن) والمزج عرصة، إلا في دور عرض خاصة، متاحاً في جميع دور العرض ولا تطب إلا أن يدع لك هذا من ثمانية عشرة

صحت ذلك أيضاً تساهل ترويجي في تقديم الخمر في البارات والمطاعم، فزادت الساعات التي يسمح فيها للبارات بأن تفتح أبوابها، وخصص الس الذي يسمح فيها تناول خمر في الأماكن العامة ثم بدأ يظهر التساهل شيت فشيئا مع الشواد جسيا فقد كانت ممارسة الضدو الجنسي في منتصف القرن العشرين جريمة يعاقب عليها بقانون حتى ولو كانت بين شخصين بالعين وبرضا الطرفين ثم انتشر التساهل على سطح الحياة ومارسوا حرية أكبر في تعبير عن ميولهم، في الشوارع والأماكن العامة، وفي الأفلام والمسرحيات، وفي الكتابات الصحفية وكتب، حتى أصبح ما يظن أنه شذراً أن يسر من أي شخص عتراض على هذا النوع من الممارسة الجنسية، واعتبر هذا لاعتراض دليلاً على الإعراف في الرجعية وصيق الألق، واعتداء صرحاً على حرية الآخرين. أصبح منعو الأفلام والمسرحيات كثيراً ما يتمدون تصميم الفيلم أو المسرحية شخصية رجل أو امرأة من الشواد طمعاً في كسب رصا هؤلاء على العمل أو عبا للاتهام بالرجعية

عندما أتأمل هذا التطور الهش في موقف الإنجليس من الشذوذ الجنسي أحد من لطيف المفارقة بين انصور الشديد الذي كان يديه الإنجليز إزاء أى تقارب جسدى بين رجل وامرأة، ولو كانت ملاصقة صغيرة أو مصفحة لا لزوم لها، وبين موقفه من علاقة الشذوذ الجنسي. إني أذكر مثلاً كيف كان الإنجليز يبدى لبعثته الشديدة والتي لا تحنو من امتعاض، عندما يرى رجلاً مصرماً يمدق صدقه أو يقبضه بعد عية طويلة أو قصيرة، أو عندما يرى شابين مصريين يسيرون في أحد شوارع لندن وقد أمسك أحدهما بيد الآخر أو وضع ذراعه فوق كتفه. إن مثل هذا الذى كان يعتبره المصرى طبيعياً عاماً وتعبيراً لا عنصه فيه عن العودة أو الاشفاق، كان الإنجليز يشتم فيه راحة علاقة غير سووية ومعرفة كما حيثند، نحن الطلبة المصريين نشعر ببعض الخجل عندما نلاحظ نظرة الإنجليز إلى ما قد يقوم به أحياناً من عناء وتعبيل، بل وربما شعر بعضنا، عندما يلاحظ موقف الإنجليز من هذا الأمر بأنه دليل أصغر على «تحتف» وعدم «تدبى»، يصف إلى العديد من الأدلة الأخرى. ها قد دار الرمز دورته وأصبح الإنجليز ينظرون باحتقار إلى أى شخص لا يبدى «تعبها» لشعور الشذوذ ولا يقلل ما يقدمون عليه من تقارب جسدى فى الأماكن العامة، ويبدى أى اعتراض أو يتبرم بإصرار استوداع على التعبير عن مشاعرهم على الملأ وبلا حجل، تأكيداً منهم على أن هذا التعبير هو حق من حقوق الإنسان وأن هذه العلاقة التى يمارسونها ليست أقل «طبيعية» من علاقة الرجل بمرأة. الآن يعتبر الإنجليز أن من يستحق وصف «المتخلف» وعدم «التدبى» هو الذى يبدى أو يشعر بأى ندم إزاء هذه العلاقة لشذوذ. وعيب نحن المصريين، بالطبع، أن نعتاد هذه المديير الحديده فى الحكم على الأمور

اقترون هذا الانحياز نحو المريد من التحرر فى العلاقات الجنسية دافوع كبير فى معدلات انطلاق، وارتفاع مدهش فى نسبة ممارسة الجنس بين المراهقين، وفى نسبة الفتيات المراهقات اللاتى يصمحن أمهات دون رواج، ونسبة «لعائلات» أو ما سمي بالمعائلات، التى يعيش فيها الأطفال مع الأم دون الأب، أو مع الأب دون الأم. وأصبح المثلث أن نجد امرأة لم تتعد العشرين بكثير تعيش مع صبيها أو طفلتها بعد أن تركهما الأب، أو تركت الأب، وتعتمد لمواحيه دعات معشها هى

وطفلها على معونة شهرية من الدولة ، وتعسر هذا من حقوقها على المجتمع طالما كانت هذه الظروف تمنعها من الاشتغال بعمل تنكسب منه

كتب في أوائل السبعينيات قد استمع إلى محاضرة لأسناد بحيرى مخصص في التاريخ الاجتماعى، تطرق فيها إلى الحديث عن طاهرة كانت لا تزال هي بدايتها في إنجلترا في ذلك الوقت، ولكن الرجل أدرك خطورتها وأهميتها، وظهر صدق حديثه مع مرور الوقت عندما عادت هذه الطاهرة وسادت في القسم العربى كله، ثم في بلادنا أيضاً. كان الرجل يشير إلى حبوب مع الحمل، التى تشير إليها الإنجليز الآن بكلمة وحدة صغيرة هي "الحبة" (The Pill)، فقال إن هذا الاختراع سوف يحدث في المجتمع والأسرة والعلاقات بين الناس بوجه عام آثاراً لن تقل في أهميتها عن آثار اختراع الآلة البخارية. كان الرجل يذكر بالطبع فيما يخصه هذا الاختراع الحديث في فصل بين ممارسة الجنس وبين الإغاث، وما لابد أن يعبه هنا من بداية النهاية لهذه الحجة لطوبيل جداً من تاريخ الإنسانية الذى عرّض فيه هذه العلاقة بين ممارسة الجنس والإغاث مختلف أنواع الصيود على حرية المرأة وارتحل على السراء، وبمؤسسات وتطلمات اجتماعه عرفت اعتبره الإنسان من المدهيات أو حتى من المدهسات التى لا يجوز لمسها. فإد بهذه الحجة المدهشة تقهّد كل هذه المنظمات والمؤسسات في الصمم وتشر الشكوك حول ضرورتها وجزائها

كان من بين هذه الأثر الخطيرة بلا شك ما بدأت امرأة تحظى به من حرّيت لم يكن لتحلم بها، ونمو الحركات النسوية نتيجة لذلك أو مقترنا به، و لتدهور الذي أصاب العائلة وارتفاع تكاليف الطلاق. إلحاح من لقد قرأ ب عدم اجتماع أمريكي رأياً يربط بين هذا التحرر والذي حققته امرأة وبين انتشار ظاهرة الشذوذ الجنسي. فإذا أصبحت المرأة قادرة على ممارسة الجنس دون أن يتربط على ذلك إيجاباً، أصبحت معرّضة أكثر فأكثر، لأن تعيش مستقلة عن الرجل، كما شعر الرجل شئ من التهديد إذ ما اكتسبت المرأة من قوة جديدة واستقلال عنه، وهي قوة قد نجح بعض الأنواع من الرجال وقد بدعهم دفعاً إلى نوع آخر من العلاقات الجنسية

المدهش في ظل هذه الظروف كلها، وعلى الرغم من هذه لدرجة غير المسبوقة من التحرر الجنسي وسهولة تكوين العلاقات الجنسية الخططة التي لا نلزم أحداً بشيء، أن ملاحظ مدى سيطرة الجنس، ودرجة غير مسبوقة أيضاً، على مختلف وسائل الإعلام ومختلف أنواع الفنون، سواء في الأدب أو السينما أو المسرح أو الأغاني أو الفنون التشكيلية، كان من المعقوف جداً أن متوقع أنه كلما تحرر الناس من القيود التي تفرضها التقليد والقيم السائدة على الجنس، قلت سيطرته هذا الموضوع على الأدباء، وانصرف الدهش إلى التفكير في أمور أخرى ومشكلات أخرى ولكن بعكس البصط هو الذي حدث من وردودة مع الزمن فلا زال موضوع الجنس يُعتمد عليه في جذب الجمهور إلى القيم الحديثة والمسرحية الحديثة والسلع الحديثة، ولا زالت الصور الجنسية تعتمد عليها الصحف والمجلات لزيادة التوزيع وكسب قراء حدد. ولا زال مصمموا الأزياء يتفتنون كل عام، ويتباهون بمصممهم في استغلال نفس المدفع ونفس لميول لترويج أزيائهم الحديثة الخ

إلى أقارن الآن بين ما كنت أشاهده من أفلام ومسرحيات وبرامج تليفزيونية وما كنت أقرؤه في الصحف ومجلات في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، أثناء سنوات إقامتي الأولى في إنجلترا، وبين ما أقرؤه أو أشاهده الآن كلما زرتهم من جديد، فأجد اكتمالاً صارخاً ومزاييد انقوة موضوعات الجنس على حساب الموضوعات الأكثر صلة بالمشكلات الاجتماعية أو الأخلاقية والأصعب صلة بالعلاقة بين الجنس. لقد أحدثت هذه المسرحيات والأفلام التي تناولت مثل هذه الموضوعات، أحيرة شتاء شتينا فشتينا، وأعلقت أُنوب بعض دور السينما التي كانت تعتمد على جمهور هذا النوع من الأفلام الحادة، كيف يعبري من (Everyman's) في هاستيد (Hampstead) أو سينما الأكاديمي (Academy) في شارع أكسفورد (Oxford St) ومالت المسارح التي لم تكن تعرض إلا مسرحيات تشيكوف أو بريخت أو سارتر أو برناردشو وأمثالهم، إلى تقديم مسرحيات من نوع مختلف يعلب عليها الجنس أو تعتمد على الموسيقى والغناء والرقص حدث تطور مهم بلا شك في أدواق الناس وفي معدلات الربح التي يحققها هذه الأنواع أو تلك

من المسرحيات والأفلام صحيح أنه لا زال من الممكن أن يرى في لندن أفضل ما يتجه مؤلفو المسرح ومخرجو السينما في العالم العربي، بل ربما كان من الأسهل أن ترى في لندن أفضل ما نتجته محرجو السينما المتشوقون لشعاعات أحمر، من أن تراه في أي بلد آخر في العالم، ولكن من المؤكد أن بسبب العث إلى اسمين قد ارتفعت بشدة، وأن الدفوق السائد فيما تعرضه للمسرح أو دور السينما في لندن قد أصابه تدهور شديد لا يعادله إلا الارتفاع الكبير في العقود التي أصبحت تنكفئها الأفلام الحديثة والمسرحيات الأسرع أصية وبعائية

حدث تدهور مماثل فيما يخصه التلفزيون وما نشره الصحف والمجلات وما تخرجه المطابع من كتب. بددت السرعة في الكتابة والفرقة على الهواء، كما راد الاعتماد في ترويج كل هذا (الصحف والمجلات وبرامج التلفزيون وأفلام السينما والمسرحيات) عبر وسائل لا تختلف عما يستخدم في ترويج السلع. الإلحاح، والتعجيز، واللاؤد، والصور المثيرة ومحتف أشكال الإغداغ، سواء فيما يكتب على أغطية الكتب من وصف غير صحيح لمحتواها، أو ما بعده ما نشتت الصحف أو عابرس المقالات و إعلانات الأفلام والمسرحيات من أشياء لا نجد لها القدرى أو مشاهد أثرى الحقيقة



حب، بل يجب مع انتشار نمط المجتمع الاستهلاكي واكساح نظام السوق بحيره من النظم، بدأ المجتمع الحديث يندى تسامحاً أكثر مع الأقليات ومغورا متريابا من التعبير بين الناس على أسامس اللون أو الجنس أو العبيدة. كان الرجل الأسود مد نصف قرن يلقى في المجتمعات العربية معامه شديده لإجحاف، كما كان الأوروبيون يطغرون سعال وسحريره إلى أصحاب الثقافات المغايرة لثقافتهم من كان يصور مد حمصين عاماً أن يصح لاعو كرة اقدم من السود أعصفه في القربى «سومي» لدوية أروسة، أو أن عظى سطولة ويمجدون في التشر شققستان أمر بكتان سوداوان، وأن يحظى هؤلاء للاعاون وهذا القنادب بمعاملة لأبطال إذ حليوا كل هذا بشرى للدولة التي يتسوب إليها أو من كان تصور أن عمتى شوارع

مدينة مثل لندن معطاعم ومقهى تقدم مأكولات من كل صنف وتنتمي إلى مختلف الثقافات والأحاسس والمذرت، ويذهب إليها للإعجاز أكثر مما يذهب إليها لأحاطة؟ أو أن يرى شوارع لندن ومحللاتها مكتظة بالأحاسس المختلفة حتى ليصبح من الصعب أن يصدق أنك في عاصمة الشعب البريطاني؟ نعم، لقد سوى نظام السوق والتطور التكنولوجي (أو كاد يسوى) بين الجميع، فمضى أو كاد يقضى على أى تميز لأحد عن غيره، وعلى أى محاولة من جانب الصفوة من أى نوع، سواء كانت صفوة اجتماعية أو ثقافية أو أخلاقية، لتميز نفسها عن الباقين بل وما هو نفس التطور لكاد يقضى حتى على أى محاولة للرجل تمييز نفسه عن المرأة، و للمرأة تمييز نفسها عن الرجل. وما أكثر ما سمعنا ونسمع من تصفيق وترحيب بهذه التسوية بين الناس ولكنى أجد في نفس شعورنا بالخوف المستطير من أن تكون هذه التسوية أشبه ما يفعله «وانور انرلظ» إذ يسوى ثقته كل ما يسير فوقه وكثير ما يحظر لي أن أشتا شئها بهذا هو ما فعلته، ولا زالت فعله، حضارة السوق بالأشياء ونام على السواء فعدت رأيا شئنا بعد آخر، أى كان مجاناً، متاحاً للجميع، أصبح محلاً للمع والشره، أخذ البيع والشراء يشعلا الناس أيضاً وعندما يصبح كل شىء محلاً للبيع والشراء، يروى أبصاً أى معيار آخر لتمييز بين الأشياء والأشخاص

- ١٠ -

في أواخر سنة ١٩٧٠ حدث لي حادث طبع، أو على الأقل اعتبرت كذلك حينئذ، قضيت سنة أيام من آنسى أيامى على الإطلاق

كتب وقها في الخامسة والثلاثين من عمري، وقد انقضى على حصولي على الدكتوراه ورجوعي إلى مصر ست سنوات، قضيتها مدرسا ثم أستاذا مساعداً في الاقتصاد في كلية الحقوق بجامعة عين شمس، و ثلاث أحياناً لبعض الوقت للتدريس في الجامعة الأمريكية، وسافرت خلالها إلى إنجلترا أكثر من مرة لقضاء حر، من عطلة الصيف ومعى زوجتي وطفلاتي في ريادة برانديها في بلدتهما في

شمال شرقى لندن كنت أذهب خلال هذه الرحلات إلى لندن للاشتقاء ببعض
الرملاء القدامى، وقد أمرت على أستاذى القديم روبير (Robbins) للتحية، وبكى
نادرا ما كنت أحاول زيارة الأستاذة الأمريكية التى أشرت على خلال تذكره
إديث برور (Penrose)، فلم أكن أقبلها إلا مضطرا

طلعت دائما أحمل حاضيا وشعورا بالامتداد لأستاذ روبير ثم أكن أشعر
متشهما للأستاذة برور لم أكن أشعر بحوله بأى صعوبة. وقد طلعت علاقتنا ودية إذ
لم يسع أحدا منا قط إلى الآخر، حتى ذلك الوقت على الأقل، ولكنى كنت اعتبراها
دائما أستاذة عديدة، بلعت ما بلعته باجتهادها وطموحها دون تمير خاص يريد عن
المألوف، لا عقدا ولا حلقا، وعندما شرعت مرة فى اختبار الإهداء الذى ماصدو
به كتابى الأول لى من فى إنجلترا ويتخصص ربنتى للدكتوراه، هديت الكتاب
إلى شخصين لم يكن هى منهما، فجاء لأحد «كلأى» إلى أبى الذى علمى حب
الكلمة المطبوعة وإلى أستاذى روبير الذى علمى ألا أقدمها. كنت هذه العبارة
تطوى على بعض المسألة فى راحتى، إذ من الصعب أن يتعلم امرء «حب الكلمة
المطبوعة» من شخص واحد، ناهيك عن تعلم «عدم نقديةها» ولكنى كنت
مدفوعا بالضع بالرغبة فى أن يكون الإهداء سيعا ومؤثرا على أن ابنتى يهمنى الآن
أنى لم أذكر الأستاذة برور فى الإهداء، ولا حظرت أن أذكرها، مع أنها هى التى
أشرت على بحثى ابنتى يتخصصه الكتاب، وهى التى أشرت على الإيجليرى به
هو من على شجرة، إذ أبى لم أكن أشعر بأى امتنان نحوها من أى نوع، وقد بدا عليها
الاهتمام عند قرأت الإهداء ولكنها لم تدقق عليه فقد وجهت إليها الشكر
التقليدى فى المقدمة من بين من شكرت، ولكن اسمها ورد ضمن عدد كبير من
الأشخاص الذين لم يساهمو فى الكتاب مساهمة ذات شأن، ومنهم السدة التى
كتبت لرسالة على الآلة لكاتبه

هى إحدى ربانتى لندن قائدة رئيس قسم الاقتصاد بكلية للدراسات الشرقية
والإفريقية بجامعة لندن، وكان شأن الإيجليرى رفيعا متحصصا فى فساديات الشرق
الأقصى، وهى ابنتى وصيفة مدرستى لاقتصاديات الشرق الأوسط سوف يعلى عنها
هريب من كيت وشجعت على التقدم لها ووعدت بمزارعتها

مرحت بالخبر فرحاً شديداً، ولم أتردد لحظة في التقدم للوظيفة كنت وقتها أعتبر الحصول على وظيفة أستاذ في جامعة لندن أفضل مما يمكن أن يحدث لي في حياتي الأكاديمية، وكانت كل الظروف الأخرى تشجع على اتخاذ هذه الخطوة أن يعيش في لندن، تلك المدينة العظيمة، ولو لصنع سواب، وبالتقريب من والذي روي حتى، فتعوي علاقة طعنى بهما. والوظيفة سمح لي بأن أشتري بيتاً بتقسيط، طبقاً لنظام ادأوف في إنجلترا، فسكن متاحة بقية جملة لا يبعد كثيراً عن فصل المسرح ومعارض الموسيقى ودور السينما التي تعرض أفضل ما يمكن أن ينع من أفلام. كل هذا فضلاً بالطبع عن فرصه الفرع العام للبحث والكتابة، إذ توفر الجامعة الوقت الكافي بذلك وكل أراجع العلمية التي قد أحاس إليها، بالمقارنة بمعوى اتامة التي تنسم به حياً في مصرى لا يكاد يسمح بعمل أى شىء دى شأن على الإحلاقى، كما اكتشفت في السنوات الست التي انقضت على حصولي على الدكتوراه ولم أُنشج فيها شيئاً دالاً، المهم! لا يصع مقالات كتب على عجل عن اقتصاديات البلاد العربية، ومقالات كتب على عجل أيضاً عن عصر نظريات ابن خلدون الاقتصادية

لم يحظر مالي قط أن اتصل بالأستاذة سرور لأستشرها في تقديمي للوظيفة، وكانت قد أصبحت أستاذة في الكلية التي رُغب في التعيين فيها، إذ سم يحظر بي لظ أن يكون من الممكن أن تعرض على ذلك، وطلب أن محرد تشجيع رئيس القسم بي على تقدم للوظيفة، فضلاً عن شعوري باستحققي لها، كحيداً لصمان حصوي عليها. تقدمت إذن للوظيفة وأُرسلت بي جامعة لندن مذكرة للحصول بي إنجلترا لمائة الأثلفة المحتص وعمد الكلية، فظلت أن هذه المعلقة أمر شكلي بحث لاند بي يتهى بتعيني، وسافرت إلى لندن مبتهجة وواعد نفسي بمستقبل موعر وبداية حية مثمرة

فوحثت بمقابلة رسمية للعباية، وإدائي أحسن أمام ستة أو سبعة من لأساده الكسرى في عرفة صيد الكلية الذي رأس الاحتماج، وشعرت بأنى من امتحان عبير توحه إلى فيه لأسنله بقاصيه من كل صوب، وشعرت بمعدوانيه من العميد في

حتى ياره للأسته التي وجهها إلى. ولكنى فوجئت تمام بعد وابه (اصحه من الأستاذة برود نصمها التي كنت أظن أنها سوف تحاول تسهيل مهمتى . أما أكبر قدر من بعدوانية فقد جاءت من الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis). المزج لشهير ، الذى كان نفسه لا يزال أستاذاً فى نفس الكلية قبل أن ينتقل إلى جامعة برنستون فى لولايت المتحدة، ثم سمعنا عن دوره فى رسم السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط بمناسبة أحداث ١١ ستمبر ، ثم قرأنا كنه القطيعة ضد العرب والمسلمين التى كتبها فى أعقاب تلك الأحداث وحدث رو حاً كبيراً

عندما سرحت فى ذهني فيما بعد الأسته التي وجهت إليّ خلال هذه المقابلة لم يزلنى شئ فى أن افكر بر بعض تعيبي كان قد نتج من قبل أن أحضر إلى لندن ، ولما اضطررنا لإجراء المقابلة مرة أخرى ليحضر الشكليات ، ومرامعه لشعور رئيس القسم الذى شجعت على التقدم للوظيفة

كانت الأسته من نوع "لماذا يكتب عن الاقتصاد العربى وليس عن اقتصادات الشرق الأوسط؟ وما الذى دفعك لكتابة عن بن خلدون؟ وهل أنت على استعداد لتعلم اللغة التركية؟" (هكذا كانت أسئلة برود لويس). أو "هل تريد المحي؟" (لأن بسبب صغر من أطفالك وهى بنت ترك ابوظيفة بعد سنوات قليلة؟) (هكذا كانت أسئلة العميد) أو "لا ترى أن كتاباتك بعد الحصول على الدكتوراه بحسبة الصنة موضوع وسالة (دكتوراه) أو لم يكن من الأجدر لك لالتزام بتحقيق وعدم التطرق لموضوعات بعيدة عن موضوع تخصصك؟ أو هل تستطيع حقا التدريس فى حصول تتكوب من أعداد صغيرة من الطلاب وأنت قد تعودت على المحاضرة أمام عدة مئات منهم؟" (هكذا كانت أسئلة برود) لا أذكر أى سمعت سؤالا منجيب إلا من رئيس القسم ، ومع ذلك فقد خرجت من لقائنا وصيا عن أدائى ولم يحضر بيالى فقد أن استيحه لى سرف يحطرونى بها بعد خروجى بدقائق قليلة فى الرقص

كنت الصدمة شديدة وبخه الأمل كسرة . ولما حدثت أفكر فى الأمر بهذوء بعد رجوعى من مصر ، إذ حجت أن برود لويس كان له التأثير الحاسم على

السبق، بين يهيم العميد بعصه، وأن سرور بدورها لم تجد لها مصلحة في محبته
 إنه أكن أدرك وقتها إلى أي مدى يدس برنارد لوس بالولاء للصهيونية، ولكني الآن
 لا أشك في دوافعه إلى رفض تعسى مدرت في تلك الوظيفة. بي لم أعرف يهوديا
 واحدا في حياتي لا يسيطر عليه ولاؤه لإسرائيل، ولا يصرب الصبح عن أي
 عبر آخر إذا تعلقت منه هذا الولاء أن يتصرف على نحو معين. ولأن أن برنارد
 لوس سأل بعصه عن لمصلحة التي يمكن أن يحققها لإسرائيل نعين اقتصادي
 مصري واعد، يظهر من كتاباته أنه يهيم بحال العرب في وظيفه في جامعة مهمه
 نتيج به الاتصال المستمر بطلته من محتلف حسيات والأرجح أن يكون قد سمع
 من سرور أو من عميسرها سم أبي، ولا أشك في أنه يعرف من هو وأه. انذرح
 الإسلامى ادى يهيم بدوره أن يهيم العرب والمسلمون من كونهم إلح كان
 لاند إادن أن يرخص سرور لوديس بعصى. والرجل كسر السطوة وقرب من وولاره
 خرجية سرطيديه اقريبه بدوراه من كلية الدراسات الشرفيه والإقريبه، فلا بد أن
 يكون لمرحل نفذرة على التأثير في عميدها أما لأسادة سرور، فمى صوء ما
 أعرفه عن شخصيتها وطموحاتها، م الذى يمكن أن نجيه من مجيء اقتصادي
 مصرى في مقس النعم، يعرف اللغة العربية أشى تتظاهر بمعرفته بعكس الحقيقة،
 ويعرف عن حوسب الحياه لاجتماعية والثقافية في مصر ما تجهله أيضا، وهو على
 أي حال لا بدو أنه يحمل لها تقديرًا كبيرًا أو احترامًا، والى

هكذا اسفر رأيي ونميسري لما حدث وفروث ألا تكون بيبي وبين سرور أي
 علاقة بعد الآن، وأن أرفض الالتقاء به في وروجه إذا جاء إلى مصر في زيارتهما
 لهما بين الحين والآخر وهذا هو بالفعل ما حدث. فلم جاء إلى مصر بعد شهر
 قليلة، واتصلت بي كلمت دهرست ممانلتهم، وكان من الواضح لهما سبب هذا
 الرفض

كأن روح يديت سرور إنخيارب فاصلا بكرها في لسن كثيرا كان قد تجور
 السعن، وكان أستذا مرموقا في علم سكان وله مؤلفات تحطى بالاحترام، وكنت
 أحذه وحلا محضر للعامة، كرى في معامنه لسان، وواسع الأفق والثقافة. وقد

أسست لاضطراري لمقاطعة سب ما فعلته روحته ثم جاءه ده على موقفى مراد
تقديرى له وإعجابى به فقد تسلمت بعد أيام من روحههما إلى لندن حطان طويلا
مه ، يصل إلى ست أو سبع صفحات ، يقول فيه إنه بهم تمام قوة شعورى بحية
الأمل ، ولكنه يرجو أن أتعلب على هذا الشعور ، وألا أدع ما حدث يترك أثرا باقيا
فى نفسى ثم أحد بحكى لى فى الخطب قصة بعد أخرى مما حدث له فى حياته وما
حلته له هذه السحرة أو تلك من حبه مل ثم تين له فيما بعد كم كان يبالغ فى
أهمية ما حدث له ، وأن كثيرا ما اعتبره كثرته تدعو ، إلى الإحباط الشديد ، تين له
فيم بعد أنه كان يطوى على حير عقيم أرسلت له ردا أعبر فيه عن امتنى لعطفه
وبل مشاعره ولم تمض سنة أو سنان حتى كت قد سبت لأمر برمته ، بل
وتيب لى بعد مرور بضع سنوات أخرى صحة ما قاله الأسد معجور عن لكثرة
التي قد تطوى عن حير عقيم ولكنى لم أعبر رأى بالطبع فى روحته انتفيت بها
بعد ذلك مرتين أو ثلاثا فى مدينة صغيرة قريبة من كامردج حيث اثثرت لنفسها
مر لا تعيش فيه بالقرب من ابهى بعد أن مات زوجها وأحيلت هى إلى المعاش
وكانت تذى حرصا شديدا على أن أتصل بها كلما جئت إلى كامردج ، ودعتى أنا
وروحتى لتناول عشاء مع ابهى فى حديقة منزلها ، وكان يطيب لها أن تستعيد
ذكرات السنوات التى قصتها أستاذة فى كسة لندن للتصدد وما حدث بها ومن
هذا الطاب المصرى أو ذات ثم جاءنى خبر وفاتها وهى على مشرب الشاميين ،
وكت قد تحلصت من كل شعور بالمراة إراءها ، وبكى لارلت أعتقد أنى لم أكن
لأحسر كثيرا لو لم أعرفها فى حياتى قط



بعد هذه الحادثة تأفل من عام جاءنى عرض صاك معربان فى وقت واحد ، حرت
حيرة شديدة هى الاختير بينهما عرض من الجامعة الأمريكية ببيروت تعبى
أستاذة مساعدا للاقتصاد ، وآخر من مؤسسة فورد لقضاء عام كامل فى أى مكان
احتاره لكتانة بحث أو كتاب أكون قد دأبه ويحتاج إلى عام من التفرغ لإبهاته كان
لكلا العرضين مراده ابوا صحة ، وطال ترددى فحاولت أن أحصل على موافقة

الجمعية الأمريكية لسرود، أو مؤسسه مورد على أنحل العرص عما واحد، نامل
 الحمع بين لاتبين قسم أفتح رائدء مرورى بهده اخيرة وابتدد الطويل تصادف ان
 فابت رحلا سب من أقاربى، كنت أعرف عه الحكمة وسداد الرأى كان قد جاور
 الثعائين، واستمع إلى مشكلتى فى لاحتياز بين شيتين كلاهما طيب، فكأن رده
 محتصر وحاسما «الحققة با جلال أن حشارك لهذا العرص أو ذاك س يكون له
 أثر مهم على الإطلاق فى المدى الطويل، وب المسألة كلها لا تستحق كل هذا الملق
 أو اخيرة» رأنا لا أشك الآن فى أنه كن على صواب

- ١١ -

كب فى صباى، وفى مقل الشباب، أنصوّر أن ثمة ما يمكن تسميه «الحقيقة»
 أوه حقيقة الأشياء، أو أ هالك «إجابات نهائية وحاسمة» على لأئلة مهمة اتى
 تشعل ساء، وأن كل ما يحتاج إليه لاكتشاف هده اخيره أو هده الإجابات النهائية
 هو أن نقرأ الكتب والمفالات التى كهب كتاب تشمر بالحكمة، وأن شاهد
 المسرحيات وأفلام الحيدة، وأن نسمع إلى الموسيقى برفيعة هكذا كما نطق،
 ومن ثم شعرتا بأن قراءه رمث هده هده الأشياء، والاستماع إلى هده الموسيقى،
 لمست مجرد عمل معد أو جدير بإنشاء بل واجب من بوجبت اتى بلام المراء إذا
 فصر فى ادانها هكذا اعتبر ابعب معصرين إذا لم تكن مثلا قد قرنا بعد «الحرب
 والسلام» لتولسوى، أو الإحوة كراماروف لستويمسكى، أو كتاب «راس المال»
 لكروب ماركس أو «أصل الأنوع» لداروين، أو لم شاهد شكسبير أو بريحت على
 المسرح، أو أفلام دى سك وبرجمان فى السم، أو إذا لم يكن تطوع التمرين
 موسيقى باح وهندس، أو بين موار وبيتھوھن. سبح من أذكر أنى أشء سوت
 السعنة فى إنجلترا كنت أشعر بتأنيب لصمير، لبس فقط إذا لم أذهب لمشاهدة
 مسرحية شكسبير تمل فى مسرح قرب، أو حضور حفلة موسيقية فى صالة
 الموسيقى الكبيرة (Festiva Hall) الواقعة بحور، حبر وترلو، على بعد خطوات
 عليه من كليتى، من كب أشعر بوحر الصمير أيضا إذا انقضى يوم لأحد دون أن أتم

قراءه صحفة «الأومرور» (Observer) الأسوعية، بتعليقاتها السياسية ومقالات
للمدعى إلى

كم تغيرت نظرتى إلى هذه الأشياء كنه، وكم تسد لى الآن نظرتى بتدعيم
معرفة فى القول، بل أكاد أقول فى السداحة أيضاً، إن هدف من قراءه الكتب
والصحف ورؤية امس حيات والأفلام والذهاب إلى حفلات الموسيقى، لم يكن
مجرد الترويح عن نفس أو «تسبية» بل ولا كان مجرد ردة معلوماتنا عما جرى
فى العالم، بل كان هدف «المهم» والوصول إلى «الحقيقة»، ولكنى لم أعرف إلا
بعد سنوات كثيرة كم هو صعب تحقيق هذا الهدف، إن كان ممكناً على الإطلاق
فالصحف وبشوات الأخبار فى الراديو و التليفزيون سهاى علينا كل يوم بكمية هائلة
من المعلومات، ولكنى أعرف الآن أن زيادة المعلومات كثيراً ما تؤدي إلى تضليل
المهم بدلاً من زيادته، خاصة إذا قدمت إليك على النحو الذى تقدمها به، بيا عدة
وسائل الإعلام أخبار سريعة وغير مترابطة وحالية فى معظم الأحيان من أى
تحليل، وتختلط فيها المعلومات الهامة بغير الهامة، الضرورية مع غير الضرورية
لقد اكتسبت أيضاً بعد سنوات كثيرة، أن أكثر الكتب هى أيضاً من هذا النوع
الذى يعطينى من المعلومات أكثر بكثير مما يعطيك من التحليل والفهم، وأن هذا
التحليل، إذا وجد، نادراً ما يصب على الجوهرى ولهم، نادراً ما يجب على
الأسئلة التى كنت تنتظر أن يجب عليها، ومن ثم نادراً ما يريد من فهدت لشيء
تريد فهمه

بعض معروف أن عناوين الكتب كثيراً ما يكون صعبه الدلالة على ما عثره،
ولكن حتى إذا كان العنوان يصف محتوى الكتاب وصفا صادقا، ما أكثر ما يحب
الكتاب أمثل بعد قراءة فصول ثلثة منه، وكشف أنك أنه لا حاجة لك إلى إتمام
قراءته. بل أنظر الآن إلى عشر كتب التى تسدول موضوع «السميه لاهفاديه»
من مختلف جوانبها، والواقعة الآن على رفوف مكتبتى، فلا أشعر بأى أسف إذا
حدثت وفدت العائلة العظمى منها، إذ أن هذه العائلة العظمى لم تحب على أسئلة
تسردى فعلا معرفه الإحاده عليها، ولم تردنى فهم بالأسباب الحقيقية لتفكرار

بالتفكير الصحيحة للقضاء عليه. ولكن أستطيع أن أقول بعض الشيء عن معظم الكتب التي قرأتها في بقية فروع الاقتصاد، وهي عبر الاقتصاد من العلوم لاجتماعه. نعم في كثير منها ممارس عقلي شائقة، ولكن هذه الممارس العقبية أقرب إلى التمرينات الرياضية التي تقوى الجسم ولا تغذي، فهذه أيضاً تقوى عضلات العقل دون أن يريدها فهما للمشكلات التي يتكلم عنها

الخروج أورويل قول طريف يعرف فيه الكتاب الجيد بأنه «الكتاب الذي يقرب لك ما كنت تعرفه من قبل». إنه إذن ليس الكتاب الذي يضيف إلى معلوماتك، فهذا النوع من الكتب لا يقرب لك ما كنت تعرفه بالفعل، ولكنه يكتب الذي يدعك تفهمك لبعض الأمور. وقد ينظم هذا الفهم ويربته، فريد من وضح هذا الفهم في ذهنك، ومن تثبت صحته. أورويل يقصد أن يقول أيضاً، فيما أظن، أن أفضل الأفكار وأهمها هي أسعد الأفكار وأسهلها، ومن ثم فليس من الغريب أن تنظر على ذهن الكثيرين، فيما يكتب الجيد بعد لتأكيدهم وتوضيحها. ولكن الجمعية أن أكثر الكتب لس من هذا النوع، بل أكثرها شبر أسئلة غير مهمة وتوجب عليها إحداث غير متعمه فكيف لا يجب فيها الأمل؟

لهذا بسبب أعتقد أن أستاذي القديم (مصطفى بدران) الذي أعطى الدروس الوحيدة التي تلقيتها في علم الكيمياء في حياتي كلها، وكنت في الثالثة عشرة من عمري، كان علي صواب عندما كان يصرّح ألا يتكلم في موضوع لم يتأكد بعد من رغبته في معرفته وفهمه، وألا يقدم إجابة على سؤال لم يفهمه من وراءه. حل كان وراء هذه الطريقة في التعليم نفس الافتراض الذي يكمن وراء تعريف أورويل للكتاب الجيد، وهو افتراض أن الكلام الجيد مائة بالمائة لا يمكن أن يشكل «معرفة» حقيقية، بل يجب أن يكون الكلام، لكن يكون له فائدة حقيقية، صدى لما كان دور من قبل في ذهن المتلقي؟ وهل وراء هذه النظرة إلى التعليم وهذا التعريف للكتاب جيد بعض الفكرة، أو فكرة رئيسة لصلته بكان يقصده الشاعر الهندي طاغور في مقطوعته شعرية المحبلة التي سبق لي اقتطاعها، والتي تعزل

لقد ألفت ثروته طائفة في السفر إلى شواطئ بعده، فرأت جدلاً شهقة ومحيط لا يحدّها حدّ، وبكى لم أحد مسسما من الوقت لأن احطو بصع حطوات فيلة خارج مربى، لأظر إلى قطرة واحدة من اسدى، على ورقة واحدة من ورق العشب؟

ربما كان فيما عرفة عن حياه بحب محفوظ شئاً يدعم نفس الفكرة، فدرحن الذى عرش حتى ملح الحامسة والتسمين وأنتج كل هذه الروايات التى حارت إعجاب الكثيرين وحسنت له حائزته نوبل، كان كرها للترحال بدرجة تمت البطر كان موصفاً انبساطها مدهشاً عديده وجيه والمقهى الذى يجلس فيه كل يوم، ويرفض رفضاً تاماً أى فرصة تتاح له للسفر لرؤية بلد جديد وتجربة أى منط محتف للحاء وكأن تجاربه الحديدة، وهى بلا شك كثيرة جداً، كبت تدور كلها داخل رأسه نعم، نحن نعرف أيضاً أن بحب محفوظ كان قارئاً بهيماً، ولكن ما أقل إشادة بحب محفوظ بكتب يعيهم بأعسارهم أصحاب فصل كبير على أدبه وفكره، وما أصعب أن شئ تأثيراً لكتاب معي يعوق تأثير غيره، وكان المهم، فى حالة بحب محفوظ، ليس ما قرأه من كتب بل ما صنع دهب بهذه الكتب، أو على الأرجح ما حواه هذه الكتب لدمعه مما كان يدور بذهنه من نبل



دارسى مرة أخرى حسين، أثناء عشتى فى لندن، ووجدنى أقرئ فى كتاب جوزيف شومپتر (J Schumpeter) المصمم «تاريخ لحيل الاقتصادى» (H story of Eco nomics Analysis) وهو كتاب يقع فى أكثر من بع صفحة ومطسوع بحروف صغيرة، فإذا بحسين يعتر عن أسفه صاحك أن يكون هذا لكتاب اقتصاد وليس رواية، إذ ما أصبح كل هذه الصفحات، فى رأيه، إذالم تتضمن عملاً روائياً! وقد مرّ على وقت كت فيه مثل حسين، أحمل كل هذا لإعجاب بالآداب، وأعلق عليه أهمية كبيرة، مثلكم كان حسين يعنى عليه من أهمية فى كشف «الحقيقة» أو فى فهم «حقيقة الأشياء» فى ذلك الوقت كمت إذا شرعت فى قراءة رواية

اللامسكة شهيرة أو في مشاهدة مسرحية ككاتب كبير وتقوم بمثلها هرقة مرموقة، أو قدمت لرؤيته فيلم محرج لاعم، أو توقع أن يصبح خالي بعد هزاة الرواية أو مشهدة مسرحية أو الفيلم محسناً جداً عن حالي قبلها، أو أن أجد في حيلة أو لقطة من الرواية، أو في موقف إحدى شخصيات الرواية أو مسرحية أو الفيلم محسناً بموقف أو جاذباً في احده، أو حكمة يصع جداً لتذكر من ساء لاأنا عن معنى الحياة، أو عن سر السعادة وؤس الع

لاشك أن فترة دراسة في بحثنا قد صرحتي عما كنت أفعه قبل معرفي من الإنع على الأعمال الأدبية في صورها المختلفة، كما أدت كثرة قراءتي لكتب ومقالات الاقتصاد إلى إصعاف حاستي الأدبية ومن حماسي لأى نوع من الأدب وكنى عديت أقرأ من حديد بعض الروايات وأشهد بعض المسرحيات والكثير من الأفلام تبت أنى كنت أطلب لمستحيل، وأن كُتّاب الرواية والمخرج والمخرج السينمائي ليسوا بالضرورة أكثر حكمة من غيرهم، أو أكثر الناس معرفة بحقائق لأتباء بهم فقط فانبوا، أى لديهم من نبوة ما يمكنهم من رواية البصه أو كنه الخوار أو إخراج الفيلم على نحو خداد ومثوق ومثير، أى ما يمكنهم من ساج عمل فى بأسر انقراء أو مشاهدين بحمله، دون ان يتسم بالضرورة بالعمق أو عداد بصيرة رأيت أن هذا الذى كنت أوقعه فى الأعمال الأدبية ونسبة لا ير حد حصة إلا فى أعاد عدد صغر لنعابه من وهو انهاده لنسبه والحكمة من نفس الوقت، ولكن ما أكثر لفتائير اندي لا يمتون على جمهورهم فى الحكمة وسداد الرأى وهؤلاء لا يمكن للمرء ان يوقع أن يحصل من أعصاهم النية على أكثر من مجرد لتزييه والترويح عن النفس

مع مرور الوقت أدركت أيضاً خطأ اعتقادى بأن فى الموسيقى شئ برود عن مجرد «النس» أى بأن الموسيقى يمكن أن تغلبنى مسمعه «فكر» أو «فهم» من أى نوع يشه ما يحصل عليه قارئ الكتاب أو المقال نعم هناك من أنواع الموسيقى ما يمكن اعتباره «أرقى» من غيره، ولكن التميز لها يتعلق بعمق الإحساس ونسب عمق الفكر

ما أشد الرهبة التي شعرت بها عندما حسنت لأول مرة في مواجهة الكاميرا مشترك في أحد برامج تلفزيون المصريين. كانت فكرة الظهور في برنامج تلفزيوني تراءى لآلاف المئمة من الناس تمتع في معنى سرور والخوف في نفس الوقت. السرور، بحمله التلفزيون من شهرة (أو من بطه كذلك)، والخوف من ارتكاب أي نوع من الخطأ ومن ثم لا يمكن أن يجسه هذه الشهرة من أثره عكس المطلوب بالنسبة ولكن سرعان ما ذهب خوف وقل السرور

ذلك أنسى بعد أن ظهرت في التلفزيون ثلاث أو أربع مرات، بدأ بعثري في الشعور بالصقيع من طريقة معاملة المشاهير بالتلفزيون لصيغتهم تين في أن حماسية البصريون تصفي على دعائهم فيه أهمية لا يسحقها معظمهم، إذ أنهم يتصرفون وكأنهم وعدناه بنصف التلفزيون وهذه الأعداد الصغيرة من المشاهير، فيصدرون الأوامر لهؤلاء لصيغ بالالتفات إلى اليمين أو اليسار، وبأن يتحركوا على هذا النحو أو ذلك، وتشعر بعد لحظات بأنك كالمخلوق أو الشخص الذي فيدت عندما ودعاه حشر في مكانه، وخرج الكلام معصاً ولا روح، ويشتد يقهقهه مقدم لبرنامج بإعلان الجمهور والضيوف بأنه لا بد من قطع الكلام لمشاهدة فصل من الإعلانات التي لا توجد صلة بينها وبين ما كنت تكلم فيه، من المماجية تماماً لموضوع الحديث. وقد نظن أن لديك قدره على الانسحاب وعدم الاستمرار في هذه التمثيلية التي تقدم وكأنها فرصة ممتازة للحر، والكلام بحرية، ولكنك في الحقيقة تدرك بسرعة من كل هذه الحذير وبصرمة التي يحاط بها برنامجك أن الانسحاب مستحيل، إذ أن هذا الجمهور الموحش الذي يستمر البرنامج، أو يفتر أنه يتفكره، يجب أن تبنى رغباته ويشجعهم ليسرّج على هؤلاء الحمقى الذين قدوا المحي للتحاور أمامه، ولا وظيفة لهم في الحقيقة إلا تلبية والترجيع عنه، وهو، أي هذا الجمهور الموحش، مستطيع في أي لحظة بصط صمعه على زرار صمير، أن يحرك تماماً من الصورة ويستعنى عنك

يستند بك راقصة أو معية أو فليما مسماثيا . وهذه الحرية المدعومة للحوار
التلفزيوني تمثل من مستنها بشدة قدرة دارة التليفزيون على أن يحددوا أي حملة
من حملات يعتبرونها مخالفة لسياسة العليا للتليفزيون أو للدولة ، دون أن يشعر
المشاهد بأن أي حذف قد حدث ، ومن ثم يحدد هيب التليفزيون نفسه وقد سب
إليه رأى غير رأيه

جسسى كل هذا أعقد اشقة في تليفزيون راقفد الرعة سواء في مشاهدته أو
الاشتراك في أحد برامجها ، يستشاء حالات امتثالة وأيت ، فها أن الرب مع جد
ويسمح بدرحة لا بأس بها من الحرية . وقد حاولت مرة أن أشتري عدم قطع
البرامج بالإعلانات ، فأهمسوى أن هذا مستحيل ، وأدركت أن تطهرون على
شاشة التليفزيون ، حتى في تلك البرامج لقليده الحادة ، إن تطهر بدافع واحد فقط
لدى مسجى البرامج والمثرفين على التليفزيون ، وهو تحقيق أقصى ربح يمكن من
الإعلانات

بعرت أيضا نظرس إلى المؤتمرات و ندوات التي لا تقطع في مصر وحدها
فأصبحت أعتبر معظمها بصاعة لوقت دون فائدة تذكر ، وأصبحت أذهب كلما
هكرت في حجم الأموال المطاثة التي تمنى على جلب المدعويين إلى هذه المؤتمرات
والندوات ، من أقصى أركب الأرض إلى مكان المؤتمر ، وعلى إقامتهم في الفنادق
المعاصرة بلا أى طائل ، أو على الأقل بدون أى نفع عام ، وبم فقط لتحقيق أهداف
أنانية نحتة مثل تطاهر مظمى المؤتمر أو الدوة بخدمة قصة سلة ، صمانا
لاستمرارهم في مناصبهم ، أو تحقيقا للشهرة وبيع الصوت ، أو لتعرب إلى بعض
أصحاب الامود ابدين يمكن أن يحققوا لمظمى المؤتمر عرص من أعراسهم
الخاصة .

فما أكثر ما وجدت ما ينص على هذه المؤتمرات أكبر بكثير من الألام ، إذ كان من
اليمكن تحقيق المطلوب (أو الذي يتظاهرون بأنه مطلوب) بمعاية أكبر ، إذ كان عدد
المدعويين أقل ، ومدة المؤتمر أقصر ، وسجلات بعداء أو العشاء أقل إسرافا . حطر
بعض أكثر من مرة ، أثناء حضورى لمؤتمر بعد آخر من هذه المؤتمرات ، أن لكل عصر

طريقته في إبعاد العناصر الاقتصادية بعد إشباع حاجات الناس الأساسية وإنه ع حاجات الناس المهيمن غير الأساسية هي مصر العدمية كانت هناك طريقة به الأهرامات التي سحر الآلاف من الناس بسننها، وهي في نهاية الأمر قليلة الحدود وفي عصر الحديث هت، فضلا عن برامج التبرير، هذه المؤثرات والدورات اللامنهنة أو على الوظيفة الحقيقة لهذه المؤثرات والدورات والتفريغ نفسه هو مجرد خلق مستهلكين جدد، ودفعهم دفعاً أو حشهم على أن يرد من الاستهلاك، إذ من الذي يشمل مقاعد الطائرات المدفئة في كل ساعة من ساعات النهار والليل، والمتفلة بين مختلف بلاد العالم؟ ومن الذي يشتري كل هذه السلع التي لا فائدة ترحي منها، والمعروضة في الأسواق الحرة بالمطارات، إذا استعينا عن كل هذه المؤثرات والدورات والاحتمالات؟

كان هذا الإدراك، أو هذا السؤال، كذا لإصعاف رعتي في الاشتراك في هذه المؤثرات اللامنهنة، ومن بعد الحصول على تذكرة سفر مجانيه براء قويا لي، ومن ثم شرعت في اشتراط شروط معسمة تقولي اسعر من أجل الاشتراك في مؤتمر، تضمن لي أكثر قدر من الراحة ومن أقل قدر من الجهد، ولكن مع مرور الزمن، لم بعد حتى هذا كافي، فأصبحت أرفض الاشتراك حتى من قبل أن ترفض شروطي

- ١٢ -

لابد أن ذلك لسرور القديم برؤية اسمي مشورا، وبالظهور على شاشة التبرير، وبمقابلة الدعوات بالاشتراك في سنوات ولؤغرات، كان يرجع في نهاية الأمر إلى حب شهره وديوع الصست، وهو شيء أشترك فيه مع كثيرين، بل وربما مع معظم الناس. ودي يتعلق الأمر بحاجه بيولوجيه فيه لا تختلف كثير، عن حاجة الصبي الصغير، في لغت الأنظار ولو بالكه والحويل، إذ أب كسب لثمت الناس إليه فهو اصل على أي حال من تعاطله تجاهه كما وأنه غير موحود

ألا يرجع الناس بشر خبر رواجهم أو أعياذ ميلادهم في الصحف و لحلات مع

أن الزواج أو الاحتفال بعد الميلاد ليس بضروريه داعيا من ذوي العجز والمهارة،
ومعظم الناس قادرين على هذا أو ذلك ولا يحتاج الأمر إلى توفير دكاء حصص أو
مرددة؟ ولكن أن يعرف الآلاف جبر رواجي أو أن يروا صورتي في الصحف .
أليس هذا شيئا طيبا يستحق حتى أن يفتق ثمره بعض المال واجتهد من أجله؟ وإذا
افترضا أن للشهرة سببا يدعو للتقدير والإعجاب، فما الذي يجب أن يجلب للمرء
السوء والانتهاج، من هي شهرة أم هذا سبب الذي يدعو إلى لتقدير والإعجاب
بصرف نظر عما إذا كان قد جلب له شهرة أو لم يجلبه؟ لاشك أن شيئا كهذا هو ما
كان يدور ذهن الكاتب لسودي الشهير الطيب صالح عندما ألقى محاضره على
طلبة الجامعة الأمريكية بالمعاصرة بعنوان «تفاهة أب تكون المرء كاتب»، وكان محور
محاضرة أنه كلما حدث له ما يحمله يضل أنه قد أصبح مشهورا ودائع انصبت فيسمع
ويغلاؤه التباهي والإعجاب بنفسه، حدث بعد ذلك مباشرة ما يعيده إلى صومعه ويصهه
إلى أن شهرته لم تعد حملة صالحة من الناس مما لا يسترحب كل هذا لنيه والزهر
فإذا أعين مثلا عن موهبه حاضرة فيمنه على أعماله الأدبية، فظن بنفسه الطنون،
يحدث أن يور حاليته في قريته، فإذا بها تسأله في براءة عما يفعله بالوسط، وكيف
يكسب قوته؟ إنها تفهم أن يكون الرجل طبيب أو مهندس أو مدرس، ولكن رجن
يكتب القصص والروايات؟ أتى عمل هذا بالوسط؟

سأب صدقيا في مرة عن سبب الذي جعله شترك في حوار تليفزيوني لا أرى
فيه أي مبرر تحب المرء إلى الاشتراك في الحوار، ولا شخصية المدع
يحاو، ولا اهتمامه ببياسيه، فقال لي إنه يظل سوب يكتب المقالات في
صحيفة من الصحف بعد أخوي فلا يشعر بأنها كتبت له جمهورا يقرأه ويعرفه، ثم
يظهر مره وحده في برنامج تليفزيوني، ولو في ساعة متأخرة من الليل، فإذا نه في
كل يوم ينافس من يعرف عنه وسأله اهتمام «حضرتك تطوع في التليفزيون»
كما شك لي المفضل السياسي القدير إلياس منجاب من أنه ظل ينشر مقالاته السياسية
في الصحف للبياسة لمدة تقرب من أربعين عاما ثم حدث وعاد أخوه الأصغر
الماسرو من منجاب من دراسته في موسكو وقدم حملة موسيقية واحده أو

جعلت في سرور واداعهما التلغريون، وإد بالنس كلما قابل شخصاً سألته «هل أنت شقيق مسلم سبحانه؟»

م ع م

لقد تلوقت طعم الصيت والشهرة، مذ كنت تلعبذا صغيراً في المدرسة الابتدائية، إذ كلما دخل دوائر ومفتش في أحد دروس اللغة العربية وحدثت لمدرسي بهمس في أذنه «نسى ابن الأستاذ أحمد أمين»، وقد وجدت الأمر لذيذاً واستمتعته، ولا شك أن هذه التجربة المبكرة قد عرّسني في نفسي بدور الإدمان، أي إدمان العلى إلى دبرع الصيت ولفظ الأنظار، وربما ساعد على نموحي عدي أنى أصغر الأولاد في العائلة، مما يجعل لللفظ الأنظار فيمه مصععه والظاهر أن حب الشهرة يمكن فعلاً أن يحول إلى إدمان بحيث إنه متى تسلط على الشخص أصبح من الصعب عليه أن يعيش بدون إشباعه إشباعاً مستمراً من وقد تزيد أيضاً الجرعة اللازمة للإشباع كلما زدهما يحوره منها

وقد أتيت إلى بعض الجرعات الصغيرة لللفظ الأنظار، بصفتي الشخصية وليس بوصفي ابناً لأحمد أمين، وأن في لمدرسة الثانوية عندما كان يطلب مني أحياناً أن ألقى كلمة في احتفال مدرسي أو آخر، بمولد الرسول مثلاً أو بذكرى الهجرة فكانت أقل سرور في معظم الأحيان، وأعمل للأمر حيناً بموق أهمته كمتكسر وأظلي أفكر في هذه حملة أو تلك، وأسود وأصعب، مدفوعاً بلا شك بالرغبة في تحقيق نجاح زاهر أمام هذه الجماهير العميرة، ليس هذا لا يريد عددهم من العشرين أو الثلاثين، ممن لا يهمهم في الحقيقة في قليل أو كثير قصة لكنمة ليس سيليقيها هذا التلميذ الصغير كان لميكروفون بالصعج سحر لا يقوم، فمن أن يشيع استخدامه على النحو الذي يراه الآز، فما نالته مما يمكن أن يشعر به تلميذ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره إذا زده نفسه أمام ميكروفون، ويحط في جمهور يجلس منه ماطر للمدرسة وكار رجالها^{٢٨٩}

طلب مني مرة، وأنا في هذه السن، أن أشتري في مظهر في المدرسة حول موضوع بصعب أن تتصور أن تعقد حوله مناظرة في مدرسة حكومية في هذه

لأبدي كانت سنة هي ١٩٤٧ في أعقاب سباز وساء الكوليرا في بعض القرى المصرية فلما تم القضاء عده، ولم يكن لباس حديث إلا عه، فكر أحد مدرسي المدرسة في عقد ساطرة عنوانها «من المسئول عن انتشار الكوليرا» في مصر الحكومة أم الشعب؟» وقال لي هذا المدرس به سوف يمثل وجهة اسطر التي تلقى سلوم على الحكومة وأن علي أن أن مثل وجهة نظر الأخرى، حتى تلقى بمسئولية على الشعب كيف حبريا أن الأصوات ستوحد بعد انتهاء المظاهرة لمعرفة أى المناظرين انصبر على حصصه وقبلت بسداحة إذ كتب لأربل حديث العهد بهذه الأمور، ولم يحظر بدلى قط أننى مهروم لا محالة، فالباس لاند أن تصوّت فى النهاية ضد الحكومة مرتين أنفسهم من المسئولية كان أهم هو أى دعيت للكلام أصلا، وأمام ميكروفون، وألفت بدلى وكانت النتيجة هي طعنا هريكتي، المطمعة، والتي دهشت لها كثيرا إذ كت قد خدمت بعض المحجج المقصه

مخروا من صمعت لى لم غبة فى بنت الأنظار وأصبحت فرصة بشو مقل لى فى جريده سباز، أو بقاء كلمة أمام بعض الناس المهمين، أو الظهور فى التيفزيون، لا تحمل حادثة كبيرة لى، وكادت حادثة أى من هذه الأمور تحصر فى مدى حادثة الموضوع الذى يعطى لى أن أشار به بالكلمة أو الحديث، دون أن أدبى كثيرا عما قد يتصل به من «جماهيرية».

لقد عرفت عدداً من مشاهير الكتاب الذين شعرت بحوهم بحب خاص واحترام يريد عما أشعر به نحو غيرهم، ولا أظن أنه من قبيل الصدفة أن هؤلاء كانوا أيضاً من أقل من عرف بملااة بالشهرة وديوع الصيت هكذا وجد مثلاً أحمد سباز والدين، فكرب لصحفى الشهير الذى كان يسرع بتحويل مجرى الحديث لى موضوع آخر إذا سمع من أحد ناء على مقال مشور له، وكذلك عبد العظيم أسس أثناء الرياضيات والكاتب والماصل السيسى الشهير، دكت أحس بأنه إذا سمع ناء على شىء كنهه أو عمن قام به، وإن قام بشكر فائله شكر محلص، كان كمن يسمع ناء على شخص غيره أما انطيط صالح، فكان يصحك إذا سمع ناء عليه، وبكى بشده أنه يستحق شيئا عه، وصفا بصفه بأنه مجرد «كروث»

صغر كما كان يعبر شذوه من أى مناسبة يصعه فى مكان الصداده و يكون فيها
محط الأنظار

قال لى الطيب صالح مرة إنه يعجبه تشبيه «حد الكتاب للشهرة» بال«عاهرة»
ولعله يقصد بذلك أن السعى إلى الشهرة مثل سعى المرأة إلى كسب رضاء عدد
كبير من الناس «مجهولى الهوية» عن لا تربطهم به أى صلة ، وأن إنشاء يمكن أن
يقبل ويسعى إليه إذا صدر من شخص معين أو عدد قليل من الأشخاص الذين يكن
المرء لهم احتراماً وتقديراً ، أم الشهرة ، أو صدور الشاء من أعداد غفيرة من الناس
لا يعرف المرء قدرهم الحقيقي ، فيجب ألا يكون باعثاً على القبح أو السرور ، بل
لعله قريب من عمل «الحادش للحياء»

- ١٤ -

اصبني دهشة عندما أدنى بى استعصر صى لكل هذه البدايات والهبات ، إلى
اكتشافى بهذا العدد الكبير من لأمنته على نوع أو آخر من حبيبه لأمل كمار على
أيضاً أن اكتشف فجأة كثرة الأشياء اصبحت أعترها غير حديرة بالاكتراث أو
غير مهمه ما أكثر الأشياء الى كت أعبرها مهمة بل وضرورية فى يوم ما فلم أعد
أعتبرها كذلك . ب أى نوع من النظم ، مهما كن ما يحلته بى من لذة من المصى ،
مكن الآن سهوله أن يحل محله نوع آخر دون أن أشعر بخير ما . كما لم أعد أعلق
الأهمية القصوى التى كنت أعلقها على قراءة كت بعينه ، بهيك عن الأفلام
السيمائية التى اكتشفت حينها فلم يعد من السهل خداعى بها . لم أعد أتلف على
سماع لأحار أو قراءتها مثلما كنت أفعل ، إذ لم أعد أعنى أهمية كبيرة على
تصريحات كت لى ، أكثرها كاذب أو على وعود أكثرها لا يتحقق . أما لغت
الأنظار الذى كت أثورق شدة بى بحقيقه فقد تنب لى أن القدر الصئيل الذى حققته
منه يريد بكثير عن حاجتى إذا كن الأمر كذلك حقاً ، فما هو لمهم إذن؟ وكيف
يصح للحياه معنى إذا فقد كل شىء أهمته فى نظرى؟

لأننى لا زلت أعتبر بعض الأشياء مهمة ، ب مهمة جداً ، إذ أننى لاحظت لى

لم أقعد قدرتي على الانتهاج، بل والانتهاج الشديد، ولا أستطيع قط أن
'دعم' أي الآن أقل معده أو رصا عن جانبى مما كنت فى أى وقت من الأوقات فى
الماضى صحيح أن هناك أنواعا من السرور والانتهاج كنت أشعر بها فى بعض
اللمحات فى الماضى ولم أعد أشعر عطلها الآن 'ذكر مثلا ذلك السرور العمرى
كنت أشعر به عندما كنت القطار يقرب من محطة فيلكستون (Felixstowe) بالمعترى،
وهى البلدة التى كان يقيم بها ومأزجتي، إذا كنت قادما إليها من لندن، وأعرف
أن رو حتى تتطرس فى محطة انقطار كيف يمكن أن يتكرر مثل هذا الشعور الآن؟
وكذلك شعورى عندما رأيت أول مقال لي يتناول قضية اجتماعية ومبسية عامة،
وهو منشور فى مجلة الأهرام الاقتصادية فى فبراير ١٩٨٢، وعنوانه مكتوب بالخط
العريض على غلاف المجلة كيف يمكن أن يتكرر هذا الشعور الآن بعد كل ما شمر
لى من مقالات وكنت؟ نعم إن مثل هذه المشاعر لا يتكرر، فما هو إذن تفسير ما
أشعر به لأن من رصا عن حياتى، وسمالى لكن يوم جديد بدرجة من انشغال من
الدر أن شعرت عثما فى الماضى؟ تفسير ذلك أنى، وإن كنت قد عدت المشاعر
المتأججة بالسرور فقدت أيضا المشاعر المتهمة بالحزن لقد عرفت عوبى وقتنها،
ولم أعد أعذب نفسي بأن أتمنى أن أكون شخصا آخر أو أحصول على ما أعرف أن
من المستحيل تحفقه. أصبحت مستعد لأن أقبل بسهولة أن هناك من هو أفضل منى
فى هذا الأمر أو ذلك، قانع بأن لدى من هذا شىء أو ذلك ما يكفينى ورياده
ولكنى أجد أيضا أن خوفى من المستقبل، بما فى ذلك الخوف من الموت، أقل بكثير
مما كان. أصبحت معتبعا، بدرجة أكبر من اقتناعى فى أى وقت فى الماضى، بقول
الفيلسوف البريطانى دافيد هوم (David Hume) إن الموت لا يجبهه لسبب بسيط
وهو أنه لن يكون موجودا عندما يجىء الموت، وقوله أيضا إن لا هالاته مما إذا كان
سموت فى الأمس أو بعد بضع سنوات فى البصر بقدر لا هالته مما إذا
كان قد ولد فى منتصف القرن الثامن عشر أو أوائله

لم تكن نصل إلى ماسمى أحبار الموت، عندما كتب أصغر سنا، إلا لماما،
وكانت فترات طويلة تفصل بين خسر وآخر. فوحدث أنى كلما تقدمت فى السن،
توالى على أحبار موت الكثير من معازى وبعض أصدقائى، وهم فى سن قريبة

من مسي' ومع موالى هذه الأحبار ونصؤر المدد الفاصلة سها أصسحت دهشتى
بدي سماع ،خبر نقل ، وإذا بالخر يصبح أكثر فأكثر خبرا عاديا ، بينما كان يبدو لى
مد عشرين أو ثلاثين سنة خبر شادا ومدهش

لاحظت أيضاً عبرا مى مشعرى إزاء مواعيد العراء فقد كان من أنقش الأمور
على مسى مند عشرين أو ثلاثين عاما ، الذهاب إلى سردق للعراء ، وأحاول تجبه
بعدم الإمكان ، فلا أذهب إلا عندما لا تكون ثمة ممر من ذلك . ولكنى الآن أجد مى
احلوس مى سردق العراء والاستماع إلى القران من فارئ بحند التلاوة ، باعشا
لدرجة لعسة والسكسة ، ومسة لتعكر من جديد ، دون مقاطعة من أحد ، مى
الشخص الذى فقدته . وأذكر أحيانا والذى عدم كانت تحدثنا عن صديقه من
صديقاتى فقدت كثيرين من أعزائي ، منهم بعض أولادها ، فكانت تنهر فرصة
سماعها عن أى عراء يقدم بالقرب منها ، ولو كان لشخص لا ترط بها صلة ،
فتذهب بتقديم العراء كمحور د فرصة لدرب الذموع من حديد واحلوس وسط ساء
بحرف أبهى يشمرن بثل مشعرها . كانت أمى تصف لنا همد بهم تام لمشعر هذه
للمرأة ، وتصيف ما معناه أنها أحيانا تشمر بشعور بمائل . كنت أنمحب سماع ذلك
إذ أن أمى لم تصدق فى حياتها الكثير من مصدمات لفقده أشخاص مربيين مها
لهذه الدرحة . ولكن أمى كانت تتكلم ، على الأرجح ، عن الأحران بصفة عامة ،
وهى كثيرة

بعم إن أسماء الحرن كثيرة ، ولكن مصادر العرج كثيرة أيضاً ، ولارال لى
الكثير منها . كتابة مقال أو كتاب جيد ، أو أعتره جيداً ، خاصة إذا حصل على
تقدير شخص أو أشخاص أحمل لهم تقديرًا ولو كانوا قليلين إلقاء محاضرة
ناجحة فى موضوع يثير حماسى رؤية انتى متلهجة أو أحدا يلى سعيد لأى
مسب ، وحررى معهم ، ومع زوجى وحميدى ، شريف ولارا ، لوحة شهية فى
مطعم جميل ، كل هذا يحب لى سرورا مسجود . ولارال لى بروجنى ، بعد غيبة
طويلة أو قصيرة ، غيلا نفس بالسروو ، وإن لم يكن مؤحى بالمعاطفة كما كان عندما
كان فى شبانا

صحيح أن الأمشة على حية الأمل كثيرة ، ولكن ما أكثر ما غر به أيضاً فى حانا

من أحداث سارة لم يكن يحظر بابا وقوعها ، ولا كما يأمل فيها من أكثر خطئنا
تدولا ، نعم ، ما أكثر الآمال التي تصب بالحسنة ، ولكن ما أكثر مصدر السرور التي
نم يكن متوقعها او نطمح بها . صحيح أن الإصرار على إنهاء بعض بهاية
سعد موقف لا يعبر عن الحقيقة ، ولكنه ليس أقل صدقا من الإصرار على بهائها
بهية غير سعيدة

في ٢٣ نوفمبر ١٩٩٤ ، حلت ذكرى ميلاد والد زوجتي ، وكان قد توفي قبل
ذلك بشهور قليلة ، وكما جميعا نحتة حبا محراب عوته أشد اخرن ، رغم أنه كان
مد يد السابعة والثمانين ، ولم يكن هور عا في أن يعيش أكثر مما عاش في ذلك
اليوم قررت زوجتي وابنتي ، وكنت ابنتي وقتها حاملا منظر مولودها في أي لحظة ،
أن تذهب ابنتي قهره لتضعها عنده نافذة من الزهور . وأثناء عودتهما بالقطار جاء ابنتي
المحاصر فأسرعتا إلى مستشفى قريب وضعت فيه ابنتي طفلا جميلا في مساء نفس
اليوم الذي ولد فيه حذها . ولا زال هذا الطفل (شريف) الذي مع الآن الثانية عشرة
من عمره ، مصدر فرح متكرر لجميع هكذا تحولت للذكرى المحزنة فحاة إلى
حادث سعيد . وإذا بهاية حاة حفلة بكل أنواع اخرن والسرور ، تتحول إلى بداية
واحدة بكل أنواع السرور والخرن

مكتب أخرى للمؤلف

باللغة العربية:

- ١- مقدمة إلى الاشتراكية، مع دراسة لتطبيقاتها في الجمهورية العربية المتحدة. مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦
- ٢- مدخل التحليل لاقصادى - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٦٧
- ٣- الاقتصاد القومى - مقدمة لدراسة النظرية النقدية - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٦٨، ١٩٧٢
- ٤- ماركسيه عربي وتحليل ونقد لمبادئ الماركسيه الأساسيه في الفلسفه والتاريخ والاقتصاد - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٧٠
- ٥- امشرق العربي والغرب - بحث في دور المورثات الحضاريه في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربيه - مركز دراسات الوحدة العربيه، بيروت ١٩٧٩، ١٩٨٣
- ٦- محله الاقتصاد والثقافه في مصر - المركز لعربي للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨٢
- ٧- تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافيه؟ حركات شائعه عن التحلف والتنمية وعن الرجاء والرافاهيه، مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣، وابنيه العامة لمكتبات، القاهرة، ١٩٩٥
- ٨- الاقتصاد واسياسه والمجتمع في عصر الانفتاح - مكتبة مبدولى، القاهرة، ١٩٨٤
- ٩- محوره ديمامه المصريه (بالاشتراك مع اليزابيث تايبور غولس) - مركز البحوث للتنبيه الدوليه (أرنو)، ١٩٨٦
- ١٠- قصه ديون مصر - خارجيه من عصر محمد عني إلى اليوم - دار على محار للنشر، القاهرة، ١٩٨٧

- ١١ - نحو مصر جديد الأرملة لافساد والمجتمع في مصر - مكتبة مديبولي، ١٩٨٩
- ١٢ - مصر في مترق الطرق - دار المنطل العربي، القاهرة، ١٩٩٠
- ١٣ - العرب وبكته الكويك - مكتبة مديبولي، ١٩٩١
- ١٤ - السكان واسمه بحث في الأثر الإجماعية والنسبية لمو سكان، مع تطبيقها على مصر المؤسسة الثقافية العمالية، معهد الثقافة السكانية، القاهرة ١٩٩١
- ١٥ - الدولة البرجوة في مصر - دار سبيلشتر، القاهرة، ١٩٩٣
- ١٦ - معصنة الاقتصاد المصري دار مصر العربية لشتر، القاهرة، ١٩٩٤
- ١٧ - شخصيات لها ربيع رياض الرئيس للكتب والشتر، بيروت، لطبعة الأولى ١٩٩٧، الطبعة الثانية ٢٠٠٠
- ١٨ - ماذا حدث للمصريين؟ - كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٨، ومكتبة الأسره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثالثة، دار بهلال، فبراير ٢٠٠١، طبعة الرابعة، دار شروق، ٢٠٠٦
- ١٩ - لتقفول لعرب وإسرائيل - دار اشروق، القاهرة، ١٩٩٨، طبعة الثانية، ٢٠٠٥
- ٢٠ - نعوته - سلسلة (افراء) - دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، طبعة الثانية ٢٠٠٠، الطبعة الثالث، ٢٠٠١
- ٢١ - التوزيع الوتف سسله (افراء)، دار لعارف، القاهرة، ١٩٩٩، لطبعة الثانية، دار عين لشتر، ٢٠٠٥
- ٢٢ - بعولة والتسمية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، ٢٠٠١
- ٢٣ - وصف مصر في نهاية القرن العشرين - دار اشروق، القاهرة، ٢٠٠٠، لطبعة الثانية، ٢٠٠٥
- ٢٤ - كشف الأقمعه عن نظريات السمية الاقتصادية، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٣

- ٢٥ - عومة الفهر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢، الطبعة الثانية ٢٠٠٥
- ٢٦ - كتب لها تاريخ، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٣
- ٢٧ - منحنيات مصرية ملة، سلسلة أفر، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣
- ٢٨ - عصر الجماهير العصرية، دار اشروق، القاهرة ٢٠٠٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥
- ٢٩ - عصر لشهير بالعرب والمسلمين، دار شروق، القاهرة ٢٠٠٤، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤، الطبعة الثانية، دار اشروق ٢٠٠٧
- ٣٠ - مستقليات أمحلات في أحوال مصر وعرب واعدم في منتصف القرن الواحد والعشرين، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، أبريل ٢٠٠٤
- ٣١ - خرافة التقدم ونحلف، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الطبعة الثانية ٢٠٠٧

باللغة الإنجليزية

- 1 Food Supply and Economic Development With Special Reference to Egypt F Cass, London, 1966
- 2 Urbanization and Economic Development in the Arab World, Arab University in Beirut, 1972.
- 3 The Modernization of Poverty A Study in The Political Economy of Growth in Nine Arab Countries, 945 1970 Brill, Leiden, 1974, 2d Edition 1980.
- 4 Project Appraisal and Income Distribution in Developing Countries, (Coedited with J MacArthur) a special issue of World Development, Oxford, February 1978
- 5 International Migration of Egyptian Labour, (with Elizabeth Taylor Awny) International Development Research Centre, Ottawa, 1985
- 6 Egypt's Economic predicament, Brill, Leiden, 1995

- 7 Whatever Happened to the Egyptians? American University in Cairo Press, Cairo 2000.
- 8 Whatever Else Happened to the Egyptians? American University in Cairo Press, Cairo 2004.
- 9 the Illusion of Progress in the Arab world, AUC Press, Cairo 2006

كتب مترجمة:

- ١- التخطيط المركزي - تأليف جان تروجن، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة ١٩٦٦
- ٢- مقالات مختارة من التنمية الاقتصادية (بالاشتراك)، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة، ١٩٦٨
- ٣- مدخل من بحارة الذوا و سمة الاقتصادية، تدف واحبار تتركه، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة، ١٩٦٩
- ٤- الشعار - الحروب برنامج من أجل السلام، تقرير اللجنة المستقلة المشكلة لبحث قضايا التنمية الدولة برئاسة ولى برانت (بالاشتراك) الصندوق انكوبنى للتنمية، الكويت، ١٩٨١

ملحق الصور

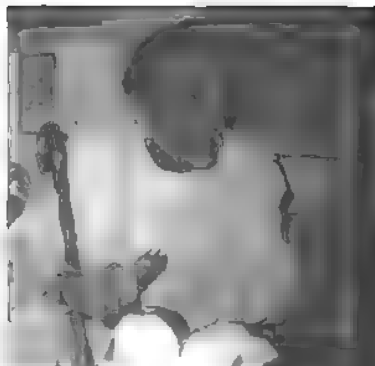


من جعفر ▲

البحر و صفا ▼



إخواني في السموات



▲ خير محمد

▼ خير محمد - جازي





▲ سچ نگر - محمودؑ مین کرینو مھر سیں (حوالی ۱۹۶۲ء)

▼ خانہ لکھ انداز مین بیسہ یا عیار (۱۹۶۴ء)





▲ ميشيل حنني مع المنظمة المسيحية
بمعاظم البحيرة



▲ مع موسمين حنني في نقاشات البحرية بمصر
(أوائل ١٩٥٥) وبعد مصادرة شوشة



▼ جورج أوزيرين





▲ يتحدث ابن جماعة الأمريكية (جوان) ١٩٨٩

▼ ستم خيرة خمس سنه بالجامعة الأمريكية (١٩٩٢)





▲ ملائكة كارد الهدوى بين سبي وجوسي ١٧

▼ بين باحلووت شي راحة محمد مراديا بن لخصه ١٨ خليه لاسيه ١٧٥





▲ حاد حمر، يارالايير، ديمه كير، بوسطن، (١٩٩٧)

في حواشي كاسر ح ١٩٦٣

▼ من المين، عشميه مجدى، حاد الميلاوى، ويديم ميحدين، مرماس عطا اب

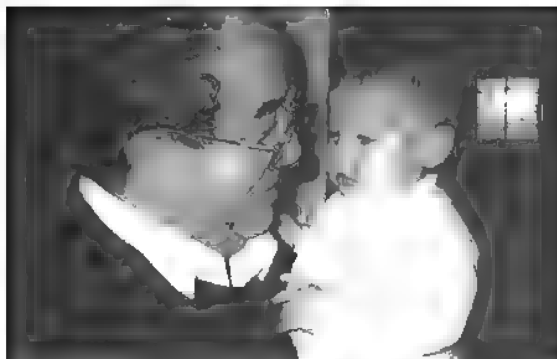




▲ لایلا و الحمیدان فی حر شستر ۶۱ (۲)

▼ شر حرانشستر مع امی حمید (۵) ۶





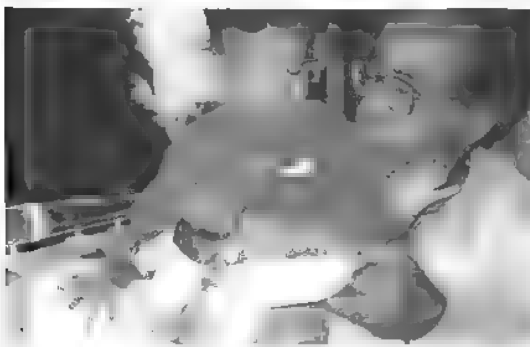
▲ جلال ونگار (۱۹۹۰ء)
♥ میں جو افسوس ہے (۲۰۰۲ء)





▲ جمال ذبیح قاسمیر دج ۱۹۸۰

▼ حیات و تراھی قاسمیر دج (۱۹۸۰)





▲ جہان شوروہ (۱۹۵۰ء)

▼ جہان بے سرب (۱۹۰۹ء)





▲ عيسى شرمه ولا (٥٠ ٢٠)

▼ لا ، ١٢



نادر و جلیلیه گدا ۶ (۲) ◀



◀ احمدیاد، نادر و آلا، شی، صیقلی ۴ (۲)



▶ احمد ر. يوم زفافهما (٦٠٠٠)



▼ تصوير من روجه من احمد يوم زفافهما (٦٠٠٠)





▲ سببه يوم زفافها، ١٩٩٧

▼ زعيده وشرف يوم الزفاف ١٩٩٢





▲ في حفلة خطوبة رانيا ١٩٩٠

▼ يوم زفاف رانيا وعبد الله الثالث مع وحيه - إسماعيل العادس (١٩٩٢)





▲ أحمد دة وسامه وكنوب VC

▼ جعد: سة ونامر في حصة تخرج و نية و





▲ دامية محمد عمر الكويك (١٩٦١)

▼ ناصر أحمد حسن الكويك (١٩٧٠)





▲ حاجہ راحمہ سے مادر النورال بانگویی (۱۹۵۶ء)

▼ حاجہ ویدمر ویدرتھمن سے انکویست (۱۹۶۵ء)





▲ مع جان من میلکستو ایجنٹر (۱۹۹۹)



▲ و ر جان من کامبرج (خوانش ۱۹۷۹)

▼ والد جان فی لشمجوخه رموانی (۱۹۸۸)





▲ بیج خان سے کانپور دج (جولائی ۱۹۶۶ء)

▼ بیت والدہ جہاں سے میلکستو جیہہ "صحیفہ کلچر" میں سہ ماہی "صحیفہ" (جولائی ۱۹۶۶ء ۱۹۶۷ء)





▲ تامر (١٩٧٧)



▲ مامر عبي شريف بالمعدني قبل ان يكتفأ
بالبيراد ١٩٧٢

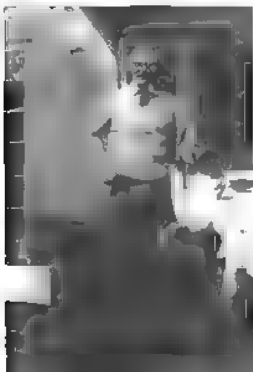
▼ أحمد (١٩٧٧)



▼ دية من تسعة من عمرها (١٩٧٧)



✽ مع خان مير پيدا المند دي (جو سن ۱۹۶۵)



خان مير وانه ها مير تيلکستو بعد الزوج (جو سن ۱۹۶۶) ✽



✦ خان مع والدین، لندن، ۱۹۵۹ء (جولائی ۱۹۵۹ء)



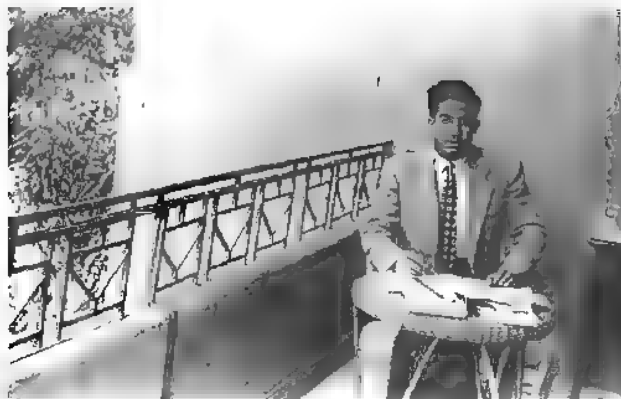
✦ خان پرستاشی جان، یوم سترخان الی
مصر لاؤ، ۱۹۵۱ء (۱۹۵۱ء، ۱۹۵۱ء)



▲ جمع خان یوسف د احمد شاه ابرو (۱۶۶۰)



الروايه (۱۶۶۰) ◀



▲ هي لدرير

▼ هي نسين



▼ هي اسلامين





▲ الشيخ حسين



▲ ابن محمد (حوالي ١٩٦٥)

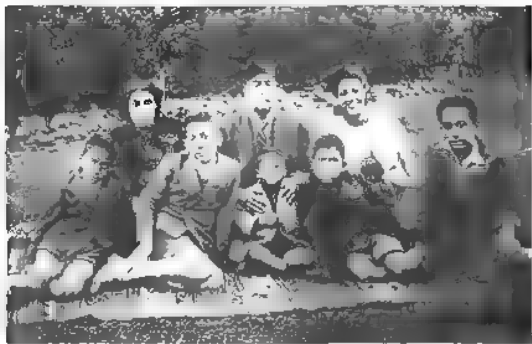
▼ جلال بن القاسم د



▼ ابن ماجد



▲ بی و جی و خوی محمد و احمد بن حدیده قصور کمبر ۱۹۵۲



▲ ب و اراده ب و محمد احمد - فر سرحد مائمنادر الک به بی حوین ۱۹۹۹

من لقمی عند محمد و فدیوه - حسن و ب و صاف و بیوه و احمد



4. $\frac{1}{2} \log \frac{1}{2}$



▲ من سدار جامعة بحث بن سمندر الد
لاوريس نابو والأرضي سوانس ٩٢٦)



▲ بن مالتري الأكريري



من من هو لم الحاصلة والعشر بن
بعينها احسن محمد و عيسى ميمنة ◀

مطابق الشروق

خامساً ٨ شارع مديرة الشروق - د. ١٠٠٠٠٤٩ - دوكي ١٠٣٧٣٦٧ (١٠٠)
مرونة على ص. ١١٦٦ - د. ١٠٠٠٠٤٩ - د. ١٠٣٧٣٦٧ - د. ١٠٣٧٣٦٧ (١٠٠)

ماذا علمتني الحياة ؟

منذ سنوات كثيرة، رأيت فيلما بولنديا صامتا لا يزيد طوله على عشر دقائق، ظلت قصته تعود إلى ذهني من وقت لآخر، وعلى الأخص كلما رأيت أحداً من أهلي أو معارفي يصادف في حياته ما لا قبل له برفه أو التحكم فيه.

تبدأ القصة البسيطة بمنظر بحر واسع، يخرج منه رجلان يرتديان ملابسهما الكاملة، ويحملان معاً، كل منهما في طرف، دولاباً عتيقاً ضخماً، يتكون من ثلاث ضلف، وعلى ضلفته الوسطى امرأة كبيرة، يسير الرجلان في اتجاه الشاطئ وهما يحملان هذا الدولاب بمشقة كبيرة، حتى يصلا إلى البئر في حالة إعياء شديد، ثم يبدآن في التجول في أنحاء المدينة وهما لا يزالان يحملان الدولاب، فإذا أرادا ركوب الترام حاولا صعود السلم بالدولاب وسقط زحام الركاب وصيحات الاحتجاج، وإذا أصابهما الجوع وأرادا دخول مطعم، حاولا دخول المطعم بالدولاب فيطردهما صاحب المكان.

لا يحتوى الفيلم إلا على تصوير محاولتهما المستميتة في الاستمرار في الحياة وهما يحملان دولابهما الثقيل، إلى أن ينتهي بهما الأمر بالعودة من حيث أتيا، فيبلغان الشاطئ الذي رأياه في أول الفيلم، ثم يقبيان شيئاً فشيئاً في البحر، حيث تفرغهما المياه وهما لا يزالان يحملان الدولاب.

منذ رأيت هذا الفيلم وأنا أتصور حالي وحال كل من أعرف وكان كلاً منا يحمل دولابه الثقيل، يأتي معه إلى الدنيا ويقضى حياته حاملاً إياه دون أن تكون لديه أية فرصة للتخلص منه، ثم يموت وهو يحمله. على أنه دولاب غير مرئي، وقد نقضت حياتنا متظاهرين بعدم وجوده، أو محاولين إخفائه، ولكنه قدر كل منا المحتوم الذي يحكم تصرفاتنا ومشاعرنا واختياراتنا أو ما نظن أنها اختياراتنا، فإنا لم اختر أبى وأمى أو نوع العائلة التي نشأت بها، أو عدد إخوتي وموقعي بينهم، ولم اختر طولى أو قصرى، ولا درجة وسامتى أو دعامتى، أو مواطن القوة والضعف في جسمي وعقلي، كل هذا على أن أحمله أينما ذهبت، وليس لدى أى أمل في التخلص منه.

